

أَمِيرُ الرَّحْيَانِيِّ

مُلُوكُ الْعَرَبِ

أَوْ
رِحْلَةٌ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ تَشْمَلُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ

مُزَيَّنَةٌ بِالْمُخَرَّاطِ وَالرُّسُومِ
وَفَهْرِسْتِ أَعْلَامٍ

الْحِزْبُ الْأَوَّلُ

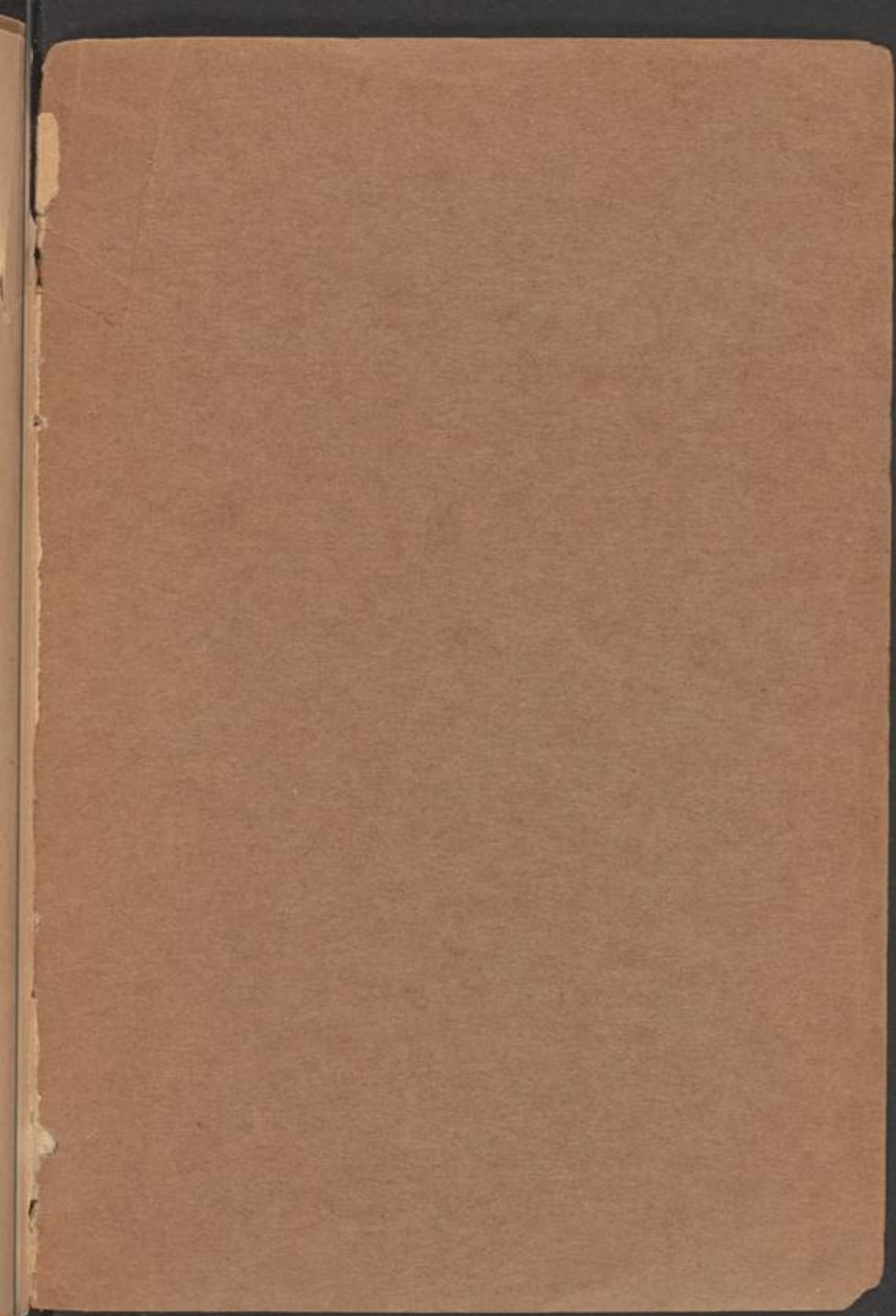
الْحِجَازُ - الْيَمَنُ - عَسِيرٌ - الْحِجْ

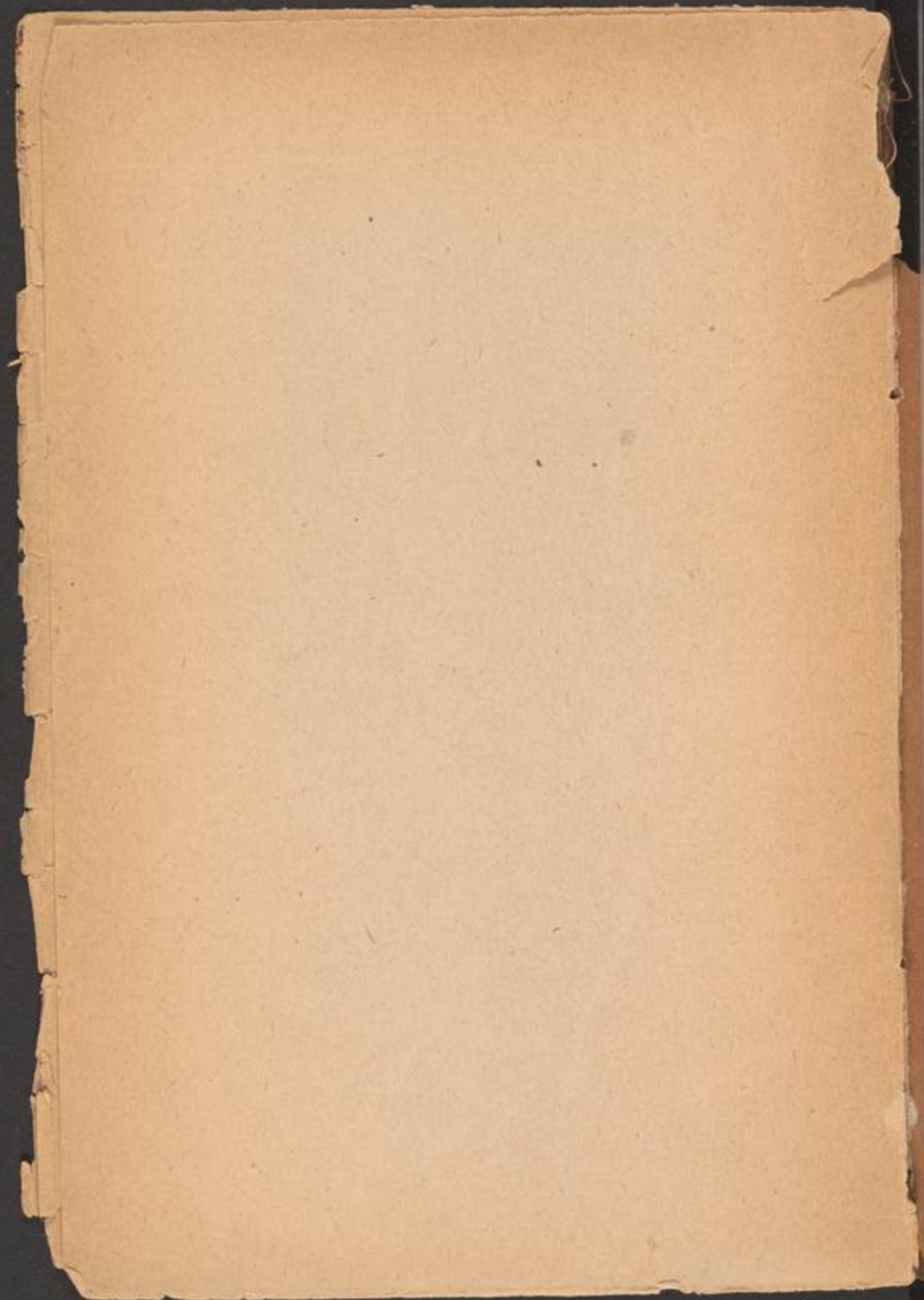
وَالنَّوَاحِي السَّعْدِيَّةُ

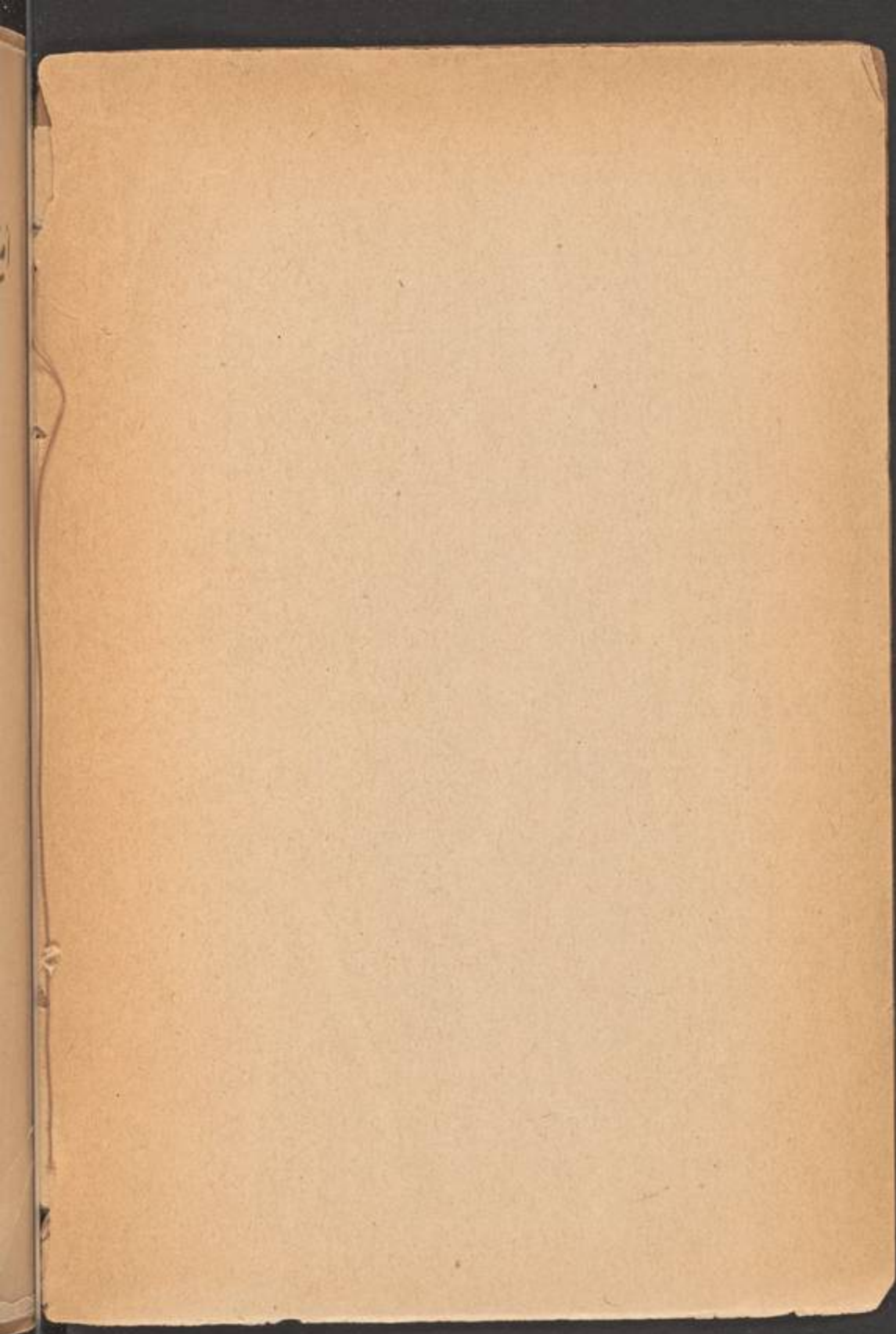
الطبعة الثالثة

أشرف على تصحيحها وطبعها البروت الرحباني شقيق المؤلف

طبع في مطابع صادر رحباني - بيروت ١٩٥١







Rihani, Ameen Fares

/Mulūk al-ʿArab/

أمين الريحاني

مُلُوكُ الْعَرَبِ

أو

رِحْلَةٌ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ تَشْمَلُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ

مزينة بالخرائط والرسوم
وفهرست اعلام

الجزء الأول

الحجاز - اليمن - عسير - لحج

والنواحي التسع المحمية

الطبعة الثالثة

اشرف على تصحيحها وطبعها البوت الريحاني شقيق المؤلف

طبع في مطابع صادر ریحاني - بيروت ١٩٥١

الطبعة الاولى : بيروت - ١٩٢٦

الطبعة الثانية : بيروت - ١٩٢٩

الطبعة الثالثة : بيروت - ١٩٥١

DS

49

7

R5

1957

v. 1

c. 1

To my good friend Mr. R. White.

هدية لصدیق الیوم
المسرات من
عبد الوهاب

اقدم

هذا الكتاب

للمناشئة العربية الناهضة

في كل مكان

ابن
البياتي

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً وياتيك بالاجار من لم تروى
طرفة بن العبد

فهرس الجزء الاول

صفحة

تقدمة	٥
المقدمة	٩

الفهم الاول الملك عيسى بن علي

الحجاز	٢٨
الفصل الاول البدو والحضر	٢٩
الثاني » من الضب الى الطب	٣٥
الثالث » الابداع في الاصلاح	٤٠
الرابع » تليذ في البداوة والحكمة	٤٦
الخامس » قرون السياسة	٥٣
السادس » بين الاستانة ومكة	٦١
السابع » بين مكة ودوين سقرت	٦٧
الثامن » الوحدة العربية	٧٢

الفهم الثاني الامام يحيى بن عبد الله

اليمن	٨٠
الفصل الاول التبليغ في الترويع	٨١
الثاني » في الطريق الى صنعاء	٩٤
الثالث » اليمن الاخضر القديم	١٠٥
الرابع » صنعاء اليمن	١١٩
الخامس » الضيف المأسور	١٣٠

		صفحة
حكم الامام	الفصل السادس	١٤٠
الضرائب والسلاح	» السابع	١٥٠
الثمانن القدسية	» الثامن	١٥٦
الجوينجلي	» التاسع	١٦٣
الخيم المنصور	» العاشر	١٧٣
الزيرود واليهود	» الحادي عشر	١٨٢
المسئلة السياسية الكبرى	» الثاني عشر	١٩١
تسمة المفاوضات	» الثالث عشر	٢٠٣
المعاهدة	» الرابع عشر	٢١٠

الفسم الثالث الببر الادريسي

بلاد السند او ما يحكمه الادريسي من عسير		٢٢٠
سطح اليمن	الفصل الاول	٢٢١
الى الحدود	» الثاني	٢٣٥
نساء تهامة	» الثالث	٢٤٦
الحديدة	» الرابع	٢٥٧
اديان واشجان	» الخامس	٢٦٦
احمد بن ادريس والتصوف	» السادس	٢٧٨
الادارسة في عسير	» السابع	٢٩٤
على ظهر الباخرة	» الثامن	٣٠٤
جيزان	» التاسع	٣١٥
بين الامامين	» العاشر	٣٢٥
المعاهدة	» الحادي عشر	٣٣٢
جوارر وسادات	» الثاني عشر	٣٤٠

الفصل الثالث عشر	تجارة الرقيق	٣٥٤
» الرابع عشر	خطوات الى الوحدة	٣٦٢
الفصل الرابع طبع والنواحي التسع المحمية		
طبع والنواحي التسع المحمية		٣٧١
الفصل الاول	الثاوث المادي في عدن	٣٧٢
» الثاني	من اجل شركة الهند	٣٨٦
» الثالث	سلاطين طبع	٣٩٢
» الرابع	طبع في الحرب العظمى	٣٩٩
» الخامس	التدن الحديث في طبع	٤٠٤
» السادس	النواحي التسع المحمية	٤١٥
	لائحة الرواتب الشهريه	٤٢٧
	فهرس الاعلام	٤٢٨

فهرس الرسوم والمخارط

خريطة البلاد العربية (في صدر الكتاب)	
جلالة الملك حسين بن علي	٢٦
حضرة الامام يحيى بن حميد الدين	٧٨
حضرة السيد محمد بن علي الادريسي	٢١٨
صمو السلطان عبد البكريم فضل	٣٦٩
خريطة طبع والنواحي التسع المحمية	٤١٦

المقدمة

١

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت للمرة الاولى الى الولايات المتحدة . فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والافرنسية ، وما كان في ذهني من العرب واختبارهم غير ما كانت كُسمعه الاممات في لبنان صغارهن . هس ، جا البدوي والبدوي والاعراي واحد اذا رامت الام « ببعاً » تخوف به اولادها .

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شي . من دمهم . والبغض والخوف هما توأما الجهل .

اما الامة الافرنسية فما كنت اعرف من امم الارض سواها . ولكنها معرفة مطوَّسة كانت المدارس تنشر اذنايا في لبنان : ان فرنسا لأعظم امم الارض ، هي اشرفها واغناها وارقاها . بل هي قطب المدنية ، وعاصمة النور والجمال - هي الطاووس بين الامم .

كذلك كانت مدارسنا . مثل امهاتنا تسقيننا العلم في كأس التسويه . الا ان في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرهاً « لبيع » الاممات . هي كأس الجهل في الخالين ، الجهل الذي يولد الخوف والبغض ، والجهل الذي يولد الحب والاعجاب .

اما اميركا فقد كنت في ما عرفته . منها بعيداً عن الام وعن المدرسة . تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملاًها الشعب الاميركي بنفسه . ومع ذلك فلم تحلُ مما امتازت به الكأسان الاوليان . رشفت في نيويورك الجلام

تلو الخيام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألئ. وما يمازجه من الحرف والاعجاب .

غدوت بعد عشر سنين في اميركا معجبا بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذلك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتمت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه . خفت ان اغلب في ذلك الجهاد ، اشغقت على نفسي من ذلك التكالب .

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الاداب التي زادتني ضعفاً وتردداني مضمار الحياة . صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كثنياً يحمل كتاباً ، وغاوباً من غواة الفنون عيشي في الجائز المصومية سهلاً ، فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي . فيصكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم اخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها . والفضل في ذلك علي هو لفيلسوفهم امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياعهم^(١)

وقد عرفني امرسون الى كرتليل ، وكان كرتليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة

(١) « السجاييا الانكليزية » English Traits by Ralph Waldo Emerson

تأليف رالف وُلدو امرسون .

الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً^(١) فأحسست لأول مرة بشي. من الح للعب وصرت اميل الى الاستراة من اخبارهم .

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتي الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشي . اكره او احب . قرأت كتاب الالهبر^(٢) فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحراء ، وعرفت ان الحراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث الي ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شي . من الحيال التي في ، فصرت احلم بذلك المجد الماضي احلاماً تمثلي حياً فيه بل تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كثيراً يحمل كتاباً ، ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتعلعت في سراديبها دون ان ارثي حالي . وبيننا انا اتجبط في دياحي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيدويه وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعي الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هدايني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم

(١) الابطال Heroes and Hero - Worship by Thomas Carlyle

وتأليه الابطال « تأليف طامس كرليل وقد ترجمه الى اللغة العربية عند السباعي .

(٢) الالهبر تأليف The Alhambra by Washington Irving

واشنطن أرفنغ .

قرأتها مترجماً ورحلت افاخر باي من الامة التي نبع فيها هذا الشاعر الحر ،
الجبور ، الحكيم .

٢

عدت الى امريكا استصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك .
فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها
بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دائمة ، وصوروا
الارض بادية عربية نبع فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي ،
الشعر والنبوءة والدهناء ، والواحات في بحار من الزمال ، والنخيل في الواحات
يهمس في اغصانها النسيم ، وتهز جذوعها السوم ، وصوت الساقية وهي تغني للارض
المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجمال الساقية - وماذا في نيويورك ؟
ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف^(١) وترجمانه اللبثاني الذي صار بعدئذ بطريوكاً
عظيماً^(٢) يحدثناني عن شمر والقصيم والعارض والرياض . وذلك المستعرب
بركهارت^(٣) وقد دخل الى مكة حاجاً ، مسلماً صادقاً نقياً . وهذا العلامة
برن^(٤) يقص قصة عجيبة بطلها بزاز من سمرقند قد حمل الكيس - تفننا
هندي شاش حريز يا بنات ايكشف له اسرار الحريم ثم ركب العيس ،
وكان دليله ابليس ، فاقتفى اثر بركهارت لغرض في النفس ، ونظم قصيدة

(١) قلب البلاد Central and Eastern Arabia by W. G. Palgrave

العربية وشرقها تأليف ولیم بلغراف

(٢) البطريرك الجرجيري .

(٣) سياحة في بلاد العرب Travels in Arabia by J. L. Berkhardt

تأليف جان بركهارت .

(٤) الحج الى مكة والمدينة A Pilgrimage to Al-Medina and Mecca

by Richard F. Burton تأليف رتشرد برن .

كفرية كفر بها عن كل مآتيه في التلبس .

وهذا خليل^(١) الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الاهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضحوال . اضهد في بريدة ، وطرد من عنيزة ، وسلب وضرب ، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير حمسة ريالات ، وليس في قلبه ذرة من التندليس والتلبس . الدرر يش خليل ، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه . خليل النصراني ، جاء بتعصب اسكتلندي يثير في العرب التعصب الاسلامي . خليل النصراني الكافر اقطوا رأسه بالسيف ولكن الله اخرجته من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت .

وكل هؤلاء من الاجانب يسبحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد اجدادي ، ويحاطرون بانفسهم فيها حباً بالعلم ، فيكتفون منه الخبأ ، ويجلون المصدأ ، ويقربون البعد ، ويفربون في الذبذ المقيد . وانا في نيويورك كتيب يحصل كتاباً ، ويطلق للبحر الانكليزي المتعطرس باباً . اديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين . اف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدية لباب الشهرة دقاقة ، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخيش . طلقها ثلاثاً ، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعدي عنها وعن الكتب والمجلات . والادباء والادبيات .

وكان لي صديق في دمشق يحرق قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التقلت منها . كسرهما ذات يوم فانتار السلطة عليه ، فضع السلطة وفرراً هارباً الى الفريكة ، فحل فيها اهلاً وتزل سهلاً - سهلاً في القلوب ومنحدرأ في الوادي . اقسام

(١) التجوال في البلاد Wanderings in Arabia by Charles M. Doughty

المرية تأليف شاراس دوطي وقد اتحل اسم خليل .

محمد كرد علي عندما اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان . الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين . سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا امين . الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم سادة رعاعيد . لا بأس بالهمس : والحمد لله ! ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتم عليك وعلي .

فقلت : صدقت ، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي . في نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية على هجين يبعدي عن كل مظلمة وكل عبودية . فهلل صديقي وقال : نسير سوياً . واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يمدون لنا السيل ويؤدوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود . لكن الايام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب . تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة ويفر هارباً من سوريا . ثم سافر الى اوروبه فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذه فاستراها . فقالت له : عد فعاد ، فتمددت رحلاته من المشرق الى بلاد المغرب واثمرت ثماراً طيبة تجدها في كتابه القيم «غرائب الغرب»^(١) . اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابتعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها . عادت بي الى نيويورك . ثم نكبت الانسانية بالحرب العظمى فزلزلت الارض زلزالها ، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشراً مسلحاً محارباً ، وقضت ، في الكثيرين ممن استبقت ، على جميل الاحلام والامال .

٣

ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك ترعجه وان

(١) غرائب الغرب ، كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي ادبي . طبع في جزين في المطبعة الرحمانية بمصر . تأليف محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي بدمشق الشام .

شاخت ، فتحرضه وتستجسه حتى يسعى في تحقيقها ويفلح في مسعاه .
 رافقت العرب في خروجهم على الترك اثنا . الحرب ، رافقتهم في المجالات
 الانكليزية والجراند العربية فكنت اقوم في ما اكتب ببعض الواجب الذي
 يفرضه الحب والاعجاب . وتوقفت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت
 في الحرا . في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابه النفيس ، فسمعت
 اصواتاً تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي
 والنبوءة .

اكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك وارسل اولاده
 الامراء الاربعة الى ساحات الوغى . وكان الناس في اميركا يعجبون
 بروزفلت^(١) الذي قدم ثلاثة من ابناؤه الى وطنه ، فقلت : ولا يصغر العربي
 الهاشمي اذا قابلته بالاميركي الكبير . وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين
 اول من صورته الامال ملكاً يفتح لي بابها . وبيننا انا افكر في طريقة تحمل
 اليه اميتي القصى ، جاءتني مجلة صديقي سليم سر كليس وفيها خبر زيارته
 لتلك السدة الهاشمية المباركة .

واهم من ذلك يومئذ عندي خبر قرأته مدهوشاً مسروراً . جامي الصديق
 بصديق آخر ، وهو من الحلان الاولين الذين كانوا يزوروني في الفريكة بعد
 عودتي الثانية من اميركا ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابة وخطابة
 في سبيل الاصلاح الاجتماعي والتهذيب . وهذا الصديق هو قسطنطين بني
 الذي ابعده عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره . فجاء العزيز سر كليس ،
 كأنه رسول العناية الي ، يبشرني بوجوده في خدمة جلالة الملك حسين .

هلت وكبرت . وتناولت القلم وكتبت توأ كتاباً الى العزيز قسطنطين
 فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال ، اولها : هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟

(١) ثودور روزفلت احد رؤساء الولايات المتحدة

وآخرها : هل تراقني انت في هذه الرحلة ؟ وما مضى الشهر الاول وانتصف الثاني حتى جاني منه الجواب وفيه ما يلي :

« اتفق ان وصل كتابك الي وجمالة الملك حسين في جدة فقرآته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع . . . وهو يرحب بك اذا حضرت . ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعدك على زيارة الحجاز من اقضاء الى اقضاء ، ويعطيك المعلومات اللازمة ، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة الى اليوم ليكون في استطاعتك تاليف كتاب عن العرب مستوف من جميع ابوابه ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكون درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب . . . اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز . . . والسياسة توافق ان تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق اكثر من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد . . واني بكل سرور ارافقك حيث شئت . . اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للاسباب المعروفة . . . والسياسة تكلفك لا اقل من خمسة جنيه . »

في هذه المعلومات يبدو للقاري شي من سوالات سألتها ولم اقف فيها عند حد من حدود التحفظ والمداراة . ولا لوم علي ، وانا بعيد حقيقة وعلماً عن البلاد العربية ، اذا استترت بكل ما بينوني في رحلتي قبل ان اقدم عليها . ولكن سوالي عن زيارة الكعبة ، وانا مسيحي ، يليق باميركي لا يعرف من العالم غير بلاده ، فاذا قيل له انه لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه الدهش والعجب .

اما انا فما دهشت ولا اسفت . بل كنت اعلى النفس بتحقيق امنيتي

بعد ان اقبل جلالة الملك . كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية ، ومنقذ العرب الاكبر ، كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب ، والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة . ما اغرب الاحلام التي كنا نحلها في بلاد الغرائب وما ابعداها . لا اظن ان من كان قادماً من القمر او المريخ يلم احلاماً اغرب منها واعجب

وفي معلومات قسطنطين بما استرعى له نظر القارى . ايضاً قول جلالاته : « ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها . » ولكنني لم اتقيد بهذا القول لاني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية ، واناكد ان « من يزور الحجاز من اقصاه الى اقصاه » لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءاً كبيراً منها . وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي تأكدت بعدئذ خطأ او التحفظ او القصد السياسي فيها . وما كان صديقي غير نائل في اكثرها كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور غير الحجاز . وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن مثلاً وعسير بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات . وتأكد مثلي ان من يزور الحجاز فقط لا يستطيع ان يؤلف كتاباً عن العرب مستوفياً من جميع ابوابه . وادرك بعد رحلتنا الاولى من جده الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر ، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولاسيا اذا تمكنت من السياحة في نجد . وما كانت زيارة الرياض وابن سعود ، والحمد لله ، بالامر المستحيل . على اني اذا ما ذكرت ان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى جلالة الملك حسين . انها لبساطة تدنو من البلاء لان ليس فيها شيء من الحث .

٤

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب غير الحسين بن علي ،

وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ،
وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً فاننا اذا استثنينا الملك حسيناً وابنه الملك
فيصلاً لا نجد بينهم ، او في الاقل بين الكبار منهم ، من يعرف زميله الملكي
معرفة شخصية خاصة ، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير
القطر الذي هو حاكمه .

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها ، وليس
فيهم من يستطيع ان يقول : انني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها
وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية
مما لدي من تقارير العارفين واخبار المتزهين عن الاغراض السياسية والتحزبات
المذهبية . ولا استثنى من هذا القول الملك حسيناً او الامام يحيى او السلطان
عبد العزيز آل سعود .

قد يكون الملك حسين اكثرهم علماً باحوال سكان البلاد من بدو
وحضر ، ومذاهبهم وتزعاتهم وندواتهم وعدواتهم وسياسة امرائهم ، لان
مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلاد العربية كافة بل من
اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك . وقد يعرف من احوال جاريه
الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينتفعه في سياسته الحجازية ،
ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية اريد بذلك ان علمه ، وان تجاوز
ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حاكمها ان يجند من الناس
ويجمع من المال ، ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديهما ، فلا يصل ذاك العلم
الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية . ان
لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا تالفة لهما . صورة تجسم نبوغه
فلا يكتوث بها وصورة تنفي ذاك النبوغ فيعول عليها . فكيف السبيل مع
هذا الجهل الى التفاهم والولا . ؟

اما الامام يحيى فلا شك انه يعرف ، وهو العالم الاكبر في امراء العرب ،
 اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض احجاز معرفة حقيقية تامة . ولكنه
 يجهل البلاد النجدية وسلطانها وحقيقة حال اهلها من بدو وحضر . او انه
 لا يكثرث بذلك . ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علماً
 بالقبائل والعشائر في نجد واحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعمان وما يليهما .
 ولكنه قلما يكثرث اذا ذكر اليمن في غير السياسة . فاذا حدثته عن
 عادات اهل ذلك القطر القديم واحوالهم الزراعية والاقتصادية والاجتماعية
 فكأنك تحدثه عن شعب ليس بعربي فبتفككه ويستفيد .

لست مبالغاً اذا قلت ان ليس في البلاد العربية اليوم رجل واحد يعرف
 البلاد العربية كلها . وليس في العالم اليوم ويا للأسف من يحيط علماً بالاقطار
 كافة وبشؤونها جمعا . بحكامها وقبائلها وزراعتها وصادراتها وخراجها
 وحروبها ، ومشايخها وامرائها ، وبكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية
 والخارجية غير الحكومة الانكليزية او بالحري وزارة المستعمرات فيها .
 فهي تصدر كتاباً عن البلاد العربية^(١) مبنياً على تقارير وكلائها السياسيين
 والسياح العالما . تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات مرة . وهو مع ذلك
 لا يتجاوز من الاعلاط اذا نظر في ما يختص بكل قطر منه ابن البلاد العالم
 بشؤون القطر المذكور كلها . زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر للعموم
 وقلما يرى خارج الدوائر الرسمية .

ولا اضن ان من وظيفة الحكومة الانكليزية او من واجباتها ، فضلاً
 عن ميلها ومصالحتها ، ان تعرف ملوك العرب بعضهم الى بعض ، او ان
 تعلمهم على احوال الاقطار العربية كلها . ولا اضن ان احداً من ابناء العرب
 (١) Manual of Arabia هو كتاب تاريخي احصائي سياسي جغرافي في البلاد
 العربية تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين والقناصل والسفراء
 لدولة بريطانيا العظمى فقط .

يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يوحد الرحلة التي رحلتها .
 فها انا اذن في هذا الكتاب ، ولا فخر ولا اعتذار ، اعرف سادتي
 ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات .
 وليتحقق سادتي ان ليس في الثناء في ما كتبت ترلف او مداهنة ، ولا في
 النقد تشيع او تحامل . انما غاييتي التصوي تهديد السبيل الى التفاهم المؤسس
 على العلم واخبار اليقين . ولا علم ولا يقين الا في تبديد الادهام ، واثارة الازهان .

٥

وفي هذا الكتاب من النقص ما ينبغي ان اشير اليه . كان قصدي الاول ،
 عندما سافرت من نيويورك ، ان اسيح في الحجاز واليمن ونجد لعلمي ان في
 هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة . ففي اليمن قحطان ، وفي الحجاز
 ونجد فرعا عدناني مضر وربيعه .

ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشذبت ونقحت فيه حتى
 اصبح يشتمل على ما في شبه الجزيرة خارج الحجاز من امارات او «شيخات» مستقلة .
 اما الحجاز وان كان اصغر الاقطار الاربعة الاولى مساحة ، واقلمها عدداً ،
 فهو اهمها مركزاً ، واولها في السياسة الدولية مقاماً . وقد صار بفضل جلالة
 الملك محط رجال الوطنيين من العرب المجاهدين في سبيل الوحدة العربية . نقل
 عن لا يعرف شيئاً عنه . الحجاز كتاب مفتوح . واهم ما في الكتاب اليوم
 ما عند الحرمين هو الفصل الذي عنوانه : الملك حسين ، النهضة العربية .
 فقد اتمت بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغى زيارتها كلها .
 ولكني لم اتوفق الى ذلك . ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت
 في عدن ، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية برهان البويخيرة التي

سافرت فيها الى جيزان . وكانت هذه المرة تقصد مكلأ ميناء حضرموت
فقلت للربان : اني معك ثانية ، فضحك وقال : لا اظنك تهوى الحياة .
فقلت : وامي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف ؟ فأجاب
الملاح الانكليزي : هو فصل الموت - فصل الـ « منصون »^(١) .

ثم قال : وليس لمكلأ ميناء نرسو فيه . وقد لا تسمح الانواء بالرسو في
عرض البحر . وانت تعرف باخوتي ، عرفتها في هدأة البحر الاحمر . . وماذا
في حضرموت ؟ اقبل نصيحتي الخ .

فانتصت آسفاً . فبجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء . عن
حضرموت اخذته عن رجال من ذلك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة .
وهذا اول نقص فيه .

اما مسقط وهو البلد الاول في شبه الجزيرة الذي دخله الاوروبيون
والاميركيون^(٢) فلظني ان الروبة فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه .
وقد اكون مخطئاً فأتوق في المستقبل الى تلافي هذا النقص الآخر في
الكتاب .

وهناك عمان وقطر ، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين
جنوباً الى مسقط ، وفيها اربع او خمس « شيخات » مستقلة . فما عذري فيها ؟
اجيب بكلمة واحدة : العجز .

(١) المنصون Monsoon ربيع شب في اشهر الصيف من الجنوب الغربي وتجري
في بحري الهند والعرب شرقاً لئال فتحصل الامطار الى الهند وجنوبي الصين . وهي
ريج صرصر شبيهة بريج السوم في الصحراء تشتد منها الانواء في الاوقيانوس الهندي
والبحر العربي اشتداداً بروع حتى الملاحين .

(٢) في ٢١ ايلول ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وسكيلها
المحوصي ادمون روبرتس Edmund Roberts معاهدة ولائبة تجارية مع سلطان
مسقط سعود بن سويد .

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتويماً الى حد يُخشى مع الزيادة الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنجة وقد امتلأت ماء . فلا تحتمل من الزيادة نقطة واحدة . وما رأيت ، وانا في البحرين ، ان ازور تلك « الشيخات » في عمان قبل ان ازور سلطان نجد في الرياض . فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت . ولكنتي لا ازال اعلم النفس بافات ، فأضيف في المستقبل ان شاء الله قديماً آخر الى الكتاب او قسمين أفي فيها عمان ومسقط وحضرموت حقها .

بقي ذاك القطر الحديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة سياسة « بعد الحرب » وأمرت عليه النجل الثاني من انجال الملك حسين الامير عبدالله . فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات العربية الثابتة الدائمة . قد لا تزول في عهد اميرها الاول ، وقد يكون اميرها الاول الظالم غداً لواء الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك . اما اذا فازت سياسة التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفاً الى سمو اميرها ، والتكفير ولو مؤخراً اذا ابقانا الله وايه على مسرح الحياة .

٦

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهتم العرب خصوصاً والاسلام عموماً ، والتي تهتم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدها القارى . في مكانها من البحث . اما الذين لا تهتمهم السياسة بقدر ما يهتمهم العلم والادب ، واخبار الاسفار ، فقد خصصتهم بقدم مما كتبت . وقد اتحدت في ذلك اسلوباً يقرب من القارى . ما شاهدت بعيني ، وسمعت باذني ، ولست بيدي ، فيسئله ، اذا تم القصد الفني ، حياً لديه .

وليس في الكتاب ، ادباً كان او سياسة ، وصفاً او نقداً ، الا الحقيقة

غير المجردة ، لان في التجرد ، في العربي ، شيئاً من سوء الادب ، لاسيما اذا كان المجرد والمجرد في الغربية . ولا ينسى القارى . عافاه الله اني جئت الى البلاد العربية من ارض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى . ثم سجت في بعض ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء . ولا يلبسون احياناً غير نسيج من الشمس والغبار . فسئمت التجرد واكفني لا اخفي الحقيقة في ما ألبسها وكانني بالقارى . يقول : ان في احتجاجك على العربي شيئاً من الدهاء . فاعتذر اليه في ما قد يمد مكابرة اذا اعترفت بالذنب . نعم ، وفيه كذلك شيء . من تلك الصنعة التي يندد بها ارباب الدين على الدوام ، وتآرسها على الدوام النساء .

وما الضرر في اليسير من المساحيق والاولون ، وفي المهمل المطرز من الكساء ؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهمل اجمل واذا كانت تؤلم فهي في زينتها ادعى الى الالم والحزن . الا انها في كل حال لا تجالس التعصب ، ولا تدنو من التشيع والتشنيع . فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها ايها القارى . العزيز مجردة كل التجرد .

وقد نجى . في بعض الاماكن ناقصة او مخنطة ، شأن كثير من الامور والافكار البشرية . ذلك لان النقص في كل ما يرى ويدرك موجود ، والخطأ لا يستدرك كله . فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي ، ولا عذر مع جهد تناهى .

على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما كان علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الشيء . الجديد المفيد . ولاخواني الادباء خاصة ، في سوريا كانوا او في مصر واميركا ، اقول : تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى ما ابعدم عنه التفرنج والتأمر ، الى حقائق لمسنا ظلها في آداب العرب القديمة ، الى حقائق استلنا اياها الايام والغربة ، والى

حقائق يجملها كثيرون حتى من العرب انفسهم ، والى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة .

تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى بلاد عجيبة معها كان فقرها ، والى شعب كريم معها كانت آفاته ، والى امة حرة ابية معها كانت ذنوبها . ايها الاخوان الاديان ان في اكثر المدارس السورية اليوم روحاً اجنبياً من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان . ولو استطاع لابعدهم كذلك عن اللسان - اقتل فيهم حب اللغة العربية . وفي البلاد اليوم سياسة تعضد المدارس في خطتها فتوسع الثمة بيننا وبين العرب وبلادهم . أنزل دائماً حيث كنا منذ خمسين سنة ؟

اعود الى الكلمة التي افتتحت بها هذه التمهيدات . ان البغض والخوف توأما الجهل ، ومن الجهل ما يولد الحب والاعجاب . وأن الروح الذي يسهى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاء الله في مسعاه . فقد بددت الايام تلك الاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامة الافرنسية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا « البعع » في العرب .

الحسين
البياتي

الغريبكة : لبنان

في ٢٧ ايار سنة ١٩٢٤ و ٢٣ شوال سنة ١٣٤٣



جلالة الملك حسين بن علي

القسم الاول

الملك حسين بن علي

الحجاز

سنة ١٩٢٢

•

مروءة : يحده شمالاً العقبة و امارة شرقي الاردن ، وجنوباً القنفذة و جبال
عسير ، وغرباً البحر الاحمر . اما شرقاً فحدوده مختلف عليها
وغير معروفة اليوم تماماً

عرد سطار : نحو ثلاثمئة الف و اكثرهم من البادية

مسامه : نحو خمسة و سبعين الف ميل مربع

اهم قبائله : حرب و عتيبة و جهينة و الحويطات و بنو ثقيف و بنو سفيان

الاشراف : العبادة (و منهم البيت المالك) و ذوو حسن و قريش

اهم بلادهم : في الداخل : مكة و المدينة و الطائف . و على البحر : جدة
و ينبع و الوجه

مذاهبهم : السنة : حنفيون و شوافع ، و الشيعة : جعفريون و زيديون



الفصل الاول

البدو والحضر

التلفون في الحجاز - عربية لا رطانة فيها - قدوم الملك - رسمه وحقبة محياء -
الديمقراطية العربية - القتال والعمامة - الحضر والتترك - تقبيل اليد والركبة - اللقائات
والقبلات - البدو - خشونة الحرية - التاجر والمقاتل - الملك بين الاثنين - اللغة التي يفهمها
البدو - الانكايث - العرب والاسلام - السوريون في اميركا - الملك يدعوهم الى الحجاز .

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطلت لأول مرة ارضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف الغرييون غيره من ملوك العرب . جنت من نيويورك ازوره وفي قلبي بعض التردد لما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد ، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسمها لديه صديقي لي في خدمة جلالاته ، بل صديقان ، هما قسطنطين بنى والشيخ فؤاد الخطيب . وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت اليها . وكانت اولى دهشاتي فيها ان محافظ المدينة الذي تفضل فلاقاني على الرصيف بلغ جلالة الملك بالماتف خبر وصولي .

الماتف في مكة المكرمة اولكنه مستعرب تماماً . فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها : آلو آلو . الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها .

- مركز ، اعطني مكة .

ولا انتظار ، ولا ابطاء ، ولا تسويق ، ولا مشاقمة .

- مكة ، محافظ جده يتكلم . الديوان . خير . قل لجلالة الملك . . .

خير . . . خير . . . البشر .

ثم كلمني المحافظ قائلاً : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة ،
لذلك لم يتزل لملاقاتكم . ولكنه يجي . اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل
البلد . ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم
جلالته . وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جده وعلماها .

وقفت امام الباب سيارة فضمة فخرج منها فاطم الحارثية ، ثم ناظر المالية ،
ثم الامير زيد ، ثم الملك حسين .

صافحته مسلماً سلاماً عربياً - حي الله مولاي بالحخير ولا اذكر بآية
كلمة حياتي . ولكني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ
بيدي لاسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني ، وهي طويلة تشرف على البحر
غرباً وشمالاً . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت ، بيت الضيافة ، الذي
انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من التشرف ، فتبدو في السجاد
العادي ، وكراسي الخيزران ، والدواوين المغطاة بقماش من القطن ، والجدران
العادية الحالية حتى من الايات ، كأنها تنازل الى شي . من المدنية اكراماً
للزائرين الاجانب فقط . . ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها
التي تروق على الخصوص القادمين من البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى
في ظاهر صاحب الجلالة ، اي في حديثه ، وفي لبسه ، وفي اكرامه الضيف .
من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسنون في بعض الاحايين صور
الناس . ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شي . من الحسن قلما يبدو في
وجوههم . اما رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبا واميركا اثناء الحرب
فهو لا يشبهه ، ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مزجها شي . من الغم ،
ومن الجلال المقرون باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

وكانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بملك كنت اظنه من رسمه رجلاً

قطوباً جافياً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محياً الملك حسين سياء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي . ولا غرو ، وهو من بني نجي من سلالة الرسول ، وقد اقام عشرين سنة في الاستانة . ان لحديثه اذن مصدرين من الانس والكياسة ، الاول اخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي .

وفي وجهه ما يفصح عن الاثنين مما غاب ويا للعجب في رسمه . فهو رقيق الادم صافيه ، عدل الانف دقيقة ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهانه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة . وفي ناظره نور يشع من حدقتين عسلتين تحيط بهما هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت اجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

اما صوته فألطف من النور في عيذه . واما انامله فان فيها دليلاً افصح واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة واشرف الاثيل . وقد كهبت هذه المحاسن في نظري لانها عارية من مظاهر الابهة والجلال . فانك لا تميز الملك عن احد مشايخ العرب اذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفية اخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث ثمين . هو عقال بني نجي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه . واذا اعم الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين احد الاعيان او العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هالك في القيافة مظهراً من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامراتها .

جلس الملك في زاوية من الديوان واثار الى يمينه فجلست وفي بعض الحياء من التصدر في حضرته . ثم دخل اعيان جده وكبارها مسلمين على صاحب الجلالة ، المتقد الاكبر ، مهنتينه بقدمه السعيد . فانتهدت في سلوكهم الديمقراطية . وغدوت حائراً لا ادري اينتدى في الحجاز التترك في

البلاد العربية ام ينتهي .

دخل عرب المدينة ، عرب جده ، مطاثنين الرؤوس ، مكنتين ، صامتين ، خاشعين . فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة ، والاخر مرتين ، والاخر ثلاث مرات . ومنهم من قبل منها الكف والظهر ، ومنهم من زاد على ذلك فقبل الركبة الملكية . وكان جلالتة يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم . وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع ، اي الاشراف العبادلة وهم اقارب الملك الادنون .

ان التقيل درجات اذن في الاحترام وفي العبودية . وكل من المقبلين والمقبلين يعرف مقامه فلا يتعداه ، ولا يحجل من ان يعرفه سواء . اجل ، ان بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه ، او يمنعه عنه يده ، يوماً شاسعاً في المقامات لا يخفى على احد من الناس . واذا خفي على عرب البادية ، على البدو ، فلانهم لا يفهمون هذه الرسميات او لا يكثرثون بها . يجي البدوي الى البلد فيوقف تحت نافذة القصر وينادي « يا ابو علي » وهو سآمد الرأس ، صريح الكلمة ، لهجة لهجة الاكفاء . والقرنا . قل هي لهجة ابنا القفار . والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من المتمدنين المتتركين . بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشاً كما يقبل هاشأ من البدو خشونة الحرية ومماجتها . ولا يتغير في الخالين ، ولا يأمر بتهذيب هذا او بتثقيف ذلك . ايدشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه .

ان الحضري عادة تاجر ، والبدوي غالباً مقاتل . والاتنان لازمان ، فنأخذ من الاول لنعطى الثاني ، ونذل الاول احياناً لتمسكن من الاخذ والعطاء . ولا سيما اذا كان الثاني خشن الحلق ، صعب الشكسية ، ويحمل فوق ذلك البندقية . والبدوي لا يفهم غير لغتين ، لغة الدينار ولغة السلاح ، بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده .

اما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار . وسنعود في ما بعد الى هذا الموضوع .
 - البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ، ولكنهم صادقون . اقول :
 صادقون . وهم يرعون العهود .

في النصف الثاني من كلام جلالاته نظر ، بل فيه باب للرب فسيح . الا انه اراد كما علمت بعدئذ غزاة الانكليز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم وقد عاد الى هذا الموضوع مراراً في المقابلات التالية . انه في احاديثه السياسية كثير الالغاز والرموز ، قلما يصرح بفكره ، وقلما يشرف عدوه بذكره . واكثفه في الجلسة الاولى لمس من الموضوع اطرافه واستعاض عن البحث بذكر الايات ورواية الاشعار . وهو شغف بالاولى وله حافظة لا تزال على سنه قوية .

كان الكلام في العرب والاسلام وكان جلالاته يدعم كل ما يقوله بآية او بمحدث شريف او بيت من الشعر - « من اعز العرب اعز الاسلام - اعتصموا جميعاً بحبل الله ولا تفرقوا - الاسلام يا حضرة النجيب لا يقاتل غير من اعتدى عليه - لا تحارب الا دفاعاً عن انفسنا . اقول : دفاعاً عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة . . . وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات . حبذا السوريون لو جاءوا من اميركا واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون اقول : ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

وكنت قد رفعت الى جلالاته سلام اخوان لي في نيويورك وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر .

- نحن نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم . فقد جئتم من اقاصي البلاد واعظمتها ، اقول : واعظمتها ، الى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة . ولكنكم جئتم تلبون دعوة القلب . معتم ،

يا حضرة النجيب صوت الضير . عدم بعد هجرة طويلة الى الاصل . بارك الله فيكم .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضع عند الكلمة فيعيدها متبتاً مكنياً - اقول يا حضرة النجيب - كذلك يتكلم .

وكان اعيان جده وكبارها جالسين على الدواوين وعم مثل التاميل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والحشوع . ثم نهضوا مستأذنين ، وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين . فنهضت على اثرهم فأشار جلالته تلطفاً ان اجلس . فعدت الى مكاني . ثم قال ، والاعتذار في صوته وكلامه ، صحيح فصيح : ان حياتنا في هذه البلاد غير ما آفت يا ايها العزيز ، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة . . . فحاولت ان اباريه في هذا الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني . فأسكنتني باشارة من يده ، وافحمني ، بل زادني خجلاً وعباً ، اذ قال : وهلا نقطع فرسخاً لتلاقي من قطع البحار ونجشم الاخطار في زيارتنا ؟

الفصل الثاني

من الضب الى الطب

التبادل بالمحامد والواجبات - الانكليز - دواء - الغيظ - الناظر الجبان - العنشرات
والدبابات - الضب - درس في علم الحيوان - اعتقد من ذنب الضب - قنصل
انكلترا - انتقام الملك - اضحوكته - افصح المدعفين والطف الجلوس -
الغاز الديوان الهاشمي - التعتيد في السياسة - شخصية ساحرة - الباقي من
قرئش - بنو سعد - الطب - الكمي - « وقد يشفيك الله بواسطة طابيب من
بني سعد » - مجي - الطبيب من محفة - العلاج .

ان الملك حسيناً ليعتقد ببدأ التبادل في المحامد والواجبات ، ان كان في
السياسة او في الاجتماعيات . وعنده من الدين على ذلك براهين . لقد امرنا
الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة ، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة . وهذا هو
التبادل بالمحامد والواجبات . وقد اخذ الانكليز منا عهداً في القتال فاقننا على
العهد ، وقطعوا لنا عهداً بالاستقلال والوحدة العربية ، ولكنهم ويا للأسف
نقضوا العهد .

عندما يذكر جلالة الانكليز يستحوذ عليه الخنق والغم فينادي احد
نظاره ، الناظر الحضرمي ، ويكون قد دبر له حيلة للتسلية او مفزعة ينشرح
لها صدره . والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، سريع التأثر من غريب
الحركات والاصوات ، شديد الخوف من الحشرات والدبابات وفي المباديات .
وبكلمة صريحة هو جبان - الجبان الاول في الديوان الهاشمي ، اما الثاني فهو
الناظر الشاعر . اذ كل شاعر في رأي جلالة جبان .

اما الملك حسين فلا الاصوات ولا الخيالات ، ولا « بيع » السياسات
يحدث فيه ما يعد عيباً في الرجال . انه لشديد البأس ثابت الجنان . يوم
ضرب الاترك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت

لا يبالي . اما الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والديابات التي يورثي - لخالها ويستخدمها احياناً لترويع الناس . فقد علمت انه شغف بها وبدرس اخلاقها وعاداتها . وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته ، لانها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدد المهوم الملكية ، وتذبح الغم الاكبر الذي يتولاه لمجرد ذكر الانكليز .

جامي احد عبده ذات ليلة يقول : سيدنا بيغيك . فأسرعت اليه فاذا بقنصل بريطانيا العظمى هناك . وبعد ان حدثنا ساعة عن الابل والاهوية في الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سأني قائلاً : أتعرف ايها العزيز الضب ؟ فقلت : في الكتب فقط يا مولاي . فقال : سنريك الضب حتى اذا كتبت عنه تحسن الوصف . وضرب كفاً على كف فحضر عبد من العبيد - هات الضب نظرت الى القنصل وكان ينظر الي ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ، فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها جلالاته استاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان .

دخل العبد ويده حيوان شبيه بالحرباء فأخذه الملك منه ووضع على الديوان بينه وبينني .

- هذا يا حضرة الفاضل الضب ، وهذا ذنب الضب . قال ذلك وهو يورثه بيده . « اعقد من ذنب الضب » ترى ان المثل صادق . وذنبه هو سيفه ودرعه .

قال القنصل : انه يشبه الحرباء واطنه هو بعينه . فترجمت كلامه لجلالة الملك فقال : الحرباء غير الضب ، والفرق بين في الذنب .

ثم ارمأ الى القنصل ان تقدم وافحصه . فنهض ودنا من الضب ، فأخذ الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها . فبدت في وجه القنصل علامت الألم فضحك جلالته ، واستأنف الحديث - هذا ضب صغير يا حضرة القنصل ، وقد رأيت منه ما يزيد طول الباع - كأنه ضب السياسة .

والذنب كما ترى هو نصف جسمه ، اذا ضرب به ادمى ، وقد يقتل خصمه بضربتين . اقول : بضربتين . اما هذا الصغير فلا شرف فيه يتقى ولا خير يرجى . دخل اذ ذاك الحاجب يني . بقدم الناظر الحضرمي . فقال الملك : بلى بلى ، فيه خير (اي في الضب) وهو يوارى الحيوان تحت جبته .

دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ، فأشار الملك الى مجلس قريب منه . وما كاد يتبوأه حتى مُدت اليه يد الجلالة ، وصاحبها هادي . البال ، وفيها الضب ، وضعت في حجر الناظر المسكين . فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب ، ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، واصطدم بالحاجب هناك . ففهمه الملك وكاد يستلقي ، وضحكنا كلنا ضحك الصبيان ، وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالساً مكتئفاً على عادته ، وقد كان يحاول اخفاء سروره في ابتسامة قيدها التأذب . ولكن صيحة الناظر ووثبته فكتنا منا القيود فتساوى في فترة بهيجة الملك والشاعر والعبد المملوك . الا ان جلالة كان اول من تاب الى الرزاة فغاطب الشاعر موجحاً : لا حق لك انت بالضحك . لا حق لك حتى تترك الطيارة او في الاقل الحيسل . والناظر الشاعر يخاف ركوب الانثين خوف زميله الحضرمي من الحية والضب .

عندما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي الذ ساعة قضيتها مع جلالته . وهو في غير موضوع السياسة افسح المحدثين والطف الجلسا . فظننت ذلك من مثله جوراً في الحكم وان كان مصيباً . لان كل من عالج السياسة رسمياً يتعمد الغموض احياناً في حديثه . ولكنني علمت بعدئذ ما يقاسيه الوكيل الهريطاني في جده من فك الغاز الديوان الهاشمي وكشف الستار عن رموزه . وخبرت بنفسي اثناء اقامتي هناك ما جلالاته من القوة في التعقيد ، والبراعة في التورية والابهام . بل هو يطوف حول نقطة سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها . فيدون منها اطراراً في بعض الاحايين

ثم يبعد عنها منقلباً مسرعاً ، وجليسه ، وهو يعدو مبارياً ، وقد اعتراه من التطواف الدوار ، يدق رأسه بالحائط او يصطدم بباب في هيكल الاسرار ، فيتلقت ليرى اين هو من صاحب الجلالة فيراه ، وأسفاه ابعداً ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما يقول . والمصيبة في السكوت مثلها في النطق . فاذا قال : فهمت يا مولاي كان من المجاملين . واذا سكت طُن سكوته استهجاناً . فيهز رأسه تخلصاً من الاثنين وينتظر الفرج من غوامض الحكمة ، في بوارق الحُتمة .

وطالما استألتني اشارة مولاي اللطيفة فملت بمعقولي الى السر في يديه وفي نظاريه ، وكنت كالسحور في فيض من المغناطيس يسيل من انامله ومن نظراته . وما السياسة ، وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحر ينسيك شغشات الناس وخزعبلات الامم .

اجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية ، والغوامض السياسية ، وقفات في حديثه تزي بالفضاحة والبيان ، و اشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات تقيد منك العقل والجان . يبسط يديه اشباعاً اذا احس من نفسه انه افحك ، ويضهما الى صدره تلطفاً اذا توقع منك جواباً . ويمالج عقله او يجر كعامته اذا رأى منك فتوراً او دهوراً . ويغبر جلسته على الديوان اذا اوجس فيك الملل . فاذا تهيك معانيه ومقاصده وهو امامك السجر الحلال مجسداً !

كنت استغنم الفرصة عند ما يفك جوته او يعقدها فاسأله سؤالا لا علاقة له بالموضوع ، ملتصقاً لقلعتي العذر في حب العلم وفي السياحة من اجله .
— نعم ايها العزيز . الباقي من قرش قرب خمسة الاف وهم ثلاثة اقسام :
قرش الاغاضيد ، وقرش التميميس ، وقرش الطائف . ولا يزال بينهم وبين السلالة النبوية كثير من الحس والعطف . . . اما بنو سعد ، وهم الذين ارضعوا النبي ، فدريتهم قرب الطائف ، وفيهم بيت يحسن اهله الجراحة

ويتوارثونها بعضهم عن بعض . . . هل تعلم يا حضرة النجيب ان الحمى
تداوى بالكفي ؟ بنو سعد الجراحون يداوونها بالكفي .

وكشف جلالاته عن نبحاح طريقتهم في نفسه اذ انه مرض مرة بالحمى
واكتوى فاراني اثر الكيين ، واحد في زنده الايمن والاخر في ساقه اليسرى .

- السر في مكان الكفي . فهم يختارون اماكن في الجسم تتصل
بالاعصاب التي تنتهي بجموعها عند موضع المرض . لذلك لا يترك الكفي
مفتوحاً ليخرج منه الصديد كما يفعل غيرهم ، بل يخبثونه حالاً بشي . من
الملح ، اقول : بشي . من الملح ، يذرونه عليه .

وكان قد انتبه جلالاته لحركة في يدي تدل على الم فسألني عنها فأخبرته
فقال : وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد . وبعد يوم وصل
الطبيب من مكة . جاء بامر جلالاته يداويني فسألني ثلاثة سوالات فقط ،
ولم يفحصني والحمد لله فحصاً طيباً . ثم قال : لا ينفعك الكفي . سخن السمن
وخذ الثوم دقه وامزجه فيه وادهن ثلاث مرات كل يوم . وستشفى باذن الله
تعالى وتذكروني بالخير . قال هذا وودع وانصرف .

وها اني اذكرك يا أخا العرب ، يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك ، يا خير
من قابلته في حياتي من الاطباء . وسأذكر دائماً تلك البساطة فيك ، وذلك
النور في ناظريك ، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحركاتك . وسأذكر
كذلك انك لم تصف لي ما هو اصل علاجاتك كلها كما يفعل الاخصائسون
في البلدان المتمدنة . بل اشركت مع علاجك الله ، فكنت اكبر الحكماء
واصدق الاطباء . سأذكرك دائماً يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك ، لاني
كلما ذكرتك انسى آلامي ، وهذا لعمرى خير علاج والنجع دواء .

الفصل الثالث

الابداع في الاصلاح

طريقة عون الرفيق في الاصلاح وطريقة الملك حسين - الحجاج وبنو زمزم -
المياه المقدسة المعدنية - الاوبئة - قني الماء في مقي - للطاهر ظل شي - طاهر -
والحنفية لا تضر - القضاء على المكروب - المستشفى في مكة - تقرير مدير
الصحة العام - المحجر الصحي في جزيرة الي سعد - محجر الطور - محجر
قمران - البعثة الطبية لفحص الحاجر الصحية في الشرق - المعاهدة الانكليزية
الحجازية - اسباب الصحة واسباب الاستيلاء - جوقة الموسيقى الملكية -
طريقة الملك في اصلاحها - كتاب من جلالتة .

ان جلالة الحسين طريقة في الاصلاح تختلف مبدئياً عن طريقة عمه الشهير
عون الرفيق الذي حمل مرة على الاولياء وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم .
اما جلالة الملك فهو اذا حافظ على تقاليد فيها بقية ، او ليس فيها شي . من
الخير ، يسمى هادئاً ويتخذ الطف الاساليب في اصلاحها او ابطاها .

من مظاهر الحج العجيبة مثلاً ان بعض الحجاج من الهند ، لشدة ايمانهم
وتفجر بركان اجتهادهم ، كانوا يرمون بانفسهم في بئر زمزم تبركاً واستغفاراً ،
واعتقاداً منهم انها اسرع واسلم طريق الى الجنة . فلم يقل الملك حسين ان
هذا غلو بل جنون في الدين ، ولكنه امر بوضع شبك من الحديد على فم
البئر قطع بها الطريق القصيرة - المقربة في لغة اهل اليمن - على المستشهدين .
ولعله يقبل اقتراح احد رجاله المجنونين بالبعثات الفنية والمشاريع الاقتصادية
جنون اولئك الحجاج بالدين فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتباع للحجاج -
ماء مقدس ومعديني معاً ! انها لنعمة تشكر وتستثمر ، تستثمر في سبيل
الصحة العامة . وقد باشر جلالتة بعض الامر المتعلق بها .

ليس من ينكر ان الامراض والاوبئة كانت ملازمة الحجاج في الماضي

ان كان في الاماكن المقدسة او في الطريق منها واليهما . وقد ادرك الملك حسين ذلك واكتشف السبب الاول فيها . ان قني الماء في منى مكشوفة والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهتمهم المكروب ، هم يدوسونه بارجلهم ، ويرجمونه بالاوساخ ثم يشربونه ويقضون عليه . للظاهر كل شي . طاهر . والمملك حسين كذلك يقول هذا القول . الا ان الحنفية لا تضر بالطهارة . وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلل . ومن ذا الذي ينكر في مكة او خارجها ان الشرب بواسطة الحنفية هو اسهل منه عبأ او صبا .

عقد الملك النية على ان يجيب عن الحجاج وجه المياه ، فامر بان تغطي القني في منى ثم توضع القساطل والحنفيات لشرب الحجاج منها . وهكذا قضى على المكروب او كاد . ثم اسس مستشفى في مكة^(١) مجهزاً بالآلات والادوات الفنية ليتم مساعيه الشريفة في استئصال الاوبئة ومكافحة الامراض . انه ليعني سلامة الحجاج وصحة العرب قبل كل شي .
وهناك في جزيرة ابي سعد في مياه جده محجر صحي يفتخر الملك به ويلفت اليه نظر الانكليز قائلًا :

(١) جاء في تقرير بعث به الى الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة : اخذنا في توسيع نطاق المستشفى فجعلنا فيه اربعة اقسام ذات شأن احتوت على مئة واربعين سريراً . قسم منها لتبريض الجنود وافراد الشرطة . وقسم لتبريض الاهالي . وقسم لتبريض النساء . وقسم لتبريض الاطفال . وقد اختص المستشفى الاهلي لتبريض الفقراء المحتاجين اما عدد الذين حضروا الى المستشفى في خلال ثلاثة اشهر هضت فهو كما يلي :

برسم المائة	٣٦٩٥
برسم العالجة في المستشفى	٠٣٣٠
تغيير القروح	٣٩١٧
الوفيات	٠٠٣٦
عمليات جراحية	٠٠٢١

— وما الفائدة من محجر الطور ومحجر قران وهذا محجرنا كامل الاجزاء ،
 نظيف الزوايا والارجاء ، ولا يُظلم فيه الحجاج ولا يُغبنون اعم ابناؤنا
 واخواننا ، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم اكثر منا .

قد رافقت جلالة الملك الى تلك الجزيرة وكان فيها يومئذ مئة وزيف
 من حجاج جاوا ، تهافتوا على جلالته وحاقوا بها . فغفروا — ولا استعارة —
 امامها وجوههم ، وقبلوا اليد والحجة والركبة والرجل الملكية ، ثم التراب ،
 ثم بدأوا بالشكوى . وقد علمت ان الماء قليل ، وان الحدامين ، وعلى
 رأسهم رجل تركي ، يتاجرون به ، وان الطعام ردي . وثاناه غالية ، وان
 غرفة التطهير مغلقة لخلل في عدتها . اما البيوت التي يقيم فيها الحجاج ثلاثة
 ايام فهي نظيفة لانها خالية خاوية ، يلعب فيها الهواء على الدوام . وهذه
 لعمرى فضيلة المحجر الصحي الحجازي الوحيدة .

انتهى الينا يوم كنت في جده خبر البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية
 في الشرق وكانت يومئذ قد وصلت الى مصر . فاقترحت على جلالة الملك
 ان يدعوها لفحص المحجر في جزيرة ابي سعد لعله يدرك بعد ذلك بعض النقص
 فيه . فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت وامر ناظر الخارجية ان يبعث جألاً بنياً
 يرقى الى المعتمد الهاشمي في القاهرة يأمره بان يدعو البعثة المذكورة لزيارة المحجر
 الصحي في جده وفحص اسباب التطهير والصحة فيه .

ولا اظن ان جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيراً . — تأمل
 يا حضرة النقيب طمع الناس . يأخذون من الحجاج في الطور راتب تطهير قلما
 يفيد ، يأخذون راتباً في قران ، ويبغون فوق ذلك مد ايديهم الى ابي سعد
 لتتم لهم السيادة على الحجاج ابنائنا واخواننا . وهذا مستحيل ، اقول : مستحيل .
 ان من بنود المعاهدة بينه وبين الانكليز ، تلك المعاهدة التي جاءه بها
 الكرنل لورنس والمرحوم حداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضها ، ان يكون
 لبريطانيا العظمى الحق في تعيين اطباء انكليز في جزيرة ابي سعد . فأبى

الملك حسين ، لظنه ان الانكليز في طلبهم هذا يبغون اكثر من معاش بعض الاطباء . اطبائهم واكثر من السيطرة على الحجاج . وقد لا يكون لهم في الامرين غرض يذكر ويحشى . الا ان اساليبهم الحديثة لتدخلهم في شؤون البلاد وبسط سيادتهم عليها تشمل الاسباب الصحية كلها ، وقد تنحصر احياناً بها .

والحق يقال ان محجر ابي سعد من الزيادات غير المفيدة بالنظر الى محجر الطور في شمال البحر الاحمر ومحجر قران في الجنوب منه . فاذا امر الملك باقفال ابي سعد يقفل باب الصحة الوهمي الذي يتذرع الانكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده ويرجع الى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قران فينتفع بها ، وقد يتوصل الى اصلاح ابي سعد او بالحري ابطاله في المستقبل على طريقته المخصوصة في الاصلاح والعمران التي تقدم ذكرها .

والى القارىء مثال آخر منها . ان في مكة جوقة موسيقى ملكية امسى امرها من التقاليد الهاشمية المقدسة . وهي تضرب امام القصر ثلاث مرات كل يوم وترجع جلالته كل يوم ضعفي الثلاث المرات ، بل تكاد تجرجه من ثوب الحكمة وثوبه . ولكنها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها ، ثم مداواتها بالتي هي احسن . ومن تقاليد هذه الجوقة ان رجالها لا يُعزلون ولا يبدلون فيخدمون فيها مدة الحياة . وعندما يموت احد اعضائها يعين الملك من يخلفه وهالك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في دفع هذه النكبة واستئصالها .

مات منذ ستين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خالفاً له . ومات في السنة الماضية احد الزمّارين فقال الملك : وما الضرر اذا نقصت زمراً ؟ ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيماً . وانه بعون الله وغزرائيل يتخلص تدريجاً من الجوقة كلها .

اين المصلحون يجيئون مكة طالبين العلم والارشاد ؟ الا انهم اذا كانوا

مثلي ومن ملتي فلا يتجاوزون في مسيرهم حداً^(١) ولا اظنهم يتناولون جزاء
سعيهم اكله كما نلت .

بعد ان اقام جلالته اسبوعين في جده عاد الى مكة لاشغال هامة وظل
معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته ، اي حاشية الشيخ
فؤاد ، المؤلفة من امرىء القيس والتابعة الذبياني والاخلط والمثنبي ، وكان
الشيخ قسطنطين بني راعي الكاس والقرطاس فلا يدع فرصة تفوت او
كلمة من الشعر تقوت .

ومع ذلك غدوت كثيراً فكتبت الى جلالته كتاباً اشكر فيه الم الفراق
والالم الاخر الاشد من تقليد عقيم يضطره ان يحرمني زيارة ام القرى .
فكتب الي يعتذر - وتوقيع الملكي في رأس الكتاب - عذراً لطيفاً عذراً
يصح فيه ما قيل في الشعر . كتب جلالته :

عزيزي المحترم

« بعد اهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام . بانامل الشوق
والتكريم تلقيت رقيمتك ، وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه
الكريمة كان حجلي من بقائكم في جده هذه المدة ومخاضكم
جنى على نفسه حرمان لذاته واستفادته من فضائلك وكرامتك ، فان
مهما جسدت ضرورة اسباب هذا الحرمان لا اجده الا حجة علي .
وعلى كل حال فقي كالاتك ومداركها ما يغني عن كل بيان . وبها

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي في الجزء الثالث صحيفة ٢٢٨ :
حداً بالفتح ثم التشديد والفاء بمدودة واد فيه حصن ونخل بين مكة وجده بسونه
اليوم حداً . قال ابو جندب الهندي :

بيتهم ما بين حداً والحنا . واوردهم ماء الاثيل فماما

متسع يحيط كل ما هو في معنى ذلك . وليس لي ما يهون تلك الرزية
التي احكمم بها على نفسي الاعتقادي بان اسبابها ودواعيها هي مما
تهتم لها فضائلكم . والله يحفظك وعين علي بتلافي ما فات عزيزي .»

فهل في مروج الذهب ورياض الجنة الطيف من هذا الكلام واعذب ؟
عاد جلالتة بعد اسبوع من مكة ليودعني ومعه الضب يراضيني به . وكفى
بمجلسه روضةً وسواناً .

الفصل الرابع

تلميذ في البداوة والحكمة

ضيافة الملوكة - الاقارب - الهدية - البدوي الجديد - تلميذ في البداوة - حقوق
« الغوة » والحماية - الضيف السارح - الطنب السابح - رفيق الجنب -
الاستنجا - المحاكمة عند البدو - الجزامون - المخبرون - المساوون - الطيب
في جوار مكة - الارحام - الناقة التي لا ترضم ولد غيرها - حيلة الاعرابي -
عسل الحجاز ورماته - شهادة الخديوي عباس وشهادة السلطان عبد الحميد -
نادي الصلاة - غاياته الثلاث - اعضاءه السبعة - جلال الدين الرومي - ناي
يحن الى الغاب .

لا حاجة في الضيافة العادية الى صلة بين الضيف ورب البيت فانك
تقبل ما يقدم لك او ترفضه ، وتطلب او تتسنى ما تشاء ، ولا رسول بينك
وبين مضيفك غير رسول الادب والذوق . اما في الضيافة الملكية فالامر
غير ذلك . والقاعدة الاولى فيها هي انه لا يجوز ان ترفض شيئاً يهدى اليك
او ينعم به عليك .

وملوك العرب ، على ما يظن فيهم من البداوة وخشونة الذوق ، هم مثل
سائر الملوك في انهم لا يبادهون الضيف فيرتبك فلا يحسن القول او السلوك .
لذلك هم يعينون ، فوق من يتدبون لخدمته ، رجلاً يقيم معه فيكون له رفيقاً
وصحيراً ، ويكون بينهم وبينه رسولاً يحقق البغيات وينبه الى ما فيه تدارك
المزعجات .

كان صديقي قسطنطين بني هذا الرفيق والسير والرسول ، فجا . في
اليوم الثالث بعد وصولي يحدثنني بالاقاب ، فذكرته بايام الفريكة والعزلة في
الوادي ، ثم قلت : ومن يقيم في اميركا عشرين سنة مثلي لا يغير رأيه في

الموضوع . وقد اخبرني بما كان من امر صديقي سر كيس قبلي ، فقلت : وعسى ان لا اضطر مشله ان ارفض شرفاً هاشمياً . ان امري في يدك يا قسطنطين . تدارك النعمة قبل حلولها . فقال : والهدايا ؟ فقلت : اقبل كل ما يجيئي منها .

وجاء في اليوم التالي عبد من عبيد جلالة الملك يحمل اليّ كسوة عربية وخنجرًا مكياً ، وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة . لله در قسطنطين ، الرسول الامين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني ناسك تليق به الآثار المقدسة ولا تليق به الالاقاب . وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من الالاق لا يجوزها غير المقربين .

لبست ابيض البدوية ذات الاردان ، ثم العباة ، ثم عقال الذهب ، وتمنقت بالخنجر^(١) ورحت توأ اشكر صاحب الجلالة . فلما رأني في هذه الصورة بسط ذراعيه هاتفاً : يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني . فأحسست من شدة التأثر بشي . غشى عيني ، فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد ، فما وجدت حتى الجيب فيه ، فمسحت الدمع بردني ، فضحك جلالته وقال : حقاً انك بدوي الآن .

وجلسنا نتحدث في السياسة . ثم جاء قنصل فرنسا وبعض التجار مسلمين فانقل جلالته الى البدو - اكراماً لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة - وحدثنا في حقوق الحماية والحوة .

— ثلاثة لهم حقوق الحوة والحماية: الضيف السارح^(٢) والطنب السابح^(٣)

(١) يدعى الخنجر في الحجاز قديمة ، والقاف تلفظ جيم - جدمية - لانه يحمل من قدام ويدعى في اليمن جنبية لانه يحمل على الجنب

(٢) من كان في سفر

(٣) من دخل الديرة مستنجداً . يراد بالطنب البيت بيت الشعر ، وهو من باب تسمية الشي . بجزء منه . ويراد بالبيت صاحبه وان كان سابحاً سائحاً لا بيت له ولا مقر .

ورفيق الجنب^(١) واذا دخل الضيف السارح بلداً او «ديرة» يضيفه اول بيت يمر به . له الحق الاول في الضيافة . اقول : الحق الاول . فاذا تجاوزه السارح الى جاره يعدها اهانة فيطالب الجار به - مر الغريب ببيتنا قبل ان يمر ببيتكم . واذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر اليه بعين الاحتقار . . . ومن اضاف سارحاً ايها العزيز ، عليه ان يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد ان يرتحل . والاستجداد ، نعم له حدود . يرفع العرب الاستجداد الى خمسة اجداد فقط وما وراء ذلك فلا حق فيه لمستجد . ولا فرق بين العرب والاشراف من هذا القبيل الا في القصاص . حياة الشريف اذا قتل عمداً بجائتين . وللبدو طرائق في المحاكاة وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوك العرب كلهم . فلا يضطرونهم في كل احوالهم الى الخضوع للاحكام الشرعية . من تقاليد البدو مثلاً ان على كل اعرابي ان يحكم في خصومة اذا رفعت اليه . اما اذا كانت الخصومة بين قبيلتين فتسمع غالباً في ديوان الملك الخاص .

حدثنا جلاته في طريقة المرافعة قال : ينتخب كل فريق اثني عشر رجلاً لاتبات دعواه ، فينتخب المدعي رجاله من قبيلة خصه والعكس بالعكس . ويكون من الاثني عشر رجلاً اربعة هم الجزامون ، واربعة هم المساوون . ويحلفون كلهم اليمين المعظمة قبل ان يشهدوا . يقول الجزام : القضية كذا وكذا ويقول المخبر : سمعت بما يختص بها كذا وكذا : ويقول المساوي : اذا كان كذلك فينبغي ان يكون كذا وكذا .

اي ان الجزام يبسط الدعوى والمخبر يشهد والمساوي يحكم فيها . وانك لترى في هذه الطريقة البدوية شيئاً من احكام الامم المتقدمة بل فيها ما هو اقرب للحق واطمن للعدل ، لان كلاً من المدعي والمدعى عليه ينتخب رجاله ، اي وكلاءه وشهوده وقضاته ، من قبيلة خصه . وما اشبه المساوون

(١) اي رفيق السفر

عند البدو بالـ «جوري» عند الأوروبيين .

قلت ذلك جلالاته فقال : الله سبحانه وتعالى لم يخص الأوروبيين بكل فضيلة . عندنا نحن العرب بعض الفضائل وانت ايها العزيز النجيب اعلم بذلك . ليس كل ما يجي من اوروبا خالياً من الغش او من الشوه والشين . قد يجهل الأوروبيون اشياء نعلمها ونعلم بها . خذ الطب مثلاً . قد شاهدت ايها العزيز اعظم الاطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية . وعسى ان يشفيك الله بواسطة طبيبنا ، فتقول لهم اذ ذاك : جاءني الشفاء من جوار مكة من الله . ثم قال : وقد يكون في ما تشكرو منه بعض الوهم ايها العزيز . اقول : بعض الوهم ، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان . اذكر لك مثلاً في الابل . من النوق ، لمزاج فيهن او اكلة عصبية ، من لا يرضعن ولدانهن فيجمل العرب الولد الذي لا ترضعه امه الى ناقة اخرى وهذه لا ترضعه لانه ليس بولدها . فيجتال الاعرابي على الناقة ، يسلط عليها الوهم . اقول : يسلط عليها الوهم . وكيف ذلك ؟ انه يضع في حياها خرقه مطوية او شيئاً آخر يسونوه الدرّجة ثم يشد على عينيها عصابة وعلى انفها اخرى ويترك الناقة كذلك اياماً ، فيأخذها غم كغم الحماض . ثم يحل الرباط عنها ويخرج الدرّجة ويلطخ بها ولد غيرها فتظن انه ولدها فترضه .

وكان ينتقل جلالاته من موضوع الى آخر وفي كل منها المستغرب من اللذة والبسيط المفيد من الحكم والامثال . وهي تتعلق ببلاد وشعب يعرفها كما يعرف الكتاب الكريم .

— ما حرمتنا الله كل فضيلة ايها النجيب ولا حرمتنا كل ثمرة من خيراتنا . قد اتركلك بواد غير ذي زرع . هذا صحيح . ولكن الحجاز ، على فقره ، يفاخر سائر الاقطار العربية بشيئين ، بعسله ورمازه . عندما جاء الحديوي عباس حاجاً اكل من عسلنا وكان يقول بعد الشهادتين : واشهد ان لا عسل

في العالم مثل عمل الحجاز . اما الرمان ، وهو يجي . من وادي ليّه قرب الطائف ، فيصير كبيراً كالجلب (البطيخ) وهو كبير الحبة خال من البذر . اكبر والذما في الدنيا . ارسلنا مرة صندوقاً منه الى السلطان عبد الحميد فقال : هذا اجل رمان جاء من اجل بقعة في ارض الله وهو يلقى بالهدية . كذلك ينادي بائع الرمان : من وادي ليّه ، للهدية . نعم ايها العزيز في عسلنا ورمنا يبرهان ان الله سبحانه وتعالى لا ينسانا نحن العرب ، عرب الحجاز . وكيف ينسأهم وفي جده مظهر من مظاهر الورع والتقوى ما شاهدت مثله في غير مكان . هو نادٍ قليل الاعضاء ولكنهم كلهم حكماء ، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام . هو ناد فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا قانون ، يجتمع اعضاؤه كل يوم عند الغروب على كتيب رمل قرب البحر خارج البلد ، فيصاون المغرب اولاً ، ثم يبادرون الى اكرة من حديد فيتمنون ويتبارون في رميها ، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الادب والشعر والتاريخ .

انه يدعى نادي الصلاة ، ولكنه في غاياته الثلاث اي رياضة الجسم ، ورياضة العقل ، بعد الرياضة الروحية ، قد جمع بين اطراف الحكمة كلها . لا اظن ان في العالم شرقاً وغرباً نادياً آخر مثله ، ولا اظن ان فريقاً من الناس غير اعضائه ، غربيين كانوا او شرقيين ، توصلوا قولاً وفعللاً الى غايات الحياة الثلاث القصوى ، اي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح ، وسلامة العقل ، وسلامة الجسد معاً .

وما اجملها ساعة نذكر الله فيها ، ثم نذكر نعماءه في الاجسام فنسعى دائماً في حفظها صحيحة سليمة ، ونذكر نعماءه في العقول فلا نهملها في الرياضة والتمرين لتساوي الجسد والروح صحة ونشاطاً .

ان نادي الصلاة في جده هو مقاصد الحياة كلها . ويصح ان ندعوه

نادي الحكمة العملية المثلثة الزوايا فان الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد .

اما اعضاء النادي فهم كما قلت من صفة الناس ، كلهم اتقيا . عقلاء حكماء . وقد شرفوني يوم كنت هناك بان ادخلوني في الحلقة المباركة على نقص وخلل في مثلثة الزوايا عندي . فقد غلبنى شيخهم الاكبر في رمي الاكرة ، وغلبنى شيخهم الاصغر في المساجلات الادبية والشعرية . اما في الصلاة فكنت اشاركهم ، دون ان اقف في الصف وراء الامام .

ومن هو الشيخ الاكبر الذي يرمي الاكرة كالشاب ومن هو الاصغر ؟ اما اذا ادخلت القارى . الى النادي الفريد في قصده وبينه فينبغي لي ان اتهم العمل فاعرفه الى الاعضاء ، وعددهم هو العدد السري القدسي سبعة فقط . هذا الحاج زينل علي رضا شيخهم الاكبر يحترمه التجار في الحجاز وفي بباي وتعرفه وتحميه كل الاولاد في جده . ذلك لانه في عيد رمضان يخصهم بقسم مما كسب في الاتجار . فيجلس في ايوان داره والى جنبه اكياس من النقود الفضية ، ريبالات وروبيات ، فيوزعها على الفقراء ، وخصوصاً على الاولاد . يرون امامه صفوفاً في ذلك اليوم وكثيراً ما ير الولد الواحد ثلاث مرات فيأخذ قسمته ثلاثة اضعاف ، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك محبوب . وهذا الحوه الحاج عبدالله محافظ جده وهو حكيم الحلقة الاكبر وصاحب الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد وان عدل الحاج عبدالله في الحكم ايجاري البر والحكمة في اعماله الخيرية واهمها المدرسة العمومية التي انشئت في جده .

وهذا الشيخ محمد نصيف اديب جده الاكبر وامير الكتب فيها . فان عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التأليف لا يقتنيها للعرض فقط بل ليتفع وينفع بها . يجي . الادباء الى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية فيعيرهم ما يشاؤون منها ويشترى ما يعرضون من مخطوط او مطبوع .

وهو دائرة معارف ناطقة يجيب على السؤالات التي توجه اليه ويهدي الى مصادر الثقة في العلوم الادبية والتاريخية والفقهية.

وهذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية واخوه عبد القادر ، وهما من العرب الذين لا يفادون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر ، بل يشركون بين الاثنين ، او بالحري يحملون الواحد مقدمة للآخر . فيلبسون الدمقس والاستبرق ويتطيبون بعد الاكل وقبل النوم ولا يستكثرون الخس الجنهات يدفعونها ثمن زجاجة واحدة من الروائح الطيبة ، ولا الخس الصلوات يصلونها كل يوم

وهذا الشيخ محمد الطويل ، اصغر الاعضاء قداً ، وآنقهم كساءً ، والطفهم مبدماً ، واقدرعهم في عد الاموال وتصريفها . اجل ان الشيخ الطويل هو المصرف الهاشمي ، هو خزينة الملك حسين ، هو ناظر الجمارك في القطر الحجازي . وعليه دفع الكبيرة والصغيرة . فاذا شاء جلالة الملك ان ينعم احداً بمئة روية يحيله على الطويل ، واذا شاء شرا . باخرة او سرباً من الطيارات فالدفع على الطويل .

ولا نظن ان اخصائياً اوروبياً يفوق الشيخ محمد في علمي الادارة والاقتصاد . ولا يفوقه يقيناً في التزاهة والاخلاص .

وهذا الملاً حسين الشيرازي العالم باسرار الميكانيكيات والتصوف ، يصلح القناديل وآلات الحياطة ويروي من اشعار مولانا جلال الدين الرومي باللغة الفارسية فيشدو ولا شدو البلابل . فيجاوبه الحاج زينل بتلك اللغة الفخمة الشريفة ، ثم يترجم لي بعربية افخم واشرف .

قال مولانا جلال الدين : اني عودُ قُطع من الشجرة وُصنع منه الناي فهو في صوته يحن دائماً الى الغاب .

واني وان كنت ضيفاً سارحاً احس باني عودُ قُطع من تلك الشجرة المباركة شجرة نادي الصلاة في جده ، وُصنع ناياً صغيراً . والناي يحن دائماً الى الغاب .

الفصل الخامس

قرون السياسة

الضدان والقبائلتان - البعثة الفنية ونتيجة اعمالها - المقاباة الوطنية - شروط الامتياز الذي طلبه النعماني - مدرسة الزراعة - المدرسة الحربية - الضغط على آجار جده - قصة الاسطول الانكليزي والاسطول الهاشمي - تعبير اولاد العرب خارج الحجاز - « سيدنا لا يأذن به » - الموسيقى وشرب الخمر - الطارات والدبابات - يادي الكأس - مفزعة الحجازيين - شيخ الاسلام وبابا رومه - البدو جهل مسلح - « الهاشميات » لا تصلح شيئا - ذوو حسن - يدو الروس - البقوم - جاء سيدنا - شيخ حزين - « اتهم من تختارون » - الاساهل في الموترات - فيصل ضمنا وصراحة - وزيد وعبدالله - « ان ابناءنا اعداؤنا » .

في كل كبير تجتمع الاضداد . ولكل كبير من العرب قبلتان ، قبله الدين وقبله الدنيا ، فيولي وجهه الاولى مرة او خمس مرات كل يوم ، ثم يتطلع الى المغرب بقية يومه . يا قبلي ساعة نلبس ، وساعة نأكل ، وساعة نركب السيارة . ولكن القبلة الجديدة كثيرة الاسباب ؛ كثيرة النفقات . فينبغي لنا اذا ان نستعين عليهما اما بالمعاهدات الدولية ، وانقروض الماينة ، واما بالبعثات الفنية والامتيازات . وقد جرب جلالة الملك حسين الطريقتين ولا يزال يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد .

منذ خمس سنوات في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين بني الى سوريا ليمحس له عن اخصائين ، مهندسين واطباء . فعاد قسطنطين الى جده ومعه بعثة كاملة من الفنيين ، ابناء العرب النجباء ، المخلصين للقضية العربية ، والمخلصين كذلك لذهب الوهاج ، كما اتضح بعدئذ . جاءوا مع القسطنطين راغبين مستبشرين ، فاقاموا في الحجاز سنة ينتقبون ويبحثون ، ويقبلون .

ولكن اعمالهم لم تسفر عن شي . مفيد . ولا يعلم جلالته اليوم اكثر مما كان يعلمه قبل قدومهم . نعم ، ان في جوار الوجه نفضاً ينبع على الشاطئ . من البحر ، وفي جبال الحجاز نحاساً وطلقاً وحديداً ، وفي مكان حول مكة معدناً من الماس ، وليس في البلاد العربية شركة مالية ذات قوة فنية تستثمر هذه المعادن ، فتخلص جلالته من ظل محالب الشركات الاجنبية .

اما شركة النعماني ، وفيها لا شك مال وعلم اجنبيان ، فلم تحز الحظوة لدى جلالة الملك . وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه ، على شروطه الحسنة الممتازة^(١) لاسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الانكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات . وقد يكون « لشركة المشاريع العامة »^(٢) في جده كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعد على سواه .

قلت ان اعمال البعثة الفنية لم تسفر عن شي . مفيد . وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة وليس في الحجاز ارض توجب الاهتمام بعلم الزراعة . وقد اتركك بارض غير ذي زرع .

(١) من شروط هذا الامتياز الذي يسئل من اجل البحث والتنقيب اراضي الحجاز كلها ، ان صاحبه يدفع للحكومة الحجازية اربعين في المئة من صافي ارباح عملية الاستئثار وتحتفظ الحكومة بحق الافضلية في شراء خمسة وعشرين بالمئة من البترول المستخرج باسمه وتبني على اساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل الى حدود اوروبا . وتشكل الشركة بانشاء خط حديدي بين جده ومكة وخط ثان بين ينبع والملا لحساب الحكومة وذلك عند مباشرة استئثار البترول . وتسلم هذين الحظتين الى الحكومة الهاشمية بكل لوازمها فيصيران ملكاً للحكومة ثم تستوفي الشركة قيسه ما تصرف على انشاء الحظتين مع الفائدة القانونية من كامل واردات الاربعين بالمئة العائدة الى الحكومة . ومتى تم استهلاك ما صرف على انشاء الحظتين ، تعود اليها الاربعون بالمئة كاملة .

(٢) هي نقابة وطنية ترمي الى تحسين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة ويدخل في برنامجها الذي اجازته الحكومة الهاشمية ان لها حق النظر في الامتيازات فتستشيرها الحكومة قبل ان تعطى امتيازاً لاحدى الشركات .

اما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يقبلون عليها . ومعلوم ان اكثر اهل الحجاز من البدو ، وانهم لا يحتاجون الى من يعلمهم القتال وحمل البنادق وقد يستنكرون ذلك . ا.ا اذا كان لا بد من جيش منظم فالحكومة تضطر على ما نظن ان تدفع للبدو ، بدل ان يدفعوا لها ، راتب التعليم . وليس لجلالة الملك من الموارد الان ما يساعد على القيام بنفقات هذه المدرسة ، التي يرجو منها اعادة الجيش الهاشمي المنظم الى مكانته وقوته قبل وقعة ترّبه^(١) وما وقعة ترّبه غير نكبة نكب الحجاز بها ولا يزال متأثراً منها .

فلا عجب اذا كان سيد البلاد يرهق اهله ليعيد اليهم ، بواسطة الجيش النظامي ، عزاً قضى « الاخوان » عليه . ولا غرو انه يخص التجار بما يستوجبه تسليح البدو . فاذا ابوا يستشيط غيظاً ويستسلم الى نزعة فيه تركية اكتسابية . قد قيل لي انه في ساعات الغضب يخيف هائل وانه اذا استدعى احداً منهم الى مكة ، بريئاً كان او مذنباً ، يكتب الرجل وصيته قبل ان يخرج من بيته .

رسا الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جده وكان حديث الناس ، فقال احد الطرفاء بل البسطاء ان الاسطول الهاشمي اكبر واعظم منه . ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً فوصلت الكلمة الى جلالة الملك ، فطلب الرجل الى مكة ، وأزل السجن عند وصوله اليها ، فظل فيه اربعة اشهر دون ان يعرف ذنبه ، ودون محاكمة . ثم جي به الى حضرة صاحب الجلالة المنفذ الاكبر ، فقرصت اليد المملكية اذن ذلك المسكين واسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية او في اسطولها .

(١) هي وقعة ترّبه في البلد التي تدعى بهذا الاسم وقعت في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد « الاخوان » وجيش الامير عبدالله المنظم الذي كان محاصراً المدينة والتي لم ينتج منها غير الامير وبضعة من رجاله . راجع تاريخ نجد الحديث الفصل ٢٧ صفحة ٢١٩

حدثت 'احد وجهاء جده في ولد له ذكي ورغبت اليه ان يرسله - لا الى اوروبا - بل الى مصر او الى سوريا ليتلقى العلوم فيها . فقال : وهذه رغبتني ولكن سيدنا لا يأذن بذلك . وقد تأكدت ان في جده غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم اولادهم خارج الحجاز - في مصر او في بيروت - ولكن سيدنا لا يأذن به

الا هو الشرع ، لنعود الى الشرع والى الكتاب والسنة . وان كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم ، قولاً او عملاً ، وكل ما فيه شي . يطلق في المسلم حرية قد تخرجه عن الشروع والمنقول ، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون نتيجتها ، ولو بعد جيلين ، حيوان كافر كبير ، فهو من الولايات التي يحاربها المشرع الحكيم والحاكم العادل ، البعيد النظر . اجل ، انه يحاربها قبل ان تظهر الى عالم الوجود .

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهيم فوق كل شي . سعادة المسلمين الدائمة السرمدية . وهذه السعادة التي نص عليها النبي ووصفها الله في كتابه وصفاً جميلاً لا تقوم بلموسيقى ، او بالرقص ، او بشرب الخمر ، او بكسب المال ، او بالتعام في المدارس الاجنبية .

واذا ما تساهل جلالته في امور لا تمس « السعادة السرمدية » بضر ، كالطيارات مثلاً او الدبابات ، التي يعدها للزحف على « الاخوان » او كالة لتصفية الماء ، الذي جعله الله في ارضه المقدسة مالحاً ، او كعمل لصنع الثلج ، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبيلب الازهان ، ويفسد الاخلاق ، ويخرج العرب ولو قيد فتر عن دين هو كثرهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة .

- لا يلزمنا نحن العرب من العلم ، يا ايها النجيب ، غير ما يوافق حالتنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، اقول : ضمن حدود الدين ، من الانتفاع بالكلمات .

ان في جده افاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالمين ، عالم المادة وعالم الفكر ، وخبروا الزمان ، ولم يفقدوا كثر الايمان . وهم يرون في التعلم ، حتى في مدارس الاجانب ، غير ما يراه صاحب الجلالة . ولكنهم

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين اطلت همي

وفي جده اناس فيهم ما في غيرهم من اصناف الناس من النزوع الى الكيف ، فيطربون لصوت العود ، ويتهجون بتلك التي تشمخ في الكأس ويحسون لب الـ « يوكر » ولكنهم ، اذا جاء المعلم ، يتأدبون واذا غاب يلعبون . يكفي ان اقول ان في جده غير نادي الصلاة . فيها نادي الكأس ايضاً ، ولكن اعضاءه الذين لا يتجاوزن العدد المقدس اي سبعة لا يجتمعون الا مثل الفوضويين سرأ . حدثني احدكم وكان الاخرى به ان يستعمل ضمير الجمع الحاضر بدل الغائب ، قال :

— عجيب يا استاذ امر الناس في هذا البلد . ولا تستغرب قولي ان في جده خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر . فتراهم عندما يشرف البلد كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيدون فيخرجون من الصناديق ، الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل ، مستقراً في التهليل . هذا الشيخ قاسم يشهد على ما اقول :

فقال الشيخ قاسم ، وهو البارع الخاذق في افانين الحديث ، فيغير الموضوع دون ان يتقل منه او ان يسيء : عندما كنت في الالستانة كنت اقول لزميلي سليمان البستاني : لا يصلح هذا الكون الا بامرئ ، ان اصير انا بابا رومه ، وتصير انت شيخ الاسلام .

فقال الضابط : لا يصلحه الا السيف .

فأجابه الشاعر : قد كان السيف بيدكم وما اصاحتموه .

فقال التاجر : مصيبتنا البدو . البدو مشكل لا يحله الا الله .

فأجابه الحكيم : جهل مسلح يزيد علم مسلح .

- احسنت احسنت . وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد اسست لهذه الغاية .

- اقول لك بجرية ان « الهاشميات » كلها لا تصلح شيئاً . يظل ذوو

حسن^(١) الى آخر الدهر اوصافاً عصاة ، وبدو الزويس^(٢) لا يتغيرون ولا

يصلحون . والبقوم^(٣) يتذبذبون وينافقون ولا يدعون الا للقوة وانتم - صل

على النبي .

بيننا نحن في هذا الحديث جا . الامير زيد يتبني بان جلاله الوالد قادم

لزيارتي . فارفضت الجلاسة وبعد دقائق دخل عبد يقول : سيدنا . فخفضنا

الى استقباله ووقفنا في الباب ننتظره حتى نزع نعلنا من رجله يلبسه فوق

حذاءه ودخل فجلس في كرسي الى جنب الديوان الذي خصني به . ثم جاء

الخادم بالقهوة وجاء عبد جلالته بالفنجان الملكي الخاص الذي يحمله في بيت

من حرير مزركش باللؤلؤ الثمين .

وكان للكآبة يومئذ خيال على جبينه العالي ، بل ظل في وجهه الصافي

الاديم . وكان الحديث في السياسة ، وفي النهضة ، وفي مؤتمر فرساي ، وفي

الانكلاز ، وفي فيصل .

(١) هم اشراف ذوي حسن يقينون بين الليث وجده يقطعون الطرق براً وبحراً

فيسلمون وينهبون ولا تستطيع الحكومة الهاشمية تأديهم .

(٢) بدو الزويس . مثل ذوي حسن الاشراف ، ولكنهم يمارسون مهنتهم في الشمال

بين ينبع وجده .

(٣) البقوم عشيرة تسكن تربة والحرمة وفيها من الاشراف الذين « دينوا » اي

اعتنقوا المذهب الوهابي . فالملك حسين يدعي رعايتهم لانهم من بني لؤي ، اشراف

الحجاز ، والسultan عبد العزيز آل سعود يدعي ذلك لانهم وهابيون . وقد فصل

السيف ، سيف نجد ، بينها في وقعة تربة .

— لا تظنني اشكوا يا ايها العزيز النجيب اقول : اننا ثابتون في خدمة البلاد مهما تشعبت الاسباب وتعددت الصعوبات . ولا نبغي غير عز العرب . والسوريون من صميم العرب . فاذا سعدنا في الكمالات ، وبعدنا عن مفاصد المفسدين ، ودسائس النفعيين ، ولا استتني اقرب الناس الي — اقول : اقرب الناس الي . يخونون او يخطون — فالحجاز يتبع سوريا وانا يا حضرة الفاضل اتبع من تختارون للخدمة وللزعامة . اقول : اتبع من تختارون . . . وكان الكاتب الاول في الديوان الهاشمي الشيخ احمد السقاف وهو كاتب سر جلالة يحمل حقبة فأمر بفتحها وفتحها وقدمها للملك فاخرج منها اوراقاً رسمية اطلعت عليها .

— ما جنتك شاكياً يا ايها النجيب العزيز ، ولكنها العهود ، وحقوق الاب على بنيه . . ان احقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به . ولو اتبعوا نصيحتي ، لو امتثلوا لامري ، لما كان ذلك التساهل والتذبذب في المؤتمرات فتحجوا للفرنسيس باب سوريا ، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية . قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته ، ان الضمير في « اتبعوا » « وامتثلوا » « وفتحوا » هو عائد الي من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الامير فيصل . وعلمت كذلك ان جلالة الملك حسيناً كان يرغب بالقدوم الي سوريا ، وبان يمثل العرب في مؤتمر السلم الاول . اذن هو ناظم على فيصل . وقد قيل لي انه يوم عاد الامير آخر مرة من اوروبا الي الحجاز لم يتزل جلالة الوالد ليلاقيه في جده كما كان يفعل سابقاً .

انها لمن المحزنات . اما الحقيقة في القضية ، الحقيقة كلها : فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف . فلو مثل الملك حسين العرب في باريس ولندن ايام المؤتمرات لكن الامر ولا ريب اثبت في يديه ، ولكانت النتيجة احسن للعرب . ولكن وجود الملك حسين في الشام ، في

سوريا ، يضع ما قد يكون كسبه في مقايضة الاحلاف بباريس ذلك لان السوريين كانوا اميل الى فيصل منهم الى والده اعلمهم انه عصري ، رجب الصدر ، دمث الاخلاق .

فالصلافة التي تفيد في لندن وباريس لا تفيد في الشام . ومهما قبل في الملك حسين ، ومهما تعددت مناقبه الشريفة ، فهو في صفته الدينية لا يعزّز زعيماً كان او مليكاً ، في بلاد تعددت اديانها ، واشتدت من جراء ذلك التفرقات والنكبات .

ولكننا اذا ما نظرنا الى القضية من وجهة الملك الابوية نرى ، في حقوق تقضي عليها الحوادث ويصير اثرها الزمان ، مأساة بشرية في قلبها شيخ جليل نبيل . وهو مع ذلك ثابت في عزمه ، وفي ديوانه ، وفي جريدته . يهز على اعدائه السيف والبراع ، ولا يهجم من الملك اذ ضاع ، او ما لا يعطى منه ولا يباع فهو ، ما دامت له قوة ، يطالب به على الدوام ، ولا يرضى بغير « ملك العرب » لقباً وان كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقاً والقفزة جنوباً ، رضي امراء العرب ام لم يرضوا .

ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا يشكو الزمان ، ولكن في قلبه من الزمان جمة حامية . ولا يابوم العربان ، وفي صدره من العربان دملة دائمة . ولا يندم على ما تقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب . فهو النهضة اولاً و آخراً ، وهو لا يزال باذن الله قوياً عصياً ، هما كان من امر « فيصلنا » و « زيدنا » وعزينا في شرق الاردن . قد قال بلارك « ان ابنانا اعداؤنا » . وما اصدقها كلمة ولاسيا على الاسر الشريفة المالكة .

الفصل السادس

بين الاستانة ومكة

اكبر ملوك العرب واضعهم - ملك الحجاز وملك العرب - فضله الاكبر
الثورة على الترك - نشر الدعوة في اوربا - سيرة الملك حسين - اقامته في
الاستانة - رجوعه الى مكة - عون الرفيق - قبر امنا حوا - في ظل
الشريف عون - الرجوع الى الاستانة - عضو في مجلس شورى الدولة - امير
مكة - الحيا في الحجاز مدة امارته - اعلان الثورة - منشور الاستقلال -
سورة البقرة - العرب غير المسلمين - الدين في النهضة - الاصلاح التركي -
التصار الترك - عبد الحميد الصغير - مكة وفروق - السجن والبفور

ان الملك الحسين اذن لأكبر ملوك العرب سنأ ، واطهرهم جلالاتاً ،
وارفهمهم من الوجهة الدينية مقاماً ، وانضمهم في السياسة مسلماً ، واطفهمهم
اليوم سلطنة ، واشدهم كرباً ونماً . هو ملك الحجاز في المعاهدات الدولية ،
وملك العرب في الجريدة الرسمية ، والمنفذ الاكبر في عين اولئك الذين لا
يعرفون من البلاد العربية غير الحجاز . وليس من ينكر انه كان منقاداً في
برهة من الزمان لا اظن التاريخ يعيدها ، او الاقدار تسمح بتמיד اسبابها ،
فتمكن الملك حسين من تحقيق امال المهوسين وآماله الوطنية ، بل احلامه
المهاشمية .

ان فضله الاكبر لفي ثورته على الاتراك ، وان كانت المصلحة والمساومة
فيها مرعية اكثر من المبادئ التي اعلنت من اجلها . ثم في شره الدعوة
العربية في اوربا ، وان كان ذلك ضمناً في سبيل آل البيت الخاص . ثم في
الثبات المدهش في مطالبته بحقوق العرب وان كانت عمومية الى حد الابهام .
ان في النهضة العربية مجد الملك حسين وانجمله البواسل الذين حاربوا في
سبيلها ، وان في الوحدة العربية المغازات التي ضاعت فهلك فيها كل

اعالمهم . ومن المسؤول في ذلك ؟ ان في سيرة الملك حسين ما يجعل غوامض الموضوع ظاهرة جلية .

واليكها بالايجاز . هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون^(١) ولد سنة ١٢٢٠ هـ في الاستانة وجاء في السنة الثانية من سنه الى مكة مع والده وجده ، ثم عاد والده الشريف علي الى فروع واقام فيها الى ان توفاه الله سنة ١٢٨٧ هـ وكان في خلال تلك المدة عضواً في المجلس الاعلى ثم صار وزيراً وعين عضواً في مجلس شورى الدولة . فزاره ابنه الحسين وكان لا يزال في طور الفتوة ، فنشأ هناك في بيئة تركية عربية .

ثم عاد الى الحجاز بعد وفاة والده فأقام في كنف عمه الشريف عبدالله بضع سنين وتزوج بابنته عبيدة خاتم^(٢) كان الشريف عبدالله يومئذ امير مكة . وهو مثل اكثر كبار الاشراف ربيب الاستانة التي اكسبته شيئاً من الكياسة الاسلاموية واشياء من السياسة التركية .

وكان للحسين اعمام آخرون تولوا الامارة بعد عبدالله ، منهم الحسن الصالح ، الذي قتل في جده ، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته

(١) في ما تدعى الطبقة الرابعة من تولوا سدانة الكعبة ، التي تبداً سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) وتستمر الى يومنا هذا ، فروع من البيت الهاشمي اسس كل فرع منها رجل كبير نبغ في قومه . فالفرع الذي أسسه في مطلع القرن الماضي في زمن ابراهيم باشا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيد الذي نطب عليه . وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعا على الامارة وسدانة الكعبة هما من بني حسن الذين نبغ فيهم جد الاشراف الاكبر محمد بن ابي نعي . ويتصل نسب ابي نعي بكبير اخر في السلالة الهاشمية هو قتادة ابن ادريس . وقاتادة من ولد موسى الجون . وموسى هذا هو ابن حفيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وابن بنت الرسول

(٢) هي ام الاميرين علي وعبدالله والملك فيصل . وبعد وفاتها تزوج الملك حسين بتركية من اسر الاتراك الكبرى هي ام الامير زيد .

الى الوهاية . فحمل حملته المشهورة على الاولياء ، فأمر بهدم القبور والمقامات ، وكان جهاده يذهب حتى بقبر «امنا» حواء لولا تدخل القناصل وقولهم للشريف عون : لك ما تشاء في الاولياء ، ولكن حواء ام الناس اجمعين ، ونحن نحتج على هدم مقامها . فاقتنع الشريف بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر^(١) وفي ايام الشريف عون ظهرت مواهب ابن اخيه الحسين فتلاً ذكاه واشتد عزمه وكان في شعوره ومسايعه عربياً كريماً ، غيوراً على قومه وبلاده ، لاجباً متهوساً . ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الاعلى . فرأب الاستانة امره ، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩ هـ ليكون ضيف البادشاه واسيره مثل من تقدمه من الاشراف ، فأشرب هناك روح السيادة العالية ومباديه السياسة التي اشتهر بها المايين .

صعد الشريف حسين في الدواوين الى مقام المقربين من السلطان واسندت اليه رتبة الوزارة مثل ابيه ، وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة ، فاستمر في وظيفته الى سنة ١٣٢٦ هـ اي اول سنة الدستور العثماني وكانت مدة اقامته هذه المرة في الاستانة سبع عشرة سنة . ثم عاد الى ام القرى اميراً عليها ،

(١) هذا المقام او القبر هو في جده ، طوله حجة وسبعون قدماً ، وامنا حواء مدفونة فيه . وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الاخرى للعائلة الاولى البشرية وكل واحد منها يبعد مئات الاميال عن الاخر . قد يكون قايين غر هارباً بعد ان قتل هابيل فجاء البلاد التي تسمى اليوم عدن ، ومات ودفن هناك . فان الصيادين يدلونك على كهف عال في الجبل الى البسين وانت سائر من التواهي الى عدن القديمة - هذا قبر قايين ! اما قبر ابوه آدم فقد سمعت به في النجف بل هو هناك وقل من يعرف ذلك من غير اهل الشيعة الذين يزورون المشهد اي مقام الامام علي . فهم اي الزوار ، عندما يقفون تحت القبة المباركة امام ضريح الامام ، يسلمون قائلين : السلام عليك يا علي وعلى ضجيعيك آدم ونوح . ابونا آدم مدفون اذن مع علي في النجف ، وبين النجف وجده حيث قبر امنا حواء ما يزيد على السبعمئة ميلاً . لا بأس بالاساطير اذا كانت تنير . اللهم لا تبثت هذه الامة العربية وان كثرت ذنوبها كما تبثت العائلة البشرية الاولى .

وظل مخلصاً للدولة او متظاهراً بالاخلاص حتى السنة الثانية من الحرب العظمى
عندما اعلن الثورة وشهر الحرب على الاتراك .

ان ما يستغرب من امره في مدة امارته هو ان الحجاز في تلك الايام ايام
راتب باشا السودان ، كان نهياً للناهبين ، ومحط رجال السفها . من الاتحاديين ،
فتعددت من فوضى الاحكام المظالم ، وغدا العدل شريداً ، والامن طريداً ،
فكان الحجاج والمطوفون يسلبون حتى في ظل البيت الحرام في رابعة النهار .
ومع ذلك فلم يفضب الشريف حسين اثم من مآثم الترك يومئذ اكثر من
خروجهم ، وهو في نظره الاثم الاكبر ، على التقايد الاسلامية البالية . انها
لعمرى فضيلة فيهم يستحقون من اجلها احترام الامم المتمدنة .

اما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاسد والآثام . وقد عدد منها
في منشور الاستقلال الذي اصدره في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦ و٥ رمضان
سنة ١٣٣٤ فجات قسمين ، قماً نشأ مع الدستور وكان ملازماً له فصدر
جلالته ثمانى سنوات دون ان يحرك ساكناً عليه ، وقماً نجم عن الحرب العظمى
والسياسة التركية الجديدة . وقد ذكر من الذنوب الاخيرة في منشور
الاستقلال « مخالفة نصوص الترائع الاسلامية » و « اهانة النبي » و « التبديل
في شريعة الوراثة الشريفة » و « المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل » و « اعفاء
الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم » و « اصدار
الاحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة » وبعد ذلك احتج
على اعدام الاحرار في سوريا .

ومنشور استقلال العرب هو اساس الوحدة العربية ! انما حان لنا ، اولا
يحق لنا ، ان نتساءل نحن العرب غير المسلمين : ماذا يهمننا من نهضة اساسها
سورة البقرة ؟ واي دخل لنا في ثورة اعلنت في ذاك السبيل ولتيك الاسباب
الدينية ؟

على انه اذا انعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب اساليب السياسة نتأكد انه اتخذ الدين او العاطفة الدينية في العرب سبيلاً الى تحقيق مقاصده .

لست انكر اخلاصه في احتجاجة على ما يعتقد بدعة في سلوك الاتحاديين . الا ان الحكمة في سياسته قصرت دون المراد . قال : النهضة العربية عززوها ، وهو عالم بان احد ركنيها مسيحيو سوريا الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها ، والركن الثاني مسلمو سوريا ، واكثرهم يعطفون على الاتراك ويستحسنون الاصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الرأقي منهم الى ادخالها في الاسلام . ليس في ما يجلو الحقائق مثل الايام ، ولا في ما يظهر كامن الشعور مثل الحوادث . واعلمي ان ملوك العرب لا يفلاحون ، لا يفوزون فوزاً تحسن نتائجه وتدوم ، ما زالوا يتخذون الدين وسيلة لتأييد سيادتهم ، وتحقيق مقاصدهم ، وتعزيز العصبية فيهم . والملك حسين ، في فوزه وفي خيبته ، برهان شريف على ما اقول .

انه ليصعب على من نشأ بين الاتراك ، وتشرب روحهم ، ومارس سياستهم عشرين سنة ونيقياً ، ان يتجرد تمام التجرد من آفاتهم ، او ان يجارهم بسلاح عم اعلم به منه واقدر على استعماله . ولا يفوتك ان الاتراك حاولوا مراراً ان يعلنوا على اوروبا الجهاد ولم يفعلوا . فهل يفلح جهاد فريق من المسلمين على اخوانهم في الدين وفي هذه الايام ؟ انها لمن المحزنات . ومها كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سوريا باسم الدين اولا فان انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها انما هو رأس الحربة والفشل في سياسته كلها .

يدعونه عبد الحميد الصغير . واعلمي اذا صح التشبيه فالتصغير لا يجوز ، لان الامور تقاس ببيئاتها والاشياء كلها نسبية بما فيها من خير او شر . ان

مكة في نظر المسلمين لاعظم من فروق ، وقد قيل لي ان سجنها اظلم من
اعماق البسفور . فما قول اهل جده وقد شاهدت بعيني ولمست بيدي ذلك
الخوف المستولي عليهم ؟ الخوف من رجل مكة الظالم ، ومن سجن مكة
الظالم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم . هي وحشة لا يتخللها
بصيص من الرحمة او المعروف .

الفصل السابع

بين مكة ودون استقريت

رسول اللورد كيتشنر - التجنيد في الحجاز - الشريف يعترض السياسة -
النظام في سوريا - احتجاج الشريف وجواب جمال باشا - فيصل في الشام
- حيلة الشريف في اتاذه - رجوع فيصل الى المدينة - رسل الانكابل
والمفاوضات - الشروط الخمسة - التأهب للوالب - خطاب من السر ارثور
مكماهون - الشريف يطلق بشدفيته - اعلان الثورة - تسليم العاهيات في
مكة وجده والطائف - الشريف حسين ملك الحجاز - اعتراف الاحلاف به -
تهنئة الامورال الافرنسي - كتاب من مندوب بريطانيا العظمى في مصر - السر
ردجيهاند ونفات .

بينما كان جلالة الملك ومجلاؤه الاميران عبدالله وزيد جالسين ظهر يوم من
الايام الى المائدة في الطائف دخل الحاجب يقول : غريب في الباب يبقي
سيدنا . وكان الرجل رسولاً خفياً جاء الحجاز متذرعاً بالحج وهو يحمل الى
الشريف حسين من مندوب بريطانيا العظمى في مصر اللورد كيتشنر دعوة
للانضمام الى مصاف الاحلاف . فابى يومئذ الشريف . ثم كتب اليه خلف
اللورد كيتشنر السر آرثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردد وتودد .

وكان لا يزال محافظاً على ولائه للعرش العثماني مع انه لم يحضر الى
المدينة ليسلم على انور وجمال عندما زارها في طلائع سنة ١٩١٦ . وقد كان
نصح الاتراك ان لا يدخلوا في الحرب العظمى ، ولكنه بعد دخولهم عرض
عليهم المساعدة بشروط منها العفو عن المسجونين السياسيين في سوريا والعراق ،
واعطاء البلد نوعاً من الاستقلال اي انشاء حكم لامركزي فيها .
وعندما رفض الترك طلبه والحو عليه - رغم ذلك - بالتجنيد في الحجاز
راح الى قرية خارج مكة يعترض السياسة الى حين .

ثم حدثت الفظائع في سوريا ، ورأسها شتى احرار العرب ، فانارت غضب الشريف فكتب الى جمال باشا يحثج على اعماله القاسية ، فأجابه جمال ان يتقي نفسه بدل ان يدافع عن سواء . وكان الامير فيصل في الشام يومئذ فضاف الملك عليه واحجم عما كان يدبره من امر الثورة الى ان يخلص ابنه من الخطر هناك . فكتب الى جمال باشا يقول انه مهم بالتجنيد وسيشارك العرب مع عساكر الدولة وحليفاتها المانيا في الزحف على ترعة السويس اللهم اذا اسرع فأرسل الامير فيصلاً الى الحجاز لهذه الغاية . فجازت الحيلة على جمال باشا وجاء الامير فيصل الى المدينة ومعه عشرة آلاف ليرة واربعة آلاف بندقية .

وكان الانكليز في اثناء ذلك يواصلون مفاوضاتهم السياسية مع الشريف المسترود المتوحد ، فارساوا اليه المستر ستورس الذي صار بعدئذ حاكماً على القدس والكرنل هوغارث ثم الكرنل لورنس فاسفرت المفاوضات كلها عن الشروط الخمسة التي تم الاتفاق عليها في الشهر الاول من ١٩١٦ وهذه هي :

اولاً : تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقاً خليج فارس ، وغرباً بحر القازم والحدود المصرية والبحر الابيض ، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبها في خليج فارس ، ما عدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود . وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي اجرتها بريطانيا العظمى مع اي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع اربابها امراء كانوا او من الافراد .

ثانياً : تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وحياتها من اي تدخل كان باي صورة كانت في داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية

والبحرية من كل تعدد ، اياً كان الشكل ، حتى لو وقع فتنة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة . وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة اي الى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية .

ثالثاً : تكون ولاية البصرة تحت مشاركة بريطانيا العظمى الى ان تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية . ويمين من بجانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشاركة مبلغ من المال يراعي فيه حالة الحكومة العربية .

رابعاً : تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

خامساً : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين او من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها .

وظل الشريف حتى بعد هذا الاتفاق الذي تم في كانون الثاني من سنة ١٩١٦ يعد وينسوف الانكليز ويعدّ العدة سراً للعمل الخطير ، يتأهب للوثوب . وكان قد كتب الى المندوب السامي في مصر كتاباً يعلمه بذلك فاجابه السير آرثور مكماهون في كتاب مؤرخ في ١٠ اذار سنة ١٩١٦ (٦ جمادي الاول ١٣٣٤ هـ) يقول :

« قد تلقينا رقيبكم المؤرخ في ١٤ ربيع الاخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الامين . وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تتنون اتخاذها وتزونها موافقة للاحوال الحاضرة . ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تجيزها ويسرنى ان اخبركم بان حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم وان كل شي . رغبتكم بالاسراع فيه وفي ارساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا . وستحضر الاشياء الباقية بكل

سرعة ممكنة . فتبقى في بورت سودان تحت امرم الى حين ابتداء الحركة واعلامنا رسمياً بها . وقد انتهت الينا اشاعات مؤداها ان اعداءنا باذولن الجهد في اعمال السفن ليبتوا بواسطتها الالغام في البحر الاحمر ، ولا لحاق الضرر بمصالحنا هناك . فترجوكم ان تسرعوا باخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم » .

مرت اربعة اشهر على الاتفاقى الانكليزي العربي قبل ان يطلق الشريف حسين بندقيته من قصر الامارة بمكة . وكان الحجاز يعمى من شدة الحرب واهوالها اكثر من سواه من الاقطار العربية . فسدت ابواب البحر ، وانقطع الحجاج عن الحج ، ونفذ القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس وهلك مئات من الجوع . وقد قال جلالة الملك انه ظل واهل منزله سنتين يأكلون الدخن .

مرت الاربعة الاشهر وكان قد اصبح الامير فيصل في مأمن من الاعداء ، ولديه فوق ذلك من الملم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق بورت سودان من المصدر الذى لا تنفذ عاداته وقواته .

فتوكل الشريف على الله . ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ هـ (٢ حزيران ١٩١٦ م) قبل الفجر ويده بندقيته اطلقها طلقة واحدة كان لدويها صدى في جده والطائف والمدينة . أعلنت الثورة في مكة وجده في اليوم الاول ، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني . وكان ما لديه من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الامير زيد مجنوده قلعة « اجياد » بمكة ، وهجم الامير عبدالله على الطائف ، وكان الشريف محسن قائداً في جده ، والاميران علي وفضل ، وقد خرجا من المدينة ، يجتمعان العربان ليحاصروا الترك فيها .

وقد برهن ابناء الشريف خصوصاً صغيرهم الامير زيد على بسالة فيهم
اظهرها القتال، وعززها الجلد في النضال ولم يمر شهر على حصار قلعة «أجیاد»
التي كانت تصب نارها على مكة، وخصوصاً على قصر الامارة فيها، والشريف
في غرفته الخاصة في ذلك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي
كانت تحترق السقوف والجدران، فلم يمر شهر حتى كمل الحصار بالنصر .
سامت «أجیاد» في ٤ رمضان . ثم استولى الامير عبدالله على الطائف
في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة .

وفي ٢ محرم ١٣٣٥ هـ (٣١ تشرين الاول ١٩١٦ م) يوبع الشريف
حسين بالملك، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الاحلاف الكبرى، اي
انكلترا وفرنسا وايطاليا، ملكاً على الحجاز، وجاء الاسطول الانكليزي
والافرنسي الى جده يحملان الى جلالة الملك تهنئه. تلك الدول احلافه،
فخطب في حضرته اميرال الاسطول الافرنسي ودعاه باعظم امراء العرب .
قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة وذلك الاطراء من الاميرال الافرنسي
واكتنه لا ينسى ما اُخط على الورق وما لديه من الوسائل التي كان يحملها
كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة هوذا
كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المندوب السامي السر
ردجيند ونجت، مؤرخ في ١٩ نيسان سنة ١٩١٧ م و ٢٧ جمادي الثانية
١٣٣٥ هـ وفيه ما يلي :

فاؤمل ان لا يبرح من بال جالستكم ان الحكومة البريطانية هي
التي تحترم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل، والحليفة الوفية
التي لا تخون اليهود .

الفصل الثامن

الوحدة العربية^(١)

رأس البلية فيها - معاهدة سيكس بيكو - كتاب الدر ادوارد غراي الى سفير
فرنسا في لندن - بشرط ان تكون المدن الاربعة ' حمص وحماه والشام وحلب ' للعرب
- تنازل الملك عن جزء من سوريا - وماذا في شبه الجزيرة - قبيلة العرب الفاتحين
- الاهتمام بسلم البيت قبل الاساس - فضل الحسين قبل ان صار ملكا - طموحه -
- عداوة لامراء العرب - الخلل في سياسته وثباته فيهما - امانيه واماني ملوك
العرب - الشرط الشمالي من الشروط الخمسة - حلفاء بريطانيا العظمى - خذلاء
وكلائها او جهنهم - سذاجة العرب - دولة سوريا هاشمية - تنازل الملك والسجابه
- « لا ابقيها » .

انه ليصعب على من انعم النظر وكان منصفاً ان يقول من هو رأس
البلية في القضية العربية . واذا ما بعينا الحقيقة كل الحقيقة في الموضوع ، اي
موضوع الفشل ، يبدو امامنا في اربعة اجزاء تجسدت في انكلترا وفرنسا ،
ومن تولى الزعامة من العرب ، ثم العرب انفسهم . رأس البلية اذن تبين ذو
اربعة رؤوس .

واكن هناك عاملاً واحداً يعد من اسباب الخيبة والفشل يشترك معه
عامل اخر . الا هو السياسة الدولية السرية . لنجتنب التعميم . ان المعاهدة
السرية - التي كانت سرية - بين فرنسا وانكلترا ، اي معاهدة سيكس
بيكو ، هي من اهم اسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية .

وقد تم عقد هذه المعاهدة في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ اي قبل ان اعلن
الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يوماً . فبينما كان السير ارثور
مكماهون يفاوض مكة ويقطع للعرب العهد كان المسير بيكو والكورنل

(١) لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب في اخر الجزء الثاني

سيكس قد اتقا عملها المشؤوم فقسم البلاد السورية الى مناطق سياسية اقتصادية ، زرقاء ، وحمراء ، وسمراء ، وهي كلها اليوم اذا اعتبرت مصلحة البلاد مناطق سوداء .

على ان الحكومة الانكليزية لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد او دون شرط وقيد . فقد كتب السر ادوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ الى سفير فرنسا في لندن المسيو كليون كتاباً مؤرخاً في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ يقول فيه ان حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) اكراماً لمصالح الاحلاف العامة بشرط ان يشترك العرب بالحرب ويكون لهم المدن السورية الاربعة اي حمص وحماء وحلب ودمشق .

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الانكليز البلاد السورية كلها ، ثم تنازل عن مرسين واسكندرونه ، واستمر يطالب بالمدن الاربعة والسواحل ايضاً . ثم اعترف للانكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشاركة - وقد ترجمها ترجمان الديوان الهاشمي بالاشغال - على ولاية الموصل . نعم ان الشرط ينص حرفياً على الاستيلاء مشاركة كان ام اشغالا . والاستيلاء يبدأ غالباً بالشرط وينتهي بالاطلاق

يجوز ان نقول ان لولا المعاهدة السرية بين فرنسا وانكلترا التي تقدمت المعاهدة بين انكلترا والشريف ، لكانت تحققت اليوم الوحدة العربية ؟ ليس من ينكر ان تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال ، في سوريا وفلسطين . ولكنها لم تصل بكل اسبابها المدمرة الى شبه الجزيرة . واني في هذا القول لا انطق بغير نصف الحقيقة .

اما نصفها الآخر فهو ان الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذ اهتمامه بسوريا وفلسطين ، ولا جزءاً من ذا الاهتمام . وماذا في شبه الجزيرة ، اذا مال بوجهه اليها ، غير الامراء الاعداء ، والقبائل المتسردة ، والصحاري

والقفار؟ اما سوريا وفلسطين ، قبلة العرب الفاتحين ، فينبغي ان تكونا جزءاً من الحجاز او يكون الحجاز جزءاً منهما . لا فرق عند الشريف . وفي ذلك الانضمام تتحقق الوحدة العربية .

افلا ترى في هذه الخطة ان صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالاساس؟ وليس الاساس ايها العربي الغيور في سوريا وفلسطين ، بل هو في نجد واليمن وعسير ، في الامراء الاعداء والقبائل المتردة . فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم الى كلمته ، وجمع شتاتهم تحت رايته ، لكانت له سيادة تذل عندها عقبات الشمال ، وترول الوان المناطق السياسية كلها . ولكنه ، وقد فشل في سوريا وفلسطين ، امسى ولا نفوذ له يذكر في شبه الجزيرة .

اقول هذا وانا عالم بالجلالته من الفضل في سبيل القضية قبل ان صار ملك الحجاز . وانه في ثباته ومضائه ، وفي دهائه وابائه ، عندما كان يهدد السبيل الى العمل الخطير ، ذاك العمل الذي لم يقدم عليه الا بعد ان نال من دول الاحلاف مطالبه المادية كافة ، من سلاح وذخيرة ومؤونة ومال ، واخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها ، انه ، وان كان مبدؤه المساومة ، لجدير بالاعجاب والاجلال . ولكنه بعد ان صار ملك طمع بان يكون ملك العرب . ولم يكن في اساس عمله ما يجيز مثل ذا الطمع . فهو فوق احتقاره امراء العرب الحاكين اضمر لهم العدا . كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة . ومهما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقده حقاً ، فان الخطل في سياسته العربية تقدم السداد في ثورته الحجازية .

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجاً ، وقد انكشف الستار ولم يعد في القضية سر يستثمره الدهاء .؟ انه لوهم قديم طلي بذهب حلم جديد ولكن الملك حسيناً اصلب ساسة الارض اليوم رأياً وايستهم عوداً . فهو وان شابت الاوهام ، وهرمت الاحلام ، لا يطوي

العلم ولا يكسر الحسام . وقد يموت شاهراً سيف السياسة والدها . على
اعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي ، والوحدة العربية . ما
اعظما وما اجملها ثقة ، تلك الثقة بالنفس .

اجل ، ومن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيا العظمى غير
رجل طراح ثقته بنفسه اعظم من ثقة الانكليز بانفسهم ؟ ومن من امراء
العرب الذي يعرف بعض الشيء . عن زملائه واخوانه في الجزيرة يعلل النفس
بتحقيق تلك الاماني ، اماني الشريف ، واماني الملك ، واماني المنقذ الاكبر ؟
وهي كلها واحدة لا تتغير .

واكتبها لا تتفق مع اماني الآخرين . قلت انه اضمر لهم العدا . في
الشرط الثاني من شروط الخمسة . فقد جا . فيه ان « لو وقعت فتنة داخلية
من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء » تتعهد بريطانيا العظمى ان
تساعده « مادة ومعنى » عليهم . ولا ريب ان ابن سعود والادريسي كانا في
ذهن الملك عندما امر وزيره ان يكتب هذا الشرط . ولا ريب ان معتد
بريطانيا العظمى كان يدرك ذلك لما بين الملك وابن سعود والادريسي من
العداء القديم . ولكن سلطان نجد وسيد عسير من اصدقاء بريطانيا العظمى
واحلافها ، فكيف يمكنها ان توافق على شرط قد يوجب عليها محاربتهم من
اجل الملك حسين ؟

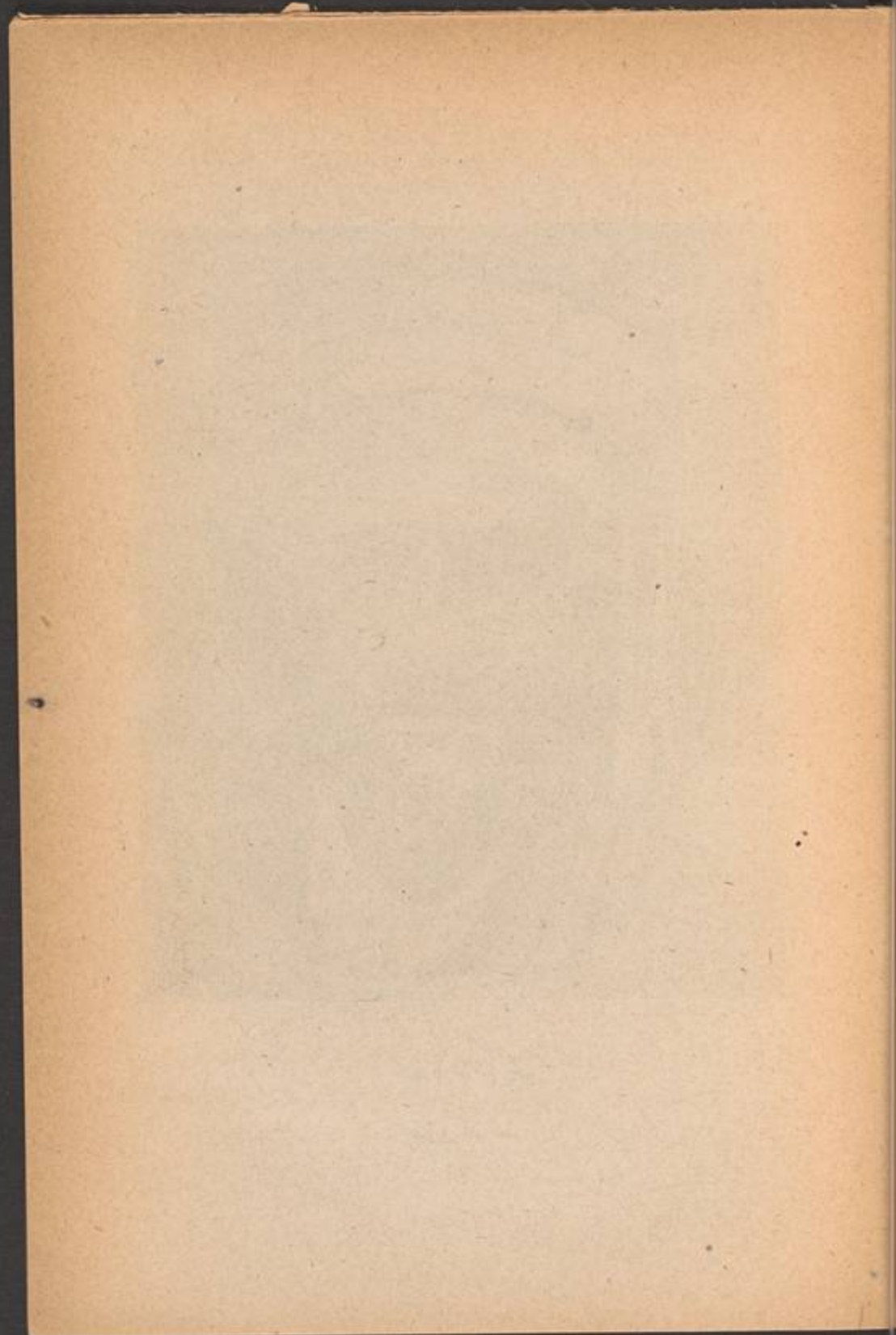
وكيف يستطيع الانكليز ان يقوموا اليوم بشروط اتفاق نسخته معاهدة
سيكس بيكو ؟ ان تلك الصفقة لصفقة يائس مستهتر . وان في تلك الشروط
دليلاً على سذاجة في المنقذ الاكبر مها كان دهاؤه السياسي . وان في قبول
بريطانيا العظمى بها دليلاً على جهل في معتدها ، او حماقة في رُسلها ، او
خدعة في حكومتها مها كان من قول رجالها في برّها بالوعود ومحافظتها على
المهود .

قد أدرك جلالته الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وعودة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية ، يريدنا أو لا سورية ، وقد لا يريدنا إلا هاشمية . فكتب قبل انتهاء الحرب بثلاثة اشهر الى فخامة نائب الملك في مصر كتاباً يقول فيه : « فمتى اضفنا عليه تظاهر عجزى بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم علي الانسحاب من الامر والنازل عنه » . . . ثم قال وهو لا يزال بصر على الشروط الخمسة : « فاذا كان لا بد من التعديل فما لي سوى الاعتزال والانسحاب . . . وانها (اي بريطانيا العظمى) لا ترتاب في اني واولادي اصدقاءها الذين لا يتغير ولازهم واخلاصهم . . . ثم تعيينون البلاد التي يستحسن اقامتنا فيها للسفر اليها في اول فرصة . »

ولا تزال هذه لهجة الملك ولا يزال هذا قصده منذ ذلك الحين الى يوم تشرفت بمقابلته في جده ، وقد قال لي يوم ودعته . وهو يقبض على حليته : « اني لا ابغها (اي الزعامة) لا ابغها . ليتفق امراء العرب عليها وانا اعزل . ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فانسحب اذا شاؤوا و اشار بهم بما يتفقون عليه تابعاً كنت او متبوعاً . اقول ، يا حضرة النقيب ، تابعاً كنت او متبوعاً . » وهذا ما وطد في يومئذ احد المقاصد من رحلتي ، فشجعتني في رسالتي الوطنية العربية ، وحبب الي خدمة جلالته في تمهيد السبيل الى التفاهم بينه وبين امراء العرب .^(١)

انتهى القسم الاول

(١) في تاريخ نجد الحديث للمؤلف ، صفحات ٢٠٣ - ٣١٦ تحفة تاريخ الملك حسين .





حضرة الامام يحيى

تصوير المؤلف

القسم الثاني

الامام يحيى بن حميد الدين

المتوكل على الله

اليمن

حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الاحمر الى تعز فاويه فمقعبه .
شمالاً خط يمر في بلاد خولان وبني بشر الى نجران . غرباً البحر
الاحمر من الشيخ سعيد الى ميدي وشرقاً البحر السافي او
الربع الخالي .

الريثة : لواء صنعاء ولواء الحديد ولواء تعز ولواء صعده .

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف مليون ٢٤٥٠٠٠٠٠٠

مساحته : نحو اربعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو
اسلام وبنو مطر والمكارمه .

اهم بلدانه : صنعاء وذمار وريم واب وتعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخه .

مذاهب : الزيدية والاسماعيلية والسنّة (شوافع) واليهود .

الفصل الاول

التبليغ في الترويع

« والله نذبحه » - « سفرك الى اليمن مستحيل » - وصولنا الى عدن -
 « يا امر من الحاكم » - التوصل الاميركي - وكيل بريطانيا العظمى - المعري وعمر
 الهيام - الخطر في السفر الى اليمن - « لا يمكننا ان نحميك » الاشاعات
 والشبهات - سلطان لبحر يرحب بنا - زيارة بقيود - الاعتراض على رفيقي
 « العجازي » - الجواسيس - السياسة في الترويع - وصيل الامام يحيى في
 عدن - اللغة العربية في المهجر - سفير يحمل سيفاً وخنجرًا - المفسدون -
 جبال المأخنة - وميض الامل - حجاب من دار الاعتماد - حجاب من وصيل
 الامام - الجاسوس الثائب .

كنت ذات يوم في ادارة احدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل
 غريب اللهجة لا اللسان يبغني كتاباً يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية .
 فسألته : من اين انت ؟ فقال : من اليمن . وكنت يومئذ في اهبة السفر
 الى بلاد العرب فأستأنست بالرجل وبلهجته وقلت ، وانا راغب في الاستفادة :
 اجلس وحدثني عن بلادكم . فقال علي الفور : بلادنا طيبة الهواء . والماء
 ولكن اهلها دائماً في احتراب . فقلت : ومن يحاربون ؟ فاجاب : حاربنا
 الاتراك ، وحاربنا القبائل ، وحاربنا الادريسي ، ويحارب دائماً بعضنا بعضاً .
 - وهل الامام يحيى حاكم اليمن كله ؟

- لا . هو يحكم جزءاً صغيراً منه . نحن اهل اليمن لا نخضع لاحد
 دائماً . نحب الحرية ونحارب من اجلها . نذبح اقرب الناس الينا لتكون
 مستقلين . نقول للامام : هذا الرجل لا نشتهيه (لا زيده) حاكماً ، ونقيم
 منا شيخاً علينا ونقول له : انت حاكمنا انت امامنا .
 قلت : واذا ابى عامل الامام التنازل عن منصبه ؟ فاجاب بلهجة هادئة :
 والله نذبحه .

ثم سأته ما اذا كان من اجانب في اليمن فقال : لا . وانه لا يؤذن لهم لا بالاقامة ولا بالسفر هناك .

- واذا جاءكم الاجنبي .

- والله نذجه .

- واذا ساح متنكراً .

- اذا عرفناه فوالله نذجه .

- او ما يؤذن للسوري وهو عربي مثلكم ؟

- اذا كان مسيحياً فهو والفرنجي سواء عند اهل اليمن . وقد يحيمه لسانه او يصرف النظر عنه .

قلت واذا انكشف امره فعرقتوه ؟ فأجاب الرجل دون ان يغير لهجته الناعمة اللطيفة : والله نذجه . كأنه يقول نضيفه ونكرمه .

سافرت من نيويورك وفي من قصة « نذجه » ما يضحك ويزعج معاً . ثم رويت في مصر . قلت في بيت احد الاصدقاء اني مسافر الى اليمن وكان الاديب السوري نعوم شقير^(١) حاضراً فقال على الفور : غير ممكن ، فذكرني رحمه الله بالقصة وحاقت بي اشباح من بلاد « نذجه » . فقلت : ولماذا ؟ هل من خوف على حياتي ؟ فأجابني ثانية . مستحيل . غير ممكن . ثم صرح بما فيه بعض الاطمئنان اذ قال : لا يأذن بذلك اولياء الامر .

- ومن هم اولياء الامر ؟

- الانكليز .

- وهل للانكليز سيادة في اليمن ؟

(١) له تاليف ادبية وتاريخية منها « تاريخ السودان » وكان قبل وفاته يشتغل في تاليف « تاريخ لمحج »

— هم في عدن يرصدون الابواب . ما لك واليمن ؟ قد يأذنون بزيارة سلطان لحج وهذا يكفي . في اليمن حرب اليوم ، والاختار كثيرة . . . زد على ذلك . . .

ولم يزد شيئاً جديداً . سمكت فروغ ثم قال : مستحيل سفرك الى اليمن مستحيل . ودعاني لالعشاء في بيته . فقلت : اني اقبل دعوتك بشرط الا تقول ان سفري الى صنعاء . مستحيل . فقبل الشرط رحمه الله وما لمسنا في تلك الليلة في الحديث حاشية من حواشي اليمن .

جئت الى جدّه واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين بني . وخطر لي ان لا بأس بل لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يوافقني فاجاب تلفظاً سؤلي . فسافرنا متوكلين على الله ، انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً ، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وكانت العلائق بين الانكليز والملك متراخية في ذلك الحين كما اسلفت القول في الفصول الاخيرة من القسم السابق .

وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد ان اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلاً : بامر من الحاكم . فقلت : وهل هو امر عام او انه يختص بنا فقط ؟ فأجاب : هو امر عام يا سيدي . ثم اخذ عنواننا ووعدنا بان يعيد الجوازات الينا في ذلك اليوم ولكن ذلك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا انه لا يبر دائماً بوعده .

وقد كنت احمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطن فقدمته للقنصل الاميركي وسأته ان يطلب من الحاكم إعادة جوازي . ثم اعلمته بقصدي فصر مدعوشاً ثم قال : وقد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك . . . انصحك لا تسافر — هذا اذا اذن لك . . في البلاد حرب اليوم ، والطرق

غير امينة ، وانا لا اقدر ان احبك .

فقلت وكاد ياكني الغيظ : اسمع يا رجل ، قد تنازلت في العاصمة وفي الوزارة الخارجية عن حقوقي كلها . ولا اسألك الآن غير كتاب تكتبه الى الحاكم تعرفني اليه وتقول له اني ابغي مقابله . فكتب القنصل الكتاب في الحال ولكن الحاكم ابطأ في الجواب كما ابطأ في اعادة الجوازات

جاءني القنصل صباح اليوم الثالث وفيه بعض الاضطراب يقول : لست ادري ما السبب في التأخير والكني اجتمعت في النادي مساء البارح بالمعاون الاول . تعال تزوره الآن . فذهبت الى دار الوكالة فاستقبلنا معاون قائلًا للقنصل : قد كتب اليك الجنرال وعين هذا اليوم للمقابلة وتلطف حضرته بان قابلنا في تلك الساعة دخلنا الى مكتب الجنرال سكوت^(١) وكيل بريطانيا العظمى والحاكم المدني والعسكري في عدن ، فاذا هو كهمل طويل القامة طلق الحميا . صافحنا وامر بالجلوس فجلس معنا المايجر ريلي معاونه الاول . وكان القنصل اول المتكلمين . ثم قال الجنرال مخاطبني : قيل لي انك شاعر . فقلت : صدق من اخبرك . فضحك وتبع الموضوع فكان الحديث في شعراء العرب والعجم . فذكر الجنرال عمر الحيام ، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به اكثر من سواهم لانه بشير الحمر واللهو والتمنا . ثم قال : اما الشاعر الذي ترجمته الى اللغة الانكليزية . . . فساعدته في لفظ اسم ابي العلاء المعري . وقلت كلمة اجابة لطلبه في الفرق بين الشعارين : فلسفة المعري عقلية وفلسفة الحيام محض حسية .

عجبني من الجنرال انه لم يفاجئني ، فيجبهني ، كما يفعل موظف اميركي ، في الحديث عما ابغي منه . وكان في ذلك اشبه بوظف شرقي . ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة . تطرقنا من

الشعر الى العقائد الدينية ثم الى السياحة فجهرت بقصدي فقال : او لا تهملك
الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكن في السفر الى اليمن
خطراً اكيداً ، خطراً كبيراً على المسيحيين . ونحن لا نستطيع ان نحملك في
ما تجاوز حدودنا .

فقلت : يا حضرة الجنرال ، هذا قصلي وقد غسل يديه مثل بيلاطس
في قديم الزمان . وانا راض بذلك . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي
أيجوز لي ان اطلبها منكم ؟ . . . اني مسافر الى صنعاء . يا حضرة الجنرال
وليس لي مهمة سياسية . لا علاقة لي باية حكومة من حكومات العالم . الا
اني احب العرب ، وانا اصلاً منهم ، واحب في سياحتي ان اخدمهم ما استطعت .
فاذا تأكدت بعد البحث والمشاهدة انهم في حاجة الى مساعدة اكثر
انصح لهم بالتفاهم واحثهم عليه . واني اجهر امامك وامام قنصل اميركا
بذلك لعلمي اننا كحكومة وكأمة لا يهتنا اليمن ولا مطاعم لنا في البلاد
العربية . فاذا كنت تستطيع ان اخدم اكثرنا في ما اعتقده نافعا للعرب
افعل ذلك مسروراً ومجاناً . لا اسألکم مكافأة غير الاذن بالسفر الى
صنعاء . واذا مهدتم لي السفر الى نجد كذلك اكون لكم شاكرأ وفي ما
فيه مصلحة العرب خادماً اميناً .

فقال الجنرال : لا دخل الحكومة عدن بنجد . اما السفر الى صنعاء فهو
كما قلت محفوف بالاخطار وخصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا اذنا
لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم
دون تلك الحدود .

فقلت : وهل تريد ان اكتب لكم صكاً اتنازل فيه عن حقوقي بل
عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلاً : سأنظر في الامر
واكتب اليكم قريباً .

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة : يظهر ان الجنرال يعرفك
وسأبحث لأعرف بعض ما يعرفه او يظنه غير ما سمعناه الآن . وما كان
عوانياً او مبطلناً . فأوقفتني في اليوم التالي على ما كنت اجهله من غرائب
الامور التي اصبحت في البلد حديث الناس .

اولها ، اني رسول الملك حسين السياسي الى الامام يحيى . والبرهان على
ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي . فكيف يأذن لنا الانكليز بالسفر
الى صنعاء . وهم لا يرتاحون الى عقد معاهدة بين الملك والامام .

وثانيها ، اني قادم من اميركا من قبل بعض الشركات المالية ابغني
امتيازات من حاكم اليمن . والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بأمري . فكيف
يأذنون بالسفر الى صنعاء . وهم المنافسون ؟ فاذا كان هناك من امتيازات ،
فانما يبيعونها لانفسهم .

وثالثها ، اني ممثل حزب النهضة العربية في مصر وقد جئت سائحاً في
البلاد ابث هذه الفكرة فاستثير العرب على الانكليز . والبرهان . . . سبقنا
في البرق الى عدن .

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك ؟ وهل يستغرب صدور الامر الى
ادارة الشرطة براقبتنا انا ورفيقي ؟

ولى الاسبوع وانا انتظر واحاول في الظنون التثبت والانصاف . وكنت
اثناء ذلك طلبت ان ازور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج واراد
القنصل مرافقتي فقبل لي : ينبغي ان اكتب الى سموه وان استأذن كذلك
الانكليز . فكتبت الى سمو السلطان والى معاون الحاكم فجاءني الجواب من
الاول مؤهلاً مرحباً ، وجاءني ورفيقي بواسطة القنصل اذن من الثاني مصحوب
بكتاب يقول فيه ان الجولان خارج حدود لحج محظور ومنوع . وان السفر
بدون حرس لا يكون ، وان امر الحرس « منوط بهذه الدائرة » اي دائرة

الحاكم . اظنه خاف ان يسافر من ليج بدون اذن منه ونستغني كذلك عن الحرس . على اننا والحق يقال بتنا والخطر الاكيد احب اليانا من الترويع والقيود .

دفع القنصل الكتاب الي وحذرتي من اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية : اكثرهم يزورون المايجر ريلي بعد ان يزوروك . ثم قال : ويظهر ان اعتراض اصحابنا على رفيقك اشد من اعتراضهم عليك . فأكدت له ان رفيقي صديق قديم وان لا صفة له رسمية في هذه السياحة ، وانني ارفض الاذن بالسفر اذا صدر باسمي فقط .

بعد ثلاثة اشهر اي بعد رجوعي من صنعاء عرفت السبب في ابطاء سعادة الجنرال الحاكم . فقد اضطره امرنا الى مراجعات كثيرة طويلة بعيدة اتصل بعضها بوزارة المستعمرات بلندن ، وبوزارة الخارجية الاميركية يواشنطن . ومن هو امين الريجاني ؟ وهل يؤذن له بالسفر الى صنعاء ؟

عند ما رأت الوكالة البريطانية ان لا بد من الاذن اتخذت خطة اخرى فسمت بواسطة اصحابها ، ومنهم اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية ، ان تقنعني بان السفر الى صنعاء من الحديدية هو اسهل طريقاً واقل خطراً . وقد ارادت بذلك ان ازور اولاً صديق الانكليز السيد الادريسي فارى في تهامة ما قد يغنيني عن زيارة خصمهم حضرة الامام . فرفضت بتاتا وكتبت الى معاون الحاكم ، جواباً على ما جاءني في كتابه الى القنصل ، اسأله ان يتفضل فيوقفنا بالحرس اللازم الى حدودهم اي الحدود التي تنتهي عندها حمايتهم . فجاؤني منه جواب يقول فيه : قد كتبت الى سلطان ليج بخصوص طلبكم وسأعلمكم بما يجد .

اقف عند هذا الحد في القصة لارجع الى مصدر اخر من مصادرها الغريبة . بعد ان زرت الوكالة البريطانية رحلت اقصد الى وكالة اخرى سياسية . يمت

في فم البركان ، في عدن القديمة ، ومعني رفيقي قسطنطين ، بيت القاضي عبدالله العرشي وكييل حضرة الامام يحيى وسفيره الى الانكليز في عدن . فلما وصلنا الى دار السعادة اليمانية بادر الى استقبالنا عند الباب رجل صغير نحيل في قميص من القطن قصيرة ، تحتها قميص اخرى من الصوف زرقاء . وفي رجله الحنف ، وعلى رأسه ، وقد نزع العمامة ، طاقية بيضاء . هو القاضي عبدالله سفير الحضرة الامامية .

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية وكان الى جانب مسند القاضي عدن من الجرائد المصرية والسورية وفيها جريدة نيويوركية اشار اليها فضيلته قائلاً : نعم الغيرة غيرة ابنا العرب في اميركا على الوطن واللغة . ولكنني اقف حائراً في مطالعتي هذه الجريدة عند الفاظ فيها وتعابير ليست من العربية بشي . أفلا يقرأون النحو واللغة على اساتذة من العرب هناك ؟ اما هذه - وأشار الى مجلة مصرية ، فاسلوها « ناهي » (جميل) . . . ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف ان يوم وصلتنا بوقيتكم من بورت سودان وصلت هذه المجلة وفيها مقال عنكم ، طالعناه والاعجاب بكم يسابق الشوق اليكم . فشكرنا الله الذي حقق املنا باللقاء . . . ومولانا الامام هو عالم كبير وشاعر مجيد . وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . . . يوم وصلتنا بوقيتكم يا حضرة الكامل اشعرنا بالسلك (تلغراف) حضرة الامام . ومتى جاء الجواب نسارع اليكم به . نحن في خدمتكم . وهذا قليل تجاه من وقف نفسه على خدمة العرب . . .

وفي اليوم التالي جاء فضيلته ، لابساً ثيابه الرسمية ، راكباً السيارة ، يزورني في التزل . وكان في معيته كاتب سره واثنان من العبيد . دخل احدهما علي يقول : مولانا القاضي . فلبست عقالي وخففت الى استقباله . ولولا العبد المبشر بقدمه لما عرفته لاول وهلة . ابن القميص والطاقية والحنف

من هذه المطارف الفخمة التي جاء يوفل بها . وهذا البرد الياني المخطط بالاصفر والاحمر وقد طرحه على كتفه كأنه ردا . روماني . وهذه العامة العامرة الباهرة الالوان ، والسيف يحمله بيده ، والجنيدية في زناره . هوذا حقاً سفير الحضرة الامامية دام نصرها .

والغريب ان حضرة القاضي كان في تلك الزيارة رسمياً في حديثه كما كان في ثيابه . فما انعش لي املاً ، ولا قال انه زار كذلك صباح ذلك اليوم الوكالة البريطانية . فلا غرو اذا فتحت اذني لرواة الاخبار الذين قالوا انه راح يستشير الحاكم في امري ، وانه لا يقدم على عمل لا يُستحسن في دار الوكالة ، وانه يقبض منهم ، لا من الامام ، المشاهرة . وقال بعضهم - بنس المفسدون - انه يقبض من الاتنين ، وانهم ، اي الانكليز ، اذا شاؤوا ان يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراماً لقنصل اميركا ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبدالله بان يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوفة بالاختار ، فلا يستطيع ان يوقفني بالحرس اللازم ، وغيرهما من الاقاويل . لله منك يا عدن ما اكثر الدسائس فيك والجواسيس .

جاءني بعد ايام كتاب من فضيلة القاضي «مجدداً للوعاد مؤكداً للوداد» يبشرني فيه بوصول بوقية من حضرة الامام محبباً بالايجاب . ثم قال : فاي وقت تريدون ان تسافروا عرفوني فأرسل معكم احد خاصتي الى امير الخليج في ماويه^(١) واعطيكم كتاباً اليه فيكرم وفادتكم ويوفقكم بين يقوم بخدمتكم وحراستكم الى السدة الشريفة . انتم منا وعلينا واجب الحب والاكرام . . .

وصلني هذا الكتاب وانا في لحيج ضيف ممر السلطان عبدالكريم فضل انتظر الفرج من الوكالة البريطانية . وكنا ، على جميل ضيافة ميموه وحفافته

(١) هي عند حدود اليمن الجنوبية وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلاً من عدن

بنا ، في حالة تعددت همومها . فقد مرض اولاً الرفيق قسطنطين بالحمل
ومرضت انا بـ «القال والقيـل» وكان داء الجدري متفشياً في البلد فنضت ان
يكون قد اصيب رفيقي به . واطلني السلطان ذات ليلة على كتاب من
الحاكم : لا تأذنوا لفلان وفلان ان يتجاوزوا الحدود قبل ان يجيئهم الاذن
منا . فاذا تمثل القارىء تلك الحال ، وقد بقينا اسراء في القصر بلجيج ، يدرك
شيئاً من سروري بكتاب القاضي عبدالله العرشي .

اسرعت باعلام القنصل فراح الى دار الوكالة يسألهم البت في الامر .
ومرت خمسة ايام حسبتها خمس سنين وانا اجتهد ان اكون محسناً بالانكليز
الظن . ولكني سئمت التسوية والمماطلة ، ونفرت من الاثرة في امر اربعة
انحاسه بيد سواهم حقاً وعملاً . ولو كان كله موكولاً اليهم لما كنت ألوم .
فها ان صاحب البلاد يوجب بنا ووكيله في عدن يعدنا بما يلزم من الخدم
والحرس في الطريق من ماويه الى صنعاء . والسلطان عبد الكريم ، رغم
رسائل الوكالة ، يوقفنا ساعة يشاء . مجرس الى حدوده . وانا ورفيقي ، وحياتنا
على كفنا ، مكثفان بهذه الضمانة .

■ - واذا مت يا مولاي (كان السلطان عبد الكريم يحاول تسكين خاطري)
اموت والله في حبكم ، في حب العرب .

فضحك سحوه وامر لي بمداعة^(١) وامر كاتب سره ان يكتب الى الحاكم
في عدن يقول انه مستعد ان يوقفنا يوم نشاء بالحرس الى ماويه . فجاءني
والحمد لله بعد يومين الكتاب التالي :

(١) تدعى النارجيلة في اليمن مداعة واطنهما تحريف مداعة لفظاً ومعنى . ففي القاموس
المداعة نقيذ الدعاء الى الطعام وفي اليمن المداعة هي الدعاء الى الانس والسرور .
وقد قال الشاعر فيها : مداعتي انيستي جليستي في وحدتي
نقول في كركرها بافه خذني بالتي

دار الوكالة . عدن . في ٥ نيسان سنة ١٩٢٢ رقم ٣٩٥

الى المستر امين الريحاني -

ايها السيد العزيز :

قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله ان يرفقكم انت وقسطنطين
بني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما ترمعون الرحيل ، ولكنه رغب الي
ان اعلحكم بان البلاد في اضطراب ، وان في السفر فيها خطراً على
المسيحيين ، وانه وان كان قد سأل السلطان ان يرفقكم بالحرس الى
الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوماً
لديكم بان الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود
المقاطعات المحمية .
لكم باخلاص

ب . م . م . ريلي

المعاون الاول للحاكم بهدن

ذكرني هذا الكتاب بالكلمة الاولى التي قالها القنصل لي : قد يُقطع
وأسك ولا أحد يسأل عنك . . . وكنت قد تركت عنده من امتعتي ما لا
احتاجه في السفر الى اليمن ، واعطيته عنوانين . في بيروت وفي نيويورك .
لينعيني في الاقل الى اهلي .

لست ادري وانا اعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب في علي ذلك
الترويع اذا لم يكن ثباتي على احد امرين وهما ثقتي التامة باخواني العرب
وعزمي على الحجاز ما بشرته من السياحة العالمية . نعم قد كنت مزوداً
بكتب التوصية من الملك حسين . وقد رأى القارى . في ما تقدم ما له من
الاعتبار عند الانكليز الذين حاولوا ان يمنعوا صديقي عن السفر لانه في خدمة
جلالته . واما اوليا . الامر من رجال الامام يحيى فسيري القارى . ما الملك
الحجاز عندهم من الاحترام .

اما الحُطَر وان جسمه الانكليز فقد كان والحق يقال في حيز اليقين
 وخصوصاً في بلاد الحواشب ، احدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز ،
 الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي . وكانت عساكر الامام في الزحف تلك
 السنة على المقاطعات التسع المحيية قد وصلت الى الحواشب ونكلت بهم ،
 فارسل الانكليز على اليابانيين طيارتين رمتهم بالقتال فتفرقوا وعادوا
 خاسرين لذلك كان العداء لا يزال متمكناً بين الامام والحواشب . ولذلك
 اطلقوا الرصاص على رجال الوفد الياباني عندما مروا بارضهم قبلنا بشهر واحد
 في رجوعهم من الحجاز الى صنعاء . فماذا عسى ان يكون حظنا منهم ونحن
 قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الامامية ؟

قيل لنا اننا اذا اجترنا سالمين المُسيير ، عاصمة السلطنة الحوشية ، نكون
 قد اجترنا منطقة الحُطَر الاكبر في طريقنا . ولكن كلمة قالها القاضي عبدالله
 العرشي في صفته الرسمية - اذا لم يكن الامن موجوداً فنحن نوجده من
 اجلكم - وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتراحم في قلوبنا
 من كلمات الترويع والتهويل . اما الكلمة التي كتبها الى حضرة الامام وقد
 اذن لنا بنسخها فاننا ندونها في هذا السفر لغرضين ، فيطلع القارى . اولاً على
 اسلوب المراسلة في الين اليوم ثم على مثال من كرم الاخلاق وحسن الظن
 يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالع في مجلة عربية . قال عافاه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

امد الله مدة مولانا ، ومالك امرنا امير المؤمنين ، والحجة على الخلق
 اجمعين ، المتوكل على الله رب العالمين ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد
 في كل وقت وحين .

وبعد فصدورها للسلام ، مقبلة بواطن الاكف والاقدام ، وهي لكم

صحة السيد الماجد . . . امين الريحاني الذي فيه سبق الاشعار من
 المملوك اليكم بوصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة
 الغزيرة والمعرفة وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة . وقد وجدته على
 جانب عظيم من الحب والمودة للعرب ، ومن اللطف . . . وعرفت ان
 لا مانع من توجهه الى حضرتكم . وكتبت في التوصية به وتسهيل
 سفره وحسن وفادته الى امير الجيش في ماويه ، حماها الله . وسيوضح
 لكم حسن نيته وما هو عليه من المحبة والمودة للامة العربية كافة عند
 المواجهة وربما تستفيدون منه ومن نصائحه . وعرفته بالاحوال ما يكون
 فيه نفع الوطن وعمرانه . وليس لمن مثلي ان يشير الى من مثلكم فقد
 نورم الله بعمرة كل شخص فتعطونه حقه وفوق حقه . وفي هذا كفاية .
 والله تعالى يصالح بكم جميع الامور والسلام عليكم .

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠
 من المملوك
 عبدالله العرشي

قبل ان اختم هذا الفصل المؤلم المفكك معاً ينبغي ان اسجل على اولياء
 الامر فعلة قد يقيدهم نشر خبرها . عندما صدر الاذن بسفرنا استخدمت
 الوكالة البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتمجس
 اخبارنا ، ويدون احاديثنا كلها واعطته الوكالة كتاباً مكتوماً ليفضه بعد ان
 يخرج من لحج ويعمل بوجهه .

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة . زد
 على ذلك انه فض الكتاب في السوق بعدن واطلع بعض التجار على ما
 احتواه سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من اخبار الجاسوسية ،
 وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها .

الفصل الثاني

في الطريق الى صنعاء.

حدود نجد - الحواشب - اجسام العرب - وادي دن - جبل روه - حديث
الولد الجندي - الخندق - ابن السلطان يلاقينا مرحباً - القصر في المسيحير -
العفاء - السلطان علي بن ماله - اعداؤه واحزانه - اخلاصه للانكليز - راتبه
الشهري - « عند الانكليز مال وحكمة » - صباح غير مبارك - رمي اللخار
على رجالنا وهم يحملون - « هم يطردوننا عجلوا بالرحيل » - اطلاق البنادق
والفتور - السلطنة تكرم الضيف - ماوية - الزيود - جيش الامام النظامي -
السيد علي بن الوزير امير الجيش - مجلس القات - « هل انت حسني او حسيني؟ »
- وجاننا الفرج في بيت من الشعر - الملك حسين وابولاده .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من خليج نبغي الدكيم التي
كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامية انكليزية من الهنود.
وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون المهجن، ورسول القاضي
عبدالله العرشي الى امير الجيش، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا .
وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن
مانع، جاؤوا باسر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم. والحوشي لا يتقل
نفسه بالعدة والسياب. ليس في العالم جندي اخف منه حملاً، وأشد منه بأساً .
ولا اظن ان في جنود الامم المتعدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليسن
الاسفل . هاك الحوشي مثلاً وجلده الاسود او الامر يلمع في نور الشمس
كالنحاس المصقول، وعضلاته الشديدة المقتولة تتحرك كالأجزاء الدقيقة في
آلة كهربائية، وقامته المتناسقة الاعضاء تُسر بالعري فيكتفي بالقوطة يشدها
على وسطه ليسترها عورته - هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظر يك
اذ يشب صاحبه، والبندقية على كتفه والامان في قلبه، كالقرال الشارد امامك .
من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو

ينظر الي من حين الى حين كأنه يبغى الحديث . سرنا في وادي دُبن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيدان تشوي الضب . وكنا بدانا في التصيد ، فترامى لنا خيال اسحم على الافو البعيد ، فوق قن من الجبال كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلاً : هذا وروه - جبل وروه - تراه من عدن وسنراه غداً من ماويه . لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا في عدن بالجبال . ولكني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . راقنا وروه يوماً واحداً وغاب عن الابصار . وكذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على فراقه . كان يحدثنني وهو ينقل البندق لثقله من كنف الى كتف ، ويشي على بؤس حاله سامد الرأس .

- العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بالايجاب .

- وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى ، فاسره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا امير ، ما فيه شر . سألته : وهل تحب الاتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينه ان نعم ثم قال : سعيد باشا^(١) رجل طيب . كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلطة^(٢) كثيرة . اما الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلط . انظر الى ذلك الجبل . وراه الصبيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينا نحن الحواشب المحافظين على الامن . الحوشي فقير واكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال : سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة يا حضرة الامير فهم يجاروننا لانهم لا يحبون الامن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد الامن للعباد ، وحضرة الامير - العفو - لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا

(١) علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن اثناء الحرب

(٢) الظلطة اي النقود الذهبية والفضية

وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت امر الامير . هل انتم تحكمون
في بلادكم ؟

قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم .

- ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

- يحكمني الان الانكليز . هل تحب الانكليز ؟

- يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر .

- وهل الحواشب يجبون سيطانهم ؟

- اي والله نجبه ، علي بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من
هو الحوشي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف
في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا في الوادي وادي دُين والجيال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء . ولا
تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى الحُندق وهي قرية خيامها من القش
والعُرف ، فيها سمسرة^(١) للقوافل والمسافرين . فاسترحنا هناك ساعة الغداء ،
وارسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام الى سمو السلطان علي ويبنه بقدمنا .

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين الحُندق والمسيمير
بفرقة اخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكباً جواداً رائعاً .
جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في ذاك الوادي اصوات البنادق ترحيباً
اطلقوا ثلاث طلقات فاجبتناهم بثلاثها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله
الخافية في الركاب ، وبده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة
الكثيرة الانوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر
الجواد اثبت منها .

(١) الخان في اليمن يدعى سمسرة والقهوة متهاية

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في الميسير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على روبة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبه الحقول المزروعة وهي تتسوج حول اكواخ من القش . ان الجمال الذي يجلب المكان لينبي . بالسلم القروي ولكنه مفقود فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول ؟ سيحيب السلطان على سؤالنا هذه جنود تطلق البنادق ثانية ولاء لا عدا ، تأهيلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أُعد للضيوف . وبعد قليل جاء بموه للسلام ، يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق اطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الارض نطبخ بايدينا الزاد . وكان السلطان وهو ينظر الينا ، أعجب بسفي البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا . . .

كان السلطان علي نجيلاً كالحيال ، عصي المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصرون حياتي^(١) هذا ابني وهذه لحياتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكي اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد^(٢) اما الاربعة فالواحد منهم فوق^(٣) يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكتون لا نعتدي على احد . والآخر تحت^(٤) يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزانة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك^(٥) لا يخاف الله . والرابع^(٦) عدونا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى يتقلب ولماذا يتقلب ا وعلينا ان نحاربهم كلهم . واننا والله نحاربهم يا امين ،

(١) قد توفي في عام ١٩٢٣ (٢) يشير الى الرهائن التي يأخذها الامام يحيى من عماله وسيجيء ذكرها (٣) اي امام صنعاء الامام يحيى (٤) اي عرب الصيحة (٥) اي عرب الضالع جبران الخواشب شرقاً (٦) اي سلطان لمحج

وتحاربهم حتى نغنيهم او يفنوننا . . لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيديا واحداً على كل جمل . والامام يأخذ مجيدين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي اليّ ويده على حِيته ، وثلاثة اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمة روية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمة روية . احسبها . وعلينا ان نؤمن للقوافل الطرق ، وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكر وننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتقوهم وتواليه ؟

فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسأبقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

ان الخواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه عدوهم كذلك في الدين ، وفي المذهب . هو زيدي شيعي ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الخفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهنا منه انه قبل بذلك الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينما كان المكارون والحُدم يجتلبون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والحُدم ، فسمعنا بفتة ان انا من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن انا . اخر تبعة — رأينا يرمى من النافذة

ولم نزل الرامي - فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجعة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا - اقول قلبي ولا اتهم رفيقي - يبتلع حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الحظر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشي عندما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقت متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الحظر الذي تتوقه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم ما فاذا هم خدعوا السلطان يحمون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤنا بالفطور ابي بالله . كيف نسافر قبل ان نغفر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟ سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها رأتنا من على السطح في اهبه الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا . فارادت تبييه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمنا صوتها او تريننا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويبيثوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

اكثر الله ايتها السلطانة من فخارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . وكيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعمل . تروعين ايتها الحوشية الالمية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع

اعجابنا حتى في بلاد الزيد ، التي تنسى المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسى
 القرية الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان
 الزيد^(١) شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسمير محتبئة في الجبل وراء
 الوادي الذي اجترناه . فشف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه
 جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فاستأنسنا به اينا استناس .
 كأننا عند حدود الامام عندنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة
 رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندي بيده البرزان
 (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم امير الجيش .

وكانت فاتحة الاطاف . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية
 تعزف بنشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج
 السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي ، فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا
 البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر مسترسلي الشعور ، اللابسين
 القمصان والعمامم المصبوغة بالنيل ، المساحين بالنادق والجنيات . وعندما
 وصلنا الى الباب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ، اوقفنا الحارس
 هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول .

دخلنا وكانت بداية الرعب والكرب ، سعدنا في درج لولي مظلم ،
 ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واجدة منها دكة ، وعلى كل
 دكة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح
 منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في اجسامهم^(٢) كنت وانا اتلص

(١) الزيد ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب
 وم وان قالوا في المنرد زيدي لا يقولون في الجمع زيدون بل زيد كأنهم يريدون
 بذلك ان زيدا متجسد في كل واحد منهم وان امتهم امة الزيد .

(٢) هم يندسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تشفى ليسيل الصباغ على اجسامهم

طريقاً تمثل القلمة بل السجن في ذلك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقرز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وما هي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهوؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، واراضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة الحيطان غمام بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفاً ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يعضون القات بل يحزنون^(١) وفي

ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقبهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا ان عاكر الامام وكثيرين من اهل اليمن يتنبلون لا انقواء للبرد بل عداداً على الحسين . على ان الوم في هذه العادة اصبح من التقليد كما يظهر لان السادة وم اولى بالحداد لا يتنبلون ثياجم .

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز ولكن القات غير الشاي . القات حشيشهم واليوضم والمسكر عندم وم يدمنونه ادمان الاوروبيين الحمر . قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الاصحاب اوقانا يصفو به العيش احياناً واوقانا
باعاذلي عن حصول القات مت كمداً لا نترك القات احياء وامواتاً
وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براك معراج قلبي حين يصعده جبريل روجي الى اعلى سواواتي

ان في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الاولى اي الكيف ، وشيناً من خاصة الافيون المخدرة ، وبعض ما في المسكرات مما ينه الفكر . وبكلمة اخرى هو يطرب النفس ، ويخدر الحواس ، ويشجذ الذهن . بل يبعث ، على اعتقاد اهل اليمن ، في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل . قد تحققت بنفسى انه يوهق ، ويحدث في المعدة يبوسة واتقباضاً وفي الفم جفافاً وعقوصة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء كثيراً . ولكني لم احس بشيء من الكيف اي خفة النفس . ولم ينه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتعمل بحكم التأثير الطويل المتوارث فمثل الحفاتي المحسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً ، ويفضاونه على خبز يومهم .

كل الناس في اليمن ، من رجال ونساء واولاد ومن اغنياء وفقراء ، يأكلون

الزارية عند منضدة صغيرة ، الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تغز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الطاهر السعيد ، فاشار الى قتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتبس لنفسه عذراً من مجرد النظر . وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فرنا بنظرة واحدة فيها شي . من الارتياح او التساهل .

القات - يجزنون . والتخزين هو ان تمضغ الاوراق مضغاً طويلاً كما ي مضغ بعض الامبركيين التبغ ، ويحفظونها تحزينة « اي كتلة » في الفم يمتروها . ولكنهم لا يصفون مثل الامبركيين الا عندما تذوب التخزينة فيصقون اذ ذاك في اناء من النحاس ما تبقى منها ويجزنون غيرها ان مجلس القات لا يتم بغير اباريق الماء وكوبوس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكوبوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس . اما الاغرب من ذلك فان اهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكتفون من قهوة قشر البن الذي يملونه كالشاي ، فتظنه البابونج لطعمه بدون سكر وهو على ما اظن مفيد لانه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من اضراره . لا ريب في ان القات مضر بالصحة والنسل . فهو يفقد المرء شهوة الاكل ، ويفسد اسباب الحمض ، ويحدث مثل الافيون شذلاً في مجاري البول ، ولا يفوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي (Catha edulis) وهو ثبت شبيه بالبطن الا ان شجرته صغيرة ، وورقة مثل ورق القمص ، بزرعه اهل اليمن في البساتين . مثل اشجار التار وبنموه باسعار غالية اذا كان من النوع الجيد اي الرخص الصغير الاوراق . ثم يقطعونه اغصاناً ويرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الاخضر ومربوطة بقشر الشجر ، ثم يجيشون بالرزم الى المجالس ، يجالس القات ، فيفكونها ويرمون بالقشر والحشيش والفضيان على الارض . ثم يبدأون بالتخزين بعد ان يغلوا الشبايك ويشملوا المداعات (التراجيل) تسمي الفرقة في تلك الساعة كقهوة الحشاشين في دماخا وكربونخا ، وكلاصطبل في فرشها .

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه يعرفه اما خطأ واما تلطفاً ، الى السيد^(١) امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلهاً من اشرف المساهين واراد ان يعرف الى ابي الفرعين انتسب ، فسألني قائلاً: هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال علي كالصاعقة ، فلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ أفلم يحذرننا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وهانحن في مجلس اميرهم وعلماهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمام بل احد ، ولا تزال والمحدثه في بداءة الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يافتي . هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذ حقيقة دينك - اصدقه بالخبر يا رجل ولكن - هل تعلن امام الجمع الزيدي الراهب مارونيتك او مسيحييتك او دروينيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهربا . وانا اتنا . ذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الخواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفاً من تعرقل مساعي - من الفشل ، من

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون البدو منهم والحضر .

الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً ولكنه سبحانه ، بعد ان غيرت فكري
خمس مرات في خمس لحظات ، فتح علي فقلت بحبيبا : انا عربي يا حضرة الامير ،
احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا
الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغفل في صميم فؤادي^(١)

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المدارة .
وكان من رجاله الذين استقبائونا خارج القصر رجل بش لقدمنا بشاشة
الصديق فلمسا القلب منه في سلامه وتبادلنا وايه الثقة والولاء . فقال يعقب
على جوانبي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون
ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها
النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً
بالمال او السيادة من الافرنج ويدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية .
يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرمين . . . الى ان قال : الايمان
بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم
ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده ؟ في سبيل الله ؟ استغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق
في ما يختص برفضه المهادنة مع الانكليز . ثم قلت وانا اتوق الى الهواء :
قد يريد الامير ان يصلي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب سره
ورجاله ان يصحبونا الى المضيف ويعتونا بامرنا . صافحناه مودعين فلم يقف
لنا ولا وقف احد من العلماء . في مجالس القات تغل الترهات .

(١) كل مرة اذكر هذه الحادثة اشكر صديقي الشيخ فواد المطيب صاحب هذا
البيت الذي فرج عني في موقف حرج جداً .

الفصل الثالث

اليمن الاخضر القديم

الطيارات - الفاتحة - الامار - وادي الذهب - وادي نعلان - تقيل - المحرس - نجد الاحمر - رياحين لبنان - جبل بعدان - ساحة الاستقبال - موكب الزيود - اسماعيل باسلامه عامل ايب - مدينة قديمة عالية - وادي المرفد - شجر ابن - تقيل سماره - ثمانية الاف قدم فوق البحر - قاء الحقل - بربر - الرهائن - ذمار - امير الجيش ابن الوزير الثاني - خطبته المدهشة - « لا فسق في البلاد ولا زنى » - والزانية - حديث الجنود وشكواهم - رفيقنا السيد محمد - الغرض من زيارتي الامار - البيوت في اليمن وعسير - الوحشية والاستغلال

مشينا من قصر الامير الى قصر الضيافة ، بل الى قلعة اخرى عالية مظلمة ، وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قلاع وحصون ، فأترلنا في الطابق الاعلى ، في غرفة سقفتها واطر ونوافذها ضيقة صغيرة ضامٍ منها صدرى ، فهربت الى السطح ونصبت سريري هناك .

وكان كاتب سر الامير الاديب التركي ، الذي ادرك بعض ما في من الانقباض والاضطراب ، يحاول تسكين خاطري وتسليةتي بما قصه علينا من قصص الحيوانات المفترسة في اليمن الاسفل . فقلت له ، وانا احس ان الحيوان المسجون في وفي تلك القلعة يشتهي الفلاة : اننا نرؤم الوصول الى الحضرة الشريفة بأسرع ما يمكن ونلتمس من امير الجيش ، وان كان ذلك مخلاً باداب الضيافة ، ان يسهل امرنا فنسافر في الغد . فوعدنا خيراً .

ثم جاءنا بعض وجهاء البلد زائرين وفيهم احد اقارب الامير يحمل اليينا هدية من القات . فاستقبلهم الرفيق قسطنطين وحدثهم وتناقش وايامهم في موضوع الطيارات . نقرأ عليها الفاتحة فنسقط كالطير المذبوح الى الارض . فأفجعهم القسطنطين ، وبادر الى القات يكتشف فيه اليقين . اما انا فاعتصمت

بالسطح ابغي العزلة والهواء ، فصجبتني ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات
لبنان ، فشكا اليّ اموراً واسراً اخرى : لا شك ان حضرة الامام رجل
كبير قدير ، ولكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة ، ولا ينصف السنين
الشوافع في بلاده ، ولا يحسن السياسة مع الانكليز ، فقد استقل على جنوده
هول طياراتهم ، ولا يفتح المدارس في البلاد ، ولا يعزل الظالمين من عماله مثل
عامل هذا البلد ، ولا يجود بما رزقه الله وهو الغني الاكبر في اليمن كله .

نمت تلك الليلة وانا افكر بالسلاح الجديد اي الفاتحة ضد الطائرات
وبما عدده الشافعي من سيئات حكم الامام . فحلمت حلماً غريباً عجيباً ما
ذكرت منه عندما استفتت غير لي كنت والامام يجي نطير في طيارة صنعت
في انكلترا ، وكُتبت على جناحيها فاتحة القرآن ، ونقشت على الواحها سورة
التوحيد . فبأي سلاح يا ابن الوزير تحارب طيارة المؤمنين ؟

سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال بدل الطيارات ،
مصحوبين بحرس من جنود الامير المنبلة ائوابهم ، المدهونة بالسمن شعورهم .
فتمنا في ضوء القمر ساعة عادت فيها اليّ الاحلام ، وانا على ظهر الدابة
شطران ، شطر نامم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر
بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فاطنه
في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود :
هداك الله يا مقدم ، فيخيل اليّ اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها
اشباح تتكلم كالعرب .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا الى قرية تدعى الشيخ صلاح ،
فتزلنا هناك والتعب والجوع فينا يساوران النوم . فنام رفقايتي في كنف صمير
لا يلبق في بلاد الله بغير المواشي - ما رأيت اناساً يخشون البرد مثل اهل
اليمن - ونمت انا في الغلاة على سطح ذلك الكنف ، ساعتين لا غير . ثم نهضنا

قبل الطيور نستأنف السير ، والتعب لا يزال حليف الجوع علينا .

فطرنا عند شروق الشمس وسرنا في ارض خضراء . تفوح من ادغالها روائح النبات الطيبة ، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم . فهو من اجمل الاودية واخصبها في اليمن الاسفل ، تجري فيه المياه ، ويزرع ثلاثاً في السنة الواحدة . رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان^(١) ثم اجتازنا وادي نخلان وفيه رأينا لأول مرة سلك التلغراف الذي يوصل تعز بصنعاء ، وصعدنا من الوادي في نقييل^(٢) المحرس الى رأسه فاشرفنا منه على مشهد مبهج من السهول المزروعة ، ومن القمم الخضراء والجرداء . دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » وهي بقعة من الارض الحمراء ضخورها تعلو اربعة الاف قدم عن البحر ، فيجف الهواء ، ويرد الماء ، وتعددت حولنا النباتات والياحسين التي ذكرني بعضها ببلبنان فهوذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادعال شجيرات من البطم والغار .

عندما وصلنا الى اعلى درجات نقييل المحرس تراءى لنا منها جبل بعدان ووراها جبل حب اعلى وابعد منه ، وانكشف امامنا مشهد اخر من السهول والهضاب ، في وسطها ، عند منحدر من جبل بعدان ، مدينة اب القديمة . التي تنسارى في علوها ووادي نخلان ، لاننا بدأنا في النزول اليها فوصلنا بعد ساعتين الى ساحة تدعى عند اهل المدينة ساحة الاستقبال . هناك يترجل المسافر اذا كان معروفاً وينتظر قدوم المرحبين .

ترجلنا طائعين ، وكان قد تقدمنا احد العساكر ينيي . العامل بقدمنا ، فبتنا ننتظر « استقبالا يليق بنا » كما قال رفيقنا رسول القاضي عبدالله العرشي .

(١) من مزدوعات اليمن الحنطة والشعير والذرة والدخن والعدس والبطاطس والوردس والملبة والقات

(٢) النقييل في اصطلاحهم هو العقبة او الطريق السالكة في الجبال العالية .

وما عتمت ان تحركت الجموع وخرجت من المدينة ، فشهدنا عسكراً زاحفاً
اليينا وسمعنا اصوات الابواق والطبول . جاء العامل اسماعيل باسلامه بجنيته
ورجله ، ويجنده وجمعه ، وبنوته واهازيجه ، يستقبلنا ويرحب بنا باسم الامام .
وبعد السلام ركبنا وانخرطنا انا ورفيقي في ذلك الجمع المنبئ المهلل نحسب
انفسنا في حلم من الاحلام ، او في موكب من مواكب الجنان ، والجنود
مسترسلو الشعور ، مكحلو العيون ، المزينة عمامهم بالورد والريحان ، حولنا
وامامنا ينشدون بصوت جبلي رهيب :

يا من يخالف امر مولانا ويعصيه لا بد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه والطير يوسي في سماه

دخلنا المدينة دخول الفاتحين وتزلنا على الرحب والسعة في بيت من بيوت
العامل اسماعيل ، المشهور في بلاد اليسن ، اعلاها وانقلها ، بكرمه وفضله
وعدله ، فتمتعنا ، بعد ايام من المشقة والشقاء ، بنواعم العيش وطيباته ومثلما
اسرعنا من ماويه ابطاناً في اب ، بلا حياء في الحالين . فجانا ونحن هناك
برقية من الامير علي بن الوزير يقول فيها انه محزون افرقتنا فأحجلنا وعاد بنا
الى ما كدنا نساء من التأدب في العربة . على ان التأدب في المشقات اجتهاد
يزيد المرء بلاءً ، والحجل في السياحة ولاسيا في البلاد العربية ، يمرض ويميت .
من حسنات اسماعيل بك باسلامه انه لا يحطب في ضيوفه ، ولا يفاخر
بدينه ، ولا يهدد بلاد الكفار بالدمار . هو رجل هادى . الخاطر ، ودبع
النفس ، غني كريم ، يحبه كل من يشغل في ارضه ، كما يحبه كل من في
حكيمه . وهو يخلص الى الامام اخلاصاً لا يشك الامام به ، ولا يخشى من
تقلبه . انه العامل الوحيد على ما علمت الذي لا يأخذ الامام رهينة^(١) منه .

(١) سمعت بالرهائن في لمح فاستغربتها واستنكرتها ، وكادت انكر صحة ما
سمعت . الا ان اغرب الامور هي اقربها في بعض الاحايين الى الحقيقة . فالامام

وقد يكون السبب في تساهله ورحابته صدره انه سني حضرمي . وقد تكون هذه الحلال من فطرته وصفاء ارومته . على ان المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تتغذى خصوصاً في الشرق بالمذاهب والاديان . ان اول رجل لمس قلبه قلبنا في اليمن هو شافعي ، واول رجل اضافنا ولم يسب الكفار هو شافعي . على اني اظن ان اسماعيل باسلامه ، ولو كان من عباد الاشجار ، يظل في فضائله الجملة قريباً من الله والناس .

جانا صباح اليوم التالي يسلم علينا ويبيده طاقة من ورد نيسان قدمهالي . وزرت واياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار انواعها ، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب ، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة ، فرأينا الزيتون ، الموز ، والعب ، والغنب ، والتفاح والمان زاهية كلها زاهرة . ان هذه الاشجار تنمو كلها في اليمن الاسفل ، لان تلك البقعة من الارض تعلو خمسة الاف قدم عن البحر ولا تبعد اكثر من عشر درجات عن خط الاستواء . فتستوي فيها لذلك حرارة الهواء والترية .

اما مدينة اب فسورة ، وهي وسخة ومزدحمة ، تروق الناظر اليها من الخارج فقط . بيوتها من الحجر واكثرها ثلاث طبقات ، تستخدم الاولى للمواشي والدواب ، والثانية للخدم ، والثالثة لاهل البيت . ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن ، وليس فيها احد من الاطباء ، ولا نقطة ولا حبة من الدواء . ويكثر فيها الجدري والحُمى واكل القات . اننا

يحيى يتقاضى كل موظف من موظفي حكومته الكبار ، الملكيين والعسكريين ، رهنه واحدة ، ابناً او اخاً او نسبياً عزيزاً ، يقيه في حوزته كفالة الاخلاص والاستقامة في الخدمة ، وضمانة الصديق والوفاء في التابية . وهو لا الرهائن - عند الامام على ما قيل اربعة الاف منهم - يقيمون في المدن المختلفة كل بيسد عن اهل ومسقط رأسه . فتعلم الحكومة بعضهم ونأسر البعض وتمنح الاخرين ، بكفالة احد وجهاء المدينة ، حرية الجولان فيها .

كلما صعدنا في اليسن لآرى «التخزين» في ازدياد وصحة النسل في نقص ظاهر لاسيا في الاولاد. فان وفيات الاطفال في اليسن كثيرة، اذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً اكثر من سبعة او عشرة اولاد. واطهر ما فيهم النحول، والشحوب، وضعف الاعصاب.

قلت ان اب جميلة من بعيد، فالقادم اليها من ماوية او تعز يراها في السهل وحوله الربى كأنها حفنة من اللؤلؤ على بساط اخضر، مفروش في بحيرة جفت مياهها. والقادم اليها من يريم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مرج او كهراج في جزيرة. ولها ساحة وداع كما لها ساحة استقبال. مشى معنا اليها اسماعيل بك ومعيته، وارقنا الى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي. فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نحشى ان يزداد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء.

مررنا في طريقنا الى يريم بوادي المرفد الذي يفوق وادي الذهب جمالاً وخصباً، وشاهدنا فيه لأول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه وزهره اللبون وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب. وبساتين غضة من العنب والموز، تجري في ظلها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره. وبدأنا بعد الظهر نصعد في نقيط ذلك الجبل، وهو اعلى نقيط في اليسن، فوصلنا الى وسطه عند الغروب، وبتنا تلك الليلة في قرية تدعى المتزل، خبزها دون واهلها اشعيون. ولما صلنا الى رأس النقيط في اليوم التالي كانت الرياح شديدة، والهواء، على حمو الشمس، بارداً، فشمرت بالبرد لأول مرة في اليسن ولا غرو فكتنا قد علونا عن البحر ثمانية الاف قدم اي علو ظهر القضيبي في لبنان. ومن تلك الذروة الهائلة، المدهشة المنعشة، رأينا منبسطة امامنا وتحتنا قاع الحقل والى الجنوب منه ظفار^(١) التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورها وحصونها.

(١) ولا يزال في ظفار اثار حميرية رأينا من شكلها الحلي الذهبية والتماثيل الرخام عند احد التجار في عدن وكان فيها من قصور اليسن المشهورة كوكبان وبنون وسلحين.

ان ذاك القاع في مزروعاته المتنوعة ، وبقاعه المحصودة ، اشبه بطنافس خضراء
وصفراء وبيضاء وسمراء تملأ العين بهجة والنفس سروراً . نزلنا اليه وسرنا
معجبين بانتقالنا السريع من منطقة باردة الى ما يدنو من خط الاستواء .

اما استقبالنا في يريم التي كانت تدعى مريمه في عهد حمير فقد كان مثل
استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . وكيف لا وقد خرج
لملاقاتنا اولاد المدرسة مع شيخهم الفقيه فاصطفوا الى جانب الطريق ، ينشدون
ويهللون مرجحين . ما فهمت من النشيد غير كلمة الله والمسلمين ، والمجاهد
الامين . ولكني علمت ان الاولاد هم من الرهائن عند الامام . انه لحكم
عسكري قاس شديد ، بل حكم استباه وارتياب . فلا عجب اذا اخلص
العمال لرئيسهم الاكبر ولكل واحد ولد عنده او اخ او نسيب عزيز .

سألنا في ممسرة في الطريق : هل عندكم حليب . فقال صاحب الممسرة :
لا غم عندنا ولا بقر ولا معزى . ولو كان عندنا فليس من يرعاها . شبابنا في
عسكر الامام ، واولادنا هاريون من التجنيد ، والعمال اخذوا اغنامنا كلها
زكاة وضرائب لبيت المال .

ولكننا عندما وصلنا الى ذمار قابلنا امير الجيش فيها ابن الوزير الثاني ،
السيد عبدالله ، صنو ابن عمه في ماويه ، سمعناه يقول : هذه بلادنا وهي بفضل
حضرة الامام بلاد الحق والعدل والدين والصدق والوفاء . الحكم الكامل
العادل تراه عندنا في اليمن ، فلا خمر ولا فسق ولا زنى ، ولا قتل ولا سرقة ،
ولا ربا . ولا رشوة ولا اعتصاب . كل ذلك لاننا نحافظون على ديننا ، عاملون
بكتاب الله ، مجاهدون في سبيله تعالى . . . ثم قال : نحن نقول ونفعل ،
وغيرنا يقولون ولا يفعلون ، او انهم يقولون الحق ويفعلون الباطل . العرب
كذابون ساقطون ، يفضلون مال الاجانب على الجهاد في سبيل الله . نحن
حاربنا الاتراك مراراً ، وجاهدنا الكفار الحونة في تهامة ، وسنحارب كل

من يحاول اختلاس قتر من ارضنا او هضم ذرة من حقوقنا . سنحارب حتى الموت . نحارب ، واذا غلبنا نتقهقر . نحارب ونزجع الى الشمال ، نحارب ونعصم بالجبال ، نحارب ونلجأ الى الصحراء . واذا لم يبق لنا غير موطن . الاقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله ، واثقين برحمته ، وطيدي الامل بعونه . ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب ؟ اين فيصل اليوم ؟

قلنا : هو في العراق ، ملك العراق .

فقال : واي خير واي شرف في ملك عربي زمامه بيد الانكليز ؟
لكان احسن فيصل لو ذهب الى ابن سعود ليصلح بينه وبين ابيه الحسين .
الملك حسين ! ان قلامة ظفر الامام والله خير منه . يا للعارا ايفتح ابواب الكعبة للنصارى الكفار ؟

حاولنا اصلاح ظن الامير في ما اشيع عن الملك حسين . وانا اعلم انه لم يأذن للمسيحيين بالدخول الى مكة . فما هدأت من تأكيدنا سورة غضبه .
- العرب كذابون ساقطون يحبون المال . وقد يصيرون بعدئذ ان شاء الله مثل اهل اليسن . هذا اذا اقتدى امرؤهم بولانا الامام واخذوا من احكامه مثالا لاحكامهم . فتنظهر البلاد كلها من الفسق والنجور ، من الزنى والخمر ، من الربا والرشوة كما تطهر اليسن .

وكان الرفيق قسطنطين قد رمقني بنظرة فهمت معناها عندما ذكر الامير في مطلع حديثه الفسق والزنى . ثم عند ذكره ذلك ثانية هم رفريقي بالكلام فمغته باشارة من يدي ، فلامني عندما خرجنا من المجلس لاني حلت دون جوابه . وما جوابه ؟ قد اضحكني من الامير ما غاظ القسطنطين . ذلك لاننا في احدى الليالي السابقة ، جاءت الامراة التي طبخت لنا العشاء ، والنساء في اليسن خارج المدن الكبيرة سافرات ، تعرض نفسها علينا بشمن فسطان من الشيت . وقد قال لنا احد العساكر بعد ان خرجنا من ذمار : لولا السيد

معكم لكانت النساء تجيشكم في كل ممسرة^(١)

كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائماً لجميع الناس ، فاسمع الشريف والبدوي ، والجمال والجندي ، والتاجر والسياسي ، فادون احاديثهم دون رأي لي فيها اذ ذاك ابديه . واني اسألك ايها القارىء ، وانا اشاركك الآن في ما سمعت وشاهدت ، ان ترحى . رأيك كذلك الى ان تسمع الحديث كله ان كان عن الامام يحيى او عن سواه . وها قد اسمعتك كلام ابناؤ الوزير وهم من كبار رجال الامام ، وحديث احد الشوافع العقلاء . وهم باطنياً اعداء الامام ، وحديث صاحب ممسرة وهو ممن يدفعون ضرائب الامام . واليك الآن بحديث من يجارب لتعزير وتمديد حكم الامام .

كان في حرسنا جندي اسمه احمد ، حارب على صغر سنه ، في ثلاثة حروب مع الطليان في طرابلس الغرب ، ومع الانكليز في الهند ، ومع الترك في اليمن . قال احمد : أخذت خدعة من عدن قيل لي ان في الغرب حرباً بين الاتراك والكفار فركبت الباخرة وتزلت في طرابلس وبعد ان صرت في عسكر الطليان عرفت انهم يجارون الاتراك المسلمين . ولكنهم اعطوني مالاً واسموني الكلام اللطيف ، وعاملوني معاملة حسنة ، فحاربت واستغفرت الله . . الطليان احسن من الاتراك ، واحسن من الانكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام . اما الاتراك فلا يهتمهم النظام ، ولكنهم لا يدفون

(١) ان بعض الافاضل في اليمن وخارجه أخوا علي باللائمة لذكري هذا الحادث . فلم لم يلوموا لاني نقلت كلام ابن الوزير الامير عبدالله؟ - لا فسق ولا زنى في اليمن! أيبغون الحقائق التي تدغدغ قواهم دون سواها؟ على الرحالة أن يصدق قراءه الخبر في كل شيء . اما الحادث نفسه فهو عادي في اي بلد من بلاد الناس ولولا خطبة الامير عبدالله لما كان له في الرحلة مكان ولكنني اسف لاني دقت في التسجيل فذكرت اسم البلد والبيت (في الطبعة الاولى) وعرضت بالمرأة للاهانة . اني اعتذر اليك ايها المجديبة البانية واسأل الله لك الخبر والسلامة في كل حال .

مثل الطليان . والآن يا افندي - اقرب مني ليهمس كلمته همساً - لا مال ، ولا نظام ، ولا لطيف كلام . . . اما حضرة الامام فهو رجل عظيم ، رجل صالح عادل عزوم . ولكن عماله طماعون يشتهون دائماً القلوس . . . قسستنا خمسة ريالات في الشهر - عندما يدفعونها . ولكنهم يسببونا في البلاد من طرف الى طرف وليس في قيصنا بغشة - اي نحاسة - واحدة . والاهالي لا يحبوننا لانهم يدفعون ضرائب كثيرة . ولا يطعموننا ولا يؤاؤوننا الا اذا دفعنا . وماذا ندفع ؟ ما في هذه القميص شي . - نفضها ليريني انها فارغة - وغنما يا افندي انا والله دفعته . ويجب ان ادفع ايضاً ثمن النيل لأتي جلدي من البرد . والقات ؟ من يدفع ثمن القات ؟ نحن في اليمن فقراء ، وحكم الامام يزيدنا فقراً .

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة وهو متزوج فسألته : يا ابن زوجتك ؟ ففرقع اصابعه وهو يشير اشارة يمنية لطيفة وقال : هي هناك وراء الجبل . وهو لم يزرها منذ سنة . « ولا اعود اليها والله حتى يصير في جيبي ظلط^(١) فقال احد رفاقه : مسكينة توت ولا تراك .

وقال آخر حليته بيضاء ظننته يتجاوز الخمسين : لا والني ! لا ازال في الثلاثين . اما هذا الشيب فهو من هنا - وأشار الى قلبه وسكت . ثم راحوا كلهم ، ويد الواحد في يد الآخر ، يعدون وينشدون :

يا الله اليوم فرج وفك العسر
يا مفرج على النفس في ضياقتها^(٢)
بدل العسر بكل اليسر
وفتح ابواب قطال^(٣) غلاقها
كيف قوم محوز^(٤) وقوم اخر

(١) نقود فضية (٢) في ضيقها (٣) قد طال (٤) محامر

في المقابيل^(١) على شرب تذاكها .

لم ار عربياً يتكلمون في امورهم مثل عرب اليمن وخصوصاً الزيد . ولكنهم اذا سئحت الفرص ووثقوا من محدثهم يجهرن ، فيفصحون اذذاك ويصدقون . والسيد والاعرابي واحد من هذا القبيل . ارفقنا امير الجيش في ذمار باحد السادة الكراماً او استعلاماً ، لافرق ، فكان يركب بعيداً عن الجنود ، ولا يقترب منهم الا امرأً او ناهياً . وظل في اليوم الاول بعيداً كذلك عني . فما كان بيننا من الكلام الا السلام .

ولكنه في اليوم الثاني سألني همساً ان اطلعه الدر في حفظ الماء بارداً في قنينة الـ « ترموس » التي كانت معي . فاخبرته ورسمت الشكل في الزجاج المزروج الخالي من الهواء . فدهش وقال : الافرنج اصحاب عقول - عقول ذكية . وهم يستخدمونها دائماً في كل شيء . ونحن لا نستخدم عقولنا الا في الحروب . سأسافر يوماً ما ان شاء الله . سأخرج من اليمن متنكراً . . . اهل اليمن يا امين يغارون جداً على دينهم ، ويظنون ان ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار . ولكني سأسافر ان شاء الله وان كفرت .

سألني السيد محمد ان اعطيه عنواني فكتبته في ورقة فأخذها وخبأها في طية من طيات عمامته البيضاء . وقال : ستبقى سرأً بيننا . وعندما نصل الى صنعاء . انت تنزل ضيفاً على حضرة الامام ، وانا اذهب الى بيتي ، فلا نتقابل بعد ذلك ، ولا لزوم .

وفي اليوم الثالث اقترب مني وانا اكتب فقال : ما الذي تكتبه في دفترك ؟ فقلت ، وكنت خلال السفر قد سألته عن اسماء بعض النباتات والازهار : ما اعلمتني به . فقال : وما الفائدة من كتابة اسماء الازهار والاشجار والحجار ؟ فقلت : قد تم معرفتها من يحيى . بعدي . فاقنع ظاهراً

ثم قال : هوذا اليوم الثالث وانا رفيقك ، أفتأذن بسؤال ؟ فقلت : نعم بعد ان تجيب - ووالي . هل انت مسافر الى صنعاء لشغل خاص بك او بامر من امير الجيش ؟ فاجاب : لي حاجة في صنعاء . ولكني لولاك ما جئتها اليوم . ارسلني الامير رفيقاً جاً واکراماً وما قصدك يا امين من زيارتك اليمين ؟

- مشاهدة البلاد وتأليف كتاب فيها وفي اهلها .
- وهناك مقاصد اخرى .

- نعم ، اراكم حيث كان اجدادكم منذ الف سنة ، وسأقول هذا لخررة الامام فعسى ان يسعى في ما يدفعكم الى الامام . فيفتح المدارس في البلاد ويهد سبيل العلم والتعليم .

العلم ناهي^(١) ولا ريب في ذلك . انا من رأيك ، واقسم بالله وبهذه الشمس الغاربة اني صديقك . فقل لي هل يطمع الانكليز ببلادنا .
- لا اعلم . قد اصدق اذا قلت لا ، وقد اصدق اذا قلت نعم .

- الست رسول الانكليز الى الامام ؟

- لا ، ولا رسول دولة من الدول . لا ناقة لي في السياسة ولا اجل . ولكني اقول لك اني اخو العرب ، وصديق العرب ، واشتهي ان اراهم كلهم في ائتلاف بعضهم مع بعض . اشتهي ان ارى الامراء ساعين في سبيل الوحدة العربية وتعزيزها .

- ناهي ولكن كيف تتم الوحدة ؟ اعلم ان الامام رجل عظيم ، اعظم العرب اليوم ، وهو يطمح الى حكم اليمين كله باسره . ثم الى حكم البلاد العربية كلها باسرها .

- قد يكون الامام رجلها وابن بجدتها . ليجتمع الامراء ويتفقوا على ذلك .

(١) ناهي في اصطلاحهم حسن جميل

— ولكن كيف يجتمعون واين؟ ومن يدعوهم؟

— يا حضرة السيد، قلت وانت الصادق ان عندي رسالة ابلفها الامام.

فلو اطلمتلك انت على كل شي. فباذا احتفظ للحضرة الشريفة؟

ابتسم السيد محمد وقال : كلام حكيم . والكني انا اطلمك على ما لا علم لك به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة . فلو سححت في عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلم . اتعرف السبب؟ لا يزال اهل اليمن وعسير وحشيين ، لا يثق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوف دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير — وبادر الى بندقيته فوضها بين جنبيه وضما اليه — هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، قد رأيت بعينك ، الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا؟ — واخذ بيده فنجان القهوة — ولكنه لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي اقاتلك ، استل عليك هذه الجنيبة ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . واذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلهما وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب ، وعندما تنطفي . ، يتساملون : وما السبب في القتال بين فلان وفلان؟ يقاتلون اولاً ثم يستعلمون . هذه طريقتنا في اليمن ، نحارب حتى اهلنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن اباه . فاذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب؟

قلقت : وهل في اليمن اناس يشتهون رجوع الاتراك؟

فاجاب : من يشتهي ذلك نذبحه .

— وهل في اليمن اناس من الباطنيين؟

- كان منهم طائفة فافينناهم بالسيف .
- أهذه هي طريقكم في اليمن ؟
- نعم يا امين . يغار اهل اليمن على بلادهم كما يغارون على حريمهم .
- لا حق في البلاد لغير اهلها . ونأبي الشرة فيها كما نأباها في الحريم ، فنحارب
 ليسلم الشرف ، ونحارب ليسلم الوطن .

الفصل الرابع

صنعا اليمن

وعلان - حزيز - البن المطري - جبل لتمر - صنعا - جبال الاسما - وجبالها
- جبل عشار - جبل آلس - معادن الفضة والطاق - نشيد الزامل - بير
العرب - الدوشن - بيت من بيوت الشام - ازهار لبنان - طبانة متمدن -
الحمام - الميد علي زباره - القاضي عبدالله العمري - الطواف في المدينة -
المهندسة العربية في البناء - الاحياء فرجات - اجرة البيوت - اسعار لوازم
المعيشة - « وهو مع ذلك يشعرون » - حصار صنعا - وقعة شهاره - الحضرة
الشريفة - المظلة المشهورة - البنود والطبول - قصة الجندي ورسول مصطفى
كمال الى الامام .

في صباح اليوم الثاني عشر ١٨ نيسان سنة ١٩٢٢ بعد خروجنا من لحج
وصلنا الى حزيز ، المرحلة الاخيرة في رحلة مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من
الحسنات والمستغربات ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسنات الى مقامها في
الذاكرة وفي الفؤاد . اني وانا اكتب الان اتمتع بها واستأنس بترداد ذكرها .
كأني في رحلة اخرى الى صنعا ، لا مشقة فيها ولا عناء .

بتنا الليلة السابقة في وعلان ، وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر
ميلاً من صنعا ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يُستغرب مثله في
الدرجة الخامسة عشرة عرضاً من الارض . وانكنا اصبحنا كذلك في علو
يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر^(١) هذا هو السبب في انتقالنا تلك الساعة

(١) هذه اصح قياسات العلو في جبال اليمن بالاقدم الانكليزية

١٠٠٠٥	جبل سماره	٩٥٠٠	جبل ذفار قبالة	٦٧٥٠	مدينة اب
٠٩٠٢٠	برم	٧٦٥٠	ذمار	٧٥٦٤	صنعا
٠٩٠٠٠	بوعلان	٨٠٠٠	مناخه	٩٨٤٠	جبل شبام

عند اشتداد البرد يجمد الماء في صنعا . وقد سقط الثلج في ذمار لأول مرة في حياة
من شاهدوه في شتاء سنة ١٣٤٠ - سنة رحلتنا .

الى طقس اشبه بطقس الشمال . على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنجر بقرون صغير من قرونها الذهبية كل ربح تهب فتدميها ، ثم تحييها ، وترسل الحرارة فيها .

وصلنا الى حريز ، وما هي الا بضعة بيوت وممسرة ، ساعة الضحى فجلسنا هرباً من الشمس في في . حائط نتناول الفطور . وكان بما قام حولنا من الجبال اثنان شهيران بما ينبتان ويجاوران . وهما بنو مطر غرباً ، وفيه احسن ما يزرع في اليمن من البن ، وأقم شمالاً ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في شبه الجزيرة العربية كلها .

وما هي الا ساعة بعد ارتحلنا من حريز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يتخرج كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء . بينا نحن ندنو من لقم الذي اصبح على تيننا ، اذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً ، كأنها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسية ، في سهل ذهبي منقطع الاخضرار .

اثنا عشر يوماً في المشقات والوهلات . وهذه صنعا . تزيك اضعافها . اي صنعا ، مثلك لنا التاريخ فكنيت مليكة الزمان ، ومثلك لنا العلم فكنيت يوماً ربة العرفان ، ومثلت لنا الاساطير فكنيت سيدة الجن والحان . اجل ، فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمع ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ، ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الامال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم . وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء . فيك فما كذبت الاساطير . كنا نظنها اسما . ابتدعها

الشعراء لعرائس الجن والحيايل . ولكنها من الحقيقة في اعلى مكان . أفنا
صعدنا واياك ايها القارىء في نقيط السيآن ، واجترنا وادي نحلان ، وغنا في
بريم ووعلان ، وتقلنا في ظل بعدان ، وها نحن نشرف على قصر غمدان .

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تحيب للزائر املا . وكلها دنوت منها ، وهو
عكس الحقيقة في اكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في
مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . فيها الهواء اعذب من الماء ، والماء اصفى من
السماء ، والسماء اجمل من حلم الشعراء . وفيها البرد ، وقد عات تسعة الاف
قدم عن البحر يستحيل لقبها من خط الاستواء دفاً . وهي قائمة في قاع
سنحان ، ترينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرى
الحوطة وفيها السواقي والطواحين . ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها .
اقربها اليها عَصْر وهو يظل المروج في الاصيل ، ولُغْم الذي تجري منه المياه
الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج - تلغراف المرايا - الذي
يوصل اوامر الامام من قنة الى اخرى . وهذا عِشَار وفيه الرخام والمرمر .
وذلك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيها معادن الطلّاق . وهناك
رضراض وفيه معدن الفضة . وهناك شبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة
الكريمة الجرع والعقيق .

وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميل خارج السور رجال الامام
وثلة من جنوده . وسرنا في موكب الفناء وما مللنا لان « الزامل » اي نشيد
الزبود عكس ثيابهم المثيلة راقنا جداً . وكنا كل مرة يقفون فيه عند القرار
الغريب الرهيب مثلهم على العدو زاحفين ، ويمجرد الزامل غالبين منتصرين .

سرينا على موز^(١) حل^(٢) السجر

ليلة مفدرة^(٣) ما قرها هليل^(٤)

(١) ضر معروف (٢) وقت (٣) مظلمة (٤) ما هل فيها قر

واصبح الصبح ورحناً^(١) براس النقييل

فنجور^(٢) العدى غارسين القتيل

نقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم يهزجون فروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء. والى جانبها خارج السور ثكنة كبيرة شيدها الترك. ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى، افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعا، والحلي الجديد منها الذي يدعى بئر العزب. هناك سمعنا وشاهدنا في مظاهر الاستقبال اليازية مشهداً اخر كان له في لبنان مثيل. الا وهو « المشويش » الذي يدعى في اليمن « الدوشن » فشرع يصيح مرتجياً بنا صياحاً فيه نبرات وغمات جمعت بين ردى. الخطابة والنشيد، علمنا منها اننا نور شمس الكيال، وقر الفضل والجلال، وغيرها من آيات الحال.

وعندما وصلنا الى بئر العزب، اي الحلي الذي يسكنه اغنياء صنعا. وفيه تصور الامام ومركز الحكومة، ودخلنا البيت الذي اقمنا بعدئذ فيه بميدان الشرارة، كان الحيال في الانتقال الى لبنان والى الشام ايهج واتم. البيت صغير ولكنه في الذوق واسباب الراحة كبير. ردهة الاستقبال فيه كسرف على صحن في وسطه شاذروان، وحوله القرنفل والريحان، وفوقه تتدلى اغصان المشمش والرمان، يفرد فيها القمري والحسون، وتتلاها خلالها الشمس فتكلل جبال الماء المتصاعد من البركة لجيناً رجراجاً.

اما سرورنا الاكبر في اليوم الاول ففي مائدة، على طاولة، تحت المشمشة، عند الشاذروان، بادرنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرسي كرسى، وان في ايدينا الشوكة والسكين، وان ما نأكل قد طبخه طبخ متمدن، وان بالغ بالابازير. ثم سألتنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الآخر -

(١) نحن (٢) في نخور

الحمام . فقام السيد علي زباره ، وهو وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام :
الحمام يوم وصولكم لا يجوز . ولكنني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت
الحمام ، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه ، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل
على ذوق السيد علي ولطفه . فقد بعث الى صاحب الحمام يأمره بتنظيفه
واعداه لنا - لنا وحدنا .

ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول في ذلك هو التحذر من اجتماعنا
بالناس ومخادثتهم وذلك عملاً بأمر الحضرة الامامية الشريفة التي كانت يوم
وصولنا متغيبية في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال سريح استفحل امره .
وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤساء تلك القبائل كانوا يقاوضون السيد
الادريسي لينضموا اليه وينصروه على الزيود . فلما أخبر الامام بقدمنا امر
الآن نقابل احداً من الناس قبل رجوعه .

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبدالله العمري
وهو يد الامام اليجني ورئيس ديوانه ، فاستأنسنا بمحضرتة وسررنا بمديته .
الفينا على جانب كبير من الفضل والاتضاع ، ومن الحكمة والتساهل ،
فحملنا زيارته على المقابلة بينه وبين اولئك المتبجحين امراء الجيش وشكرنا
الله ان في رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة ،
ويحسنون الرأي والموازنة .

سألنا زائرنا عن زميله القاضي عبدالله العرشي فاجبتنا بما نعلم فقال : له
سنة في عدن ولم يفعل شيئاً (اي في مذاكراته مع الانكليز بخصوص الجديدة)
وسألناه نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال : النقص موجود
وبعض الخلل . ولكنها نتيجة غير اخطأت السبيل . الشافعي والزيدي
اليوم متساويان . وحضرة الامام عالم عادل ، سديد الرأي ، مبع الخلق ،
قويم الحطة ، لا يعرف في اقامة الحق غير الشرع . ولا يفرق بين الكبير

والصغير او بين الزيدي والشافعي . ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعاقون . نياتهم حسنة اما غيرتهم فقد اخطأت كما قلت السيل . . . نعم حضرة الامام يضبط الامور بيد شديدة . لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها ، الا في الاطراف حيث لا يزال بعض الاضطراب .

كانت هذه من القاضي عبدالله اولى الزيارات وآخرها اثناء غيبة الامام ، وما علمنا السبب في ذلك . الا اننا كنا راغبين في مقابلة رجل آخر كان معنا كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد علي زباره فقال : حينما يرجع الامام وراح ذات يوم خادمنا الى المدينة فعاد يحدث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب فاستأذنا السيد علياً في زيارتها بينما نحن ننتظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا عسكريين وأحد الموظفين . مشيناً في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير المبني من اللبن والطين ، ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام ، اي بوابة الشمال ، فتباحث اذ ذاك الموظف والجنود وكنت قد سألتهم ان ندخل المدينة وكانوا قد أمأوا المشي في الشمس على ما اظن . فاسفر البعث عن اجابة طلبتي بشرط ان لا يعلم السيد علي بذلك . دخلنا المدينة وقد تعاهدنا على ان نكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها لا في اسواق التجارة .

ان صنعا مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً اسواقها مثل اسواق جده غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، وبعضها ست طبقات ، فبناؤها اكثر اتقاناً واجمل هندسة لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبه شي . اجنبي هندي او اوروبي . وهي المبينة بالحجارة البيضاء والسوداء . وبعضها بالأجر والبعض باللبن ، وبين كل طابق والآخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية ، وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد

يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه اتمن من الزجاج واجمل . وهناك في الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنطرة ، يستخدمها الناس للاستقبال والقبولة فيفرشونها بالطنافس والمساند والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج الملون في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلونونه بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق ، اي الاصباغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات .

اما الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان رقيقى ، ونحن ننتقل من حي الى آخر كأننا نبحث عن بيت نقيم فيه ، يقول : هذه الدرجة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . ولو كان في جوارها او فيها من البدو لكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور .

ما عرفت اليمن اثناء الحرب ولم تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والاجور . ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعاء ليشوق اخواني في مصر ونيويورك الى الاقامة فيها ، وقد يحمل بعضهم على السفر حالاً الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجة الاولى اي في احسن حي من المدينة ، وفيها المنظرات ، والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منها غير اربعة ريالات مساوية شهرياً اي اربعون غرشاً مصرياً اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاثة ريالات . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، له زاران من الجص وكوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فلا تقل حسناً ولا تريد نفقة بالنسبة الى البيوت^(١)

(١) لم تتأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بعدها من غلاء حاجات المعيشة لان ارضهم ولا تزرع كلها ، نطمعهم ، وانوالهم نكبيهم ، فلا يحتاجون غير القطن وبض الاصباغ من الخارج . هاك اعمار بعض لوازم المعيشة هناك سنة ١٩٢٢ :

وہم مع ذلك يشكون۔ يشكون وقوف الاشغال ، وقلة المال ، وعسر الاحوال ومنہم من ينسبونہا كلها الى حکم الامام ، ومنہم الى الله وحده ، ومنہم العاقلون الذين يبرثون الله والامام من شرور هذه الايام ، وقد وصل بعضها الى الیمن عن طريق السياسة ، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم . اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة كما قاوم تلك يكثر الضرائب ، ويذخر الاموال ، تقتل ولا غرو في ايدي الناس فتسبب قتلها وقوف الاشغال وعسر الاحوال فضلاً عما يعتري الیمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبہم الاهلية . ناهيك بالمعاشر وكلها مسلحة فيندر في البلاد ذاك العرس الطيب ، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل ان الناس مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذلك الجهل ، والسبب الاكبر هو الجهل المسلح .

قال المأمور دليبي : بعد ان حاصر الامام صنعاہ^(١) وسلم الترك غنمنا من

لحم الضان ثمن الرطل ٤ غروش
لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش
السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً
القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً
البطاطس ثمن القدح ٢٠ غرشاً

القدح ٤٠ اقة ، والاقعة في الیمن كيلو وثلاثة ارباع ، والريال النمساوي الذي يقسم مثل المجيدي الى عشرين غرشاً يساوي عشرة غروش مصرية
(١) هو حصار صنعاہ سنة ١٩٠٤ الذي استمر ستة اشهر فأكل اهل المدينة اثناء الحصار لحم البغال والحمير حق والفيران وكان عدد الاتراك الذين سلوا وفيهم الاهالي لا يقل كما قيل لنا عن الستين ألفاً . ولكنهم اعدوا بد ذلك الكرة على صنعاہ فتقهقر الامام وجنوده الى شہارہ فتبہم العدو الى تلك المضائق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هي وقعة شہارہ المشہورة . لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل غلبوا ثلاثين ألفاً من الاتراك وقد حاربوہم بالصخور ايضاً يدحرجوها عليهم . واهل الیمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من كرامات الامام .

البنادق خيرات - اي كثيراً فكانت الموزر تباع بريال واحد . وبعد وقعة شهاره من استطاع ان يجر مدفعاً الى بيته أعطي له . فلا عجب اذا كان في العشار من يناهض الامام ويعصي جيوشه المنظمة .

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانها قد سبقنا الى بير العَرَب ودخل مفسداً حيث لا يستطيع سواه . لذلك لما رغبنا المرة الثانية في التزهة قال السيد علي دون ان يظهر ما علمه من سرنا: الاولاد في المدينة يجتمعون عليكم ويزعجونكم .

سكتنا على علمنا اننا اسرى الى ان يرجع الامام . والاسير لشدة ما يحدق بالجدران يصبح حاد النظر ، وتتنبه فيه كذلك الحواس الاخرى . فقد سمعت مرة صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة - تك تك - تك تك تك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفت شريط السلك اي التلغراف وعلت ان المركز فوقنا في الطابق الثاني من البيت . وكان لمتزانا باب موصل من الخارج بينه وبين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيه ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتنافرون . ثم جاء واحد وهو يقول : هم عرب مثلنا . وفتح الباب فاستأذنته في الخروج الى الحوش فأذن هاشماً وكان هو الدليل الانيس . اخبرني اننا مقيمون في بيت من بيوت الامام العديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها تقية ، ورعة ، عالمة ، عادلة فهي تجلس للناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحة . اما المجلس الرسمي ففي الطابق الثاني من البيت .

نحن اذن قرييون جداً من الحضرة الشريفة . او انها تعطفاً - وقال المفسدون تحفظاً - جعلتنا على مقربة من الاذن الامامية والعين العلوية ، وبما لا ريب فيه ان الزيود يتقون كثيراً ويتكتمون كأن هذه الخلة ، وهم قرييون من المذاهب الباطنية ، صلة الانتساب بينهم وبينها . زد على ذلك انهم

يختلفون عن العرب بانهم شغفون بالفخفة والايبة الظاهرة . ولنا في موكب الحضرة الشريفة دليل وبرهان . كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الإمام يوم يزوم المسجد الجامع ، فتحف به السادة والعلماء ، وتشي امامه ووراءه الجنود ، وهم ينشدون « الزامل » تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان ، والمظلة في وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكواكب ، وقد مشى تحتها القمر المنير سُبُل الدنيا والدين .

هي ذا المظلة التي طبق ذكرها الافاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان . قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة . وفتحها فاذا هي كالخبيبة ، قطرها ثلاثة اذرع ، وكنتها مصنوعة من الحرير الازرق والابيض المزركش ، وعلى اطرافها من الخرج العريض الثمين ما ينذر حتى في ملابس السيدات الفضة .

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة حجماً وشكلاً ، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس . والى جانبها البيارق والرايات فكان الدليل اللطيف اسرع بيده مني برغبتني . فتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكم فتحاً مبيناً . والثانية صفراء . مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل السيوف . والثالثة بيضاء . وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة .

سررت بخروجي الى الحوش وبدليلي اكثر من سروري بالطواف حول السور وفي المدينة . ولا غرو ، فقد شاهدت الرايات والطبول ، ولمست بيدي المظلة الشريفة ، واستأنست بالجندي الكريم الذي نفعني بشي . من علومه ، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً بطرائق الامام .

« كان قبلك في هذا البيت فتحي بك^(١) وكان الامام يزوره ليلاً وحده .
 سافر الاسبوع الماضي وهو رجل « ناهي » اعطاني هذه « الساكوة » واستدان
 مني عشرة ريالات اعادها اليّ عند سفره عشرين . . . لا ادري والله ولكني
 سمعتهم يقولون انه جاء من مصر ليصلح السلك (التلغراف) . »
 ولكن الجندي في اليمن ، مثل من يقرأ الجرائد في البلاد المتمدنة ،
 لا يعرف من الشؤون السياسية غير ما يذاع رسمياً لابعاده عن حقيقتها . فعداً
 يحدث عنا فيقول : اننا جئنا من الجامعة الاميركية لنشتري الكتب الخطية .

(١) جاء من قبل مصطفى كمال الذي كان بينه وبين الامام يحيى في ذاك الحين
 مفاوضات سياسية .

الفصل الخامس

الضيف المأسور

الامام في مجلسه - فراش الملك - خطاب ابن فيه قصدي ومذهبي - كتاب التوصية من الملك حسين - الوحدة العربية والوحدة الاسلامية - محط رحالها - « هل عندكم كلام مضبوط ؟ » - قصيدة الامام - المهنتون - تقبيل اليد والرجل - ملوك اليمن قديماً - التقاليد والعادات - جرجي النمساوي - شيخ الاسلام - « مسيحيان من لبنان » - رجل المسيح المسحاء - عدد سكان اليمن - السياسة الاوروبية - مايونتر عن جورج واشنطنون - العرائض - عريضة تعقيب الامام - « اذهبوا اذهبوا » - الوشاية والظن - ضيف مأسور - ضفائي الى الامام يعاد الي - السلك يشغل - باب الفرج - اصل المصحة .

اربعة ايام مضت ولم نخرج من البيت الا مرة واحدة . ثم عاد الامام الى صنعاء من رحلته السلمية موقفاً فأم قصره اولاً وجلس بعد الظهر للزائرين ، فكنتا بعد استئذانه اول المسأئين المهنتين . لم اشاهد في طريقنا اليه ، لا في الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب ، شيئاً من تلك الابهة العسكرية المصنوعة التي شاهدناها في ماويه وذمار . حاجب واحد ، وهو جندي زيدي في عمامته غصن من الحبق ، فتح لنا الباب حين رأنا قادمين .

دخلنا وفيما ما يعتري كل غريب على ما اظن في مثل هذه الحال ، اي الشوق الذي يسوده الاحترام ويشوبه بعض الظن . اترى الامام مثل امراء جيشه ، ام هو كريم الخلق لطيف الذوق كالملك حسين ؟ ايشف ظاهره عن باطنه ، فترق ملامحه ، ويستطيل وجهه ، شأن معظم الائمة والعلماء ، ام يجذع بما يمكنه مما لا تفصح عنه الوجوه والاشارات ؟

دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قائمه . له فم ككفم الطفل صغير بارز الا أن في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين

القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روعة .
وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب . يلبس قبا . من
القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج الين ، ولعامتة البيضاء الكبيرة
ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ،
تحت فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبه الوسائد يتكفي . عليها ، وامامه
زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها
له . وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صافحناه مسلمين فرد
السلام مرحباً بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش ، والفرقة
الصغيرة مفروشة بثلمها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط البلاد
العربية واليانية باللغة التركية .

كان في نيي ان القي كلمة في حضرته فحدثته بها جالساً . وبما قلته
بعد تهنتي بعوده سالماً موقفاً : اني جئت من وراء البحار واقاصي الديار عملاً
بعاطفة لا قوة للقومية بسواها ، ولا عز للامم بدونها . فاننا مهما استرسلنا في
حب الانسانية المطلق لا ننسى اذ كنا منصفين حب الوطن الحاص . وهذا
الحب يحملني اليوم على السياحة في البلاد العربية . فاني ، وان كان لبنان
وطني الصغير ، وسوريا وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني
الاكبر . . واني ، وان كانت المسيحية ديني ودين اجدادي ، ادين بدين
كل من اقام حقاً وازهق باطلاً . بل ادين بدين فلاسفة العرب وشعرانها
الكبار كالغزالي والفاروق والمعري ابي العلاء . بل ادين بدين كل من قال
بالوحدة العربية ، وتجديد مجد العرب ، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً
خالصاً لوجه الله . فن اعز العرب اعز يا مولاي الاسلام . . . ولا غرو اذا
جئت بلاد الين حاجباً هذه الكعبة المباركة وقد منعت عني تلك المقدسة
كعبة الاسلام الاولى . على اني لقيت في جده ، في مقام الملك حسين الرب
العالي ، من الفضل العربي ، والمكارم الهاشمية ، ما سأذكره دائماً شاكراً

مفتخراً . واول مرة ذكرت في حضرته اني ارغب في زيارتكم كان - حماه
 وحماكم الله - اول المستحسنين بل اول المحبدين والمشجعين . فجننت يرافقتني
 باذن جلالته صديقي العزيز القديم الشيخ قسطنطين بني ، وهو في حب العرب
 والعربية على جانب عظيم من الفيرة والاخلاص . . والبلاد اليبانية مهد العرب
 جناتها متجشمين المشقات ، مزدلين العقبات ، مصعدين في الجبال الشاخحة ،
 متغلغلين في اوديتها المعطرة الارجاء ، ونحن اثناء الرحيل وقبله ننظر بعين
 الحب والشوق الى هذه السدة المباركة نستمد منها النشاط في السير والسرى .
 وكنا نلاقي في كل بلد حللناه من حسن الحفاوة والاكرام ما شكرناكم بعد
 الله عليه ، وسجلناه لكم في صميم الفؤاد ليحفظ مدى العمر ذكراً ذكياً جميلاً .

فاه حضرة الامام ببعض كلمات الشكر والترحيب . ثم وقف قسطنطين
 فتلا قصيدة كان قد نظمها في الطريق فسر بها واثني عليه . ثم قدمنا لحضرته
 كتاباً من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال : ولكن الكاتب اهل
 الاسم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضاً او ذهولاً . اما الحقيقة فان
 ناظر الخارجية في جده كان قد كتب كتاب تعريف احملة الى حضرة الامام ،
 فلم يستحسنه جلالة الملك ، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب آخر يعرف فيه
 الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمداً اسمي
 لاسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئاً من عوامض السياسة الهاشمية

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ . ونحن ، لحاظ جال في
 ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، نقاسي من نتيجة ذلك
 ما سيحيي . ذكره . افضنا في الحديث بالوحدة العربية ، فكانت اول كلمات
 الامام في الموضوع : وصلت الى محط رحالها . بيد انه الداعي الى الوحدة
 الاسلامية ، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية اصح اساساً واسهل تحقيقاً
 من الجامعة الدينية . ومن أعز العرب أعز الاسلام .

و كنت قد طالعت قصيدة الامام المشهورة التي مطلعها :

مغلغلة منشورة في المحافل تهيم وتذري الدمع تهبام ناكل
والتي يستنهض فيها المسلمين واخوان الدين ويحثهم على الاجتماع والتعاقد .

ايا قوم هبوا شمروا وتعاضدوا وحوطوا ذمار الدين عن كل ماثل
كما فعلت اصحاب لمة ومن تلا - هو قافياً اثارهم من حلالحل

فقلت : ان الجنسية تجمع الشعوب والدين يفرقهم . وانا نحن المسيحيين
في سوريا . مثل العرب المسلمين فتجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف
بزيارتكم ، ولا يجمعنا الدين . ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص - من
مجل القضية الى اجزائها - فكان الامام اكثر اهتماماً لذلك . بما داني على انه
ذو عقل عملي حاذق . واني اذكر كلمته عندما اشرفنا الى المهمة التي انتدبنا
انفسنا لها فسألنا قائلاً : هل عندكم كلام مضبوط ؟ الا ان بعض الزائرين
دخلوا اذ ذاك فر بيده على فمه ، فسكتنا ، وتأجل البحث في الموضوع الى
وقت آخر .

دخل الزائرون المهثون وفيهم بعض السوريين من طرابلس الشام وبعض
الضباط الترك ، فظهر لنا ، من استقبال الامام ومن تقبيل اليد الامامية
تقبيلات متنوعة لها درجات ومقامات ، ان العظمة « والمحسوبة » في صنعاء .
اشد منها في الحجاز . ان التبعة في ذلك على الاتراك الذين علموا الامراء هذه
الاباطيل في الرسميات ، وروضوا عرب المدن على هذا التسكسك والخنوع .
على ان تأثير الاتراك من هذا القبيل في اليمن اخف منه في الحجاز . وملوك
اليمن من قديم الزمان كانوا شغفين بأبهة السيادة وابطيلها .

قرأت كتاباً لرحالة افرنسي ، رافق في القرن السابع عشر بعثة تجارية الى

اليمن ، وصف فيه زيارتهم للملك في مقره ذلك الحين بالقرب من ذمار^(١) ووصف كذلك خروجه الى الصلاة يوم الجمعة وصفاً ينبئنا بعادات اليوم هناك من الجدوع في التقاليد . وهذا الامام يحيى في القرن الثالث عشر للهجرة يجلس على فراش الملك كما كان يجلس اجداده في القرن الثالث ويأذن بتقبيل يده وكفه وركبته ورجله . بل يأكل فوق ذلك القات ويشرب من الماء . ويحمد الله . ولا يقف مساماً الا لواحد في ملكه .

على انه ترشح قليلاً عندما دخل محمود بك نديم اخر وال من ولاية الاتراك في اليمن وهو كردي الاصل سوري المولد . فاستقبله واقفاً نصف وقفة ، وبادله قبلة اليد بقبلة في وجهه . ثم دخل ضابط تركي في ثوبه ونياسينه وجزمته فرقع امام الامام وقبل يده وجلس على الديوان . ثم ذلك الافرنجي اي النساي الموكل بعمل الخراطوش ، اي جرجي المشهور في اليمن ، وخصوصاً في عدن وجزان حيث يودونه في غير اليمن . فقدمه الامام الينا قائلاً : هذا منكم . ثم دخل شيخ نحيل الجسم ، طويل اللحية ، حليق الشارب ، يشبه اميركيا من امير كي نيوانكلند القدماء . فاستوى الامام واقفاً وصافحه مصافحة الاقران . هو شيخ الاسلام الذي تبوأ مكانه في الزاوية . وكان قد تقدم حضرته ثلاثة صبيان ، منهم اثنان من اولاد الامام يوفلون بالاثواب المخططة ذات الاردان . وعلى اكتافهم البرد البانوية ، وعلى رؤوسهم عمام مزرکشة بالقصب ومكتوب عليها آيات من القرآن . دخلوا دون ان يفوزوا بنظرة منه . غصت القاعة بالمهنيين ، وكان حضرته يعرفهم الينا فيقول : هذا امين ، وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان . فقلت : حضرة الامام شغف بالسجع . فقال : انتم السجع ، تنوعت الاحاديث وكان هو مدير رحاها ، فسأني سؤالاً

(١) هو الامام المهدي لعين الله الذي عقد في سنة ١٧٠٩ م معاهدة تجارة وولاء مع الفرنسيين . وكان مركزه في مواهب بالقرب من ذمار .

غريباً ثم جاب عليه فكان الجواب اشدُّ غرابة منه : لماذا دُعيت صاحب
الديانة المسيحية بالمسيح ؟ فاجبته بكلمة اثرية وجيزة فلم يقتنع ، فقال : لان
رجله كانت مسحاء . و اشار بيده الى رجله ، ثم توكيداً بالسبابة الى خط
الانحاء اي القوس في كفها .

قد ساء في والحق يقال هذا التشبيه وان لم يكن الاحتقار فيه مقصوداً ،
وعاد بي الفكر الى جده ، الى مجلس الملك حسين ، الذي لا يسمع فيه الزائر
كلمة واحدة تكدر او تسيء . بل لا يسمع غير ما يسر ويفكه ويفيد .
اما الرجل المسحاء والمسيح الم اتمكن على تساهلي المعروف من دفع ما وقر
من هذه الكلمة في النفس . وقد اكون اسأت الى الحضرة الشريفة في سؤال
سأته لانه في ذلك الموقت لا يلبق ولا يجوز . ولكن عذري اني طالب علم
- سائح في سنيله . قلت : اتعلمون يا مولاي كم عدد سكان اليمن ؟ فقال :
بالتقريب ، لا بالتحقيق ، خمسة ملايين . فقلت وكم منهم تحكمون ؟ فاجاب
وهو يبتسم ويضم انامله الى كفه : اليسير ، اليسير . فقال الضابط التركي
باللغة العربية وكان قوله ولا شك ترفلاً : كل واحد من الخمسة الملايين مطيع
للإمام ، فاعترضه الامام قائلاً : لا لا . ومال بوجهه الي وهو يشير بيده تلك
الإشارة اللطيفة البليغة كأنه يقول : حفنة منهم فقط .

اما حدود اليمن فالامام لا يعرف منها غير القديمة التي كانت تشمل عُمان
وحضرموت . فاذا اعتبرنا هذا التحديد وفهمنا اشارة الحضرة الشريفة ظهرت
لنا مطامحه السياسية باجلى مظاهرها .

وكان الحديث بعد ذلك في السياسة الاوروبية فادهشني منه ما يعلم وما
يهتم له من اخبار العالم . فهو يطالع الجرائد المصرية ، واذا ضاق دون المطالعة
وقته يدفعها الى احد كتاب ديوانه فيلخص له الاخبار كأنه من هذا القبيل
مدير شركة اميركية او رئيس وزارة انكليزية - سأني عن ارلنده - وهل

حازت استقلالها؟ سألتني عن لويد جورج - وهل يخلفه في الوزارة كرزُن؟ وعن زغلول باشا - وابن هو الان؟ وعن الاتراك - وهل عقدت المعاهدة بين مصطفى كمال والفرنسيين؟ وعن اميركا - ولم سنة يحكم الرئيس؟ وهل يعاد انتخابه؟ ولم مرة يجوز ان يعاد؟ فلما اخبرته عن الرئيس الاول جورج واشنطن الذي ترأس مرتين ورفض الثالثة قائلاً: ما تجررنا من الملوك لتقيم ملكاً علينا في هذه البلاد، اعجب جداً. اما كلمته المأثورة: استعدوا في ايام السلم للحرب. فابرق لها جبين الامام كانها حديث شريف، واطرق وهو يهز برأسه ويقول: ناهي، ناهي، كلام ناهي، حكمة رائعة.

وما توقف عن اكل الفات وشرب الماء اثناء الحديث. ولا رد واحداً ممن جاؤوه يحاؤون العرائض والكتب. الا انها كانت تقدم بواسطة الحاجب فيفضها في الحال ويقضي بها. ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه. وكنت وهو يتعمم النظر فيها انظر اليه وراقب عينيه، وفيها يبدأ الانفجار او ما يشير اليه. انا الغريب ان قد تشهر العين الحرب عليك في حين ان الفم، مثل رسول السلم، يبسم لك مطمئناً. كثيراً ما شاهدت هذه السيا، المتناقضة فيه. ولكنه في ذلك الاوان تغير تماماً فساد الغضب في ناظره، وقلص العنف شفتيه فاستأذنا بعد ان فرغ من قراءة تلك العريضة، وكانت قد طالت الزيارة، فاشار بيده اشارة سريعة جافية ان اذهبوا اذهبوا. ولم يفه بكلمة سلام واحدة.

خرجنا كالمطرودين، وبتنا في امر هذا الامام حائرين. ابدوي هو اذا غضب، وسياسي اذا رغب، وشاعر في ما يجب؟ اعالم مجتهد، وحاكم مستبد؟ اغليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان في شخص واحد - في زيدي رافضي؟ هو في امور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد عن الغلط. ولكنه عادل، وفي اقامة الحق لا يميل ولا يجاني، وعند الاقتضاء مباح حلیم.

ان له في حكمه فضائل اخرى ، منها انه يستشير ذوي العلم والخبر من رجاله ، وطريقته في الادارة والعمل منظمة ، وقوته على العمل عظيمة مدهشة . رأيته في ليالي رمضان ، وقد انصرف كل كتاب الديوان ، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل . سيدخل القارى . بعدئذ الى ديوانه ، فيرى كل شي . في مكانه .

اما الان فعلاقتنا - في لغة السياسيين والصحافيين - متوترة . وما بدأ منا ، على ما اعلم ، ما يسي . الحضرة الشريفة بشي . فقد قبلنا « رجل المسيح المسحاح » قائلين : ان الامام من المجتهدين ، وطويل البال في غوامض الدين . ولكن رجل حضرته أنيقة الشكل لها قوس بليغ ، يدل بحسب علم الفراسة ، على طيب الارومة ، وحسن الذوق ، وكرم الاخلاق . فاین هذه الفضائل من تلك الاشارة العنيفة ، وذاك الوجه القطوب ؟ ونحن ضيوفه ورسول السلم والخير اليه .

مرّ اليوم الاول بعد هذه المقابلة ونحن ننتظر من حضرته كلمة تسكن منا البال ، او اشارة تعيد الينا الثقة والامل . ومرّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً . ونود لو جاءنا احد يساعدنا على محنة الريب وسؤ الظن ، بل نود انفسنا بعيدين عن الزبود وبلادهم . أفلم يرض الامام يا ترى بكتاب الملك حسين ، ام هو في ريب من امرنا بما قد يكون سبقنا الى عاصمته والى ديوانه من الوشايات . فقد قال لي احد السادة : الناس مشبهون بكم ، حتى الذين اكرمواكم يكتبون الى الامام ليتحرز منكم . فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياتنا يا ترى ؟

استأذنا السيد علي زباره بزيارة المدينة فكان جوابه انه يخاف علينا من الاولاد بل على كيسنا من الشحاذين . ثم استأذناه في اليوم الثاني بالطواف حول السور فقال ان المشي في الشمس يتعبنا ، وقد تؤذينا شمس اليمن المحرقة .

فلاحسن ان تخرج اذا عند الغروب . ثم جاء سيادته عند الغروب يصحبه احد الموظفين يزورنا فتعذر علينا الخروج للزهة . وقد قال ان اشغال الامام بسبب تغيبه كثيرة ، وسيأذن بمقابلة اخرى قريباً ان شاء الله
 اما الرفيق قسطنطين فكان يستعين على هذه الحالة المزعجة بنظم الاشعار . فلما فتحت دفترتي مساء ذلك النهار لادون فيه بعض الحواطر اطلمت على ما يلي ، وبما اني لا اعتقد بالجن تيقنت ان البيتين من نظم مكروب مثلي . قال الرفيق :

ترجو الخروج الى المدينة باحثاً فيها عن الشيء الذي لا تعلم
 لكن لسو الحظ بابك موصل « ان اليبس من الاشارة يفهم »

وفي اليوم الثالث ، وانا اشك حتى في ما قاله الرفيق ، حاولت الخروج الى الساحة فردني احد الجنود في الباب . صدقت في شعرك مرة ايها الشاعر العزيز . فنحن لا نزال اسيرين ولكننا علمنا السبب وقبلنا العذر يوم كان الامام غائباً . فما السبب وما العذر الآن يا ترى ؟ بادرت الى الورق والقلم وكتبت الى الحضرة الامامية كلمة يمكيني ان انقلها بالحرف لانها اعيدت الي مولاي :

حياكم الله بالخير والسعادة . اما بعد فاني منذ وطئت ارضكم اسير فضلكم ، وموضوع اكرامكم ، وسأكون مدى العمر شاكراً لكم . وجئت الان اسألكم ، واستسمح عن ذلك عذراً علمي بما انتم فيه من الاشغال المتراكمة اثناء غيابكم ، ان تعلموني اذا كنتم تسمعون بمقابلة خاصة ومتى . فاني مقيد بخطة سفر تضرطني الى القيام باذن الله بالمحدد من زمان ومكان . وفي كل حال اني شاكر ابدأ لمولاي الامام ، فخر العرب والاسلام ، حمى الله ذماره ، واعز بنوده ومناره .

امين الريحاني

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٠ .

فاعاد الامام كما قلت الكتاب الي وقد كتب في اعلاه بخط يده :
عافاكم الله ووفقكم لا بد نطلبكم لما اشرتم
اليه ان شاء الله قريباً هـ

والحرف الاخير هـ علامته الخصوصية في كل ما يكتبه ويكتب باسمه .
زادني الكتاب حيرة واضطراباً . فضلاً عما ظننته اهانة مقصودة . أهذه
طريقة الزيد في المراسلة ؟ او انها طريقة الامام في ما يختص بالنصاري ، فلا
يرغب حتى بورقة من اشياهم ؟ قد اكون اسأت الظن ساعة الحلق والاضطراب ،
على ان ما عرفته بعدئذ وشاهدته اثنا . اقامتي في صنعاء لم يكن ليزيل التأثير
الاول كله تاماً .

كادت تحملني تلك المعاملة على الاستئذان بالرحيل لاني ، ولا بد من
الجهر بذلك ، سئمت ما شاهدت في طريقي الى صنعاء . من مظاهر الاجتماع
والسياسة . سئمتها كعربي محب لابناء جنسه ، راغب في نجاحهم وعمران
بلادهم . وها اني في صنعاء اسير ريب الامام بعد ان كنت اسير فضله . فما
السبب في الانقلاب ؟

مانعت تلك الليلة الا قليلاً . وكنت كل مرة استفيق اسمع السلك
يشغل مجدأ وفي انبائه البرقية ما قد يزيل في الغربة الكربة . ولا حاجة
بـ« قد » التوقع . فان سبب كربتنا كما تحققنا اننا هو الملك حسين ، او بالحري
كتاب التوصية منه . فرأى الامام الحكمة في تثبت الامر قبل ان يفاوضنا
بشي . فاشتغل السلك لذلك ، وكان الجواب من عدن ، والحمد لله ، مثبتاً ما
اكرمنا من اجله ذاك الاكرام الجميل في الطريق . فاذا كان كتاب التوصية
من صاحب الجلالة المقعد الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فاذا عى ان
تكون نتيجة كتاب التحرير ؟

الفصل السادس

حكم الامام

الامامة بالسيف - شروطها - سبب الفتن والحروب - الرهائن - اعداء الامام -
 اليمن في الماضي - اول امام زيدي في اليمن - الفرق الزيدية - الائمة الاقدمون -
 اليمن الاكبر - القرامطة في اليمن - اول دخول الاتراك - اول ثورة عليهم - خروج
 اشرف ابي عريش على امام صنعاء - خروج لحج وعدن من حوزته - رجوع الاتراك
 سنة ١٨٦٩ - انهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ - ثم سنة ١٨٩١ - الامام المنصور
 - احمد قبضي باشا - الامام يحيى - ثورة ١٩٠٦ - حصار صنعاء - الصلح -
 ثورة ١٩١١ - عزت باشا - معاهدة ١٩١١ - رجوع الامام الى شهاة - الحرب
 العظمى - رسوله الى لحج والانكلاز - كتاب ملوك العرب - اعداء الامام بعد الحرب
 - التجاؤهر الى الملك حسين والسيد الاذريسي - الشوافع - العشائر .

ان الحكم في اليمن ديني وضماً ومدني عملاً، له فروع في الاصل مذهبية
 وله مظاهر في العمل غير عرقية . فقد اخرجهم الامام زيد^(١) الذي يتسمون
 اليه او الداعي الاول الى مذهبه في اليمن عن العقيدة بالامام المنتظر، وعلمهم
 الترك بعض النظام في الادارة وفي الجيش . وكان الحكم هناك قريباً من
 الديمقراطية لو انهم انتخبوا الامام وبايعوه على طريقة الصحابة ، بدل ان يجعوا
 الامامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف ، ولكن عقيدة غامضة باطنية في من نشق
 الزيود عنهم حملتهم ، على ما اظن ، على التمسك بصددها . قالت فرقة الشيعة :
 لا امام بعد الامام الثاني عشر وهو صاحب الزمان^(٢) فامست من العقائد الدينية

(١) هو زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي جاهد
 ليسترجع الامامة التي اغتصبها الامويون فاضطهد وصاب .

(٢) هو الامام الثاني عشر الذي ظهر فترة في الارض ثم اختفى سنة ٥٢٦ هـ . غاب
 عن الابصار لا عن القلوب ، ولا يزال غائباً . ولكنه حي ابدأ ، وموجود في كل
 مكان ، وسيظهر - هو الامام المنتظر - ليظهر العالم من الفساد والضلال .

حاشية اخرى : قد تفضل احد علماء النجف فاصلع ما في هذه الحاشية من الاغلاط

التي ينسب فيها مكروب الخرافة ، فيفسد الحياة الروحية ، ويشين اساليب العبادة فيجعلها سخوية .

وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها ويقضي على صاحب الزمان . كان الزيديين يقولون لحصومهم : اذا انتم رضيتم بامام موجود دائماً في كل مكان ، ولا يُرى في مكان ، فنحن لا نرضى . نحن نشتهي^(١) ان نرى الامام امامنا ولو في مكان واحد ، وفي فترة من الزمان . ولم يبتدوا في ذلك الحين على ما اظن الى غير السيف اثباتاً لعقيدتهم وتحققاً لاملهم فقالوا : ان الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدهما ، فن خرج منهم شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، وكان عالماً ورعاً ، اما هو الامام المنتظر

اما شروط الامامة عندهم فاربعة عشر^(٢) شرطاً ، منها ان الامام يجب ان

التاريخية والدينية فقال ان الامام الثاني عشر ولد سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ هـ ، وانه « غاب عن الابصار الغيبة الصغرى اي عن العامة دون الخاصة سنة ٢٦١ هـ ، وغاب الغيبة الكبرى اي عن الجميع الا نادراً سنة ٣٢٨ هـ . فيكون عمره اليوم ١٠٩٨ سنة لا ٨٣٠ سنة كما يظهر من التاريخ المفلوط

ثم قال : « والامام الثاني عشر عند الامامية من الشيعة بشر مخلوق ، يمينا ويموت ، ويأكل ويشرب ، وهو في مكان مخصوص من الارض غايته اننا لا نعرفه وربما يوجد من يعرفه وليس هو مقيد بمكان بل يتجول في الافاق متنكراً متخفياً الى ان يأذن الله بالظهور » .

فقد يشكل على القارىء قول العالم النجفي انه اي الامام المنتظر « في مكان مخصوص من الارض » وانه « يتجول في الافاق متنكراً » والذي اراده على قصر باعي في هذا العلم ، ان في الحالين شيئاً من الحقيقة . فهو يقم في مكان مخصوص برهة من الزمن ثم يتجول متنكراً في الافاق . وقد قال لي الداعي في عدن ان صاحب الزمان هو اليوم في اميركا .

(١) اشتمى في اصطلاحهم الشيء اي اراده واحبه .

(٢) وهي ان يكون الامام مكلفاً ، ذكراً ، حراً ، مجتهداً ، علوياً ، فاطمياً ، هدلاً سخياً ورعاً ، سليم العقل ، سليم المواسم ، سليم الاطراف ، صاحب رأي وتديبير ، مقداماً فارساً .

يكون مكلفاً بالغا ، وحرّاً اي ليس بعبد ، ومجتهداً ، وفارساً مقداماً . هي اربعة اصول صحيحة تضمن على الاقل النظام في الملك ، لانها تنفي الوراثة وفيها من المجهول المحذور ما قد يكون الشر الاكبر في الاحكام كما يدل على ذلك تاريخ الملكيات وبعض من حكموها من السفها . والمعاتيه . وهي تحول دون مطامع العبيد والماليك - لا يزال منهم في قصور ملوك العرب اليوم وبعضهم يرتقون الى المناصب العالية - الذين زرعوا اركان السيادة العربية الاسلامية واهنوها بما كان في الماضي من اختلاساتهم المعروفة . اما الاجتهاد فيوجب على الامام العلم . والعلم اليوم في اليمن وفي نجد ينحصر بالاربعة الاصول ، اي الدين والحديث والفقه والمغة . ولكنه شرط مرن ، فيتناول في تطور الحياة ولا شك شيئاً من العلوم الكونية . اما الشجاعة والفروسية فليس من ينكر الفضل فيها لم تكونا الركن الاول لعقيدة دينية او لحكم مدني .

وامريري ان شروط الامامية في الزيدية لمن خير ما تتطلبه الجماعات في حكامها لولا هذا الشرط الذي يتزل السيف . يتزل الشورى والمبايعة فهو ولا عجب السبب الاكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة التي دعاها الرومانيون سعيدة ، ونتمنى نحن اليوم ان تكون السعادة فيها حقيقة لا خيالاً . وكيف يثبت ملك فيها ويدوم نظام ، وكيف تضمن سبل الفلاح وال عمران ، اذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طامحاً ، وكانت له بعض السيادة في عشيرته ، ان يخرج شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، طالباً الامامة ؟ وان في اليمن اليوم عدداً من هؤلاء الطامحين اليها ، ومنهم من كان اباؤهم او اجدادهم ائمة حاكين . فاذا احسوا يوهن في حكم الامام ، او بضعف في موقفه ، فسيف الاسلام عليه . فيتسع المجال اذ ذلك لثيرة من سيوف الاسلام ، فتشب نار الفتنة ، وتندق طبول الحرب ، ويخنق دخان الفوضى روح الامن والعدل والنظام .

لا نخطئ. اذا قلنا ان الفتى في اليمن حالة مستمرة يتخللها في بعض الاحايين فترات يسود فيها السلم والسكينة . وقد كانت قبل ان جلا الترك عنها ميداناً لسيف الاسلام - الجهاد ثالث الماء . والزاد - بل لسيف الامام زيد ، بل لسيف كل طامح من السادة المحترمين - ميدان هلاك ودمار ، لا يسكن فيه غبار ، ولا تحمد له نار ، الا في فترة عياء عام او تفوق شخصي مثل فترة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد ضبط الامر فيها بيد من حديد ، وبالعدل - والرهائن .

ولا عجب ، وتلك طريقة الاستيلاء على الامامة ، اذا كانت الرهائن اساس الملك . لكنه ، ولا ريب ، اساس فاسد ، لا يسلم حتى في ايام الحرب . اجل ، ان الرهائن دمل في حكم حضرة الامام ، بل دمل في نفسية اهل اليمن ، لان الامة التي ترضى في ايام السلم ان يؤخذ ابناؤها رهينة الوفاء والامانة ، وان كانت سليمة العقيدة ، فليست بسليمة في وطنيتها . لسنا نلوم الامام وهو يحكم مثل هذه الامة ، واعدائه يحيطون به من الخارج ومن الداخل شمالاً وغرباً وجنوباً . ومع ان البلاد اليوم في اكثر انحائها هادئة ساكنة ، وسبل التجارة والسفر فيها آمنة ، فهو دائماً في احتراب ظاهر مع الادريسي ، وفي احتراب خفي مع الشوافع ، وفي احتراب متقطع مع حاشد وبكيل ، وفي احتراب سياسي مع الانكليز ، وفي احتراب كذلك مع من يدعون حمايتهم من العرب في النواحي التسع حول عدن . هؤلاء اعداء الامام ، فضلاً عن السادة اقرانه ، الطامعين بمكانه ليس فراش الامامة بالفراش الوثير ، ولا امل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليمن والنجاح الا في ترع حق الامامة من السيف ووضعه في الشورى الحقيقية ، في المباينة بالاقتراع بموجب السنة وعلى طريقة الصحابة .

لا ينكر ما كان لليمن في الماضي ، في عهد اسلاف الامام يحيى ، من المجد الاثيل والسيادة الواسعة . وسأعود بالقارى . الف سنة الى الوراء . ولا

اكلفه قراءة اكثر من صفحة او صفحتين ، فيها حقيقة الزيدية والامامة او الخلاصة التي تهتمنا في هذا المقام .

في القرن الثالث للهجرة جاء الى اليمن من العراق السيد يحيى بن الحسين القاسم الرُّسِّي يدعو الناس الى المذهب الزيدي . فاقام في صعده يعلم عدة سنين ودعي الامام . هو رسول الزيدية الاول في اليمن . ولكن الذي اسس الامامة في صعده هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالرسي المذكور .

بيد انه لا تخلو هذه السلسلة من التقطيع لان الشرط الذي ذكرناه - الامامة بالسيف - فتح الباب للحسني والحسيني من السادة والاشراف . فتشعبت الزيدية الى ثلاث او اربع فرق ، منها الجارودية نسبة الى ابي جارود زياد بن ابي زياد الذي ممي سرحوباً . والسرحوب كما قيل شيطان اعمى يسكن البحر . وهذه الفرقة تقول بالنص من النبي على امامة علي وصفاً لا تسمية ، وتختلف والفرق الاخرى في الامام المنتظر . والسلمانية تتبع سليمان بن جرير وتقول ان الامامة شورى بن الخلق ، الا انها مقيدة بواحد من خيار المسامين . وهناك امور طفيفة يختلفون عليها منها سب الخليقتين الاولين ابي بكر وعمر ، فمنهم من يقول بوجود السب ، ومنهم من يقول بوجود الاعضاء . كان اليمن في عهد الائمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقيم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين « ١٣٠ هـ » الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء . كان من الفاتحين الكبار . والامام المهدي احمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت . والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيس ان يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بواهب ، وعقد معهم معاهدة تجارة وولا . سنة ١٧٠٩ م .

لكن الامامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً كما اسلفت القول ولم تكن

دائماً مستقلة. فقد حكم القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيئ الترك، ثم استولى السلطان سليمان القانوني على بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر « ١٥١٧ م » ومنها عدن وقسم من اليمن . بيد انه ما عَمَّ ان نار اهل اليمن على الترك فاخرجوهم بعد عشرين سنة من البلاد واستمرت الامامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مئة سنة فنار عليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شريف ابي عريش بتهامة واستقل عن اليمن . سيجي . ، ذكر هذه الحوادث في الكلام على الادريسي . ثم نار عليها احد عمالها في لحج فاستولى على عدن واعلن استقلاله وسيجي . ذكر هذه الثورة في كلامنا على سلاطين لحج .

وفي سنة ١٨١٩ عاد الاتراك بقيادة توفيق باشا الى اليمن فقتلوا في الحديدية واستولوا على ابي عريش ، وتقدموا الى صنعاء . ولكنهم لم يستولوا عليها ، ولا تمكنوا من البقاء في اليمن الاعلى . الا ان الثورات في تهامة وفي لحج قسمت البلاد ، واضعفت شوكة الامامة ، فقام السادة سنة ١٨٧٢ على الامام واستعانوا بالترك فدعروهم الى صنعاء . ففازوا هذه المرة ، ووطدوا في الجبال العالية حكمهم الى حين لان اهل اليمن الذين يثرون على ساداتهم والسادات الذين يتمردون على امامهم لا يزالون الاجنبي طويلاً ففي سنة ١٨٩١ نهضوا على الترك فحاربوهم واخرجوهم من صنعاء . وكانت تلك الثورة فاتحة حروب وفتن استمرت ربع قرن ، يوماً تضطرم نارها ، ويوماً تهدت تحت الرماد وعند ما قام عليهم الامام المنصور والد الامام يحيى بعثت الدولة الفريق احمد فيضي باشا لاجناد الثورة ، فتقدم بجنوده الى صنعاء فحاصرها واستولى عليها ، فتهقر الامام المنصور الى صعده .

وعند وفاته خلفه ابنه الامام يحيى ، فاعاد سنة ١٩٠٤ الكرة على الترك ، فحاصروهم في صنعاء حصاراً دام ستة اشهر - « اطعمناهم النار والفار » - فسلخوا بدون شرط . وقد فاز ايضاً الثائرون فوزاً مبيئاً في نواحي اليمن الاسفل ،

فغنموا من الترك في تلك الثورة سبعين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والسلاح على ان احمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة عاد بخمسين الف من الجنود لتأديب العصاة ، فأستولى ثانية على صنعاء ، ثم تتبع الامام الذي انسحب بجنوده الى شهاره . ولكنه دُحر شر دحرة هناك^(١) فعقد بعدها اتفاقاً والامام - رقع صلحاً - لم يدم غير بضعة سنين .

ففي سنة ١٩١١ كانت العشاير قد تآقت الى الحرب ، فهجرت على صنعاء واحاطت بها تطلبها باسم الامام ولكنها لم تفز فوزها في حصار ١٩٠٤ - ١٩٠٥ . وكان يومئذ عزت باشا والي اليمن ، وكانت الدولة على اهبة الحرب مع ايطاليا . فسعى عزت بما كان له من حنكة ، وفصاحة ، وكرم اخلاق الى مصالحة الامام لينتقمه على الاقل من مخالفة العدو كما فعل بعدئذ السيد الادريسي .

وقد كان عزت كريماً جواداً ، فاستغوى العرب بالمال ، واستمال الامام بفصاحته وحذقه . فعقدت معاهدات ١٩١١ (شوال ١٣٢٧) لمدة عشرين سنة وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة ان لا يكون في البلاد غير المحاكم الشرعية التي يعين الامام قضاتها . قد تمهدت الدولة كذلك بان تدفع للامام ولرجال السادة ومشايخ حاشد وبكيل مشاهرات مالية مقدارها الفان وخمسة ايرة ذهباً . وبنا ان الزيود ، بموجب مذهبهم ، لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد حسم اثنين ونصف بالثمة بدل الحياة .

بعد عقد هذه المعاهدة عاد الامام يحيى الى الحيرة في شهاره ، وظل والاتراك على ولاء ما داموا يدفعون المشاهرات ويجمعون له الزكاة . الا انهم لم يتمكنوا من القيام بما تمهدوا به بعد دخولهم في الحرب العظمى ، ومع ذلك فلم يتقلب

(١) راجع الشرح في صفحة ١٢٦ من هذا الجزء .

عليهم ، ولا ساعدتهم على الادريسي في تهامة ، ولا على الانكليز في عدن . ويظهر ان الانكليز هناك كانوا قد بدأوا يفاوضونه بطريقة غير رسمية . لينضم الى الاحلاف في الحرب فارسل بطريقة غير رسمية ايضاً ، لان رسوله جاء الى الحج لا الى عدن ، يطلهم على احواله ويعتذر . وقد كان يومئذ الكرنل جاكوب ، صاحب كتاب « ملوك العرب »^(١) المعاون الاول للحاكم في عدن فذكر هذا الخبر في كتابه .^(٢)

الامام يحيى بن حميد الدين هو من سلالة الرسول الزيدي الاول في اليمن السيد يحيى بن الحسن الرسي . وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء ، وذا نفوذ كبير في عهد الامام شرف الدين فلما توفي الامام انتخب بالاجماع خلفاً له ودُعي بالمنصور . وبعد وفاة المنصور ظهر ابنه يحيى المنوكل على الله بالامامة . وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه وفي الثنية والعشرين من حكمه ، قضى اكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات ولخضرة الامام اربع زوجات شرعيات جاءه منهن اربعة وثلاثون ولداً مات منهم ثمانية عشر ، اما الباقون

(١) من غرائب الاتفاق ان عنوان كتابه الانكليزي ، الذي طبع في السنة الماضية والذي يتحمر موضوعه باليمن وعسير فقط ، وعنوان هذا الكتاب واحد . وقد قال الكرنل جاكوب في صفحة ٢٣٦ من كتابه ان التوراة التي جاء فيها ذكر ملوك العرب اوحث اليه العنوان . اما انا فاخذت عنواني من ملوك العرب انفسهم .

(٢) « بعد دخول الاتراك في الحرب في ك ٢ سنة ٩١٥ ارسل الامام رسوله محمد هلي شريف الى الحج ليستطلع مقاصد الانكليز . وقد قابلت الرسول وكان السلطان علي (سلطان الحج وحليف الانكليز) حاضراً . قال الرسول ان الامام لا يخلف مع الترك وبينه وبينهم اتفاق على هدنة تستمر عشر سنين . مع انهم بعد ان دخلوا في الحرب لم يدفعوا مرتبانه ومرتبات عشائر حاشد وبكيل . ثم قال ان الاتراك عرضوا على الامام ان ينسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها ولكانوا ينسحبون من اليمن كله لو سمح الالمان بذلك . فقد اقمعوا الترك بان انسحابهم من اليمن يفتح الطريق للانكليز فيحتلون تلك البلاد » .

هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب » صفحة ١٥٩

فمنهم محمد سيف الاسلام البكر ، والمطهر ، والقاسم ، والحسين ، وخمس بنات متزوجات .

عندما توفي ابوه المنصور سنة ١٩٠٢ قام بعض السادة يطالبون بالامامة ومنهم السيد احمد بن قاسم بن عبدالله بن حميد الدين المعروف بالضحياني وهو لا يزال حياً . ولكنهم لم يفلحوا . ثم بعد اعلان الهدنة تحركت ركاب الامام من السوده جنوباً ، وتحرك غيره كذلك يبغى الامامة . وكان في البلاد حزب يقاومه مقاومة شديدة فلجأ زعماءه الى اعدائهم يستنهضونهم على الامام . هي عادة في العرب لم تتغير من عهد الامويين في الاندلس حتى اليوم . كتب اعداء الامام الى الملك حسين ، والى الادريسي ، وحتى الى الانكليز في عدن ، فبعثوا بوفد سافر رجاله سرأ اليها عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ وقصدهم السفر الى الحجاز شاكين مستنجدين . ولكن الانكليز لم يأذنوا لهم بالمرور فوجدوا الى بلادهم . قد سمعت من مصادر شتى ما يدعش ويضحك من اخبار هذه الفتنة ، واغربها ان الامام يحيى رشى بعض الموظفين الكبار من الانكليز في عدن ليوقفوا اعدائه اعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة .

قد استتب لحضرتة الامر بعد ذلك فحكم بيد من حديد . وانتفع بن تخلف من ضباط الترك فنظم قسماً من جيشه . وانتفع بنصراني غساوي فأسس معمل الخرطوش . وانتفع بنذهب اجداده فحارب الادريسي وتغلب الزيود على الشوافع مراراً . الا وعنده المجاهدون في سبيل الله يجاريون غيرهم من المجاهدين كذلك في سبيل الله . ان المرء لبأسف على امة عربية محيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنة ، او بالحري تجعل المذهب وسيلة الى الاستيلاء والسيادة .

اني على يقين ان لو حكم الامام يحيى حكماً مدنياً بحتاً ، حكماً عربياً عانياً لا حكماً زيبدياً ، لتمكن من تحقيق مطامعه السياسية . فالشوافع اذ

ذلك يدينون له طائعين راضين، او انهم يأتون على الاقل ان يكونوا آلة مذهبية
 في يد اعدائه . اما اليوم فهما قيل في عدله الجهم ، وحلمه الشامل ، والشوافع
 في حكمه غير راضين ، والذين في الجيش منهم يجارون الشوافع اخوانهم
 مكرهين . ومن المظالم التي يشكونها انه يجمع الزكاة والاعشار منهم
 بالتضمين كما كانت تفعل الدولة في الولايات . والعشار مثل الجلال ، مكروه
 في كل بلاد .

الفصل السابع

الضرائب والسلاح

المسوء والبيقين - قوة الامام - عزلة اليمن - المذهب والجنسية والوحشية - الجند النظامي - المجاهدون - العرض يوم الجمعة - انواع المدافع والبنادق - معمل الخرطوش - قصر حمدان - غنى الامام - قصص الكنوز - حكاية السيد المقسومة الى ثلاثة اقسام - وحديثه - « الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام » - الضرائب - المشور - الزكاة - رسم الجمارك والتوافل - والجزية يدفعها اليهود - بيت المال - اليوم المنتظر - غلبوم العرب .

كنت اسمع الناس في جده يتكلمون عن الحكومة العربية فيذكرون اليمن كأنه ولاية من ولاياتها ، وكان الامام ، وهو العربي الصميم - هاك قصيدته في جريدة القبلة - يبغى الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره زعيماً . وسمعت بعض الناس في عدن يقولون ان بضع طيارات تبدد صفوف الزيود وتشتتهم في الاودية والجلال ، فتتسيهم الامام ، ووحدة الاسلام . ولكننا سمعنا كذلك كبار قواد الحضرة الامامية الشريفة ، وشاهدنا جنودها النظامية . لا نظن ان عدناً تشاهد ما شاهدناه ، وان الحجاز يسمع ما سمعناه ، لان الحقيقة في البلدين مشوهة ، او مطبوسة ، او مجهولة .

وهذا مما يؤسف له . فان ملوك العرب وامراءها ناؤون بعضهم عن بعض ، وقلما يعرف بعضهم بعضاً معرفة اليقين . قد يسمع احد المسافرين كلام مثل ابن الوزير ، فيحمله الى الحجاز ، فيظنه الناس هناك كلام الحكومة . وقد يسمع احد رجال الامام المعتدلين فيتصور في كلامه صورة لآراء الامام ومقاصده . لا انكر ان شيئاً منها ينعكس في كلام الاثنين . ولكن الامام الكبير ، الكبير باستعداده وبقصدته وبطمحه ، لا يظهر في كلمة يقولها هو او يقولها احد رجاله .

هو الرجل العالم الحكيم المعتدل - قد سمته يتكلم . ولكن اعماله ، وقد ادهشنا بعضها ، وبعضها راعنا ، تدل على علم يشوبه التعصب وعلى حكمة تضعفها العقيدة . اما قوته الحربية والسياسية فلا تنحصر بالزبود ، لانهم في من يحكم الثلث فقط^(١) وانما هي في تلك الغزلة التي توجهها العقيدة ، ويثبتها التاريخ ، وتمرزها الجبال . اجل ، ان قوة الامام يحيى لفي ثلاثة يقدها اهل اليمن ، هي المذهب والجنسية والوحشية^(٢) وان في نفسه مواهب تتغذى بهذه القوات الثلاث ولا تقف عندها . فهو وان كان التكتّم طبعاً فيه ، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان . وهو ، وان كان زديدياً ، يقبل هدية من الانكليز ، فيركب السيارة ، ويأذن بتصوير جيشه النظامي . وهو ، وان كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي ، يرفب في تلك الابهة العسكرية التي يسير بها الى المسجد ، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل اسبوع بعد صلاة الجمعة .

قد شاهدنا شراذم من الجند في ماويه واب ويريم وذمار . ولكننا في صنعاء شاهدنا يوم العرض فرقة كاملة تامة بعدتها واجزائها ، بنورتها ، بسريتها ، بمشاتها ، بمدفيعتها . وكان بعض ضباط الترك يركبون البغال ، وقد علموا ابن اليمن ان يخطو خطوة الجندي الالماني الرسمية ، خطوة البط ، Goose-step في حين ان الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغفات الموسيقى . وشاهدنا بين الجنود الزرقاء ، ثلة في ثياب صفراء ، قيل لنا انهم تلاميذ المدرسة الحربية ، ضباط المستقبل .

(١) يحكم الامام نحو مليونين ونصف مليون من عرب اليمن منهم زهاء مليون ونصف مليون من السنين الشوافع ، وعشرون الفا من اليهود ، والباقي من الزبود .
(٢) افي استعمل هذه اللفظة ، وعشي ، كما يستعملها اهل اليمن فهم يقولون : اهل اليمن وحشيون . ويريدون بذلك اتهم بنفرون من التريب .

اما السلاح فعند الامام من البنادق انواعها^(١) ، بعضها محبوب وبعضها مغنوم ، وبعضها مشتري من رجال عسير . وان معمل الفسك في قصر غمدان^(٢) الذي يديره حرجي النمساوي يشتغل دائماً ، فينجز اربعة صناديق كل يوم ، في الصندوق الواحد الف فشكة^(٣) . وقد قيل لي انه يستطيع ان يجند ، خلا الجيش النظامي^(٤) ثلاثمائة الف من المجاهدين . على ان هذا القول لا يخالو من المبالغة .

في كل حال يحق للامام ان يردد انشودة الانكليز الحربية الاستعمارية فيهتف قائلاً : عندنا المدافع والرجال ، وعندنا فوق ذلك المال . اني اشهد على الاولى والثانية شهادة عين ، وقد سمعت عن الثالثة اخباراً شبيهة باخبار الجن والكنوز المرصودة . فالامام غني ، غني جداً . عنده في كل بيت من بيوته في بئر العزب خزنة من الذهب والفضة . لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الامان . وعنده في شهره ، في قنف الجبال هناك ، كنوز لا يعرف الطريق اليها سواه . واذا اكتشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه . واذا عرف الحجر فلا يستطيع ان يرفعه احد سواه ، لانه موضوع في شكل سره ، مفتاحه ، عند الامام . دعنا والكنوز . ان الضرائب والميزانية تشهد ان الحضرة الشريفة غنية ، غنية جداً ، لانها مثل الاكايروس عند النصارى تأخذ ولا تعطى . في ايام الدولة كان

(١) قيل ان عند الامام اربمئة الف بنديقة . ولكن ، منها ما هو غير صالح اليوم كاطليانية القديعة . وعنده مئتا مدفع متنوعة ، منها الجبلية والرشاشة . وقد رأيت يوم العرض مدفعين من طراز الماون .

(٢) قصر غمدان القديم درس والبناء القائم مكانه اليوم يدعى باسمه ويختصرونه في صنما . فيقولون القصر . وفيه معمل الخرطوش ، والسكة ، والسجن .

(٣) هم يجلبون الرصاص ويستخرجون من ارضهم ملح البارود .

(٤) عدد الجيش النظامي خمسة الاف .

اهل اليمن يدفون الزكاة فقط ، وكانت العشاير معفاة منها . اما اليوم فهم كلهم يتوجهون على الاتراك . قد سمعتك شكوى الجندي وشكوى الفلاح . واليك الان بحدیث غریب لرجل غریب ، ما عرفته من ثیابه اجنبدیا هو او فلاحاً او سيداً . فقد كان یلبس فوق ردائه معطفاً افرنجياً من الجوخ ، اكل الدهر علیه وشرب ، وهو فی رقاعه وطوله ووسعه وازرارہ البیضاء والسوداء آیه فی الرزی والاختراع ، وكان الرجل یشد فوق هذا المعطف الجنیبة ای الخنجر ویحمل بدل البنندق العصا .

استوقفت هذه القیافة المتكررة نظري فسألت الرجل عن مهنته فقال : مهنة الاجاويد . فقلت : زدني علماً . فقال : نعطي ولا نأخذ . فاعتذرت واستغفرت فقال : تريدنا بلغة الفقهاء . قلت : بلغة من فضلك افهمها . فاجاب وهو یهز برأسه . حیاتنا هبة من الله ونحن نهیها الامام . لا زبیح ولا نخسر . فقلت ولكن للهبة طرقاً واسالیب . فقال ضاحكاً وهو یلطم صدره بیده : كلها عندي . انا اصلاً ، كما یقول الفقیه - وماذا یقول الفقیه ؟ - یقول : انا اصلاً واحد امار بالسوء . اما انا فثلاثة وفي كلهم الخیر . ثلثي یا افندي شیخ ، وثلثي فلاح ، وثلثي جندي ، والمجموع سيد .

- نعم انا سيد ، وان كان السادة ینكرون ذلك علي . الثلث الاول خدم الامام فجمع له الزكاة . جمعتها بهذه - وهز بیده العصا - جمعتها « ظَلَطَ » « نقوداً » ، جمعتها مالاً « مواشي » ، جمعتها اعشاراً ، وحتى ثماراً . وما اكلت والله ثمرة مما جمعت ، ولا لطخت يدي بنقطة دم من ساة او حمامة . كلها للامام . والثلث الثاني دفع الزكاة . وكنت ادفعها مسروراً مستأنساً ، فلا ارجم العشار ، ولا اخیه الحمام . دفعت خیرات « كثيراً » وما بقي شيء . بعد خمس سنین من الارض او المال او الظلظ . كلها للامام . والثلث الثالث یا افندي ، خاض من اجل الامام ساحات الوغی . وفي شاهدان ، هوذا

الاول ، وذا الثاني - قال ذلك وهو يكشف عن صدره ورجله ليريني الجرحين - وما عدت الى بيتي وفي جيبي «مُجَشَّة»^(١) واحدة . لا والله . . .
 خمس ريبالات ، هذا الرسم ولكن الريال فضة والعين لا ترى الفضة . نقبضها
 بجششات . ست مُجَشَّات كل يوم - والباقي للامام . وبما اني مجاهد كنت
 اشتري القات من كيسي ، هم يوزعون القات على «النظام» «العسكر
 النظامي» القات والبر «الخططة» . اما المجاهدون فله امرهم وعلى الله -
 ست بجششات كل يوم . والظلط مخزون ، مخزون ليوم شديد . . . نقول
 لحضرة الامام : من شروط الامامة السخاء . فيقول لنا ، وهو العالم الاكبر :
 ومن شروط السخاء وضع الحقوق في موضعها ليس بالتبذير . . . الامام رجل
 كبير عظيم ، ينظر الى المستقبل بعينين . له مقاصد كبيرة . ونحن كلنا
 للامام . نعطيه ، نعطيه ، ولا نأخذ منه الا ما شاء . ان يتفضل به . الحياة
 هبة من الله ونحن نهبها الامام شاكرين . هذه هي الحقيقة يبتك بها هذا
 السيد . فقد صرت سيداً يا افندي لاني لا اخدم اليوم الامام بغير الكلام .

اما الحقيقة كلها فهي ان الشكوى من الضرائب عامة ، وقليل من ينظر
 اليها نظر هذا السيد الظريف . فالامام يأخذ من المسلم اعشار الارض عيناً .
 والمخضرات اي الثار - والقوات منها - تثنى فيدفع اصحابها العشر نقداً .
 ثم زكاة المواشي والدواجن و«القراش» «الدواب» وزكاة التجارة والمخازن
 ثم الزكاة الاصلية^(٢) ومنها الفطرة اي زكاة البدن تدفع في رمضان ، وزكاة
 الحلبي حلي النساء . من ذهب وفضة . وفوق ذلك كله اعانة الجهاد عند الحاجة .
 اضف الى ذلك الرسم المفروض على اليهود وان كان قليلاً . فاليهود في اليمن

(١) الريال النساوي يقسم الى ثمانين بنجة ، والبنجة نحاسة ضربت في صنعاء واللبيرة
 العمانية تساوي تسع ريبالات مساوية فنكون قبة الريال احد عشر قرشاً تركياً
 وقبة البنجة ثلاث بارات .

(٢) تبلغ قبة الزكاة الاصلية خمسمئة الف ريال اي خمسين الف جنيه .

ذميون يدفعون الجزية ، وهي ثلاث درجات : ثلاثة ريالات في السنة على الفني ، وريالان على المتوسط ، وريال ونصف ريال على الفقير . كل هذه الضرائب تدعى في اليمن زكاة ، الا انهم يقسمون الزكاة قسماً ، ما يدفع من الجنس وهو العشور ، وما يدفع نقداً .

كل ما يجمع من العشور والاموال يحفظ في بيت المال الذي له فروع في كل الاقضية . وفي هذه الفروع اي المستودعات دائماً كثير من الجيوب والبن وغيرها من لوازم المعيشة ، التي لا يصرف شي . منها الا باصر من الامام . على ان من حسنت بيت المال انه يقرض المحتاجين مما فيه ويستوفي الدين منهم من الموسم الجديد دون فائدة ، وهي في اليمن ممنوعة اطلاقاً ، في التجارة وفي المعاملات كلها ، ممنوعة شرعاً وعملاً .

وما سوى القرض فلا ينفق من بيت المال الا القليل ، لان عند الامام مصدر خراج آخر هو الجرك ورسم القوافل . فكل ما يدخل الى صنعا . من عدن او من الحديدة اليوم يدفع رسماً معلوماً . وكذلك كل جبل وكل دابة محملة . فمن هذه الرسوم ينفق الامام على حكومته . اما بيت المال فلا تمسه يد صالحة او اتيمة . كل ما فيه مذخور بعون الله ، وبفضل الامام والرهائن ، مذخور لليوم المنتظر . فليوم العرب الامام ، المان العرب الزيود .

الفصل الثامن

الشجائل القدسية

خادم لا يعجبه شيء - شهادته في الامام - رآه جالساً تحت الشجرة يقضي في
الناس - دعوا الصغار يأتون الي - التناقض في سلوكه - القصد من الجلوس في
الليلة للناس - كيف يقضي الامام يومه - مكتبة من المخطوطات - طتاب
الكليل - « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه » - المدارس - العلماء
والقراء والعامّة - ذكاء الاولاد - حب العلم والحرب - الامام الامبراطور -
الامام الطيب - الكرامات والتشوير .

كان للرفيق قسطنطين خادم مدني وهو ولد مغربي نشأ في كنف الاشراف
بمكة ، فما اكتسب غير المشاكسة والمكابرة ، وما كان رأس ماله في الحياة
غير رأس من حديد ولسان ذي حدين . استصعبه الرفيق ، فكان اضحوكة
الطريق ، واعجوبة الحظر والضيق . وكان الاقدار تحسن الامثال ، فكان
ينطبق على المدني ومطيته - بغلة كانت او ناقة او حماراً - المثل المشهور :
شبهه الشكل منجذب اليه . وم وهلة روعتنا واضحكتنا معاً ، والمطية
فيها تضرب بقوائها الهواء ، والمدني ينطح برأسه الارض ، ثم ينهض كالجن
ضاحكاً ، وان غلظة في فمه اللعنات ، ويروح راكباً فوق احماله كأنه سيد
السادات . ولد لا يعرف النوبة ، ولا يحسن من الكلام ومن الظنون الا
اسوأها . فما رافق أحداً الا شاكسه في الساعة الثانية بعد اللقاء ، وجاء يتحفنا
بعلوماته عنه ويحذرنا منه .

ولما دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا برؤية المدينة ، فراح يطوف فيها ، وعاد
ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من عسل الالفاظ ، وعيناه تهرقان ابتهاجاً .
سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني ، فضلها حتى على جده . فقلت :
اقلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال : لا والله . فسألته عن السبب ، فاجاب :

في مكة امي . وهذه ، اي حبه امه واحترامها ، هي بعد الامانة ، فضيلة الولد الوحيدة . قلت انه نقاد وقاد ، لا ينجو احد من لسانه ومن ناره . ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام ، والله وامي ، وقبلت يده .

— أين رأيته ؟

— هو جالس الان في الساحة ، وحوله الرجال والنساء والاولاد . وثنا رأني قال : حي الله الجاي . وقام من كرسيه ، والله وامي ، واعطاني يده فقبلتها . وسألني عن اممي وقال : امسلم انت ام مسيحي . فقلت : مسلم والحمد لله . فقال : بارك الله فيك . هو حياني ، والله وامي ، قبل ان حيته . ما رأيت احسن منه ، والطف منه رجل متواضع كريم الاخلاق — والعدل ! وامي لا اظن ان في البلاد العربية من هو اعدل منه . هو جالس الان في الساحة يسمع شكاوي الناس . وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام ، يا امام ، يا حضرة الامام . جاء وانا واقف جنبه ولد يبكي . فقال للناس : افسحوا له ، قربوه مني . دموعه افصح من الافصح فيكم واصدق . تعال يا بني . وامي ، ما اقول غير الصدق . . . لا اظن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الامام .

وهذا اجمل ما فاه به المدني في الرحلة كلها . على اننا نضرب صفحاً عن رأيه وننظر في ما تضمنته حديثه من الحقائق . قد حياه الامام عند ما رآه قادماً وقام له . وهو يعرف انه خادمنا ، ولكنه يجمل ما اذا كان مسلماً او مسيحياً . هذا جميل منه . ولكننا تساءلنا ما السر يا ترى في ما تناقض من ساوكة . ينهض لخادمنا ويستقبلنا جالساً . والسر لا يزال سرّاً ترفه الى القارى . ونسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناه .

اما الحقيقة الثانية فهي انه قدم شكوى الاولاد ، ومنهم الولد الباكي ،

على شكاوي الرجال والنساء . وهذه بذاتها ثناء . على الامام لا يقارنه في النطق ثناء . نذكرها اجلاً لاساكتين حائزين . ان امر هذا العربي الياني الشريف لغريب . يشبه المسيح بالرجل المسحاة ، ويشبه المسيح في عطفه وحنانه ، دعوا الصغار يأتون الي . من فم مسلم زيدي تنساقط درر حباك ، وفي اليمن يسع صدى كلماتك ، ايها السيد الكبير الاوحد ، ايها الناصري العظيم . فما اصغر من يقيم الحدود ، ويحصر الحقيقة بالنصارى والزبور .

قد رأيت بعيني ما يشبه رواية الخادم مدني ، بل رأيت حضرة الامام وهو يجلس ساعة وساعتين كل يوم دون تأفف وتذمر ، فيسمع شكاوي الناس واعياً صابراً ، طلق الحيا ، عطوفاً شقيقاً ، فيقضي بينهم في بعضها ويجبل البعض الاخر على المحكمة الشرعية .

اما القصد من الجلوس في الفلاة فهو يدل على رغبة الامام الشديدة في تعميم العدل والانصاف . قد علمت ان الحجاب في بابه يردون احياناً من ينبغي ان تسمع دعواه ، او تقدم على دعوى سواه . وقد يرتشون ويظاؤون فيمكن من السر لا تصل اليه يد العدل والتأديب . فيجلس الامام حيث لا حاجب بينه وبين الناس . انا هي عادته كل يوم صباحاً عندما يخرج من قصره الى الديوان . يجلس في الساحة عند الباب ، او تحت الشجرة في الحوش ، ويقف وراءه جندي حاملاً السيف ، وآخر الى جنبه حاملاً المظلة . فيفتح الجلسة التي تستمر من الساعة الى الساعتين . ثم يطوف في المدينة مصحوباً ببعض الموظفين والجنود وبين شاء . من الناس . ثم يصلي صلاة الظهر ويرجع الى القصر راكباً في موكب رسمي تتقدمه التوبة ، وتعلو فيه اصوات الجنود وهم ينشدون الزامل . وبعد الغداء والقبولة يجيء الى الديوان فيشتغل حتى صلاة المغرب ، وهو يأكل اثناء هذه المدة او بالحري « يجزّن » القات ، بل يظل في بعض الاحايين حتى الساعة العاشرة مساءً في الديوان قائماً بما تقتضيه شؤون الامامة والرعية .

اما يوم الجمعة فيقتضيه في الصلاة والمطالعة . وقد قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . علي انه يغار عليها من عيون الناس وايديهم ، وخصوصاً الاجانب منهم . فقد أخبرت - واني اروى حديث المكتبة كما رويت حديث الكنوز - ان كتاب الاكليل^(١) كاملاً بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية . وانه سيطلع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في صنعاء . ان الامام يحيى رآياً في العلم والملك جميلاً . هو من اكبر العلماء والمجتهدين ، وعندده انه ينبغي ان يكون كذلك كل من تشرفه الامامة وترفعه الى سدة الملك . وكيف لا وهو القائل : قَبَّحَ اللهُ مَلِكاً يَدْخُلُ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ اعْلَمُ مِنْهُ . فاذا لم يكن هو اكبر العلماء اليوم فلا شك انه ابعدهم نظراً ، واشدهم همة ، وادقهم اجتهاداً^(٢) وقد قال لي احد السادة انه خلاصة الخلاصة .

ولكنه في جبه العلم لا يجب على ما يظهر تعميمه . لم نَرْ مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مرتابها . اما عذر الامام في ذلك فهو انه منذ تولى الحكم وهو واعداؤه في احتراب . فكيف له ان يهتم بالمدارس ؟ ولكن

(١) كتاب الاكليل للحسن بن احمد المسداني . لم ار منه غير جزء واحد . وهو كتاب محافد اليمن ومساندما ووفياخا ومراتي حمير في عشرة اجزاء . الاول : اصول الانساب . الثاني : نسب ولد المسيح بن حمير . الثالث : فضائل قحطان . الرابع : السيرة القديمة الى عهد تبع بن ابي كريب . الخامس : من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي النواس . السادس : في السيرة الاخيرة الى الاسلام . السابع : في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المتحلة . الثامن : ذكر قصور حمير ومدائنها ودفائنهم وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدرن . التاسع : امثال وحكم باللسان الحسيري . العاشر : في معارف همدان وحاشد وبكيل .

(٢) الاجتهاد هو تفسير او تأويل او شرح بعض الاحكام في فروع لا في اصل الدين ، تلك الفروع التي ليس لها في القرآن والسنة نصوص صريحة . والامام يحيى يخرج الاحكام على اصول اجتهاد الامام زيد بن علي بن زين العابدين وفي بعض الاحايين على اصول الامام احمد بن حنبل .

اهل اليمن يهتمون كل الاهتمام بالمساجد وبالصلاة وبالقات ، فلو انصفوا ، لو احسنوا الى انفسهم ، لساووا في الاقل بين التعليم والتدين .
 اما ما يتلقنه الاولاد في المساجد فينحصر بالقرآن واللغة والفقہ . لكن الفقه لا يدرسه هناك غالباً الا من هم من السادة . وليس الفقيه دائماً فقيهاً . الفقيه هناك مثل معلم الاولاد عندنا وغالباً تكون مهنته ان يعلم القرآن واللغة فقط . ومن هذه الجهة يقسم اهل اليمن الى ثلاث طبقات ، العلماء ، والفقهاء . ويدعون بالقراء ، والعامه . ويقسم العلماء قسمين ، قسم يتولى امر التعليم والارشاد واكثرهم من الفقهاء ، والقسم الثاني هم اهل الحل والعقد ، هم السادة ويبدعهم مقاليد الاحكام الشرعية والسياسية والعسكرية . اما العامة فهم الذين يعلمهم القراء الكتاب وشيئاً من اللغة ، ويعلمهم السادة الطاعة والمحافضة على كل ما فيه تعزيز سيادتهم في البلاد . لذلك تراهم يكرهون السيد ويسخرون من الفقيه .

حدثت ذات يوم ولدأ ذكياً ، وما اكثر الذكاء في الاولاد هناك ولكنه كالارض الطيبة غير المزروعة ، فسألته ما اذا كان يشتحي « اي يجب » السفر . فقال : عندنا والحمد لله ما يغنيننا عنه . فقلت : ولكن الاسفار تفقه وتفكه . فقال : الذي عندنا يكفي لمعاشنا فقط . فسألته كيف يبذل الزيادة لو كانت . فاجاب : والله يا سيدي انا احب المدارس ، كان عندنا في ايام الاتراك مدارس منظمة يعلمون فيها الجغرافية والحساب . وكانوا يعطوننا الكتب والالواح والورق والحبر والاقلام والدفاتر والطباشير - كل شي . وكله مجاناً . والله يا سيدي انا محزون . لا مدارس اليوم عندنا ولا معلم غير الفقيه . والفقيه سفيه ، لا يجب التعليم ، ويأخذ مع ذلك ثمانية ريال في الشهر ، وينام في المسجد والكتاب بيده . والورق والحبر والكتب ذهبت مع الاتراك . فلو كان عندي مال زائد كنت افتح مدرسة ، واعزل الفقيه ، واجلب الكتب والدفاتر والورق والالواح والطباشير واوزعها على الاولاد مجاناً .

- ولماذا لا يفتح الامام المدارس ؟ الامام غني .
- بلى ، ولكنه... سكت الولد ومد يده مقبوضة . ثم قال : فهمت ؟
- وهل عند الامام كتب ؟
- خيرات ، خيرات .
- وهل هو عالم كبير كما يقولون ؟
- اشتهي ان يكون لي هذا القدر - وهو يضم اصابعه بعضها الى بعض - من علمه .
- أو لا تحب ان تكون جندياً ؟
- بلى ، ولكن بعد ان احصل العلم احمل البندق .
- وماذا ينفع العلم اذا كنت تظل راعياً في الحرب وفي تقتيل اخوانك ؟
- العرب كلهم من بطن واحد ، والمسلمون اخوان .
- صدقت ولكن حضرة الامام اعلم منا . فاذا قال : الحرب ، فالى الحرب . كلنا محارب من اجل الامام . وهو اعلم الناس بكتاب الله والسنة وبما يجب على المسلمين . قد امرنا الله بالجهاد . . .
- اعاد حديث الولد الى ذهني وجه الشبه بين هذا الشعب الياباني وبين ذلك الشعب الذي قام في اوروبا منذ عشر سنوات يلي امر امبراطوره بتأديب العالم ووسط السيادة الالمانية على اوروبا جمعاً . وكلمة الامام اليوم مثل كلمة ذلك الامبراطور بالامس ، تكاد تكون متزلة في نظر رعيته .
- ان الامام يحيى اذن رب الحرب والاجتهاد ، رب السيف والقلم . هو الزعيم الاول والمعلم الاكبر في اليمن . وهو القاضي العادل الشفيق يجلس في الغلاة كي لا يقف احد بينه وبين المظلوم . قد علمت ذلك ايها القارىء . ولم تعلم بعد ان الحضرة الشريفة تمارس كذلك الطب الحديث . تداوي المريض

بالايمان وتشفيه بالصلوات . اجل ان الامام هو الطبيب الاكبر بل هو الطبيب
الاروح في اليمين .

اخبرني احد الذين عالجهم انه كان مصاباً بداء الصرع وكان في رأسه
اهتزاز دائم ، فاخذ الحشائش التي وصفها له بعض البدو، واكتوى، واحتجم
وظل في رأسه الصرع والاهتزاز . فجاء الى الامام ضارعاً مستشفياً . فلباه
الامام . أخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيه . ثم تناول ورقة وكتب فيها
آية من آياته الكريمة ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات .
ثم اعطاه الكأس قائلاً : اشرب باسم الله . فشرب المريض الماء . فقال الامام :
اذهب في شأنك ، قد شفيت باذن الله . وهذه قصة واحدة في الكرامات
من عشر سمعتها .

اما التشوير^(١) وحضرته القدسية تشوّر ايضاً ، فاليك بمثل واحد منها .
جاءه ذات يوم بعض العربان شاكين ناقلين ، فنعهم عنه ، فوقفوا في الساحة
تحت النافذة ينادون ويهددون الامام . فاطل حضرته عليهم وأنهبهم فثارت
في رأس واحد منهم النخوة بل النخوة العربية فاطلق بندقيته . فقال الامام :
رصاصك بين عينيك قبل ان تقرب هذه الشمس . وعاد الى مجلسه ، الى
فراش الملك مطمئناً . وراح العربان الى المدينة وهم يصيحون ويستنفرون .
ولكن الذي اطلق بندقيته تحلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء يستريح والبندقية
بين يديه ، وفما تحمّ انفه . نعى الرجل ونام ، ثم تحرك حركة المستيقظ ،
فأطلقت البندقية عرضاً ، فاصابته الرصاصة في جبينه ، بين عينيه او كان ذلك
قبل غروب الشمس !

(١) التشوير ، مثل « العين » ، يصيبك منه الشر المقصود دون تحديد . ولكن في
هذه الحادثة حدد الامام الوقت والمكان ، فكان ما شوّر بل نبأ به . وقوة التشوير
عند العرب تنحصر بالسادة الاشراف .

الفصل التاسع

الجو ينجلي

قوائد السفر البطي - حصون اهل اليمن الثلاثة - ضعف الزيد - القرن الثالث للهجرة - العزلة والتعليم - جو الظنون ينجلي - زيارة الامام - حديث خطير - خير اليمن في السلم لا في الحرب - « افتحوا البلاد للتجارة » - الانكاز - الاحريسي - خطبة الرقيق العربية - نفور وزور - عدن والاجانب فيها - مندوب الامام الصنو صفى الاسلام احمد بن يحيى الكسي - بداية المفاوضات - رمضان - ابطاء السيد احمد - نجسه بالترافي ونهجه .

من فوائد السفر البطي . على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف . كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سؤالا متجسما ، سؤالا حيا متحركا ، اذا اذن لنا بالاستعارة . وحسبنا في بعض الاماكن ان نقف ساكتين صابرين ، فيجيبنا صاحب الامام مادحا ، ويجيبنا عدو الامام قادحا . فضلا عن الفلاحين والجنود ، وقد عضهم الهمس والفقر فيجيبوننا ساكين ومتبرعين همسا بما نبعيه من المعلومات . فوصلنا الى صنعاء وعدنا « خيرات » من اخبار الامام واليمن والزيد . قد دونت بعضها في الفصول السابقة ، واقول الان تمهيدا وافادة انها تنفرع الى فرعين ، الاول وفيه تظهر قوة الزيد الطبيعية ، والثاني وفيه ضعفهم الكامن في تلك القوة . اما هذا الضعف فله في حياتهم الاجتماعية مظاهر شتى كلها قديمة .

قد علمت بما تقدم ان الامام هو الزيد ، وان قوته وقوى تلك الامة تنحصر في ثلاثة - ثلاثة حصون - هي المذهب والجنسية والوحشية اي الاعتزال . اما المذهب فلا رأي لي فيه . واما الجنسية فالمدارس توسع نطاقها لتشمل في المستقبل - القريب ان شاء الله - ربوع العرب كلها ولكنها الوحشية ، اي النفور من الغريب والتزوع الى العزلة ، تؤثر في السائح اشد

التأثير واسوأه . وهي مع ذلك اول الحصون المقضي عليها ، لانها لا تقوى في هذه الايام على تيار العلم والتجارة ذلك التيار الذي يقرب الشعوب بواسطة البرق والبخار بعضها من بعض .

اما ضعف الزيد ففي جهلهم الكثيف وتقهقرهم ، لا بالنسبة الى الاوروبيين بل بالنسبة الى المصريين والسوريين حتي والعراقيين . كأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة قولا وتقليداً تعود فجأة الى القرن الثالث للهجرة . لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا ادوية ، ولا اطباء ، ولا مستشفيات في اليمن . ان الامام لكل شي . هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن . هو الاب الاكبر ولا اظن ان في اليمن من يقوم مقامه اليوم لو فاجأته لا مسح الله المتون . على انه ، وان حافظ كالاب الزوف على ارواح ابيه ، وعلى صحتهم ، فقد اهمل عقولهم اهمالاً مخزناً مفعماً . وهوذا التقص في حكم الامام .

ان في العزلة قوة نأسف على دوامها . ولكننا نأسف كذلك على زوالها اذا كان التعليم الوطني لا يحل محلها ، فيكون فيه لاهل اليمن قوة جديدة تضاعف ما فقدوه . ولا بد مع التعليم من تحسين الصلاة وتمكينها بين الحضرة الامامية وسائر ملوك العرب ، ولا سيما من يحكمون الشطر الغربي من شبه الجزيرة اصف الى ذلك تسهيل المواصلات التجارية والاقتصادية بين اليمن وعدن ، وهي من الامور الجوهرية التي لا تتم الا بولاية الانكليز والاتفاق معهم على ما فيه مصلحة البلاد وشي . من المصالح المشتركة .

اثنا عشر يوماً في الطريق واسبوع في الاسر انضجت في هذه العقيدة وحصتها بالمشاهدات وبالمقول . فدخلت صنعاء وقابلت الامام وهي متأصلة في متسكنة مني ، بيد اني جئت اليمن ولا رأي ولا عقيدة لي في رجاله وفي شؤونه ، فلو الفيتهم كالمصريين او كالعراقيين على الاقل لكان حديثي مع حضرة الامام غير ما ستسمع ايها القارىء العزيز .

وهناك مشكلة هي في نظر الامام اهم من المدارس ، واهم من المعاهدة مع ملك الحجاز ، واهم من سكك الحديد والامتيازات . الا وهي مشكلة الخديفة . الخديفة الاينام الامام سعيداً مطمئناً ما دامت ، وهي ميناء صنعا ، في يد الادريسي والانكليز . سأسبط قضيتها ، وهي قضية اليمن السياسية الكبرى اليوم ، في الفصل التالي . اما الان وقد اطمان بال الامام في تثبته صدق دعوتنا وحسن قصدنا فانقضت غيات الظنون والشبهات ، انجلي الجوى ، فانفتح في اليوم السابع من الاسر باب الفرج والسرور .

ولا تسل ايها القارى . كم كان ذا السرور عندما دخل احد الحجاب يبشرنا بقدم الحضرة الشريفة . جاء الامام يزورنا في منزلنا ، والحمد لله مزبل الشكوك من قلوب عباده . دخل يحمل السيف وظل من راقعه من الحرس في الرواق . هو يلبس ثياباً قطنية من نسيج اليمن وليس ما يميزه عن احد السادة غير العمامة شكلاً لا لوناً وذرابتها الطويلة . وسادات اليمن مثل اشراف الحجاز وتجاره يلبسون غالباً الاجربة والاحذية لا التعال . بادرنا انا والرفيق الى الباب نستقبل الزائر العظيم ، ودخلنا وراءه فامر ان نجلس على الديوان وجلس هو امامي على كرسي ، وسيفه بين يديه .

اما الحديث فانقله من يوميتي وقد كتبت خلاصته توأ بعد المقابلة . فما اتكلمت على الذاكرة آتئذ ولا أتكل عليها الان . ليتقن القارى . اذن صدق الرواية .

قلت : لست باجنبي يا حضرة الامام ، بل انا منكم ، من العرب . ولا يُجندع من كان يجيد التفرس مثلكم . انظروا الي . ان قصتي كلها في وجهي . فاذا رأيتم ما يريكم ، او ظننتم في شيئاً من التلبس ، فروني فاسكت واعود غداً حيث اتيت .

فاتذر حضرته عن التأخر بما لديه من كثير الاشغال ، واعاد الكلمة

التي وقفنا عندها في المقابلة الاولى عندما دخل الزائرون - هل عندكم كلام مضبوط ؟ فقلت : غير ما توجهه الوطنية العربية وتثبتته المشاهدة لا نسمعكم ان شاء الله . ولكن قبل ان افيض بالكلام اؤكد لمولاي ان لا علاقة لي البتة مع الانكليز ، ولا علاقة سياسية او تجارية مع اميركا ، ولست امثل رسمياً الملك حسين . انا مندوب نفسي ، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي . اما قسطنطين فهو رفيقي بصفة ملازم في الجيش الحجازي . وها هنا اعدت ما قلته في المقابلة الاولى عن الغرض من سياحتي ، ثم قلت : هذه بالاختصار خطتي في السفر . فاذا ساعدتوني في تحقيقها تغززون يا مولاي مصلحتكم . ما شك احد حتى الان في حيي للعرب واخلاصي لهم . ولا اظن مولاي وانا اصارحه كل المصارحة يشك في ما اقول .

فاعاد حضرته الاعتذار واكد لنا انه مطمئن البال لا يخامرته شي . من الريب في حسن قصدنا . ثم قال : واسمعي الان بيت القصيد . فقلت : هما بيتان . الاول ان تفقروا والانكليز والثاني ان تعقدوا معاهدة مع ملك الحجاز . ينبغي لكم يا مولاي ان تفتحوا البلاد للتجارة وللسياح . لان اليمن لا يحيا ولا ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم خارج اليمن انصلاً حديثاً . فلو عقدتم مع الانكليز معاهدة تجارية ولائية دون ان تمس استقلال اليمن بشي . او تقيد بشي . سيادتكم التامة ، يكون لكم فيها الفائدة الكبرى . واذا علم الانكليز بانكم عقدتم معاهدة مع ملك الحجاز وانكم انخدمتم لتعزيز شؤون البلادين ومصالحها المشتركة ، يتسامحون في بنود المعاهدة معكم رغبة في عقدها . سأجنب في ما اقول التعميم . اني اظن يا مولاي ان اتحادكم والحجاز يساعد في حل مشكل الحديد على طريقة ترضيكم . بل اعتقد ان الحديد ، وهي مينا . صنعا . التاريخية والطبيعية ، تعاد اليكم اذا استعظم عن السيف بالسياسة . استمروا في مفاوضتكم والانكليز اذن واعقدوا المعاهدة او التحالف مع الملك حسين . ولا يخفى على مولاي انه اذا

فتحت بلادكم للتجارة ، وهي من اسس العمران ، فينبغي ان يكون لكم قوة تحافظون بها على استقلالكم وقوميتكم ، بل على سيادتكم التامة ، محافظتكم على الأمن والسلم في البلاد . واما عزتكم اليوم ، فاذا دامت ، تتلاشى فيها قواكم . انكم تبذلون اموالكم وحياة رجالكم في الحروب الدافئة وفي الاستعدادات الحربية التي هي شر من الحرب . ان عندكم اليوم قوة مسلحة يامولاي وهذا لا يكفي فالامة تحتاج الى ثياب تقيها من البرد ، والى تعليم يقيها من الجهل والامراض ، والى تجارة تقيها من الفقر والشقاء . ولا تنال ذلك الا بالسلم وبالعلم وبوسائطها الحديثة . لست بمن يدعون الى حرب بين الشرق والغرب ويستبشرون بها ، بل من مبادئي وآمالي ان تتحسن العلاقات بين البلادين ، وان تكون العروة الوثقى عروة تقاهم وولا . بين اوروبا وبين العرب على الاقل . واني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً . ولكني اغار عليها من الجهل يامولاي كما اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . وما السبيل الى التخلص من الاثنين ؟ انما السبيل القويم في اتحادنا يامولاي ، في اتحاد ملوك العرب وامراتها اتحاداً لا يقدر بسيادة كل منهم ، ولا يحجب باستقلالهم المركزي التاريخي . اضفتم انفسكم بالحروب . قتلتم البلاد بالحروب . انما حان لكم ان تجربوا طريقة اخرى ، طريقة السلم ، الولا . والاخاء . والتفاهم والتحالف ؟ بل فيها الحياة والعمران والعزة القومية .

كان الامام وهو مطرق يصغي لما اقول ، ويهز رأسه مبتدئاً من حين الى حين ابتسامة فيها دهش وفيها استحسان . ولما وقفت عند هذا الحد رفع رأسه وقال : كلامك مضبوط . ولكن الادريسي حليف الانكليز وعدونا ، يأخذ منهم المال والسلاح ويحاربنا بها . وهو بيننا وبين الحجاز ، هو المانع الحاجز . - هو ينضم اليكم عندما تتحدون . لا يقف الضعيف عدواً بين قوين .

— ولكن الانكليز يساعدونه .

— الانكليز يا مولاي لا يستمرون على مساعدة الضعيف اذا استقوى خصمه الى حد ادعوك اليه — الى حد فيه تم المحالفة اليانية الحجازية . فهم اذ ذاك يغيرون سياستهم او يعدلون بها ويسعون في عقد معاهدة ولا . وتجارة معكم كلكم . واي ضرر يا ترى في اتحاد الحجاز واليمن وعبير ، وفي عقد معاهدة ولائية تجارية بينها وبين بريطانيا العظمى ؟ اما الحديدية فتعاد اذ ذاك اليكم ويسترضي الانكليز صديقهم الادريسي بما فيه توسيع حدوده شمالاً او شرقاً في الجبال . لان بلاده اليوم ان هي الا اساكل متعددة . فهو لا يحتاج الى اسكلة اخرى وعنده اللحية وميدي وجيزان والصليف ، بل يحتاج الى ارض مخصبة وبلاد في الداخلية تساعد على تصدير الاساكل . اذا تم اتحادكم سهل اذ ذاك تحديد الحدود بين الاقطار الثلاثة .

فقال الامام : ناهي . نحن لا نعادي الانكليز بالرغم عن سياستهم . وقد عهدنا الى وكيلنا العرشي بعدن ان يفاوضهم . ولكن لم تشمر المفاوضات ثمرة حتى الان . هم ياطلون ويسوفون ونحن صابرون .

— لا يسوفون اذا عقدت المعاهدة بينكم وبين الحجاز وعمروا بها .

وكان قد نفذ صبر القسطنطين وهو يتحفظ للكلام ، فقال مخاطباً الامام : بل يعيدون الحديدية اليكم . واذا ابوا فنحن اذ ذاك نضرب الادريسي من الشمال ، وانتم تضربونه من الجنوب ، فتأخذون الحديدية منه كرهاً وترغونه فيضطر اذ ذاك ان ينضم الى المحالفة .

لم يقف القسطنطين عند هذا الحد بالرغم عن اشارتي وتحذيري السابق بل امعن في موضوعه الخاص المحبوب ، فشرع يحطّب خطبة حربية ساد فيها صليل السلاح الحديثة واصوات الطيارات . فخفضت منها على بناء السلم الذي ابنيه . وقد تأثرت من لهجة الرفيق وتهوره ، واعدت بعدئذ عليه ما طالما قلته

في مواقف شتى . وهو اني رسول سلم لا رسول حرب او ثورة في البلاد العربية . وقد جئتها مبشراً بالعلم والتدين ، لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز .

لا والله . ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفنخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال ، نعم ، ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ، ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن .

ان حضرة الامام بعيد النظر ثاقب الفكرة ، طويل الناة . فها كان من صياح امراء جيشه وتبجحهم - نشتهي عدن - دعنا نرحف على عدن فتأخذها بمشرة ايام ! - فهو يسير في جادة التؤدة والحصافة . وقد احسست بميل فيه الى السلم اكيد بالرغم عن استعداداته الحربية كلها . على انه كما قلت طراح يلطم حلاًماً سياسياً باهراً ، ويعد لتحقيقه العدات ، ويجمع الاموال ، الذهب والفضة ، ويخزنها لذلك اليوم العظيم . وان اعدن مرقداً ولا شك في حلمه ، وعلماً في محيط علمه ، كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده ، ودره في تاج اجداده . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات . ولكنه لا يعلم على ما اظن ما للامم الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . سألت احد السادة العلماء : في عدن كثير من الاجانب ، فكيف تعاملونهم اذا اخذتموها . فاجاب سيادته ، يدفعون مثل اليهود الجزية ! ولكن حضرة الامام ، وهو « الرفيع الجناب الوسيع الرحاب » يسمع كلام السادة وامراء الجيش ويخرج الى الساحة ليسمع شكاوي الناس .

وكانه سمعنا نرن ، سمع النفس الصامتة تشكو الاسر ، فأذن لنا في ختام تلك الجلسة بالتطواف والتتزه ، وكان يرسل الخيل احياناً لهذه الغاية فيرافقنا بعض الجنود حيث نشاء . بيد اننا ، وان كنا قد سررنا بهذا التعطف

الامامي ، عدنا بعد بضعة ايام مرت دون كلمة او اشارة من حضرته الى الربيب المؤمن والظنون . وقد كان ظني ، ساحني الله ، ان القسطنطين افسد علينا الامر في خطبته الحربية ، وافقدنا ما احرزناه من ثقة الامام . وبما زاد في الطين بلة ان الرفيق ، ونحن في تلك الحال ، شرع ينظم القوائد في مدح الحضرة الشريفة وفي مدح سيفها ومظلتها وقصورها الخ . فرحت انا ابحت في المدينة عن تريات لسم الجرع والقنوط .

ان حياتنا في صنعا . في الايام العشرة الاولى كانت والحق يقال كادوار من الحمى يتخللها فترات نعه قصيرات . ولم نشف الشفاء التام الا بعد ان زارنا ذات ليلة سيد من السادة يحمل رسالة كانت فيها والحمد لله خاتمة الكروب . دخل حضرة السيد يتقدمه جندي وجلس على الديوان بين الرفيقين يحدتنا بجمال صنعا . الذي يفوق بها . مضر وجلال الاستانة . ثم انتقل الى عاصمة بني عثمان فعرفنا انه كان نائباً من نواب اليمن في مجلس المبعوثان . ثم الى مصر التي اقام فيها مدة يعالج السياسة ويشم النسيم ثم الى جزيرة رودس فعرفنا انه كان فيها اسيراً . وبعد هذه السياحة التي التحف السائحين باخبارها تهيداً وتعريفاً ، رفع العمامة عن رأسه واخرج من احدى طياتها رسالة من الحضرة الشريفة ، بل خطأ امامياً ، انبأنا بان السيد احمد بن يحيى الكبسي هو مندوب تلك الحضرة الينا ومعتمدها في المناوضات بشأن المعاهدة . وقد خط الامام الخط بيده ، بالجر الاجواني ، على طريقته الخاصة ، اي بضعة اسطر منها متنا والبقية على الهامش تحيط بالمتن كالللال ، وختمه بالجر الاحمر^(١) اما نص خط الاعتماد فها كه .

و

(١) ختم الامام احمر في ايام الحرب اسود في ايام السلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

يحيى حميد الدين

امير المؤمنين

(صورة الختم)

التوكل على الله رب العالمين

الصنو صفى الاسلام احمد ابن يحيى الكبسي حوسه الله . كل
المراجعات بيننا وبين الشريف ناصر ثم مع السيد محمد علوي السقاف^(١)
باطلاءكم . وقد وصل الاستاذ امين الريحاني ورفيقه قسطنطين ومعها
كتاب من ملك الحجاز وظهر لنا من ظاهر كلام الاستاذ اراحة انجاز
الكلام والمراد منه البقية المقصودة والضالة المنشودة . فليكن منكم
الكلام . مما لتقرر المسئلة على الوجه الكامل ابتداء وانتهاء مع لوازمها
الذاتية والخارجية اعانة لنا في ذلك . وليكن الكلام مكتوماً من
الجميع عن كل احد . واعرضوا هذا عليها . وقد اعلمنا الحاجب بالاذن
لكم بالدخول اليها والسلام عليكم .

في ٢٨ شعبان الوسيم ١٣٤٠

ازال الخط كل ريب باننا مأسورون ، وتيقنا ان الحجاب في الباب لا
يأذنون بالدخول الينا الا من كان حاملاً براءة من الالهام . فكان السيد احمد
الكبسي اول من حظي بهذا الانعام ، وهو من سادات اليمن المستنيرين
المتساهلين الراغبين في فتح كوات في سور العزلة يطل منها اليمن على العالم
فيستنشق هوا المدينة دون ان يعرض بنفسه لرياحها الشديدة وبجاريها المضرة .
والسيد احمد جسيم وسيم ، بطي . الحركة خفيف الظل ، فصيح الكلمة ،
لطيف الاشارة . وله عين في الفتى السياسية ناقبة الاحاظ ، وعينان في كشف

(١) والاثان قدمانا في المفاوضات بين الملك والامام بخصوص المعاهدة .

الحقائق التي فيها خيره وخير الامام . اما ما سواها فهو لا يراها ولا يشتهي ان يراها .

جاءنا السيد احمد في اخر شعبان ، وكانت مفاوضاتنا وايامه في رمضان فغيرنا من اجله نظام حياتنا ، وما تمكنا مع ذلك ان نباريه في النوم والابطاء . - هذا وقت الفطور يا امين ، ثم وقت القات ، ثم السجور ، ثم وقت النوم ، ثم اوقات الصلاة - ظاهر وماشي ^(١) ولا وقت للمفاوضات . ولكني اجيئك الليلة ان شاء الله بعد جلسة القات . فيجئنا بعد نصف الليل او بين المدفعين مدفع السجور ومدفع الامساك . والسيد الكبسي سيد الزمان ، لا فرق عنده بين الشمس والزرقان وكان يجي . حرسه الله والطيب ينتشر من اردانه ، ويقايا القات بين اسنانه ، فيسال اولاً عن دواء للصداع ، ثم يقرأ ببدأ واحداً من المعاهدة واذا جار على نفسه يقرأ بندين ، فتدق اذ ذلك الطبول مبشرة بمدفع الافطار ، فينهض السيد مسرعاً الى فروضه ، ولا زاه بعدئذ الا بعد ان تتعدد منا اليه الرسل والرسائل ، وفيها من قسطنطين القوافي المحجلة ومني المحجلة . اجل قد عثرت وانا اراجع مذكراتي على ما يلي :

في ١٦ رمضان الكريم

لقد هيح في القسطنطين نيسة الى الشعر كانت راقدة . لقد طالما تأقت النفس وتشوقت العين الى شيء . يخصني من ذلك العنوان الجليل في الدواوين : وقال يمدح فلاناً . ولكني بدأت في النظم وفي الهجاء معاً ، فقلت وانا في صنعاء أهجو سيدي وصديقي السيد احمد بن يحيى الكبسي ، قدوة السادات الكرام ، واحد اركان مولانا الامام .

صبرت على بظه ومطل من الكبسي وقلت هو الصوم المطيل لذا الجبر ولكن ظني قام يشكو جهاتي ويكشف عما في الوعود من اللبس فقلت له : مهلاً . فقال : وكيف ذا وخرنوبه لا شيء . فيه من الدبس

(١) ومعناها في اصطلاحهم اهتمت ؟ فهل هي تحريف اظهر لك شيء . نما قلت ؟

الفصل العاشر

المخيم المنصور

تأثير الدين في الاخلاق - البروتستانتيون والكاثوليكيون - الزيود - امام الزيود - الضيافة العربية - رسم الامام - المخيم المنصور - الامام في المخيم - نيابته في العمل - حسن الادارة - كتاب المخيم - الاخصاليون - الامام الشاعر - قصيدة قسطنطين في هجر القات - هياج الشعراء في صنعاء - قصيدة الامام في مدح القات .

ان للدين تأثيراً في الاخلاق يفوق تأثيره في العقول . فانك لتلقى امره اذا
خذا فكرة وقادة ، ونظرة نقادة ، سليم الذوق والعقل ، كبير الفهم والحلق
في كل اعماله واقواله الا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه . فتلقاه اذذاك
سخييف الفكر وان ضن به ، سقيم الذوق وان عاجله بالاعذار وحلو الكلام ،
عقيم العقل وان اغرق في الاجتهاد ، قليل الثقة بالناس وان عظم ايمانه بالله .
وقد تتفاوت هذه العيوب في الناس فتفاوتهم في شدة العقيدة ، وتختلف عرضاً
لاجوهرأ اختلاف المذاهب وضماً وعملاً .

خذ البروتستانتين مثلاً . فانهم يوجه الاجمال اسلم عقيدة ووسع حرية
في العقليات من الكاثوليكين . ولكن في البروتستانتية مذاهب تضيق
عندها جادة الحياة وتربد آفاق الطرب والسرور . فلا يجب لذلك تقبها ،
ولا يرغب في مجلس عالمها ، ولعلها يطابق قسيسها اذا كان من الطراز القديم .
بينما ان رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ، وان ضيقوا على العقل وقيدوه ، لا
يطفئون انوار اللهو والسرور في جادات الحياة .

ان الزيود مثل بعض البروتستانتين عقيدة وعملاً . وان امامهم الاكبر في
سلوكه الديني واحكامه المذهبية ليذكرني بذلك القسيس المحترم الذي يحمل
الانجيل في جيبه والعالم على منكبيه ، فيسعى ، والغم يخيم فوق حاجبيه ، في

شكر كلمة الرب في الناس. الا ان الامام يختلف عنه في انه شرقي عربي يحسن الضيافة والمؤانسة ولا يجزن اذا ظنك في ضلال عليك ، ولا يقف مبشراً بين يديك .

انك لا تجد في ملوك العرب اليوم من هو اعلم من الامام يحيى في الاصول الثلاثة اي الدين والفقه واللغة ولا من هو اكبر اجتهاداً واغزر مادة منه . وهو اوسع نظراً من بعض ساداته العلماء الذين لا يزالون يعتقدون بسطحية الارض وله ذوق في الشعر والادب فيقضي بعض وقته في المطالعة . بل هو الشاعر الوحيد في حكام العرب كلهم . قد اشرت الى قصيدته المشهورة التي يدعو فيها الى الوحدة الاسلامية وسيطلع القارىء على شي من رقيق شعره ايضاً ولكنني الان سببت ما قلته في تأثير الدين اذ بالحري المذهب في الاخلاق .

ليسمح لي حضرة الامام اذا ، وان كنت موضوع اكرامه وضيافته ، بالاشارة الى ما يعد نقصاً في الضيافة والاكرام . لم اكن لألمس هذا الموضوع بكلمة واحدة لولا انني احسب نفسي من العرب وانتسب مثله الى قحطان ، فاغار عليه وعلى شريف تقاليد العرب من انتقاد الغرباء جنساً وديناً في مثل هذه الاحوال . فهل يخل بقاعدة من قواعد الزيدية اذا آكل ضيفه الاجنبي ولو مرة واحدة ؟ أو ليس « الحبز والملح » من شروط الضيافة عندنا ؟ وهل يقصر العربي في الضيافة او يخل بشروطها ؟ واذا كان الضيف عالماً تذل له مطالعة الكتب ، وخصوصاً المخطوطات القديمة فهل يهدم حضرة الامام ركناً من اركان الدين اذا اطعمه على بعض ما عنده منها ؟

اما اذا استأذنه الضيف باخذ رسمه فيأبى ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم زيود ، فلا اظنه على طول باعه في الاجتهاد يستطيع ان يوفق بين الامرين . الزيدي ويدي جندياً كان او اماماً . واذا كان من تحريم في المذهب او في الدين يختص بتصوير الهيئة البشرية فالتحريم يشمل طبقات الناس كلها . على

ان آلة التصوير لم تنجح في ما اباح فلم تصح وأسفاه من صور الجيش صورة واحدة . وقد كنت في ما منع مصرأ لاني كرهت ان اعود من صنعاء . وليس لدي من طلعة الامام الشريفة غير الذكرى والحيال . فاستعنت بالقليل مما عندي من فن التصوير واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام .

العفو يا مولاي . اننا في زمن ادبي فني يحل الرسم فيه غالباً محل الكلام ، وله في احوال شتى المقام الاول . فضلاً عن ان الناس غربيين كانوا او شرقيين يرغبون في مشاهدة عظام الناس . فاذا حرموا ذلك فلا يجرمون ، بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجلات .

وان كاتباً يتشرف بمشاهدة احد كبار ملوك العرب ليقصر في واجب التصوير ، كلمة ورسماً ، اذا كان لا يصفه في ديوانه . وديوان الامام يسمى « الخيم المنصور » وهو يشتغل فيه كل يوم كأحد كتابه بل اكثر من كل كتابه . ها هو جالس على الفراش الاسود فراش الملك وفراش الادارة ، في فمه « تحزينة » مضغ من القات ، وعلى رأسه عرقية نسيجها اسود تتخلله خيوط صفراء ، وقد تزع سيفه وبردته وعمامته كما يتزع احد الغربيين القبعة و« الساكره » تجرداً للعمل . كأني به اميركي كبير يفوز في كل اعماله وهو جالس الى منضدته يعلي على كاتب سره .

اجل ، ان الامام يحيى هو الملك العربي العامل بثبات ونشاط وادارة قلما تجدها في زملائه . ديوانه بسيط ، قريب من الارض ، لا رفعة ولا ترفع فيه . يجلس متربعاً وامامه منضدة صغيرة وحب وورق واقلام . ويجلس الى يمينه كاتبه الاول القاضي عبدالله العمري ، والى يمين القاضي عبدالله ثلاثة من الكتاب رؤوسهم فوق ايديهم ، وايديهم على رعاياهم يكتبون ،

وقبالتهم من زملائهم ثلاثة اخرون . وفي وسط الديوان جنديان جالسان امام الامام ، بيد احدهما الحتم الامامي والمجدة الحمراء . يحتم الرسائل والخطوط والاورامر التي تدفع اليه ، وييد الثاني رزمة من القات ينتخب منها اوراقاً يقدمها لسيدته الاكبر .

يُفتح الديوان في شهر رمضان مثلاً الساعة الثامنة مساءً . فيجيء جندي بعريته اليوم ، بعرائضه ورسائله وتقاريره ، ويضعها امام القاضي عبدالله موزع الاعمال ومديرها . فينضها فضيلته ، وهي كلها نفاقات كالسواكبر صغيرة وكبيرة ، ويقرأها واحدة واحدة ، ويأمر هذا الكاتب او ذاك بالجواب على ما يستطيع البت فيه دون الامام . ثم يقدم له ما يستوجب النظر الامامي فيأمر بما يجب في شأنها ، وهو يطلع على ما يكتب في الديوان ويعلق عليه بحرف اثباتاً ، او بكلمة سلام ، وغالباً يؤرخه بخطه ، ويدفعه اذ ذاك الى مأمور الحتم فيختمه ويرمله ، ثم الى من يلقه لفاقة ويكتب عليها اسم صاحبها .

الديوان الامامي او الخيم المنصور مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسامون ويجلسون ويسكتون ، اما الرجل الوحيد المباح له الكلام والاصياح فهو الحاجب في الباب ، وكثيراً ما كنا نسمع صوته ولا نرى وجهه - الوجة بكبدك قلت لك الامام مشغول ذا الحين . . . ناهي ، ناهي . . . جوابك نحت الحتم . . . البلا بروهك ظل مكانك . . . اسكت يا يهوده ، البرص يعميك . اسكت . . . « ا » در له البندق يا آسي . . . على رأسي . حسن الحرازي يا سيدي - لينتظر . - هو يشتهي السفر ذا الحين . - لينتظر . - يقول ان العامل . . . فيخدم الامام غيظاً ويصبح مثل حاجبه وبه - ضربك الله بروحك اسكت . اخرج !

وعند الامام يجي اخصانيون يستشيرهم ويستعين بهم . هذا السيد احمد الكبيسي المقدم الاول ، العالم بشؤون المشائر واطماع رؤسائها وطغيانهم ، قد

اقرب من الامام وفيه «تحرينة» عامرة ليهسر كلمة في اذنه . وهذا السيد محمد زباره امير القصر ، قصر غمدان ، ومدبر السمكة والسجن فيه ، يطالع استدعاء طوله ذراعان ، ملصوقة اوراقه بعضها ببعض . وهذا «جرجي» ابو الخرطوش يعيد النظر في روم قنابل رسمها ولا يستطيع صنعها في صنعها . قد جثا امام فراش الملك ورائحة الخمر تفوح من فيه . - وكم يلزمنا من هذه ؟ فيجيبه الامام : الف . - ومن هذه ؟ القان . - ومن هذه لمدفع الهاون ؟ - خمسمئة فقط . ثم يكتب الامام الطلب بيده ويدفعه الى راعي الحتم فيختمه ويرثله .

وهوذا شيخ الاسلام يدخل محني الرأس فلا ينظر الى احد ولا احد ينظر اليه ، فيتبوا مجلسه في الزاوية ويأخذ كتاباً مخطوطاً يقلب في صفحاته ، فلا يتبرع برأي او يتلطف بكلمة الا نادراً . وهذا - قد انتصف الليل - احد الموظفين في دائرة السلك «التلغراف» جا . برزمة من ثمار سلكه فيفضها القاضي عبدالله ويقدمها بعد ان يطالعها للامام هكذا يستمر العمل الى ما بعد نصف الليل والامام ثابت فيه جالس لا يتحرك ، الا انه يقف هنيهة من حين الى حين فيضع القلم جانباً ويتناول غصناً من القات بيده او يشرب جرعة من الماء ويتلطف هاتفاً : والحمد لله .

بين الساعة الواحدة والثانية بعد نصف الليل تدق الطبول ثم يطلق مدفع السجور فينهض الكتاب واحداً بعد الاخر ويخرجون متسللين دون استئذان . اما الامام وكتابه الاول فيثابران على العمل حتى الساعة الثانية وبعدها . ذلك لان من مبادئه ان لا يؤجل الى الغد ما يستطيع انجازها في يومه . بل من قوانين الديوان ان لا يؤجل الى الغد شي . من امور اليوم ، فيجب ان ينظر في كل ما يرفع اليه في اليوم الواحد . لذلك ترى الامام وكتابه الاول الاخيرين غالباً في الخروج من الديوان .

والامام يحيى ، على ما هو فيه دائماً من اشغال الملك وهموم الامامة ،
يستطيع حتى في رمضان ان ينظم الشعر . اجل ، قد نظم قصيدة يدافع فيها
عن القات ، وكان الداعي الى ذلك ما أوحى ذات يوم بواسطتي تحت شجرة
الجوز الى الرفيق قسطنطين . قلت : يا قسطنطين ، قد طفحت صناء بخمر
قصائدك ، وكلها مديح وتباريح . فأنجا احد ، حتى ولا ولد الساقية ولا
مدفع رمضان ، من قوافيك العسلية . فلماذا لا تغير النغمة والحنان ، وتستبدل
القيثارة بالسندان ؟ اني مشتاق الى قصيدة هجو منك . فاجاب الرفيق : اتريد
ان اهجوك ؟ فقلت : انك تفعل كل يوم وقد اصبح هجوكم اياي مثل مدحك
الامام مبتذلاً . فقال : اتريد ان اهجو الامام ونحن ضيوفه ؟ فقلت : اشتهي
ان اسمك هاجياً . اهج - اهج - ولم ادر اذ ذلك ما يستحق في تلك البلاد
التخصيص والتفضيل . ولكني سمعت صوتاً في الجوزة يقول : لينظم قصيدة
يهجو فيها القات .

فنهض الزعيم الشاعر في الحال وبادر الى القلم والسيكاره ، وجلس في
البستان ، ثم قام يتمشى حول الشاذروان ، ومنه وثباً الى الديوان وبعد
ساعة في الزاوية والعرق يتصب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة بيده
يكرمني ، يحربها في عاداته :

القات فيه عجاب	كما يقول الصحاب
درت به الشاة لما	ان طاردها الذئب
ذاقته فاستعذبه	وسال منها اللعاب

الى ان قص القصة التي يوروثها في اليمن . اضاع الراعي شاة من غنمه
فراح يبحث عنها فراها نائمة في في . صخرة وورق القات في فها . فجربه مثلها
فاستعذبه

و امسى يجمع منه حتى تملأ الجراب

مشى يحدث عنه وفي الحديث الصواب
فصدقه وذاقه - هـ مثله واستطابوا

وبعد ان يصف كيفية استعماله في اليمن ويعدد الفضائل التي يرونها فيه.
يضع القيثارة جانباً ويرفع المطرقة فوق السندان :

ما نغمه انشوني هل عند شخص جواب؟
جربته واخبراري يجدي به الاسهاب
تقاب جسم الفتى قشعريرة والتهاب
وفيه يفعل ما لا يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوخز والعذاب خراب
والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتياب
لانفع في القات لكن فيه الشقا والعذاب
وترهق النفس منه والقلب والاعصاب
والجنف يزبل حتى يعشى العيون محجاب
وسؤ هضم وقبض منه يغيب الصواب
والراس يتقل وطناً وبالذوار يصاب
ويعتري بعد هذا المفاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين ، لانه اشد من عرفت من
الشعراء شغفاً به ، واسرع في نظمه . وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه
القصيدة اقتراناً طبعياً ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارحت ريباً القات للقتل باب

في ٣ رمضان سنة ١٣٤٠

اما النسخة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة

الامام مشفوعة بكتاب نقول فيه اذا كان احد من شعراء صنعاء ينبغي
 المعارضة والدفاع فلا يسرع قبل ان يرسل الشاعر . وكان اسبوع في عاصمة
 حيدر والاذواء . أضمرت فيه نار التواقي فوردت علينا المحرقات منها المهلكات .
 اجل ، قد جاء احد الشعراء . وقصيدته في خنجره يشتهي دم الشاعر الكافر
 الذي تجاسر ان يذم القات وما ذمه ، وهوذا ذنبه الاكبر ، بغير المبتدلات
 الشعرية والركاكت : فوقفه حسن الخط الحارس ولم يأذن له بالدخول . وبعد
 بضعة ايام جاءنا من الخيم المنصور ، من الامام نفسه ، كتاب في غلاف محتوم ،
 على غير العادة الباتية ، ففضضناه فاذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف
 وفي القصيدة خلال الدفاع عن القات من الغزل والدمامة والاتضاع - تلك
 روح الشاعر الحقيقي - ما يزيد الناظم رفعة ومجداً ، ويزيد المعجبين به حباً
 وواعجاباً . وما اجل العذر والتواضع في الكلمة التي ذيل القصيدة بها .
 الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيت قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة
 الاشغال وتلبيل البال .

قال في مطلع القصيدة ، نفعنا الله بزياره الحميدة ، ان اللقات مزايلا يحصيها
 الاسهاب فيذكر عشرأ منها فقط :

فلميون جلا .	للضعف منه ذهاب
وللشعور صباغ	زمردي يذاب
أحسن بشعر مليح	له المذاب رضاب
يا ما احيلاه ظلما	تشقى به الاحباب
وللنفوس مريح	وللنشاط انحذاب

ويشهد الفكر حتى يخاف منه التهاب

ويطرد النوم عن من له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر حضرة الاديب العالم في الامام فيقرّبه من كل من
آثر الكتاب جليساً . الى ان قال :

اما الذي قاله قسطنطين فهو شراب
ليس من جاوز الحد اكله والشراب
يكون عرضة خسر ويعتبره اكتئاب
والاكل والشرب مالا به الكرام تعاب
وانما العيب اسراف منه يبدو العجاب
هذا الملقق يا قسطنطين منا جواب
يهدى اليك عليه من الحياء نقاب
لانه ليس كفوّاً للدر وهو تراب
فاستر ملقق يحيى فالستر فيه ثواب

ان في الايات الاخيرة من الدمثة والحفة والنواضع ما يستحب في اصغر
الشعراء واكبرهم . فكيف به في احد كبار الحكماء والامراء ؟

الفصل الحادي عشر

الزئود واليهود

متزلنا بيت الصلاة - الوفد الافرنسي - ما الرضرة - الصلوات والبصل -
المتداون - الخنازير النصارى - الحارس احمد بهتدي - السيد والهجرى -
ظلم السادة - حزار واليهودي - قاء اليهود - السيد محمد يعمد الراجبات -
وكلمها من اجل اليهود وسعادتهم - يدفعون الجزية راضين - الزيدى واليهودي
في حب المال واحد - رسائل اهل اليمن - لا يستعملون العلفات - حسابات
وزير المالية - الصراحة والايجاز - الاسلوب التركي والاسلوب العربي .

هيو على الصلاة ! هيو على الفلاح ! وكان المؤمنون يجيئون الى منزلي
يصلون . الحاجب والحارس والسيد والحادم والعشي والبستاني وولد الساقية
الذي يعني مجله من الشروق الى الغروب : صدر البنية بستان وانا زرعتة ، كانوا
كلهم يجيئون خاشعين فيتوضئون في بركة الشاذروان ، ويفرشون حولها في
ظل شجرة الجوز بردة او احراما ، ويصلون صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة
العصر وصلاة المغرب وصلاة المساء . ما عرفت ولا رأيت اناسا يصلون مثل
هؤلا . الزئود . وما سمعت ولا قرأت في التاريخ عن اناس كانوا يصلون مثل
هؤلا . الزئود . ولا اظن ان صلاة تصعد من فم بشر فتذهب كالهباء المنثور
مثل صلوات هؤلا . الزئود .

كان في البيت ازا . بيتنا الوفد الافرنسي الذي وصل الى صنعاء يوم كنا
هناك ، وكان احد الخدم يجي . ليأخذ لهم ماء من الشاذروان ، فسأته مرة :
لمن الماء ؟ فقال : للخنازير النصارى . فقلت : اليس في بيتهم ماء للغسل ؟
فقال : هم يشتهون الماء للشرب . فقلت : اتسقونهم من هذا الماء ، من ما
الشاذروان ؟ فراح يحمل الجرة ويقول : خنازير نصارى لا يستحقون احسن منه .
ويجي . هذا الزيدى فيتوضا . في البركة ثم يفرش برده تحت اغصان الجوز

ويتجاسر ان يخاطب « الرحمن الرحيم ، . . رب العالمين » ويضرع اليه ليهديه « الصراط المستقيم » . ويجيء البستاني كل يوم فيفتح بركة الشاذروان ليفرغها فتجري مياهها في بستان مهمل ، ارضه طيبة ، لم يزرع فيها الا شي . من البصل واللوبياء والبرسيم . كنت دائماً عندما ارى البستاني في عمله وفي صلواته آسف على الماء الغزير الذي يكفي ليروي حقلاً وسيماً ولا يستخدم الا لري ثلم من البصل ، وعلى الصلوات الفائضة التي لا تروي في قلب الزبيدي غير حقل زرعه البغض والتعصب .

اي اخي الزبيدي ، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض ؟ ، بغض العالم خارج اليمن ، وبغض الحنازير النصارى ، وبغض اليهود في بلادك ، حتى وبغض الشوافع اخوانك الاسلام . ان صلواتك وما الشاذروان سواء . وان في الاثنين بركة وبركات لو نشطت ، وعقلت ، وكنت كريماً . فلا تضع اذ ذاك ما . بلادك في الارض البور ، ولا تسق ما . وضوئك الناس ، ولا تسمع ربك كلمات التجديف في معرض الخشوع والابتهاال .

جاءني ذات يوم الحارس احمد وفي عنقه ورم والتهاب . فدهنته بصيغة اليود مرتين فشفي وعاد يشكرني . فقلت يجب ان تشكر الحنازير النصارى لان هذا الدواء اختراعهم ، صنع في بلادهم . فقال : جزاهم الله خيراً . والله يا امين - ورفع يده ورأسه الى السماء - عينه ترى كل شي . ورحمته تسع كل الناس . ثم جا . آخر وثالث ورابع يحملون الي الآلام من جرح او قرح او التهاب . وكنت كل مرة اعالجهم اذ كبرهم بان شفاهم من الله ثم من اولئك الحنازير النصارى الذين اكتشفوا الادوية والمخدرات - بعد ان تعلموا الطب من اجدادكم يا اجهل العرب - ليزيلوا الامراض ويجففوا الالام البشرية . وكانوا ، وقد جاؤوني زيوداً ، يجمعون مسلمين الى الديانة السمحاء . التي يقول صاحبها : الانسان اخو الانسان احب او كره .

ولما عاد خادم الافرنسيين ليأخذ الماء من الشاذرون انتهره الحارس احمد وهز له العصا . - والله بالله اذا سقيتهم من الشاذرون اشكوك الى الامام . ما سررت والله بشيء . في صنعا . سروري بعصا احمد وكلماته . فقد برهن الانقلاب السريع في نفسه ونفسية اخوانه في الزيدية وفي الاوجاع على ان بذرة الصلاح التي زرعا الله في قلب كل انسان لا تزال طيبة في قلوبهم ، ولا تحتاج الا الى عمل او كلمة او اشارة تحرك فيها الحياة ، وترويبها بما المكرمات . اما التبعة في رقاد تلك البذرة ونموها فعلى السادة الذين لا يرغبون في تعليم عامة الناس . واذا علموهم شيئاً فزيجوه الاكبر التعصب والطاعة للرؤساء .

لا يزال للسادة في اليمين حقوق في الارض وفي الرجال شبيهة بحقوق ذوي الاقطاع Feudal Lords في اوربا الا ان لا عبودية فيها . هم يقولون : هؤلاء قوم فلان . او القبيلة الفلانية هجرتنا^(١) اي في حمايتنا ، وهذا الرجل

(١) جاء في الحديث : من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها وامرأة يتروحها فهجرته الى من هاجر اليه . حاشية ثانية : جاء في حاشية الطبعة الاولى ان هذه الكلمة من القرآن ، فكتب صلح الخطأ علان فاضلان الواحد افرنسي باريسي والثاني عربي نحفي . ولكنت وقتت ندشكر العالمين لو لم يكن اسلوب كتابها في النقد يستحق بل يستوجب هذا التعليق كتب العلامة المسشرق لويس ماستيون كلمة عن « ملوك العرب » في مجلة العالم الاسلامي الافرنسية وادرفها بهذه الحاشية : في الصفحة ١٦٨ من الجزء الاول نقل المؤلف كلمة قال احدا من القرآن فيجب اصلاحها . . وكتب العالم النجفي مقالاً طويلاً بليغاً في محمود كامل من الحريرة فويحني تويحاً ، وشتمني شتماً ، وذهمني ذماً لا يليق من مثله بمثلي لاني خلطت بين القرآن والحديث ولم اعبر بينها

اني مذنب يا حضرة الجهد النقرس . ولكني اتمزي بان لي في الذنب شريكاً كبيراً من كبار العرب المسلمين فقد قال العلامة ماسينيون في حاشيته : ان الملك حينئذ نفسه يغلط احياناً في الايات ويخطئ بين القرآن والحديث . راجع العدد ١٢٥ من جريدة القبلة والعدد ٢٧ صفحة ١١ من مجلة العالم الاسلامي .

هجري فتي كانوا كذلك فالعلم من وجهة سادتهم قلما يفيد . اذكر كلمة قالها لي احد الجنود في الطريق وكان رفيقنا سيد يلبس حذاءً ضغط على رجله فتزعه ومشى حافياً . دنا الجندي من مطيتي وقال بصوت خافت : كل الناس في اليمن ما عدا السادة فقراء . والسيد طماع كسلان متكبر . هذا المثل - وأشار الى السيد قدامنا - وهذه اعماهم - وأشار الى حذاء السيد الذي كان يحمله - يحملني حذاءه .

وليس النصارى في مذهب الزيود وفي جهلهم احق من اليهود بالكره والاحتقار . كان الجندي حزام ، احد من مشى معي في المدينة حراسة واكراماً من قبل الامام ، يضرب بقبضة بندقيته كل يهودي يره . - ابعده يا يهوده ضربك الله بروحك ! زادك الله عمارة يا يهوده ، اخل السبيل ! وقد لا يكون المسكين في الطريق . ولكن حزاماً وهو شغف بحب اليهودي يراه على مسافة قادماً نحونا ماشياً بعيداً عنا فيبادر الى ملاقاته بالبندقية واللعنات ، وهو يظن انه يرضيني بذلك . ثم يبصق عليه ويهتف قائلاً : لولا الامام . بلي ، لولا عدل الامام لكان يذبحه ذبحاً . فهددته مرة ، وكان قد نفذ صبري عليه ، اني اشكوه الى حضرة الامام اذا استمر يفعل هذه الفعلات . فصار بعدئذٍ اذا رأى ذا السوائف قادماً في جهة من الطريق يسير هو في الجهة الاخرى . واذا مر به اتفاقاً يميل بوجهه ساكناً صابراً كأنه لم يره .

وكان السيد محمد ، رفيقنا من ذمار الى صنعاء ، احد الاماجد الذين لا يتجاوز عددهم الستة المأذونين بزيارتنا ، الحائزين على ذا الانعام من حضرة الامام . فاستصحبته مرة الى قاع اليهود اي حيههم وهو مدينة معتزلة بينها وبين بئر العزب ساحة كبيرة مثل ميدان الشراة الكائن بين صنعاء وبئر العزب . فزادني بذوي السوائف علماً وبالامام يحيى اعجاباً .

حدثني السيد محمد قال : يجب على اليهود يا امين ان يرسوا السوائف كي

لا نظنهم منا اذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبحهم خطأ. ويجب عليهم ان يركبوا الحمير فقط لانهم لم يتعودوا ركوب الخيل . والسلامة يا امين قبل الفخامة . ويجب عليهم ان يرفعوا الزخارف^(١) من المراحيض ويجوز لهم المتاجرة بها فيزيد ما لهم . ويجب عليهم في بناء بيوتهم ان لا يتجاوزوا الطابقين علواً فيسلم اليهودي اذا وقع عن سطحه . ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا اصلهم وجنسياتهم يا امين فيذكروا دائماً شريعة النبي السجاء وفضله عليهم . ويجب عليهم اذا شتمهم المسلم وبصق عليهم ان يشكوه حالاً الى الامام فيأمر المدعي بذبح فدان . فاذا ثبت الذنب دفع المسلم ثمن الفدان واخذ اليهودي نصفه . وكثيراً ما يتنى اليهودي الشتيمة طمعاً بنصف الفدان . ولا تجيز لليهودي التملك . الارض لنا والبيت له مدة من السنين محدودة ، تسعاً وتسعين سنة . ولا يخفى عليك ما في هذه الشريعة من التساهل والرحمة ، ونجيز لهم ان يصنعوا التبيد فيشربوا . ولا يبيعوا غيرهم فيحزنوا . ونجيز لهم كذلك ان يعرضوا علينا بناتهم فنستخدمهن في بيوتنا ، وندخلهن حريمنا ونمنح من يستحق منهن نعمة الاسلام .

اما اليهود فهم راضون بهذه الحال . هم راضون شاكرين ما دامت الجزية وهي تافهة تخلصهم من التجنيد . وهم لا يزالون منذ عهد نجران الزاهر على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم الذي يلقنونه اولادهم باللغة العبرانية القديمة . فلم يدخل عليهم من جديد ، او بالحري من غريب ، غير لقب حاخامهم الاكبر الذي منحه اياه الترك ، فهو لا يزال يدعى حاخام باشا .

قلت انه لم يكن احد يدخل منزلنا الا باذن من الامام . ولكن يهودياً كنت قد اشتريت منه في السوق بعض النقود الحميرية واوصيته على غيرها

(١) هو من باب تسمية الشيء بضمه . واليهود في ضماء يعرفون « الزخارف » ويبيعونها من اصحاب الحمامات ، فيستخدمونها في الرقود .

ادهشي ذات يوم بوقوفه فجأة امامي في الديوان . فظننت ان الحارس حزاماً
 نائم او غائب ، والا فكيف يأذن له بالدخول . سألت اليهودي فقال : هو
 في الباب . فقلت : ألم يرك داخلاً ؟ فاجاب بالايجاب وسكت . فاشترت
 منه ما اشترت ودفعت المال فزال اذ ذاك العجب . مشى اليهودي مسروراً
 والمال في جيبه حتى وصل الى الباب فأوقف هناك ، فرأيت اذ ذاك حزاماً
 ويده على تلايبه والبندق مرفوع باليد الاخرى ، ورأيت اليهودي ويده في
 جيبه يخرجهما ويقاسم الزيدي ما قبضه مني من المال . الا اني لم اتحقق مصدر
 الفساد والحلل . ولولا علمي بتفوق الزئود واحتقارهم اليهود لقلت ان ذا
 السوائف رشى ابا النيل ليأذن له بالدخول والمتاجرة ، وقد يكون ذلك ، ثم
 رفض ان يدفع ما وعد به ، فقبض ابو النيل على عنقه وابتر منه ليس نصف
 الربح بل نصف المال كله . وقد يكون الزيدي في تفاضيه عندما دخل
 اليهودي ، نصب له الشرك الذي وقع بعدئذ فيه . كأنه قال لنفسه : القنص
 للقنص . ليربح من ضيف الامام وانا اربح منه . ان بيت الاول من زجاج
 مصوغ ، وبيت الثاني من زجاج بسيط . الواحد يجب المال ، والثاني يشتري
 « الظلطة » وهل في حب المال ما يستنكر ومولانا سيد المحبين ؟ وهل في
 الاقتصاد ما يستعجب وهو في علم الاقتصاد الاستاذ الاكبر ؟

اظن ان الامام يحترم اليهود ويحبيهم ويقوم فيهم العدل فيأمر بدبج
 الفدان اذا اهينوا ، لانهم المثال الحي لما هو عنده من قواعد الحياة في مقام
 الايمان . المال ، المال ، والاقتصاد بالمال . فاذا كان اليهود في عهده آمنين
 مطمئنين وفي تجارتهم ناجحين ، فالزئود وقد حرمهم « الظلطة » امسوا من امر
 الاقتصاديين والناس على دين ماو كهم .

ان اول ما شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن هي طريقتهم
 في المراسلة ورفع العرائض . فلم ادر ما تلك القصصات المكروسة التي

رأيتها لأول مرة امام منضدة امير الجيش في ماويه الا بعد ان وصلنا منه ،
ونحن في اب ، برقية مكتوبة في ادارة السلك على شقة من «كابون» الدولة
العية . ثم وصلنا ونحن في زمار من عامل اب برقية اخرى مكتوبة على
قصاصه من معروض بالتركية مرفوع الى جناب قائممقامية حراز العالي . فالامام
يحيى الذي غنم من الترك المدافع والسلاح احتفظ بما تركوه من الاوراق
والدفاتر والكابونات والمعارض ولم يأمر بتقطيعها وباستخدامها في ادارة
السلك فقط بل في دوائر الحكومة كلها حتى وفي المخيم المنصور .

انه ليندر استعمال الغلاف في اليمن الا في المراسلات الرسمية الخارجية .
اما في البلاد وبين اهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف . يحيى
الرسول بلغافة صغيرة مثل السيكاره فتفكها فاذا هي رسالة من حضرة
الامام وقد تكون بحظه الشريف ، فتقرأها ثم تنظر في ما لها من هامش
فتقطعه وتجابوب عليه ، وتلف الجواب سيكاره وتعيدها مع الرسول . واذا
اسرفت في الورق واضعت مقدار ختم منه دون ان تسوده توبخ على ذلك ،
وقد تغزل اذا كنت موظفاً في الحكومة . اما اذا جاءك كتاب في غلاف
فتشقه وتستعمل ظهره للرسالة واذا كانت الرسالة من صنو وهي على قدر
بطاقة الزيارة تعيدها اليه والجواب في المكان الابيض منها ، سطرأ كنعلة
الفرس او سطين كخط المابين .

ومن المستغرب المستعذب ان بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظماً في
بيت او بيتين من الشعر . وبما قرأته من هذه الشكايات سطران من انسان
يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك . فهو يلبط وينعق كثيراً في الليل .
فصدر الامر الى صاحب الحمار ان يقيد ويشكبه بين مدفعي السحور والافطار .

جاء السيد علي زبارة يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم
كدير التموين والضيافة . فاعتنم فرصة وجوده عندنا ليراجع ما تكردس

على رأسه - ومكتبه ايها القارىء على رأسه - من الرسائل والحسابات .
فزع عمامته البيضاء وشرع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة ، فيقطع
القسم الابيض منها ويعيده الى مكانه ثم يترق الباقي . ومن الرسائل التي
اطلعنا عليها ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيت ارجو رايالاً في ريال في ريال
فسن والجوب وما سواها لشهر الصوم فالمصروف غالي

ثم اطلعنا على قصاصة من حضرة الامام يأمره بدفع منتي ريال الى احد
العمال . فقلت له : أتمترق هذه ايضاً ؟ فكان جوابه ان مزقها وهو يقول :
اذا دفعت الفى ريال لا أسأل عنها . فقلت : وقد ينسى الامام فيسألك ان
تعزز الامر فاجاب قائلاً : لا ينسى ولا يسأل . فعجبت لهذه الصلة ، صلة
الثقة والامانة ، النادرة في حكومات المتمدنين ، بين الحاكم وناظر ماليته .

تلك اللغافات وفيها الشكايات نظماً ونثرأ ، انى لا ازال اذكر منها
رسالة جاء تنى يوم سفرنا من احد الحراس يقول فيها ، بعد ان رفعتى الى الجوزاء
وترككنى هناك ، ان القات فى شهر الصوم غالى جداً وان الله لا يجيب امله
« يا خير المحسنين العزيز امين » وما اغرب ما ترويه هذه الرسائل واحزن ما
تفشيته ، وفيها شكوى البارح وراه شكوى اليوم ، وبين الاثنين او على
ها شهرها بياض يسوده الغد بما قد يكون ابعء غرابة واشد حزناً .

ان الاقتصاد فضيلة . ولفضيلة الاقتصاد بالورق فى اليمن شقيقة اجمل
منها ، الا وهى الاقتصاد بالكلام . انعم بتلك الصراحة والايجاز ، وما
يوجب الايجاز من اهمال الالقاب وعبارات التبجيل . او ليست الصراحة
والايجاز والحطابة البتراء من مزايا العرب المشهورة ؟ ولكنهم فى ما دخل

من بلادهم في حكم الاتراك كالحجاز مثلاً وبعض نواحي اليمن وعسير ،
امسوا اتراكاً في ما يكتبون ، وفي الكثير مما يقولون ويفعلون .

اما في اليمن الاعلى ، في غير الرسائل الرسمية ، فلا يزانون من العرب
العرباء . الا انهم اذا كتبوا الى امير او حاكم او سيد خارج اليمن فلا الترك
عندئذ ولا العجم يفوقونهم في فخامة الالفاظ وضخامة الالفاظ . وهالك مثلاً
من تباجيلهم . اذا كان المخاطب اميراً فالى : قدوة الامراء الكرام ، وعمدة
النجباء الفخام ، عالي المجد والمقام ، فخر العرب والاسلام واذا كان
اماماً فالى : خلاصة الاطهار الاجداد ، وروضة المجد الرفيع العباد ، قرة العين
والكمال ، عنوان الاعتبار والجلال ، الزكن الاسند والسند المستند
واذا كان سيداً بسيطاً فالى : ذي الاخلاق الزكية ، والثبائل المرضية ،
الهام المقدم ، الرفيع المقام ، التقي النقي . . .

على انه يسر كل من يكتب في العرب شمائل الاجداد ان يرى في خطوط
الامام الى رعاياه وفي عرائضهم اليه تلك الصراحة وذاك الايجار الذين امتازت
بهما قديماً خطب الامراء ورسائل الادباء . وعندى فوق ما اشرت اليه فزوج
باهر في رسالة من صديقي السيد احمد الكبسي على قصاصة من الورق صغيرة .
قال حجب الله عليه : لا عتب على صديقكم فالليلة هذه تم الامور والسفر
يوم الاثنين ان شاء الله . وسأحضر اليكم الساعة السابعة غداً .

لكن الامور لم تتم تلك الليلة ، ولا السفر كان يوم الاثنين ، ولا شرف
الصديق في الساعة السابعة او العاشرة من ذلك الند . الا انه جاءنا في اليوم
التالي والطيب ينتشر من اردانه ، « والتخزينة » بين اسنانه ، « وظاهر
وماشي » تتمشى في بيانه ، فقال : انا مسرور لان حضرة الامام اذن بان
تتشوا عندي . فالى مساء الغد يا امين الى مساء الغد يا قسطنطين . وراح
يشكو الصداع ويداويه بالقات وبالآيات .

الفصل الثاني عشر

المسئلة السياسية الكبرى

كابوس الحديدية - وعد من وعود الحرب - الترك والامام - الترك والعرب بعد الهدنة - تسليم الترك في لبح - اخراجهم من الحديدية - احتلالها - احتجاج الامام - جواب الانكليز ووعدهم - تسليم الحديدية للادريسي - سياسة الانكليز العربية - المناقضات - بعثة الحرنل جاكوب - عرب الصحراء يوقفونها في باجل - الانكليز في الاسر - الامام يسعي في التناذر - رجوع البعثة وقفلها - الامام يحمل على التواخي للمحمية - احتلال الضالم وغيرها مما في حماية الانكليز - المفاوضات - الهدايا - الدنانير - التسوية والمعاينة - شروط الامام - مقاصد الانكليز .

الحديدية كابوس الانكليز في عدن و كابوس الامام في صنعاء . هذا يعنيها ولا ينفك يطالب بها ، واولئك ، وقد وهبوا صديقهم الادريسي ، يودون لو كان بإمكانهم ان يهبوها كذلك الامام . وهناك وعد من وعود الحرب وبعدها يزيد العقدة شدة في دار الاعتماد بـعدن . وما العمل ؟ ايكننا ان نقسم المدينة بين الامامين ، الامام الزيدي في اليمن والامام الشافعي في عسير ، فننجو من الكابوس . أو يستطيع الامام الاكبر ان يضغط على الانكليز في جنوبي اليمن بفيلق من زيوده فيضطروهم ان يسلموا بما يطلبه منهم في تهامه ؟ انما هي مسئلة المسائل .

الحديدية من المدن العربية المشهورة . كانت في عهد الاتراك وقبله ميناء اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عاسرة ، وعدد سكانها يتجاوز المئة الفاً . وكان الترك يتزلون فيها العساكر لاختضاع اهل اليمن فدوا منها الاسلاك البرقية الى اعالي الجبال ومنحوا شركة افرنسية امتيازاً بسكة حديد تمتد من الحديدية الى مناخه فصنعاء ، فباشرت الشركة العمل بما ارسلته من مواد البناء ، فنشبت نار الحرب في اوروبا فقضت على المشروع وذهبت

تلك المواد نهب العريان .

وقد كانت الحديدية اثناء الحرب العظمى لا تزال في يد الاتراك الذين حاربهم الياينيون اربعين سنة ، فانزعوا منهم القسم الاكبر مما احتلوه من البلاد . ولكنهم في تلك الفترة والوا اعداء هم وهم اخوانهم في الاسلام ، فحافظ الامام على المعاهدة التي عقدها معه عزت باشا والتي تقدم الكلام عليها في الفصل السادس وظل معتزلاً السياسة والحكم مقياً في جبال شهاره . كان يومئذ محمود نديم بك والي اليمن ، وعلي سعيد باشا قائد الجيوش المحتلة ، وفي حوزتها البلاد كلها من لحج حتى صنعاء . ومن اللحية على الساحل حتى الحيا . اما العرب من شوافع وزيد فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم يومئذ المال .

ولما أعلنت الهدنة سعت بريطانيا العظمى باسم الاحلاف في اخراج الاتراك من النواحي التي كانت لا تزال في حكمهم في اليمن الاسفل غرباً وجنوباً . فسلموا في بعضها كالحج دون قتال ، واىوا في الحديدية وملحقاتها الا الدفاع . فجاءت اولاً الاوامر من عدن بالتسليم ثم المدرعات لتنفيذها ، فضربت الحديدية البلد الآمن غير المحصن . فدمرت قسماً منها وقتلت مئات من اهلها ، فهرب اكثر الباقين لاجئين الى الجبال .

سلمت الحامية واحتل عساكر الانكليز المدينة . وكان قد دخل الامام يحيى وقتئذ الى صنعاء . وسلمه الوالي محمود بك نديم^(١) زمام الاحكام في اليمن كله . او بالحري في ما كان في حكم الترك والحديدية طبعاً منها . فكتب الى المعتمد الانكليزي في عدن يفتج على ذلك الاحتلال فجاءه الجواب يقول :

(١) لم يكن في صنعاء يومئذ غير ثلاثة طواير ، وكانوا هناك وقد قطع الادريسي وملك الحجاز وسلطان نجد الاتصال بينهم وبين الشام ، في شبه حصار ازدادات شدته في اواخر الحرب .

اننا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الامن والنظام وسنعيدها قريباً اليكم وهذا الوعد هو حجة الامام السياسية في المسئلة . اما حجته الشرعية فهي في انتزاعه الحكم من الاتراك وكل ما كان تحت ذلك الحكم من البلاد أضف الى ذلك حججاً اخرى تاريخية وتقليدية وجغرافية تثبت حقه وتؤيد دعواه .

ولكن الانكليز رغم وعدهم المذكور ساموا المدينة بعدئذ الى صديقهم الادريسي الذي كانوا يدونه وهو حليفهم بالمال والسلاح ليحارب الاتراك ، عملاً بمعاهدة بينه وبينهم شبيهة اساساً بمعاهداتهم الاخرى وامراء العرب الذين نصرروا الاحلاف . اننا في استقرائنا الحقيقة نسجلها كلها بعد ان نثبتها ولا نخفي جزءاً واحداً منها والحقيقة كلها هي ان ملوكنا وامراءنا الذين نصرروا يومئذ الاحلاف نصرورهم لاغراض خاصة ، اغتبنوا تلك الفرصة لتحقيقها . فكان الواحد منهم اذا ضرب الاتراك ضربة يذخر من قواه وعدته ليضرب اخاه العربي بعدئذ ضربتين وثلاثاً . اجل ، قد استخدم الملك حسين مال الانكليز وسلاحهم على خصمه ابن سعود فكان من الخاسرين . وحمل ابن سعود على ابن الرشيد فكان من الفاترين . وظل السيد الادريسي بعد الهدنة وبمعاونة الانكليز يحارب خصمه الامام دون قصد يشكر او نتيجة تذكر .

لا نلوم الانكليز اذا آثروا في سياستهم وصدقتهم من ساعد الحلفاء في تلك البقعة من الارض على من ظل معتزلاً . ولا نلومهم في تفضيل الادريسي على الامام ، وابن سعود على الادريسي ، والملك حسين على ابن سعود . فقد كانت المساعدة درجات وكان التفضيل كذلك . ولكننا نلومهم لانهم استمروا بعد الهدنة في تلك السياسة المشؤومة التي كان من نتيجتها ان اتسعت التلم بين امراء العرب المتخاصمين . وظلوا بالرغم عن معاهدات هي وضماً تختص بالحرب العظمى ، يمدون الادريسي بالمال والسلاح ليحارب الامام^(١)

(١) كان الكرنل جاكوب الماعون الاول في دار الاعتاد بعدن عندما عقدت

فاذا تساهلنا في تفسير هذه السياسة وتأويلها وانتحلنا لهم الاعذار ، فاننا لا نستطيع الدفاع عن سياستهم الخرقاء في قضية الحديدية .
 قد أبروا بجزء صغير من وعدهم فخرجوا عسكرياً من تلك المدينة ولكنهم سلموها الى الادريسي واقاموا فيها من قبلهم وكيلاً سياسياً ، فضلاً عن انهم في هذا العمل الذي قيدوا انفسهم به وجعلوا الحديدية كابوساً عليهم قد ظلموا اهل اليمن الاعلى اذ سدوا عليهم منافذ البحر وسلبوا صنعا العاصمة ميناءها الطبيعي التاريخي الشرعي فامست في شبه حصار لا اتصال لها بالعالم لا عن طريق الانكليز الثانية في عدن .

لم تنقطع المفاوضات اثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعا . وقد اثرت مرة استحاتت بعدئذ حفظاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الاول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته ان تبعث بعثة سياسية الى الامام يحيى و زين الامر لحضرته فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدية في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد الى صنعا . بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيبين وراجمين وكاتب يصحبها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير

المعامدة بين الحكومة البريطانية والسيد الادريسي بل هو الذي عقد تلك المعامدة السيد في جيزان . وقد ذكر ذلك في كتابه ودافع عن حكومته مستشهداً بالمادة الرابعة منها التي تقول : ان حكومة بريطانيا العظمى تتعهد بان تحمي سواحل بلاد الادريسي وجزرها من التمديات الخارجية كلها دون ان تدخل في شؤونه واستقلاله . وقد فر الكرنل جاكوب مادته بان لا ذكر للامام فيها وانه لم يكن للادريسي من عدو على السواحل يومئذ غير الترك . هذه حجته في ان الحكومة لم تساعد الادريسي على الامام . وحجتنا في ما يفند حجته هي واقعة الحال بالذات التي يبنتها هو نفسه في كتابه . فقد جاء في صفحة ١٧٨ في كلامه على الادريسي والحديدية ما يلي : قد استنجد (الادريسي) بجاشد وبكيل وسألنا ان نقدم المال لتجنيدهم . ثم يقول بان الادريسي جند بعض اولئك الرب فاختدوا ماله (وهل هو غير مال الانكليز ؟) وحاربوا قليلاً منه ثم عادوا الى بلادهم .

من الحديدية كأنها قافلة تجارة دون ان تستعلم وتتثبت احوال البلاد التي ستسرى بها . وقد تكون استعملت ولكنها خُذعت .

ان في تهامة بين الحديدية وُعبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة هناك ببأسها وسطوتها وغزة جانبها . هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلاً في تلك الناحية ، عربها من السنين الشوافع لا يميلون الى الامام ولا يجنون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لانهم ضربوا الحديدية ودمروها وقتلوا مئات من اهلها ، وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم . وكان الفصل الانكليزي في الحديدية يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز انفسهم رجل احمق متصلف عنيد ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين به من العساكر الادريسية . فشجعها على السير وطأنها .

خرجت البعثة من الحديدية تجر اذيالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلاله الملك جورج الخامس الى حضرة الامام . وكانت الحملة ومعها الهدايا الثمينة تقدمتها لتجس الارض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها اعضاء البعثة مطشنيين آمنين ، فمرت بياجل دون ان يعترضها احد واجتازت عشرين ميلاً منها الى عُبال فباتت تلك الليلة هناك ، فتقدمت البعثة تتبعها ودخلت في الشرك الذي نُصب لها .

وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى بياجل فرحب عرب القحراء بهم واتزولهم ضيقاً عليهم في بيت كان الامر فيه بعدئذ في ما يتعلق بالسفر لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي ، بل لسادات القحراء ومشايخها . وقد روى الكرنل في كتابه^(١) خبر ذلك الاسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق . الا انه وقف في بعض الاحايين عند حد توجيه السياسة .

Kings of Arabia : Chapter XI . My Mission to the Court of the (١)

الفصل الحادي عشر : رسالي الى الامام في صنعاء . Imam of San'a .

وقد يكون احسن الظن في غير محل الاحسان واساء فهم امور قد تغض على اتقب الناس فكراً من العرب انفسهم . كان الشيخ ابو هادي مثلاً ، وهو شيخ مشايخ القهراء ، عامل الامام يحيى يومئذ في باجل ، على ان لم يكن له في قبيلته تلك السيادة التي توهمها الكرنل وتوهمها الامام . او ان ابا هادي خدع الحصريين ، الزيود والانكليز ، ومكن عشائره من الفوز عليهما .

قد جاء في كتاب الكرنل جاكوب ان الامام يحيى ارسل الى باجل حرساً مؤلفاً من مئة جندي وثلاثة عشر خيلاً ليلاقى البعثة ويرافقها الى صنعاء . ثم ارسل محمود بك نديم ومعه اربعة الاف ليرة عثمانية لينقذ البعثة ويصونها من استئناف السير اليه « وجاء مندوب سياسي الى الحديدية يعرض باسم حكومة بريطانيا العظمى خمسين الف ليرة انكليزية على مشايخ القهراء ليطلقوا سراح المأسورين » . ثم تداخل السيد الادريسي في الامر فبعث احد رجاله الى باجل فلم يفز بغير ما فاز به من تقدمه من رسل الامام والانكليز . ثم طارت طائرة من عدن الى باجل قصد الارهاب والترويع وعادت دون نتيجة تذكر .

لم يان عود القهراء ولم يززع ذهب الامام وذهب الحكومة البريطانية عزماً . فهي كما علمنا لم تأسر الانكليز لتذلم وتنتقم منهم ولا كما تبين طمعاً بالمال ، بل لتمنعهم عن السفر الى صنعاء لانها كانت تحشى اتفاقاً يتم بينهم وبين الامام . ولو قبلوا ان يرجعوا الى الحديدية في الاسبوع الثاني من الاسر لا اذنت بذلك .

استمر الاسر اربعة اشهر ، فادركت اذ ذلك الوزارة الخارجية بلندن فشاهها واصدرت الامر برجوع البعثة . ولكنها لم ترجع الا بعد فتنة دبرت لحفظ كرامة الحكومة البريطانية^(١) وعندما تم الاتفاق في الحديدية بين

(١) أطلق سراحنا بموجب اتفاق عقد في الحديدية ، بعد فتنة دبرت بين عقلاء

الوكيل السياسي ووفد القحراء أطلق سراح الانكليز في باجل وأعيدت اليهم الامتعة والسلاح المحجوزة كلها^(١) واصبحتهم القحراء بالفين من رجالها المساعدين يشيعونهم الى الحديدية .

اما الامام يحيى والسادة في صنعاء فقضوا العجب من هذه السياسة والانقلاب . أتقلب قبيلة عربية حكومة بريطانيا العظمى ؟ بل الأرجح انها انقلبت علينا فأنها وايم الحق تستطيع ان تبديد القحراء ، ولو شاءت ان يصل الوفد الى صنعاء لما ترددت في الوسائل ولا ادخرت من القوة في ذا السبيل .

وكانت النتيجة ان الامام ، وقد رجح انقلاب الانكليز ، بادرهم الى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم الى ذلك ، فلجأ بعد ان نفذ ذرع السياسة الى السيف اذ صدر امره الى جيش الجنوب بالزحف على النواحي المحمية ، تلك النواحي التي هي جزء من اليمن كما يثبت التاريخ ، جزء لا ينفصل عنه كما يقول السادة وامراء الجيش . وكان الامام في هذه السياسة او الحطة الحربية يقتدي بالانكليز . فقد ضربهم في ناحية هي قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه اليها ضربهم في نواحيهم المحمية ليخرجهم من الحديدية او يضطرهم ان يسامروها اليه .

زحفت الجنود وكتب لها النصر في اربع من تلك النواحي^(٢) فتردد

القحراء ومشايعها فالعقلاء نفدوا على المشايخ لاضم اسرونا . . . ونضوا عليهم . . . فاضطروم ان يرسلوا وفداً الى الحديدية للمفاوضة مع الوكيل السياسي الانكليزي هناك . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٣

(١) قبل صلاة الظهر سلمنا المشايخ امتعتنا المحجوزة كلها ولم ينقص منها شيء . قالوا: اعطنا وصلًا كما لان الصلاة لا تحمل لنا قبل ان نبرى . ذمتنا فاعطيتهم الرصل حالاً . فقالوا: ولكنك لم تمد الصناديق . فقلت: ولا انتم عددتموها حين حجرتموها . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٥

(٢) هي الضالع والشعيب والاجمود والقطيبي .

صداه في اليمن الاسفل والاعلى وصاح الزيود المتصرون : الى عدن ا وقد كان اصدى الصدى في دوائر لندن السياسية وقع سبي . فاستبدلت الحكومة يمتدها في عدن واذنت بتغيير خطتها تجاه الامام .

استؤنفت بعدئذ المفاوضات الولاثية ، وتبادل الانكليز والامام الهدايا عملاً بالكلمة العربية المأثورة : تهادوا وتحابوا . حملت الجبال اجزاء سيارة الى صنعاء وسافر معها من يركبها هناك ويعلم احد الناس سياقتها ، وارسل حضرة الامام هدية من البن والحليل ، ثم عين القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن . كان قدمر سنة على هذه الحال عندما كنا في صنعاء . ولم تأت المفاوضات المتوالية بنتيجة تذكر . واني اذكر كلام احد رجال الامام في هذا الصدد ، قال : ما كنا نتدي في رسائل المعتمد المتسائلة تسويقاً وايهاماً الى الصريح الثابت من مقاصد الانكليز . وهم لا يزالون حتى اثناء المفاوضات السلمية يساعدون الادريسي علينا . لذلك ارسل حضرة الامام الى المعتمد كتاباً شديد اللهجة فيه صراحة وحق . وقد يؤمر معتمدنا بالرجوع الى ان تصدر المراجع الانكليزية العالية النبأ الثابت القاطع في الامر . . . النواحي التسع لنا هي حقنا . والحديدة كذلك لنا . ولا بد من احد امرين ، اما البر بالوعد من قبل اصحابنا الانكليز واما الحرب . اما اذا قالوا ان حمايتهم في النواحي التسع مبنية على اتفاق بينهم وبين الترك فالجواب بسيط . قد عقد ذلك الاتفاق مع دولة كانت متغلبة علينا فطربناها وغلبناها واخرجناها من البلاد ، ولا قيمة عندنا لاية معاهدة بينها وبين الانكليز بهذا الشأن . وكما اخرجنا الاتراك من ارض اجدادنا بالحرب والجهاد نستطيع بعون الله ان نخرج منها كل من يشتهي اقتناء اثارهم .

على ان الاتراك بذلوا في اليمن الاموال ودفعوا المشاهرات للكثيرين من السادة ومشايخ العشائر فلا بأس اذا اقتفى سواهم هذا الاثر الحميد . والسيد

احمد الكبسي نفسه ، الواقف بالمرصاد للانكليز ، والناطق بلسان السادة الاعاير ، يردد اقوال الناس ولهفاتهم ، ويتأسف على عهد كانت « الظلطة » يكال فيه كالبز وتبذل بلا حساب .

قد كنت اظن ان اليمن على ما في اهله وفي تقاليدهم وعاداتهم من اسباب التقهقر والخرول ، اشرف الاقطار العربية اسماً ، وانزهها خطة ، وامنعها جانباً ، لانه وحده اليوم مستقل مالياً عن الاجانب ، اي عن الانكليز ، وبأبي التقيد بشي . من مالههم . وقد طالما سمعت من افواه العرب المتأدين المخلصين في وطنيتهم الجاهلين اشياء . من لحوال الجزيرة السياسية والاجتماعية ، ان اليمن هو تلك البقية الباقية ، البقية الصالحة التي لا تنقاد بالسلاسل الذهبية الى العبودية الاقتصادية . وقد طالما قلت قبل اطلاعي على الحقيقة كلها ان هذا اليمن بفضل الامام الابر ، والاقتصادي الاكبر ، غني مستغن . وهي واهم الحق حسنة تشفع بكثير من السيئات . واكني ، عندما وصلنا الى « بيت القصيدة » قضية الحديد ، قلت في نفسي اسفاً : علمت شيئاً وقد فاتتك اشياء .

تلك نكبة نكبت بها امالي العربية يوم علمت بان السادة الكرام ومشايخ حاشد وبكيل وكل من كان يقبض مشاهرة من الترك ينتظر مثلها بل ضعفيها من الانكليز اذا تم الاتفاق بينهم وبين حضرة الامام . وقد قبلت في ما تعهدت به ان اذكر المشاهرات لدى اولياء الامر في عدن على شريطة ان ابدي لهم رأبي الخاص بها . اما الرأي الذي صرحت به في دار المعتد فهو ان الذهب مفسد لاخلاق العرب ، مفقرهم فوق ما هم فيه من فقر ، لانه يزيدهم كسلاً وخمولاً واتكالا . ولا يجوز للانكليز ، وهم مدركون ذلك ، ان يستروا في بذله مشاهرات ومسانحات ، لا استغواء ، ولا استرضاء ، ولا استيلاء .

ان الحطة المثلث التي تستقيم فيها مصالحهم ومصالحه العرب هي ان يعقدوا والامراء عهوداً ولائيه تجارية ، بدون مادة الحماية ، مبنية على الثقة المتبادله والمصالح المشتركة ، وان لا يكون للسياسة ولا لادارة الاستعلامات دخل فيها . لا بأس مثلاً بقناصل انكليز في جدة والحديده وجيزان والحسا وغيرها من البلدان ، فيقومون بوظيفتهم ضمن دائرتها المحدوده . ولكن الامراء وعقلاء العرب لا يستحسنون بل يستنكرون وجود الوكيل السياسي في بلادهم . اني ارى الغاء هذه الوظيفة امراً لازماً ، اللهم اذا كنا نبغي تحسين العلائق وتثبيتها بين الحكومة البريطانية وملوك العرب ، لاني عالم بما يؤسف له من اعمالها .

اجل ، انما هي الجاسوسية بعينها . هي هي سلاح السياسة الانكليزية في البلاد العربية ، هي خادمة الوكيل السياسي في تقاريره السرية التي تتناول كل موضوع ، وتميط بكل حال ، وتجتاز حتى الحدود التي تقدها التقاليد الى ما وراءها من الاسرار الاجتماعية والبيئية . مثلاً واحداً يخرجنا من التعميم . اذا كان اوليا . الامر واحد ملوك العرب في مأزق من المفاوضات او العلائق ضاقت فيه عليهم الابواب ، وكانوا عالمين بان لذلك الملك او الامير عدواً من اهله او من رعيته في بلاده ، فهم يسعون اليه بواسطة الوكيل السياسي فيستغفوناه بلقب او بذهب او بالاثنين معاً ، ويستخدمونه على خصصهم لتحقيق مقاصدهم فيه .

ولا تخلو مفاوضاتهم مع الامام يحيى من شوائب هذه السياسة . فانك تراهم ، اذا حدثتهم في الموضوع ، يبادرون الى السؤال عن حاشد وبكيل . هوذا موطن الضعف في حكم الامام ، لان عرب هاتين القبيلتين في اليمن الاعلى نافرون من الحكومة متمردون عليها . وليس الى استرضائهم بواسطة مشايخهم غير المال سبيل . ان حاشداً على الخصوص مقبلة بالقرب من حدود

الادريسي، والادريسي صديق الانكليز وحليفهم، والانكليز عنده وكيل سياسي، وكفى. افلا تراهم ولسان حالهم يقول: اذا كان الامام يحمل علينا في النواحي التسع المحمية فنحن نحمل عليه في حاشد وبكيل^(١). ولكن الامام يحاربهم علناً في الغلاة وهم يحاربونه بالنجس والاغراء.

اما الخلاف بين الفريقين فمحوره كما ذكرت الحديدية. ولكن مطالب الامام يحيى تجاوزتها الى حدود رُفضت في دار الاعتماد. ان موقفه تجاه النواحي التسع، اذا كان مجرداً عن الغرض السياسي الخاص، لموقف وطني شريف. ولكنني اظن ان السياسة تتغلب فيه على الوطنية العربية القومية. فقد قبل الامام ان تخرج جنوده وعماله من الضالع والشعيب والاجعود وبلاد القطني التي احتلها، على شرط ان تكون ادارتها وادارة اليافع والموالت ولحج وحضرموت بيد امرائها وليس لحكومة انكلترا ولا لحضرة الامام حق التدخل في شؤونها، وعلى شرط اخر، هو الاول طبعاً، وهو ان يحل الانكليز والادريسي الحديدية واللحية والصليف وان تسلم هذه الاسا كل البحرية وجميع ما كان بيد الترك في اثناء الحرب الى الامام تسليماً مطلقاً لا قيد ولا شروط فيه.

اما الانكليز فالقصد الاول والأهم في تقربهم من الامام وابتغائهم عقد معاهدة معه هو على ما ارى ان يبقوه بعيداً عنهم وعن عدن ويكون مع ذلك صديقاً لهم. ليست عدن كما هي ظاهراً مستودع فحم فقط، ولا هي اسكلة تجارية بين الشرق والغرب كما يودها بعض الانكليز المتهزين عن السياسة الاستعمارية، والكرنل جاكوب منهم. بل هي في نظر الحكومة البريطانية اولاً واخراً مدينة حصون بحرية ومركز حربي خطير. فاذا كانت كذلك فتأمينها اهم ما ترغب الحكومة فيه. واذا استطاعت ان تأمنها الى حد تستغني

(١) راجع الشرح في صفحة ١٩٤.

فيه عما تظن ان تقيم هناك من التحصينات الحديثة والجنود فلا تقصر في ذا السبيل سعياً .

عني عن البيان اذن ان الحكومة البريطانية ، وهذا قصدها الاكبر ، لا تتنازل عن معاهدات عقيدت بينها وبين امراء النواحي التسع المحمية . وانما تبغني توسيع نطاق الحماية ، وقد ترضى بالولاء فقط ، ليتناول كذلك قسماً من اليمن الاعلى . اما الجديدة فامرها من هذه الوجهة ثانوي^(١) . وكان افلح الانكليز لو اتخذوا مع الامام خطة فيها على الاقل عزم وصرامة . لكنهم يسلكون الى محبتهم السبيل الذي تقدم ذكره ، فياطلون ويسوفون ويحاولون اضعاف الامام وافساد امره بواسطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه ، وفيهم الحائن الطامع بالمال والمكابر الطامع بالسيادة .

ها قد بسطت مطالب الفريقين في اعلى درجة من درجات الوطنية والسياسة . اما ما قد يتناول كل فريق عنه الى درجة تقترن فيها المصلحة بالعدل والانصاف ، والوطنية - الانكليزية او اليبانية - بالمعقول ، فهو لا يزال تحت البحث ورهين المفاوضات .

(١) يثبت هذا القول ان الحكومة البريطانية لم تتعرض للامام عندما احتلت جنوده في نيسان ١٩٢٥ الحديثة والامساك الاخرى التي كان يطالب بها اي اللجينة والصليف

الفصل الثالث عشر

تتمة المفاوضات

الوفد الافرنسي - المناقشات السياسية - الامتيازات - المعاهدات - القربليس
والانكليز في افغانستان وفي اليمن - غريب على غريب - الامام يستفيد -
احتكار تجارة البن - ميناء المغا - السلام - الدخيل في عسير - الخطأ في سياسة
الامام - المثلث الزوايا في قضية الجديدة - الانكليز بين السيد والامام، الشوافع
حائرون - الامر ناضج للسامر - الموتر - برقية وكتاب الى صنعا - الجواب .

لو كان الافرنسيون الذين غشوا صنعا . يوم كنا فيها يعرفون بعض الشيء .
من اصول الاسلام وعادات المسلمين لما جاؤوا في شهر رمضان يبعثون من
الامام امتيازاً ، ولما جاؤوا في رمضان ومعهم من الحجر انواع يجتسونها في
الطريق وامام الحدم في عاصمة الزيد . فان تمسكهم ببعض عاداتهم التي كان
ينبغي ان يتنازلوا عنها اكراماً لاهل البلاد ، ولخير انفسهم لو عقلوا ، اثار
عليهم ولا شك تعصب الحدم الزيد فسقوهم ورا . الحرماء . الوضوء من بركة
الشاذران .

قد لا يهم الافرنسيين ذلك وهم كما ادعوا تجار ينشدون المصلحة . لكن
بعض العارفين قالوا انهم سياسيون جاؤوا بيارون الانكليز في خطب ود
الامام لذلك لم تأمر الحضرة الامامية باستقبالهم رسمياً ، وعندما وصلوا الى
بوابة صنعا . اوقفهم الحرس هناك ليعلموا الامام ، فاذن لهم بالدخول . ثم بعد
ثلاثة ايام حازوا شرف المشول بين يديه .

ولكنهم منحوا ما حرمناه وهو الاذن بزيارة « جرجي » مدير معمل
الحرطوش . كأن لكل ما يأذن او يأمر به الامام معنى خاص يخفى احياناً
على ضيوفه اصحاب الانعام ان في اجتماع الافرنسيين بجرجي برهاناً واحداً
على ان مهمتهم تتجاوز حدود التجارة . هوذا معمل الامام ، وهوذا احد

رجالكم ايها الافرنج في خدمته، فهو يستغني اليوم عنكم في الذخيرة وسيستغني عنكم غداً في السلاح . فاذا عاهدكم فكأقران يبادلون المنفعة .

اما الافرنسيون فيغارون كما هو معلوم من الانكليز . ويقتفون اثرهم حيثما ضربوا وحلوا . عقد الانكليز امس معاهدة مع امير افغانستان فتقاهم الافرنسيون واثبتوا امرهم سياسياً وفتياً هناك . احس الافرنسيون ان الانكليز يبنون عقد معاهدة مع امام صنعاء فسارعوا الى منافستهم في اليمن ، والامام مطلق الارادة بمنح امتيازاته من يشاء . ويعقد المعاهدات مع من يشاء .

على ان الافرنسيين سباقون في اليمن وفي تجارة البن . فقد تقدم ذكر البعثة التي جاءت عن طريق الحما في العقد الاول من القرن الثامن عشر وعقدت معاهدة تجارية مع الامام المهدي لدين الله تدل شروطها على حكمة تتسع عندها لمصلحة البلاد حدود للدين ، وتتفكك من اجلها قيود المذاهب . والامام يحيى اليوم يقتفي اثر اجداده الكرام ، ويستعين كذلك في سياسته بحكومة افرنجية على اخرى هي خطة في السياسة تجوز ، وقد تفيد اذا وقف صاحبها عند حد يوجب الايضاح والتفضيل .

اما اذا عاهد امير عربي دولتين من دول الافرنج واذن لها بشي . من النفوذ داخل بلاده فتكون الاثنتان بلية عليه وعلى بلاده . تقتتلان في سبيل المصلحة فتقتلاناها ، فضلاً عن الدسائس والتحزب . فاذا كان الامير محبوباً الى رعيته جماعاً ، لا يلبث ان يصير له فيها مناوئون واعداء . واذا كان له عدو واحد في رعيته لا يلبث ان يصير للعدو حزب سياسي . واذا كان في البلاد حزب واحد على الامير يصير فيها حزبان وثلاثة .

اننا نعلم حق العلم ان كل وكيل سياسي في بلاد سيادتها الوطنية ناقصة يتخذ له حزباً من اهل تلك البلاد الناقلين لاغراض خاصة على حكومتها ، فيستخدمه لمصلحة حكومته وبلاده .

اجل ، اذا كان تمت خيرا في مفاوضة اثنين باس واحد فان ذلك الحيز يزول اذا اشرك به الاثنان . وحضرة الامام يحيى يدرك ذلك ، فهو يستخدم الافرنسيين اليوم كما يستخدم الملك حسين الايطاليين لينال من الانكليز كل او جل ما يبغيه واول بغياته وامهما الان ميناء اليمن الاعلى على البحر الاحمر . جاءت البعثة الافرنسية تطلب امتيازاً باعادة بنا ميناء الحما المهذوم ، وميناء اخر في الحوخره ، وباحتمكار تجارة البن ولكن الامام ، اذا استعاد الحديدية ، فقلما يهتم للمنا والحوخره . ولا سر هناك في تفضيله . الا انه يريد ان يفهم الانكليز انه يستطيع ان يستغني عن الحديدية اذا اقتضى الامر وان يستغني عنهم كل الاستغناء في جميع الامور .

قد قال لنا الامام ان هؤلاء الافرنسيين نجار جاؤوا يبحثون عن احوال التجارة عندنا ويطلبون امتيازاً في المتاجرة عن طريق الحما . وقد علمنا انهم لم ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه وهو احتكار تجارة البن . فالامام لا يسلم بذلك ، ولكنه يماهدهم على بيع حصته او بالحري الاعشار من البن التي تبلغ عشرة الاف كيس في السنة ، ويشترى منهم ما يوافقهم من السلاح . السلاح الاثني . في البلاد العربية اكثر من السلاح ، ولا رغبة لامراء العرب اشد من رغبتهم في السلاح . فما الداعي الى هذا الطلب الدائم وخصوصاً في اليمن ؟ تذكر ايها القارى . جواب الامام عندما سألناه كم يحكم من بلاد اليمن واهله . فقال : اليسير . اليسير . وهو يطمع ببسط حكمه وسيادته على اليمن كله - اليمن القديم من حضرموت بل من عُمان حتى اخر بلاد عسير . وقد طالما سمعت في صنعاء ان الامام في احترابه والادريسي لا يريد ان يوقف عدوه عند حدوده المعلومة فقط بل يريد ان يخرج من بلاد اليمن وعسير كلها ، لانه كما يدعون دخيل فيها . كنت اسمع هذا الكلام ساكتاً لاني لم اكن اعلم يومئذ غير اليسير من امر السيد الادريسي وولاده .

والكفي بعد رحلتي في عسيرة، وزيارتي السيد في جيزان، ومحدثي الناس من سادة وعامة في تهامة، بان لي الخطأ في سياسة حضرة الامام، وتأكدت انه لا يستطيع بتلك السياسة ان يستولي على الحديدة. وأتى له ذلك والانكليز لا يزالون اصدقاء الادريسي وهم اصحاب السيادة في البحر الاحمر فهم اذا استحسنوا عقد معاهدة بين السيد في جيزان والملك حسين لا يستحسنون على ما اظن مثلها بين الملك حسين والامام. وقد يقبلون بعقد معاهدة او اتفاق بين الثلاثة اذا كان ذلك برأيهم وموازرتهم.

ان القضية في اجلي بيان تتحلل اذن الى ثلاثة اجزاء. الاول والاهم هو وجود الانكليز بين الامام والادريسي. هذه حقيقة لا يمكننا ان ننكرها او نغضي عنها او نفر منها. الثاني هو وجود الشوافع عوناً للانكليز اليوم كما كانوا بالامس عوناً للاتراك في سياستهم اليانية والثالث هو وجود الحديدة، وهي محور النزاع، بين الشوافع والزويد والانكليز. وقد امتست بفضل السياسة والغوضى اليقة الحراب والبلاء.

قد كان الادريسي يومئذ يميل الى السلم اذا حددت حدوده على حال مرضية. وكان الانكليز قد قطعوا عنه المشاهرات والسلاح وبدأوا يشعرون بتور منه بل بنفور فيه. فاستحسنوا سبيل المسالمة والمفاوضة رغبة في صداقته وصداقة الامام يحيى. اما الشوافع فكانوا قد قاسوا من الاحتراب الدائم عذاباً واهوالاً، فكرهوا لذلك الامامين، وغدوا في حال تجبب اليهم اصغر الشرين.

اذا كانت الحديدة باب النزاع اذن فهي كذلك باب السلم. وكان الامر كما بدا يومئذ لذي عينين ناضجاً للسلم، فلم يبق غير الوسيلة الى ذلك. ووسيلة السلم المؤتمر. فارسلت الى صنعاء برقية اعرض فيها فكرة مؤتمر يعقد في الحديدة او في عدن، يحضره وفود المتحاربين واصحاب المصالح

المشتركة في البلاد . فجاه في الجواب وليس فيه غير ما طالما سمعته هناك : -
لاحق للادريسي في جميع اليمن ، لاحق للانكليز لا قبل ولا بعد الدور
العثماني في الحديدية ، لا ثمرة في المؤتمر ، الدواء كله في عدن .

ولكن عدن تستحسن المؤتمر وكان قد ارسل المعتمد الخترال سكوت
لاسلكياً يهتني بروجوعي من صنعاء ويقول انه راغب في مفاوضاتي . ولكنني
لسوء الحظ تأخرت في الحديدية وفي جيزان وكان وصولي الى عدن يوم سافر
المعتمد الى لندن . فقابلت معاونه الاول والحاكم بالوكالة يومئذ المايجر بارت
وبعد ان تحدثنا ملياً في الموضوع ارسلت الى صنعاء بواسطة مندوب الامام في
عدن التلغراف الآتي :

اني متفائل مستبشر لاني وجدت ارتياحاً الى المسالمة ورغبة في تحقيق
مطالبكم بشروط لا بد منها . اي انهم يرغبون في ان يسلموا الحديدية
الى الامام ولكنهم متعاهدون مع الادريسي ولا يرون لانفسهم مخرجاً
في غير التسوية السلمية بين الطرفين اي بينكم وبينه . فهل تقبلون
بذلك ؟ هل يقبل حضرة الامام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من
قبله وممثلون من قبل الادريسي وممثل من دار الاعتماد اذا وعده المعتمد
رسمياً بتسليم الحديدية على شرط ان يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الادريسي ؟
قد قابلت السيد في جيزان فوجدته قريباً من المسالمة وميلاً الى
الاتحاد بشرط ان يُعترف به حاكماً في لواء عسير . واظن ان عقد الصلح
ممكن بينكم وبينه على شرط تسليمكم الحديدية وارضائه في الحدود
الشرقية او الشمالية . ولا يتم الصلح الا بحسن النية وبالاجتماع والمداولة .
عرفوني حالاً اذا كنتم تقبلون لاطلب لكم كلمة رسمية من الحكومة
الانكليزية بخصوص الحديدية .

عدن في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٩٢٢

بعد اسبوعين من هذا التاريخ وانا انتظر في عدن واقلم من حرها وسوء هوائها حباً بخدمة البلاد العربية خدمة صافية لوجه الله ، جاءني من صنعاء بالسلك الى القاضي عبدالله العرشي في تعز ، ومنه مع نجاب الى الحج ، ومنها مع رسول الى عدن ، الجواب التالي . وكان السلك كما اخبرني العرشي مقطوعاً من شدة الامطار « فتجير » اي تأخر وصول الجواب .

كانت المراجعة وصاحبنا . قد عرفتم حسن نيته ومحبه لكم . لكن الادريسي لاحق له في اليمن باي صورة من الصور المشروعة . وصاحبنا حقوقه واضحة معلومة عند الجميع . ونحن لا نجب الانجاح مسعك ونجب صون بقية بلادنا عن الذهاب . لا لزوم للمؤتمر معها كانت الحكومة الانكليزية تريد ذلك فانتم تقومون بكمال هذا الامر . وكل الصلح بيد الحكومة الانكليزية . وسنجد على صاحبنا بقبول ما اشترتم اليه من حاكمية الادريسي على عسير وتسليم الحديد وما كان بيد الاتراك عند تسليمهم الى الامام . وضجوا للمشير اليه الحقائق . واقبلوا فائق الاحترام .

ما الحيلة بهؤلاء العرب سادتنا أبناء عمنا ، اخواننا ؟ زيد لهم الخير الصافي الثابت الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخير الوقي . اني على يقين ان لو قبل حضرة الامام بعقد المؤتمر لكان السلم اليوم نجياً على البلدين والولا . والتجارة صلنا العمران بينهما . ولكن النجاح في هذا السبيل لا يكون الا بثلاثة : الصحة والثبات والنفقات . وكيف لا والمواصلات في البلاد العربية قليلة الاسباب كثيرة المشقات ، فلا يستطيع من يتجرع بخدمة امرائها واهلها ، اذا لم يكون غنياً ومتمتعاً بالصحة والواقية ، ان يقضي بضع سنين جائلاً فيها ، رسول التعارف والتفاهم والاتلاف .

قبل ان سافرت من عدن بعثت بكتاب اخر الى صنعاء لامكن هناك

الفكرة التي بدأت تجل في سياسة الامام محل الاستثثار ، انقل منه ما يلي :

الامر ميسر على شرط ان يتم السلم بينكم وبين الادريسي . ومن العيب ان تحاولوا اخراج الرجل من البلاد ان حجتكم في قضية الحديدية ظاهرة ثابتة ، ينصرف فيها كل من اطلع على الحقائق . ولكن حجتكم في اخراج الادريسي على وجه انه دخيل لا يوافقكم عليها الناس . واذا تمسكتم بها تضرون بمصلحتكم وتضعفون حجتكم في طلب الحديدية^(١) .

(١) قد تمكن الامام من اجتلال الحديدية كما تقدم في حاشية للفصل السابق . ولكنه لم يتمكن من اخراج الادريسي من عسير ولا اظنه يطمع الان بذلك وقد صبح صاحب عسير حليفاً لملك نجد والحجاز الملك عبدالعزيز ابن سعود وفي حمايته .

الفصل الرابع عشر

المعاهدة

الامارات العربية القديمة - توحيد الكلمة الدينية - توحيد السياسة - المداخلة
الاجنبية - ملك العرب وملك الحجاز - المعاهدات مع الحكومات الاجنبية -
الدقاء والهجوم - تهامه جز من اليمن - تجديد المعاملة بالنقود الفضية - مميل
للسلاح - مندوب للامار في مكة - مندوب الملك في صنعاء - صندوق توفير
من مال الزكاة - الانتقادات العمومية - خطاب الى جلالة الملك حسين بخصوص
المعاهدة - الختام .

لا بد من معاهدة تعقد في المستقبل بين اليمن وقطر آخر من البلاد العربية .
وبما ان المساعي التي تقدمت سعينا والتي ستبته هي ذات شأن في تاريخ القضية
العربية ارى من الواجب ان اشر صورة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع
حضرة الامام وها هي بكاملها وبالخرف الواحد :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان المقصد الوحيد من هذا الائتلاف والاتفاق هو الانتظام في سلك
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا و به يكون التعاون والتعاقد
على انفاذ احكام الله كما يجب في جميع البلاد لعمرائها واصلاح شؤونها
وكف ايدي المعارضين عن التدخل فيها والاخلال بمصالحها وبراحة اهلهما
وتأمين معاش سكانها وتقوية صناعتها وتجارتها . فلذلك عقدت هذه
المعاهدة بين حضرة الامام المتوكل على الله يحيى ابن المنصور بالله محمد بن
يحيى حميد الدين وبين جلالة الملك الشريف حسين بن علي بن عون على
ما تحويه المواد الاتية لتكون دستوراً للعمل بعد تقدم اصلاح النية
وجعل الاعمال مدارة على الشريعة الاحمدية في الاقدام والاجرام والنقص
والايرام .

أولاً - البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال امارتها القديمة وتحويل امرائها المشهورين المعلومين الذين يجرون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها منذ قرون . وانما المطلوب اجتماع الكلمة الدينية^(١) وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية خارجية من اية الجهات تحل باستقلال البلاد العربية ووحدتها^(٢) .

ثانياً - يعترف حضرة الامام جلالة الملك بالملك ويعترف جلالة الملك لحضرة الامام بالامامة^(٣) .

ثالثاً - يختص حضرة الامام بادارة اليمن وسياسته الداخلية والخارجية كما كان يبد اسلافه ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز

(١) « المطلوب اجتماع الكلمة القومية والدينية » هي الاصل الذي وضناه فايدله الامام بما تراه في البند وسلسنا بعد المناقشة « باجتماع الكلمة الدينية » وقبل حضرته بان يضاف اليها « وتوحيد السياسة » .

(٢) كان قد وقف الامام عند « المداخلة الاجنبية الخارجية » اطلاقاً . فاضفنا اليها الكلمات : « تحل باستقلال البلاد العربية ووحدتها » كي لا تنفي المادة المداخلات التجارية والاقتصادية والتهذيبية . ولا يخفى ما في مثل هذه المداخلة المجردة عن العوامل السياسية من الخير للبلاد العربية . ان حضرة الامام مثل سائر امراء العرب مقتنع بذلك . (٣) كانت هذه المادة في النسخة الاولى من المعاهدة ان حضرة الامام يعترف بالملك حسين ملك العرب . وقضينا اسبوعاً في المفاوضات بهذا الشأن . فجاء في السيد احمد

ذات ليلة بعد نصف الليل فابقظني من نومي وقال : بسم عليك حضرة الامام ويسالك خصوصاً ان تساعده في النظر بهذا البند . لا يمكننا ان نعترف بما هو غير الواقع وبما ان الامام ان يسر شعور جلالة الملك . فكيف العمل ؟ هل عندك حل لهذا المشكل ؟ يغبى حضرة الامام منك فعدلنا وبدلنا وناقشنا ساعتين وانا احاول الدفاع عن قضية ضعيف جانبا . وقد رايت فوق ذلك بعد السياحة في اليمن ان ملك الامام خمسة

وغيره داخلية وخارجية . فليس لاحدهما احداث مقاوله اجنبية في ما يتعلق بما تحت ادارة الثاني من البلاد ولا يغير شيئاً مجبولاً من طرف صاحب ادارتها ولا يتدخل في ادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة الا ان يكون بعد المشاورة بينهما^(١) والاتفاق لمصلحة تطابق مراد الله سبحانه . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاوله اجنبية في ما يتعلق بمملكة الآخر منفرداً فلا يعتبر . افعله ولا يكون معتمداً . وليس لاحدهما نقض مقاوله سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخاصة عاقدها وبملكته ولا تعتبر نافذة في ما يتعلق بمملكة الثاني اذا اشتملت على شيء . من خصوصياتها ولا يعد هذا الاتفاق ناقضاً لما تقدمه من المعاهدات بين حضرة الامام والحكومة العثمانية او بين الملك واحدى الحكومات .

رابعاً - بعد امضاء هذه المعاهدة يكون كل من حضرة الامام وجلالة الملك ومن تجري ايامهم او امرهما الشريفه من الامراء والتبعية عوناً للآخر ونصيراً له في دفع كل عدو صائل من الخارج او معارض من الداخل . وهذا التعاون والتناصر يكون موقوفاً على الطالب من اي الجانبين عند

اضفاف ملك الحجاز مساحة وعدداً وقوة فقبل السيد احمد اخيراً بما اقترحه حلاً لهذا المشكل وهو النص الحالي . وقد اضقت في المادة الثالثة بعد « ويتخص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز » كلمة « وغيره »

قد يكون قبل الامام في المفاوضات السابقة ان يمتدح بالملك حسين ملك العرب ولكن سياسة الملك بعد الحرب وخسارة الحجاز في وقعة تربه حملنا الامام على تغيير رأيه في الموضوع .

(١) كان الامام مصرأ على رفضه عقد المعاهدات مع الحكومات الاجنبية وخصوصاً في ما يتعلق بالامور الخارجية . فقبل بالجملة الشرطية « الا ان يكون بعد المشاورة بينها » وبكلمة « منفرداً » في الجملة التالية : اذا فعل احدهما شيئاً من ذلك . . . منفرداً »

الاحتياج واللزوم وفي دائرة النصوص الشرعية

خامساً - عند ظهور عدو مشاق للطرفين اذا لزم لاحدهما امداد من الثاني فعلى من تطلب منه الاعانة اغانة الطالب بمقدار ما يدخل تحت امكانه من مال او رجال او سلاح او معدات حربية . وعلى الطالب للامداد بالرجال لوازم المطاوبين مع التأمينات اللازمة .

سادساً - بان المقدم قبل كل شي . تأييد طرق المواصلات والمراسلة بين الحجاز واليمن من الطريق الاسهل والاقترب لامكان المفاوضات والمواصلات بسرعة في كل ما يلزم ، ومن المعلوم وجود الحائل في تهامة التي هي جزء من اجزاء اليمن ، فاللازم تقديم التعاون الحائل المانع من الحديدية ونحوها باي وجه كان اما بسياسة يتفق عليها او بقوة يكون سوقها من الجانبين بعد تقديم المذاكرات اللازمة في كلا الامرين وصفا للمعاملات والحركات من الجانبين^(١)

سابعاً - السكة الفضية الحالية من الغش وانواع الربنى التي تضرب في الحجاز باسم صاحبها معينة قيمة تداولها تكون مقبولة ومعتبرة في التداول في المملكتين بقيمتها المعينة بعد الاعلان كتابية من الجانب الذي يكون ضربها باسمه بكيفية التداول وكية القيمة والصفة المميزة للسكة .

(١) سلنا بهذه المادة ونحن عالمون بان المراد بما السيد الادريسي ولكننا لم نوافق عليها الا بعد ان اضفنا اليها الجملة الاحشائية وهي « اما بسياسة يتفق عليها » بعد الكلمات « باي وجه كان » وقد كنا نأمل ان يعقد بعدئذ معاهدة بين الادريسي والملك حسين . فيكون جلالة اذ ذاك صلة الوصل او الواسطة السلمية بين السيد والامام حليفه فيسكن « بسياسة يتفق عليها » من اصلاح ذات البين في تحديد حدود ترضي الفريقين . انظر المعاهدة التي عقدت مع السيد الادريسي وكتابي الى جلالة الملك حسين بخصوصها في الفصل الحادي عشر والفصل الرابع عشر من القسم الثالث في هذا الجزء .

ثامناً - يتعين مندوب من لدن جلالة الملك في صنعاء ومندوب من لدن حضرة
الامام في مكة المكرمة لمداولة الافكار والتوسط في تعاطي المفاوضات
والمذاكرات .

تاسعاً - معلوم احتياج المملكين لانواع الاسلحة والمعدات الحربية وسائر
انواع الترقيات الفنية واحتياجها الى ايجاد معمل وآلات لعمل الاسلحة
وغيرها تقوم بالمقاصد . وبعد امضاء هذه المعاهدة من الجانبين تكون
المراجعة وتقرير ما يلزم من الاسباب والوسائل والمقدمات والاستعدادات
لايجاد المحتاج اليه من المعامل ومحل لتأسيسها واستعمالها مناسب جامع
لمقاصد الطرفين وكيفية الاعمال وكل ما يلزم لذلك من المصاريف
والمأمورين والمحافظين والعنلة وغير ذلك .

عاشرأ - يكون تعيين مبالغ من الاموال معلومة مخصوصة لكل سنة بمقدار
يكون الاتفلق عليه تصرف في ما ذكر في المادة التاسعة من الاعمال
الضرورية او ما يتفق عليه من الانشاءات والاستعدادات العمومية المهمة .
وهذه المبالغ تحفظ من كل جانب ما يتعين عليه في خزينته الى وقت
اللزوم وتعددت تأمينات يتفق عليها بين الطرفين ويتماطأها الطرفان لتأمين
تأدية كل ما يلزم منها في وقته وزمانه بحيث لا يتضرر احد الجانبين
ولا يكون من احد تأخر بحصول المقاصد^(١) .

احدى عشر - هذه المواد الاساسية يستمر حكمها الى عشرين سنة واذا
كان الاتفاق في خلال المدة على تعديل شيء منها او تبديله او طيه

(١) ان المقصود من هذه المادة انشاء صندوق توفير من مال الزكاة في كل امانة
وعملكة عربية لبذله في المشاريع العمومية المشتركة مصالحها بين الجميع لدى السكك
الحديدية والاسلاك البرقية وتبديد الطرقات وغيرها وهي احدى الفكر التي كنت
ابنهما وابشر بها هناك والتي صادفت استحسان جميع ملوك وامراء العرب . وعقدوا
النية على العمل بها اما تضامنا واما افراداً .

بحسب ما تقتضيه المصالح وتداول الافكار فكل ما يستجبه بعد تقريره
فحكاه حكم هذه المعاهدة. وبعد تام العشرين سنة يكون تجديدها
كأهي او تبديل ما يتفق على تبديله ان شا. الله تعالى .

حرر في صنعاء في ١٨ شهر رمضان سنة ١٣٤٠

. وقد ارسلت المعاهدة مع صديقي قسطنطين بني مصحوبة بكتاب الى
الملك من حضرة الامام وكتاب مني انقل منه ما يلي :

قد تفاوضنا في الامر الذي جعلت احدى غايات رحلتي في البلاد
العربية الاهتمام به والسعي في بسطه لدى امراء العرب وتقريبه من العقول
في شكل عملي معقول. فلقينا في الامام يحيى اعزاه الله اذناً صاغية ، وهمة
للعمل داعية . وهو في موقف الولا. ولا شك ثابت القدم مخلص القصد
والنية. الا انه لا يجب ان يكبر في البد. خطواته ، ولا ان يوسع كثيراً
صراطه. وان التمتع باليسر الان ، خير من الامل بالكثير . قد كانت
لنا جلسات طويلة ومباحثات ومناقشات ، يسمعكم الصديق قسطنطين
خبرها ، ويعلمكم بما بذلته في سبيل المعاهدة المرغوب فيها وفي توسيع
بنودها بقدر الامكان لتعم ما نشده من الوحدة العربية . وقد فزنا
بجل المرغوب وسلمنا ببعض الجزئيات التي لا تقدر روح القضية او تمس
بجوهرها .

ومن الحقائق التاريخية يا مولاي ان النهضة الحطيرة في الامم لا
تنشأ نشأة واحدة تامة كاملة . فلا بد لها من خطوات الى ذاك الكمال
وتطورات في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال . اما المعاهدة في
صورتها الحالية فهي خطوة اولى مهمة الى الامام . فسي ان تستحسنوا
عملنا وتروا ، وانتم مصدر الحكمة ، صواب رأينا . وفي المستقبل القريب ،
بعد ان يتم توقيع المعاهدة ، تتوقفون ولا شك الى اضافة بنود بخصوص

توحيد الامور الاجنبية ، والنقود ، والتمثيل الواحد في الخارج وغيرها .
 اذ حين تتم وسائل المواصلات بين جلاّتكم وحضرة الامام فيكون له
 مندوب عندكم ولكم مندوب في صنعاء تتبادلون مباشرة الاراء .
 وتتوقعون ان شاء الله الى ما فيه تمام تعزيز المصلحة العربية والاسم العربي
 داخل البلاد وخارجها .

انتهى القسم الثاني



حضرة السيد محمد بن علي الادريسي

الضم الثالث

السيد الادريسي

(١١) بلاد السيد

سنة ١٩٢٢ م . ١٣٤٠ هـ .

او ما يحكمه الادريسي من عسير

مرورها : غرباً البحر الاحمر . شمالاً ابو مَتنه على البحر . جنوباً الحديدية . شرقاً جبال اليمن (وقد كانت الحدود الشرقية في رمضان ١٣٤٠ كما يلي : آخر جبل ريمه جنوباً للامام يحيى ، وجبل براع المجاور لريمه للسيد الادريسي . وآخر جبل صعقان شمالاً للامام ، واول جبال بني سعد المجاورة لصعقان للسيد) .

سكانها : نحو مليون نفس .

مساحتها : تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلاً شمالاً بجنوب . ومعدل عرضها غرباً بشرق سبعون ميلاً . السهل الذي يتصل بالعقبة وراء ميدي وجيزان عرضه اربعون ميلاً .

اهم قبائلها : رجال المع والمسارحة وبنو مروان والتحرا . وبنو هلال وبنو عيس .

اهم بلدانها : صيبا وجيزان وميدي واللحيفة والحديدة وابو عريش وابلج .

مذاهبها : السنيون : شوافع ، والشيعية : جعفريون واسماعيليون ، والفرس واليهود والهندوس .

(١١) بعد وفاة كبير الادارة الامير محمد في نيسان ١٩٢٣ اضطربت شؤون عسير الداخلية والخارجية ، فضمت شوكتها ، وتقلصت حدودها ، التي تكاد تنحصر اليوم في جوار جيزان وصيبا الى الجنوب والى الشمال ، وفي سفح الجبال الى الشرق .

الفصل الاول

سطح اليمن

الموظف الانكليزي في بلاده وخارجها - بلاد العدو - الاخطار - ثلاث لثاق -
الرحيل - السيد علي يومدب احد المكارين - جبل حصر - طريق الغريبات -
وداء صنعا - النبي شعيب - شبام - متنه - عسكر الدولة - « لوبه ساعات
الى صنعا » بلاد شاهر جوق وشا : « - حمدان النعمان - ثلاثة فصول في وقت
واحد - سطح اليمن - بوعان ولبنان - الحميمه - حصونها الشاهقة وبساتينها
- سوق الخميس - مجلس القات - الصير والسعدين - منحى قبر اليمن -
السامريه - القليل - القتيه الذي قتل تلميذته - حديث الجمال - رحمة الله الدولة .

الكريم من لا يعطك اذا عجز عن الاكرام والمساعدة . واذا اكرمك
فلا يتن عليك . والكريم اذا كان متوظفاً لا يقول : لا ، بعد ان يقول :
نعم ، ولا يقول : نعم ، بعد ان يقول : لا . اما اذا قال : نعم ، فيشفع
الاجازة مثلاً بالصنيعه والصنيعه بالبشاشه . ان الانكليزي في بلاده وفي حكومة
بلاد هذا الرجل . ولكنه خارج انكلترا ، ولاسيا في الشرق ، مثل الواحة
في الصحراء . لذلك هو اكبر قدراً ، وان لم يكن ارفع مقاماً ، من زميله
في انكلترا .

قد كان حظي في رحلتي اني مررت ببعض الواحات ، منها واحه في دار
الاعتماد بعدن استأنست بظلمها وانتعشت . اقول « بعدن » على الرغم مما اقيت
فيها من العقبات . فقد كانت خطتي في السفر ان ازور الامام يحيى في صنعا .
ثم اسافر منها الى الحديدية لازور السيد الادريسي في عسير . ولكن الامام
والسيد اعداء والبلادين في احتواب . اما الانكليز ، فاذا كان لاحق لهم
في اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان يمنعونني من الدخول الى بلاد صاحبها
حليفهم ومدينتها الكبرى الحديدية هي فعلاً في يدهم . سألت المعاون الفاضل

في دار الاعتماد، بعد ان صدرت الاجازة بالسفر الى صنعاء، ان يعطيني كتابه تعريف الى وكيلهم السياسي في الحديدة، فاجاب: هو اليوم في عدن وسأقول له ان يزورك. وكان كذلك. فاجتهدت بواسطة المعاون بفاضل من افاضل الهند، روحه شرقية، وعقله شرقي غربي. هو الدكتور محمد فضل الدين الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانيا العظمى.

و كنت، وانا في طريقي الى صنعاء، اشكر الاثنين دائماً لاني كرهت ان اعود من حيث اتيت لا لما قاسينا من المشقات فقط بل لرغبتنا في ان نحيط علماً بالبلاد واهلها ولكني وانا في صنعاء ظننت مرة ان الامام لا يأذن بالسفر الى بلاد العدو، فتحدثت امامي تلك الطريق الى عدن، وآفاق الحياة فيها مرعبة كلها. ثم جاءتنا احد السادة يزيدنا كرباً وغماً في ما صورته من الاخطار في منطقة الحدود بين الحبيجة و باجل - اذا سلمت فيها فلا تسامون من الاسر. الادريسي لا يركن الى احد قادم من عند الامام.

ولكن حضرة الامام عندما فاضناه في الامر حقق لنا املاً في ارساله كتاباً مني الى الدكتور فضل الدين بواسطة عامل جراز في مناخة وامير الجيوش الادريسية في باجل. وقال تهديئة لبالنا: اذا جاء الجواب بالايجاب فلا بأس بسفركم.

ان المسافر في البلاد العربية ليتعلم قبل كل شي. الصبر والتحمل. صبرنا عشرة ايام وقطعنا الامل، فتجنبتنا على القضاء، في تكرار مشقات عرفناها فازدادت في التصور شدة وبلاء. ولكننا وجدنا شيئاً من التفرقة في الآية: وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. فلا تتخلو الطريق بين بلدين متجارين من الاخطار. وبيننا انا افكر ذات يوم في ما اقول لمولاي الامير في ماويه وقد سألتني: أحسني انت ام حسيني، وعرف بعدئذ اني مسيحي، وكيف اجيب في يريم ذلك الشيخ الفقيه الذي جمع اولاد مدرسته صفاً وانشد وياهم:

نصر الله المسلمين ، ورسول الخير امين ، بينا انا في هذه الورطة دخل الحاجب
ويده ثلاث لغائف قدمها لي قائلاً : من الامام . ففضت الاولى فاذا هي :

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبدالله بن الحسن العمري حفظه الله وتولاه
وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وصلى الله وسلم على محمد
وآل هدايته والله يحفظ ولي النعمة ويدم بقاء امين .

وصلت الى هذا الحد وكدت من الغيظ اشتعل فصحت بالحاجب : يا رجل
هذه الرسائل ليست لي . فاجاب وهو يحلف براس الامام ان قد جاء بها رسول
من الديوان يقول : هي لامين ريحاني فاستأنفت القراءة حيث وقفت مفضباً :

صدر السلام وصد جواب البوسطة المرسولة الينا . العنوان هنا
والمكتوب الريحاني كما تطلعون والله يحفظكم عامل حراز

علي الاكوع

في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠

ثم في حاشية : والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم ونعوذ بالله من النار .

الغافة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاجل المحترم الشهم امين الريحاني سلمه الله

بعد السلام والاكرام . ورد كتابكم مع كتاب الى حضرة الحكيم
محمد فضل الدين وبوقته ارسلناه تلعرافياً اليه وورد جوابه وها هو مقدم اليكم .
اذا اشعرتونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيلة ليرافقكم
الى باجل .

قائد الجيوش الادريسية

محمد طاهر

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

رضوان

المقابلة الثالثة

حديقة ٨٣٣ ٧ - ٨ سنة ٤٠

الى صديقنا امين الريحاني

حياتكم الله وعافاكم . سرنا عزمكم لطرفنا . اهلاً وسهلاً بكم . حين
وصول تلغرافكم اشعرنا حضرة القائد الشيخ الهمام محمد طاهر رضوان قائد
الجيش الادريسيه بياجل ما يلزم . وقريباً نراكم ان شاء الله باحسن حال .
في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

محمد فضل الدين

والحمد لله ! قد اطمان بالنا وحسن حالنا . لا تظن ايها القاري . ان اهتمامنا
بمثل هذا الامر واشراكك بل اشغالك به هو ضرب من السخافة . فانك اذا
رافقتنا في السفر وادركت بعض مقاصدنا واحسست ببعض ما كنا نقاسيه في
سبيلها تتأكد ان صغار الامور تحول احياناً دون كبارها . فالحمد لله اذن على
ساعة في ١٠ رمضان سعيدة ، بددت غيات ماوية وريم من ممائنا ، وفتحت
لنا طريق الجديدة ، فصفا الذهن للمفاوضات السياسية ، التي استمرت بعد ذلك
عشرة ايام . ثم استأذنا حضرة الامام بالرحيل فكان في توديمه لطيفاً كريماً :
- ما تكنا ونحن في رمضان ان نقوم بالواجب ونود ان تبقوا عندنا الى شهر
العنب^(١) قد تعود الينا يا قسطنطين ، اما الاستاذ امين فسيصبح في البلاد
العربية ويرى غيرنا . فلا تظلمنا يا امين بالمقابلة بيننا وبينهم .

ثم امر لنا بالركاب وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زباره غيوراً على
راحتنا ، فلم يدع شيئاً من مريجات السفر وحاجاته الا وفره لنا . مثال واحد

(١) عنب صنمء مشهور بجودته وانواعه وهو يتوي هناك في اخر حزيران

من غيوته وعزمه . عندما جاءت للطايا صباح يوم الوحيل رأى ان سرج احداها بلا ركاب . فسأل صاحبها عنه فاعتذر وتبرم ، فضرب السيد علي يده على وسط الوجبل واخذ الجنبية^(١) منه قائلاً : رح هات الركاب . فراح المكاربي الى المدينة راكضاً وعاد ملياً . ولم يرجع السيد علي الجنبية اليه الا بعد ان تشفعنا به . - اذا كان هذا اماله وهو لا يزال تحت عيني فكيف يكون في الطريق ورأس الامام !

واشفع القسم بخطبة وجهها اليه والى رفاقه كلها وعيد تهديد . شيعنا السيد علي والسيد احمد الكبسي من قبل الامام الى خارج السور فودعناهما هناك شاكرين متأسفين ، اذ كنا نجتمع بهذين الفاضلين اكثر من سواهما وكان السيد احمد خصوصاً اقرب الجلساء الينا واكبر المؤسفين .

سرنا من صنعاء غرباً نبعي البحر . وما كنا لتصور ما دونه من الجبال وما دون جبل واخر من هول المسافات حتى وصلنا ذلك اليوم الى رأس يوعان . ولكننا ايها القاري العزيز لم نصل وياك اليه . اننا لا تزال بين صنعاء وجبل عسر في سهل وسيع فيه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمراء البور « كباقي الوشم في ظاهر اليد » اذا آثرنا استعارة من شعراء الجاهلية . او كالبساتين في وجوه البدويات اذا شئنا التشبيب . او كبعض الأوراق الخضراء - وهذا اقرب الى ما كنا نشعر به ونحن نجتاز تلك الارض المهملة - في شجرة عراها الحريف . ولكن للشجرة ربيعاً يعود اليها . وهذه البلاد في مكان من الارض شاءت الطبيعة ان يكون ربيعها دائماً ، وما شاء الانسان غير الكسل والجهل والحول .

(١) للجنبية اي الخنجر مندم قيمتان ، قبعة حقيقية في ما تصاح له ، وقبعة عرضية اجتنبية اي في ما توجه المرؤة واللياقة . فهي اذا اعز ما يحملها الياتي ، وفي انتراءها حنة اشد ناديب له واكبر اعانة .

- ان الهواء والدماء والماء تبسم كلها لارض اليمن . ولكن الياني لا يستخدمها الا في ما يحتاج مباشرة اليه . فما لا ريب فيه ان في السهول حول صنعاء ماء حيثما يبحث ، لان في قديم الزمان ، كما يقول بعض العلماء . كان يجري نهر هناك . ولا تزال المياه تتدفق من جبل أقم في قني المدينة . ولكن الصنعائي يعني طيلة نهاره لجل الساقية . او يقضي نصف نهاره في « تخزين » القات ولا يسعى في احياء ارض فيها قيد عشرة اذرع واقل الماء والثراء اجل ، ان هناك بين لقم وعصر وما يدعى في الشمال الارحاب من المياه ما يكفي لاشغال مئات من السواني والجمال . فلو استخدمت لكانت تلك السهول بساطاً واحداً اخضر ناضراً . شي . مخزن .

وهذه هي . طريق العربات التي بناها الترك انه ليحزنك كذلك مرآها وذكرها . بدأنا نصدق فيها الى جبل عصر فحدثنا خرابها بفشل الدولة وشكا اليها اهمال الامام . هي طريق الحديد الى عاصمة الاذواء ، الى قلاع الزيد ، بُنيت لرسل الخراب لا لرسل العمران . بُنيت لجر المدافع ونقل الجيوش ، لا لانجارة والمواصلات المشورة خيراً . تلفتتنا من آخر منعطف فيها فاذا بصنعاء . وقد احتجبت بحجاب ذهبي شفاف نسجت له الشمس الشارقة فوق لقم العاري العقيم .

وما اجل ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب . مدينة عجيبة كان لها من اسباب المجد والشهرة والعمران ما لا أكبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تاريخ غابر مجيد ، لها مدنية قامت بين شمس المحوس وكواكب الاوثان ، وتعددت فيها الاسرار والكهان ، وعزت عندها آمال الانسان ، فكانت ملكة سباء ، وكان حير ، وكان قحطان . ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان . وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ، ونوابغ في فن البناء . ناهيك بما خصتها الطبيعة بما لا يزول ابداً ولا يحول . فهي على علوها لا تعرف الثلج ، وهي على دنوها

من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزوات واهنات . وفيها من الماء القراح وغزارته ما تقدم ذكره تكررأ . فلو عمرت اليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال . واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء . من كل النواحي حولها ، ومن البلدان العربية والافريقية الشرقية كلها ، ولقدت في اقل من عشرين سنة بباريس البحر الاحمر .

اي صنعاء ، عاصمة الزبوت والحمود ، اننا نغار عليك من الاثنين ، ونود ان يعاد اليك مجد الاجداد مشغوعاً بشي . من العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان فتربيه في جسسه وعقله وروحه ، وفي بيته ومدينته وبلاده وما سواها من العلوم لا ينبغي لك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اي صنعاء ، عاصمة الاذواء ، اننا في حبنا ابنائك وهم مثلنا من الناس ونحن وياهم من سليله واحدة ، نفاذي حتى بشي . من الوطنية من اجلهم ، فتصح اجسامهم اذا اتقوا الامراض ، وتنجلي عقولهم اذا فتحو المدارس ، وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الاولى وسره الاعلى . اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة وبعض ذلك السر فهم يشاركونك في صلاتك ، في فاتحة كتابك وختمته ، ويودون ان تشاركهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ، ونستودعك الله . . . قد اكلنا من ثمارك ، وشربنا من مائك ، وغنا تحت سماءك ، وانتعشنا بعليل هوائك ، وكنا قبل ذلك نجيبك ، فكيف بنا بعد ذلك ؟ فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ، من يجيبك حبنا ويغار عليك غيرتنا ، ورأى فيك بعض ما تاققت اليه النفس منا وما اشتهاه العقل والفؤاد - بعض العلم ، بعض الفنون ، بعض الطرب ، بعض العمران - سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء ، في اللامهية ، وستغبطه منا التراب والعظام .

وهذه اقحوانة في الطريق واقاحر في الحقل بيضاء صفراء تبشر بالربيع . واكنه ربيع آبد نخيل يكاد يطأ الثرى فتظهر منقطعة آثاره الناعمة . ومثله

لا يجيا في مثل هذا العلو بارض الشمال . انما نحن على الف قدم فوق صنعاء .
وتسعة آلاف فوق البحر . وقد احتجبت عنا المدينة المحبوبة احتجاباً - ابدياً ؟
الله اعلم .

وتلفتت عيني ومد خفيت عني الطلول تلفت القلب

وهذا النبي شبيب قريب بعيد . هنالك على الافق امامنا يلوح كالطيف
اسحبه رائعاً هو اعلى الجبال في شمال اليمن بعد شبام ، فبرافقتنا اليوم وغداً
ولا يحتجب ما دمنا منجدين .

سرنا اربع ساعات فوصلنا الى مَته ، وهي للقادم من مناخه او من الحديدية
آخر مرحلة الى صنعاء . مَته ! كانت في ايام الترك مربعاً لعرائس الجبور
ولرسل السلامة والسرور . فكم من ابنا الدولة المجاهدين - المسوقين الى
الجهاد في اليمن - كانوا يخرجون من تهامة فيسوتون في قيظ السبخا ، وفي
الشعاب ، وفي « النقيط » وفي مضائق الجبال ، وفي مكامن الاودية ، فيهتف
من يصلون منهم الى هذا المكان سالمين : اربع ساعات الى صنعاء ، بادشاهم
جوق باشا او كانوا يقضون يوماً او يومين هاهنا ينتظرون المتخلفين من اخوانهم
فيعيدون ، ويهللون ، ويبذلون من « الظلط » ما لا يزال صاحب « السمسرة »
يتلمظ بذكره . فيهز رأسه اليوم أسفاً محزوناً ويريك البيت الذي كان قصرأ
في تلك الايام وكم من يهوديات صنعاء خُفّن فيه من كرب المجاهدين ونغمهم !

الطلول الدوارس هجرتها الاوانس

وقفنا في مَته اكراماً لعساكرنا وقد اشتهوا القهوة ، قهوة القشر .
وكاهم مسرورون لانهم مسافرون في رمضان - ومن كان مريضاً او على
سفر فيدة من ايام آخر - كاهم الا واحداً ، هو رئيس القافلة ، الى التمتع
بتحليل النبي ، وكان الجانح النعسان على الدوام . فما نادينا مرة الا وكان

ينمس فوق حمارة وهو يثني الموبنا مشية البقر ولا يلذ له الا مؤخر القافلة .
اسمه - الدليل لا الحمار - حمدان ، فسيناه نعلان فزاد ذلك في الطين بلة .
وكان الاهانة خلقت به وبجواره فصار لا يُرى لا في مقدم القافلة ولا في
مؤخرها . - يا حمدان النعلان انت الدليل ، وما نحن بفقهاء لتدلنا الى الثوراء .
رح يا حسن فتنش عن النعلان . فيعثر الجندي به وهو يتسكع في منعطف
الطريق فينتهره ويسوق بالبندق حمارة . فيجيبنا التقى التقى ، الصائم التائم ،
وهو يتسم : بسم الله الرحمن الرحيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعليك السلام يا حمدان ، وصلنا الى بوعان . وهي بضعة اكواخ عند
جسر لطريق العربات جميل الهندسة ، متين البناء ، حجارته سوداء وحمرها
وبيضاء . احسن ما في هذه الطريق جسورها . في بوعان اسطبل يدعى
مقهاية^(١) دخل « القراش » اي الدواب والساكر اليه ورحنا انا وقسطنطين
نبنغي ظلًا تحت الجسر فبسطنا غذاءنا الى جنب الماء هناك . وبعد ان اكلنا
واسترحنا قليلاً استأنفنا السير ، فودعنا طريق العربات التي تمر في سفح جبل
بوعان وتلف في الاودية لتصل الى مفتح ومنها الى مناخه . صعدا في الجبل
في طريق وعرة زلاء ، وقلعة بوعان الى شمالنا تنطح السحاب ، حتى وصلنا الى
اعاليه ، فصفرت فيه الرياح واعلمتنا بظهور من مظاهر الطقس مدهش غريب .
انما الشمس شمس الصيف ، شمس اليمن المحرقة ، وانما الزهور زهور الربيع ،
اما الهواء فلا ربيع فيه ولا شيء من الصيف . كنت اذا اغمضت عيني اظن
نفسي في اعالي لبنان في الشتاء . هذه ثلاثة فصول في وقت واحد .

ان رأس بوعان لسطح اليمن . وعلى السطح صخور هي في شكلها
ووضعها شبيهة بهيكل عظيم له بابان ، الشرقي اي باب صنعاء والغربي اي باب
(١) في الطريق من عدن الى صنعاء يدعى الخان سسرة ، وفي الطريق من صنعاء
الى الحديدية يسونه مقهاية او قهوة

مناخة . دخلنا الهيكل من باب صنعا ، فررنا برواقه بين انصاب جليلة ،
وعمد رائعة ، وصخور هي كالهياكل الصغيرة في الهيكل الاكبر . وما هي
الا بضع دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي ، باب المخاوف والاهوال . ان
المسافر ليجد نفسه في غير ما افه من الارض فيحس هنيهة ان دورة الدم فيه
قد وقفت تماماً ، فيشهو ولا يتنفس ، ويهتف ولا يتكلم . هناك مشهد من
الجيال والاودية رائع ، مدهش مخوف ، يهدس ربه في اذن الانسان : لا تكن
مكابراً ، ولا تكن فضوراً .

لا اظن ان في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي يتوسط بل يترام امامك
في اليمن عندما تقف على ذروة بوغان فتشرف منها على بحر تجمد تحتك ،
رؤوس امواجه قن الجبال ، وسطحه الاودية المتشعبة المتلفة بعضها على بعض .
وهناك دون القن الشاهقة ، والصخور الشاخة المسنمة ، والهضاب الهرمية ،
والاودية المدلحة ، والمنحدرات الهائلة ، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي
الجيال يلوح في الغرب حراز وفي الشمال سربح وكوكبان ، هنالك الغيمة
التي هي مناخة وشكلها كسرج الفرس ، دلني عليها حزام ، فا صدقت ان
سنكون فيها مساء الغد . وما هول المسافات والشواهي بشي . عند هول
الرهاد والاعماق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق بوغان وشبام
علواً ، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المترامية الاطراف . مناخة اسنكون
غداً هناك . انك اذا وقفت في بوغان لا تصدق ان بشراً يستطيع ان يقطع
تلك المسافات في اقل من اسبوع .

وان الطير نفسه ليعثر بسنام الصخور والقن ، فلا نظن ان ما خلقه
الانسان على شكل الطير يستطيع ان يجتاز هذا الفضاء القاعة فيه الجبال
كالحيايرة ، الكاونة رؤوسها كون العدو في السحاب . اما اذا حلقت الطيارة
فوقها فهي ولا شك تضل السبيل في ما يشبه تحتها امواج البحار .

من سطح الين في بوعان شرعنا ننزل الى قبوه في مفتح وبين الاثنين درجات لا تمد ، ووهاد لا قمر لها ولا حد ، ومنحدرات لا وطيد فيها غير صخور تظلل الجادات ، وتُسد فيها المنعطفات ، فيزل عندها حتى الانسان ، فكيف بالحيوان . مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة ، والرجل تبغي السلامة ، فكنا نضطر ان نقف لنحقق البهيتين . وكلما وقفنا لاح لنا في المشهد شي . جديد جليل ، في شعب هناك او في تقيل . ان جبال الين كجبال سويسرة في وهادها واكبر منها في اتساعها ولكنها غير مأهولة ، وتقل فيها الاشجار والمياه .

في الطريق من صنعا الى مناخه لم نر بمدينة واحدة . واكبر قرية شاهدنا هي الحيمه . قرية عجيبة في وضعها ومركزها ، تراها الى الين في الطريق من بوعان الى سوق الخميس ، وبيننا اودية متشعبة عميقة ، وعلى كتف احداها ارض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتنا بلبنان . وما اكثر ما يذكرك في الين بلبنان . ارض الحيمه كلها مزروعة وفيها العودان ، البن والقات . وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة اقسام ، عدة احياء . كل حي قرية بذاته ، بيوته عالية ومتصلة مازوذة كبيوت المدن بعضها ببعض . وبين كل حي وحي مسافة يتخللها شعب او تقيل . اما السبب في هذا التقسيم والتباعد في قرية واحدة فهو يتصل كما أخبرت بثارات توارثها الاهالي وهم من عشائر مختلفة ، فاتخذ كل قوم حياً منفرداً بعيداً عن الآخر ، وشادوا فيه بيوتهم بل حصونهم ليكونوا في امان من رصاص البنادق اذا شبت الحرب بينهم . انك لتراهم مع ذلك يحرثون الارض ويستثمرونها . اجل ، ليس في الطريق من صنعا الى مناخه اخصب واجمل من بساتين الحيمه الغضة ودكاتها المستديرة الخضراء .

وصلنا عند الغروب الى سوق الخميس وهي قرية صغيرة قائمة في وسط المنحدر بين بوعان ومفتح ، تحتها الوهاد وفوقها الجبال ، وفيها مركز للسلك

الذي يصل متاخة بصنفا . . استقبلتنا العامل ورجاله فانزلونا في دار الحكومة ، واستأذنونا بعد العشاء بان يعقدوا عندنا جلسة القات ، فقبلناهم مكروهين ضيوفاً ، لاننا في مرحلة استمرت احدى عشرة ساعة وفي اوعر طوق اليمن التي اجتازناها كنا قد اشرفنا من شدة التعب على الهلاك . جاؤوا برزم القات وبلمداعات ، فاقفلوا النوافذ ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات ، وطفقوا يدخنون « ويجزنون » دون انقطاع حتى امست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخفق الفيالج . خرجت الى الغلاة لانهجو من الاختناق ولما عدت القيت القسطنطين ، زاده الله قوة وعافية ، يفكه الجلوس باخبار الطيارات . وقد تأسف عندما نهضوا بعد نصف الليل يودعون ليستأنفوا الجلسة في غرفة اخرى . فتحنا النوافذ لنطهر البيت ، وما كدنا ننام حتى استفتقنا على صوت الطبل طبل السحور قنا ، و « لا حول ولا » على الالسة نشد الرحيل . فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل ، نازلين من جبل الى جبل ، ومن واد الى واد - نازلين الى جحيم اليمن ، الى القمر الذي لا قمر دونه في تلك الارض ، الى مفجع وما مفجع غير اسم لشعب ضيق مدلم شاهدنا فيه لأول مرة الرياح وهو سعدان كبير وشاهدنا من الطير ما يشبه المهدد ، ومن النباتات الشوكية وانواع الصبير ما لا نعرف له اسماً غير الصبير وصبر ايوب .

من سطح اليمن في بوعان الى قبوه في مفجع مسيرة ست ساعات ، فيها منتهى الوحشة والوعورة . ثم من مفجع عدنا الى التصيد ، ثم النزول مراراً ، فررنا بجمالية تدعى العجز استقبلتنا فيها امرأة ذات وجه بشوش فتك الجدري بحاسنه ، فلم يبق على غير الشكل والعيون . سقت « القراش » بقربة ملأتها من البذر بيدها ، وكانت في عملها وحديثها سامرية بلاد الزيد . قد شاهدنا غيرها من اخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخلل يشتغلن في الحقول ، واكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسن ذهب فريسة الجهل والوباء . وكان الناس هناك الفوا هذا التشويه فلا ينفرون منه ولا يجزنون .

وصلنا بعد الظهر الى سفح جبل حراز فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من العرف نستريح قبل تصعيدنا الاخير الى مناخة ، ففكهننا احد الرفاق بقصة استنتنا بعض اتعاب الطريق . كان الحديث في النساء والمحدث رجل خفيف الظل ، حسن الفكهة ، رافقنا من متنه ورجلين اخرين احدهما شيخ شائب والاخر جمال خطاب . قدم لي المحدث زيبش المداعة قائلاً : لا يسهم الجدرى ما دام الفقيه يجير . لهذا الرجل - اشار الى الشيخ الذي كان نائماً - امرأة مثل من رأيت وجهه حسن ولسان حلو . وله فتاة اشبهت الام ان تعلمها القراءة فاستحضرت الفقيه الى البيت . فقرأت المسكينة اسبوعاً فقط ثم - وضرب كفه الايمن على قبضة اليسرى - وقعة في الشرك . طلبها الفقيه من امها فأبته فافرغ البندق في بطنها . ورأس الامام ! فقلت : قتل الام ؟ فاجاب : قتل الفتاة ! وهوذا الحين في السجن بصنعا . وهذا الشائب - مسكين يجب ان يحمل كفته معه في السفر - هو زوج الام وابو الفتاة . راح يطلب من الامام دم الفقيه واهل الفقيه يشتهون دفع الدية .

- وهل تقبل الدية ؟

فاجاب وعينه تغمز وتلمز : اذا كان الفقيه علم الام كذلك فلا خوف على حياته . تقبل الام الدية . ورأس الامام ، وتسترجفه لتكمل القراءة . وما قولك وهذا زوجها ، وهي كمن رأيت ، الا تظنها تقبل ؟

- واذا ابت ؟

- المأمور يا افندي يوتشي برطل زيب .

فهز الجمال رأسه اثباتاً وقال : في ايام الدولة كنا نرشيهم بالظلط . الترك يأكلون الزيب .

فقال القصاص : خير الجود الموجود . كانت الظلط في تلك الايام مثل الزيب اليوم . وكان يحملها الترك من مناخة الى بوعان ثم الى صنعا . في

مركب عظيم . انا مشيت مرة فيه ونجوت والمحمد لله . مركب عظيم يا افندي .
 هذا الضابط حامل الظلط ، وهذا الجيش قدامه ووراءه والى يمينه ويساره ،
 وهو في الوسط مثل العروس يجرسها القان من النظام ^(١) . وهناك وراءه بوغان
 الثائرون يكمنون للترك فيسلبون الظلط ويدجون النظام .

فهز الجمال رأسه اثباتاً وقال : وكنت انا اشتغل للترك ، انقل لهم
 الحطب . مجيدين اجرة الجمل . وكان ابي واخي وعمي يجاربونهم هناك ،
 مند بوغان . كنا كلنا نأخذ الظلط من الترك .

رحمة الله عليهم . ما افادتهم المدافع والحصون وطرق العربات . ولا
 نظن ان عسكرياً من عساكر الدول الفاتحة في الماضي او في الحاضر يقوى
 على حصون الطبيعة واهل الحصون في هذه الجبال .

بعد ان سعدنا في نقييل مناخة واستويننا الى رأسه نظرنا الى المسافات
 الهائلة التي قطعناها فكان طيف بوغان وغية النبي شعيب في الافاق البعيدة
 شرقاً وشمالاً يثبتان ما نقول . انك اذا قطعت تلك المسافات راكباً ، خفيف
 الثياب ، لأسير هولها ووحشتها ، فكيف بك اذا كنت جندياً تحمل عشرة
 ارطال على ظهرك ، وقنطاراً من المهم في صدرك ؟ اجل ، ان اليمن ضريح
 الدولة ، ولا يزال اهل اليمن يترحمون عليها .

الفصل الثاني

الى الحدود

مناخة - الحصن الحصين - عامل لا يحسن غير الواجب عليه - « لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب » - المشهد من سطح البيت - مناخة واب - الفرق بين العاملين - قرية الهجرة - جبل وسل - العتارة الاسماعيلية والفرق الباطنية - الداودية - متهاية وسل - عيسى النور - القراء في لندن ونيويورك - قواعد الصحة والطب الجراحية - السعدين ترمينا بالحجارة - قاء صفان - الحدود - الشيخ حمزه - « على الرأس امر السيد وعلى العين امر الامار » - شيخ الحجيبة - « كلنا نشتي السار » - المصيبة من الله - وله شريكان في اليمن .

ان مناخة قائمة على قنة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس . وهي قمان قسم في الصهوة ، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية . ولكنها في الحالين حصينة منيعة . فهي في علوها ، ٥٠٠ قدم فوق صنعاء . ونيف عن ثمانية الاف قدم فوق البحر ، مسرح للغيوم وموطي . للنسور والعقبان . وقد كانت بالامس موطي . قدم الدولة في اليمن الاعلى ومركز جندها الاعم . فيها نكتة ، هي في مقدم الصهوة عند سنامها ، نكتة كبيرة لا نسبة بينها وبين البلدة الصغيرة الحديثة البناء ، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة ، ولا يربو سكانها على خمسة الاف منهم القان يحملون البنادق .

وفي مناخة اليوم مركز قضا . حراز ، ودائرة للسلك والبريد ، ومقرزة من الجنود وهي محطة للتجارة بين الحديدية وصنعاء . اما الحصون فلا حاجة اليها ، لانك اذا وقفت على سطح من سطوح البلد تشرف من الجهات الاربع على الهائل البعيد الغور من الاودية والوهاد والشعاب . لا اظن ان عسكرياً من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب ، قادماً من الحديدية ، او من الشرق ، قادماً من صنعاء ، الا اذا نفذت الذخيرة فيها . وعندئذ يتخذ المحاصرون سلاحاً آخر من الحجارة يقذفون بها على العدو ، فتفعل ما لا

تفعل البنادق كما تيقن الترك في شهره . لا عجب اذا كانت الرهائن ، وقد عرفنا شيئاً من طباع اهل اليمن ، اساس حكم الامام وحصنه الحصين الاحصن . اذ لو اعلن عامل حراز استقلاله مثلاً ، او ابى ان يرسل اموال الزكاة ، او تصرف بقسم منها ، هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين ، فلا اظن ان امام صنعاء . يستطيع تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه .

أترانا في بيت كبير هندسته اوروبية بناه احد ولاة الترك . ووُكِّل امرنا الى خادم عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق ، اقتبسها ولا شك من سادته السابقين ، فاقنا يوماً هناك نستريح مما كابدناه من المشقات في مرحلتين لا مثيل لهما في رحلتنا اليمانية .

زرت العامل الشيخ علي الاكوع ليلاً في مجلسه فاستقبلني وهو في قبص النوم وامر لي بمداغة ورزمة من القات . واجتمعت عنده ببعض العلماء . وفيهم سيد معجب بعرب الاندلس وباحد ادبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب الوزارتين . أعجبني حديث الرجل ، وما قاله : لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب .

تفضل حضرة العامل فأرسل مع نجاب علماء بوصولنا كتبته بيدي الى قائد الحيوش الادريسية في باجل . وكان قد اعلم بذلك ولي الامر في الحدود ، وأعد لنا اكياس البن التي اسر بها الامام - هدية امامية . ولم يلبح الشيخ الاكوع علينا بالاقامة مثل سواه . ولا تحرك خارج بيته او ديوانه ليقوم بغير ما وجب عليه من الاكرام كعامل الامام . لا . لم يكلف نفسه زيارتنا ، ولا تذرع برمضان او اعتذر . أعجبني الرجل في سلوكه الفريد في بابه . هو حر شاذ الطباع لا يعمل غير الواجب عليه ، بل يعمل بما يأمر الامام عملاً تاماً لا نقص فيه ولا زيادة .

اقتنا يوماً في مناخه نتمتع بحاسنها ونستريح . صعدنا الى السطح قبل ان احاطت بها الغيوم فكان ادهش ما شاهدناه قريباً منا صخرة قائمة كسلة فرعون وراء القشلاق ، وحولها بعض البيوت من لونها ، تدور اليها جادة ضيقة زلاء . فتصل الى قرية وراء الصخرة تدعى كاهل . ودونها على مسافة منها قرية الحجرة المتعصمة بقنة اخرى من جبل حراز . ثم سرحنا النظر بالافاق البعيدة عن حراز فاذا بوادي موسى منبسطة امامنا شمالاً بغرب ودونها جبال حفاش وملجان ، وبالاودية الشرقية التي اجتازناها امس ودونها النبي شيب وتحتها يوعان . وهناك قن عديدة شيد فوقها ابن اليمن حصونه . فهو من هذا القبيل الخليلي يبني بيته يقيناً على الصخرة . وقد الفيتاه في هذه الجهة الغربية اكبر همة واكثر نشاطاً من سواه في النواحي الاخرى . دليل ذلك الارض المحروثة والدكات والمنجذرات الخضراء .

سررتنا بيومنا في مناخه سرورنا بيوم في اب ، فحملنا ذلك ، ونحن شاكرون في الحالين ، على المقابلة بين العاملين . ان عامل مناخة عربي ذو فضل ، وعامل اب عربي ذو فضل ونوافل . هذا حال الثمائل دمت الاخلاق ، وذلك على شي . من طباع البدو الذين لا يسيتك منهم لا الكلام ولا السكوت . لم يفاخرنا الشيخ الاكوع بحكم الامام ، ولا تبجح مثل امراء الجيش وبعض السادة في ماوية وذمار . انها لمن حسناته التي تسر ولاسيا من كان مثلنا قادماً من تلك النواحي الشرقية .

في صباح اليوم الثاني جانا من قبله عدد من العساكر ، ضعفا ما صحبتنا من صنعا ، ليرافقونا الى حدود الامام . فاستأنفنا باسم الله السير وشرعنا نترنل ثانية من سطح اليمن ، من اعلى سطوحه ، الى اوطأ ارض فيه ، الى وادي حجام في سفح جبل ورسل . وهي اوطأ من وادي منحق وبينها وبيننا عقبات كؤودات ، فيها التزول اصعب جداً من التصعيد . اما وسل فيينا

وبينه جبال وقرى نعددها منها ولا نعددها . هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الافق الشمالي يتصل ظله شرقاً بالحية . وهذه قنة شبام التي تظلل مناخة بعد الظهر وهي اعلى قنن اليمن على الاطلاق . وهناك عندما تخرج من ظل شبام يتراءى لنا مجاه مغرب الشمس جبل ريمه واعلى قنة فيه پراع . وهذه على احدى قنن مسار قرية تشاركه في الاسم وبينها وبين شبام الهجرة . تلك القرية العجيبة الرائعة ، المزدهمة بيوتها في ورم برأس الجبل ، المترافقة بعضها فوق بعض كأنها في لزاها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيويورك .

عندما نجتاز الهجرة نطل على وادي وئسل ، وهضابها كالدرج تحتنا ، واحدة تلو الاخرى ، كلها زاهية بانواع النبات والزهر ، خصبة غضة . وقد امتاز بين مزرعاتها شجر البن الذي يزرعه اليابانيون في الدكات ، في اماكن تظللها الصخور والهضاب ، اي في الشعاب والمنحدرات التي لا يصل اليها غير نصف يوم ، كل ما تحتاج اليه ، من الشمس .

انك لتعجب من تلك البيوت بل الحصون القائمة فوق الصخور كأنها جزء منها ، في اماكن يكاد يستحيل على الانسان والحيوان الوصول اليها .

وما مررنا به حصن هو قرية بنفسه . بل القرية هي حصن تعتمد به فرقة من الباطنية الذين ابادهم الزيود بالسيف كما اخبرنا السيد محمد . ولكن الابداء لم تكن على ما يظهر تامة فاقام من نجا منهم في هذا الحصن الذي يدعى العتارة وفي ضواحيه .

انهم فرع من فروع الاسماعيلية^(١) العديدة يدعى الداودية وزعيمهم

(١) الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر اخو زيد امام الزيود . من فرقها المهمة التراربية وهم ينتسبون الى المنز الفاطمي يقيمون في بمبي بالمهند وعددهم نحو مئتي الف اكثرهم تجار ذوو يسار ، وامامهم الاكبر اغاخان .

داوودي مكرمي بلدي اي انه داوودي المذهب ، مكرمي النسب ، بلدي الاصل . والداوودية اشداء حاربوا الاتراك ثم حاربوا الامام واستعانوا بالاتراك عليه . وهو اليوم يعاملهم في بلاده كما يعامل اليهود ، فيأخذ منهم الزكاة ويسميها الجزية او انه يفرض عليهم الجزية ويسميها الزكاة على انهم لا يدفعون باية حال الا كرهاً ، لان في مذهبهم لا يجوز ان يدفعوا الزكاة الى احد من ائمة او من امراء المسلمين .

نوذع الداوودية في العتارة ولا تزال وجهتنا مغرب الشمس ، فنطل على اللسكمة ، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتد شمالاً بغرب ، وتحتها العريف ووراءها جبل صفعان وفيه حصن متوح . اما وراءنا فقننة شبام لا تزال تلوح فوق كل الجبال ، تراقفنا اربع ساعات الى ان نقرب من وسل .

وما وسل غير بيتين ومقهاية وبستان من القات . وهالك امرأة اخرى تبادر الى استقبالنا وخدمتنا . بدأنا لشعر بمد خروجتنا من صنعاء بوجود النساء في العالم ، النساء العاملات مثل الرجال . سقت المرأة « القرائن » وشربنا نحن والعساكر قهوة القشر ، « تقشرونا »^(١) وادركنا هاهنا لزوم الفتيان الخاص

ومنها السلانية في اليمن ويسون ايضاً المكأمة . م اصلاً من غبران ، من قبيلة يام الكبيرة ، عديم هناك لا يتجاوز العشرة الاف وداعيمهم علي بن محسن المقيم في بدر حوالي الادريسي . في الهند من السلانية نحو الف اكثرهم متوظفون في الحكومة . ومن الاساعيلية الداوودية وم من بني مرة اي مرة اليمن لا نجد يقيمون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبلي حراز ومهذان . ويسون كذلك البهرة . عديم في اليمن لا يتجاوز الخمسة الاف . ولكن البهرة في الهند مثل التدارية كثيرون ، يربو عديم على الثلاثمائة الف ، اكثرهم من التجار ذوي اليسار ، وداعيمهم اليم طاهر بن محمد سيف المقيم في سودة . كل هذه الطوائف اساعيلية كما قلت لانها تنسب الى اساعيل بن جعفر الصادق ، وكلها باطنية لانها تبطن بعض اسرار الدين ولا تعلم منها عامة الناس غير البشير .

(١) تقشرونا هل وزن تقهونا

الذي يحمله السادة مع كيس النوم في اسفارهم . اما الكيس ، اذا كان المسافر يضطر ان يتام في مثل هذه المقهاية ، فهو الزم ما يلزم . هو كثير الاستعمال في اليمن خصوصاً في الجيش . الا انهم لا يربطونه حول العنق كما قد تظن ، ايها القارى . بل فوق الرأس . هم يجمونه كبيراً لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلاً فيمسي اذ ذاك كله ، هو ورأسه ، في الكيس ، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق . ولا ينهض صباحاً ووجهه كالزغيف المحروق ، كأنه اكل ناراً في نومه .

وهم فوق ذلك يقولون النوافذ كلها قبل ان يخلوا الكيس . فما قول سادتنا الاطباء الذين يهددون بالموت اذا اقلنا النوافذ عند النوم . هل جربوا حامض الكربون في انفسهم ؟ او ليس من الحكمة اذا اضطر عدة اناس ان يتاموا في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الاخر بهذه الطريقة ، ان يجبر كل على نفسه في الكيس ؟ اليس خير له ان يأكل هواه - حامض كربونه - من ان يأكل هواه غيره ؟

ان في احياء الفقراء . بالمدن العظيمة كلندن ونيويورك ، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة صغيرة مظلمة فاسدة الهواء ، كثيرين ممن يحسبون الكيس نعمة لو علموا به . فهو والحق يقال احسن دواء للقذارة ، ما لازمت القذارة الفقر والشقاء ، وما دام الاغنياء المالكون تلك البيوت اخدان الحكومة التي لا توجب عليهم التحسين فيها . ادخل رأسك في الكيس ايها الفقير العزيز ، انت الساكن في الطرف الشرقي بلندن او في الحي الشرقي بنيويورك ، ادخل رأسك في الكيس تنجُ ابلاً في الاقل من انفاس عيالك ومن اقدار بيتك .

اما الكيس الاعظم فهو هذا الفضا . . ولعمري ان من كان هواه الجليل ارته لا يلقي رأسه تحت سقف ساعة واحدة . الا ان الياباني خصوصاً والعربي هوياً يخاف هواه الليل ويتأثر من البرد اكثر من سواء . كأن شدة الحر

تضعف الدم او تغير في تركيبه فترق الكريات الحمراء فيه فيأثر اذ ذلك البرد في صاحبه تأثيراً مضرأ . والذين ينقلون من الاقاليم الباردة ويقبسون زمناً في اقليم حار يمسون مثل اهلهم .

هذا الرفيق قسطنطين وهو مثلي من الشمال ، الا انه اقام بضعة سنين في جده فصار ينجس في الهواء في الليل كأنه سم زعاف . ولم تناقشنا في الموضوع وكنت في حجتي وفي غيظي اسمي اليه اقلو بسكتنا وعدنا الى اجسامنا ، الى صحتنا تتكلم عنا ، لكننت ولا ريب مغلوباً . لان فيه من العافية ، وهو الذي يقفل النوافذ كلها ، ما لو وزع على خمسة مثلي ، انا الذي لا استطيع ان اقام دون ان افتح النوافذ كلها ، لأهلهم كلهم للجندية . وهذا مع صحة اهل اليمن اجمالاً ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي اصبحت في الغرب ايات منزلات . وهي لا تخلو من الحرافات . ليس الهواء الطلق وفوائده موضوع بحثنا الان . الا اني اقول ، قبل ان نترك مقهاية وسل وبستان القات ، قد تكون الرئة في الهواء المنعم بالاكسجين كالاسفنجة اذا امتلأت ماء . والاكتفاء حد الافادة في كل شيء . . .

اما وقد اكتفينا من هواء الجبال زاداً فصرنا نتوق الى هواء فيه رائحة الملح ، الى هواء البحر ، وهو لا يزال بعيداً . لولا ذلك لما كان الحر في وادي وجام شديد الوطأة خصوصاً على من كانوا يرتعشون في ظل شمام منذ ست ساعات . جلسنا للقدا . عند بئر قديمة تحت شجرة من الأتوب وهي اكبر اشجار اليمن ، فسمعنا اصوات السعادين في الحرج فوقنا واطلقنا عليهم الرصاص ، فبادلونا الاكرام ورجونا . نعم رجونا بالحجارة ، فكالتت اشد علينا من الرصاص عليهم ، فارتحلنا من ذلك المكان ، تقهقرنا مغلوبين ولكن سالمين .

عبرنا الوادي ووصلنا بعد ساعتين الى حدود الامام في قاع صفان وهناك محطة التجارة بين تهامة واليمن . هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد وبلاد

الزيود ، بين السيد الادريسي والامام يحيى . هناك في تلك البيوت والحُيم
مركز الشيخ حمزه ، حيث ينبغي ان نصرف عساكرنا لانهم غير مأذونين
باجتياز الحدود ، ونستصحب حراساً من رجاله .

ترجلنا خارج الحيام ومشينا الى بيت حقيير بينها ، فاستقبلنا عند الباب
رجل صغير الجثة ، براق العين ، عريض الصوت ، ليس عليه من الثياب غير
القوطلة يترب بها والعمامة . فسألته عن الشيخ حمزه فاجاب : ها هو كله ، وقبل
ان دعانا الى الجلوس سلم وقال : قد تحيرتم - اي تأخرتم - نحن هنا وعساكر
السيد في عبال بانتظاركم منذ ايام . لكم الان الحيار في امرين تبيتون عندنا
او تسكنون الى عبال . كل شي حاضر هنا وهناك . من هو امين الريحاني
فيكم ؟ فاجبته كما اجاب سؤالي عنه : ها هو كله . فلم يضحك ، ولا غير
لهجته - نحن يا امين تحت امر من وصانا بكم . نحن قدامكم ووراءكم .
على الراس امر السيد وعلى العين امر الامام . واحتكم علينا وسلامتكم
مطلوبة من الله ومننا . فاذا اشتهيتم السفر الان كان السفر . واذا اشتهيتم
الاقامة فاهلاً وسهلاً .

ادهشنا هذا العربي فاجبتاه . استقبلنا بقلب عارٍ مثل جسمه ، فكان
صريحاً مليحاً . وكان شريفاً اكثر منه لطيفاً . فوددنا المبيت عنده لولا اننا
خفنا ان نشغل عليه . ولما اعدناه بما اخترنا من الامرين اسفين قال : خذوا
القهوة اذن وامشوا اتصلوا قبل الغروب . فدخلنا البيت وجلسنا لاول مرة في
اليسن على مجالس مصنوعة من الحبال ، تستخدم كذلك للنوم ، كالعنقريب
السوداني .

الشيخ حمزه تاجر كبير يسير القوافل بين تهامة واليسن الاعلى فتحمل
جماله وحميره الغاز والاقشة الى مناخة وتعود منها حاملة البن والجلود . وهو
كذلك الوكيل السياسي بين البلدين المتجارين ومندوب الامامين . رجل

السلم والتجارة والامن الشيخ حمزه . عنده لكل شي . حساب . وعنده حجر وورق وكاتب هو ابنه الذي . عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمة من الشيخ الى العامل في مناخه يعلمه بوصولنا . فراح الى الزاوية في البيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الغاز الى صندوق آخر هو المنضدة ، وامره ان يأخذ الورق ويكتب . فأخذ الكاتب طلحية وقسمها قسمين ، فأشار الاب ان اقسما ثانياً ، ففعل . ثم ثالثاً ففعل حتى اصبح ويده مئن منها فقال : اكتب الآن .

من حمزه خادم الامام اطال الله بعمره الى عامل مناخه حضرة الشيخ علي الاكوع . سلام . الجماعة وصلوا بخير وسنوصاهم بخير الى عبال .
حمزه

اخذ الرسالة فلفها لفافة ودفمها الى العسكري ثم خاطبني قائلاً : هذا يقرأ ويكتب . هو فقيه . وابتسم الشيخ فكانت اول ابتسامة أبرقت علينا من وجهه القائم العبوس . ثم ركب معنا وشيعنا الى خارج حدوده بابتسامة اخرى .
كنا نقيس الاخطار في الطريق بعدد الحرس . من صنعاء الى مناخه اثنان فقط . ومن مناخه الى الشيخ حمزة اربعة . وها نحن نسير في مركب من رجال الشيخ راعنا عدده . فلو لم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا الاعرابي ، وقد اطلعت على شي . من اقتضاه واختصاره في العمل ، بصحبنا بعشرة من رجاله ، ويوكل امرهم وامرنا الى شيخ الحجيلية بنفسه - شيخ الحجيلية العظيم في الامس . هو رجل صغير يابس مصغر الاديم ، ذو لحية محتأة ، وشارب مقضوب ، وعين غائرة . ركب حماره ، وبندقيته بين يديه مطروحة على السرج قدامه ، وسار معتزلاً الجنود العراة ، بعيداً كذلك عتا ، غير مكترث بنا .

دنا مني احد المكارين وقال : هذا شيخ الحجيلية او كان . وكان في

ذاك الحين اكبر قطاع الطرق في هذه النواحي . تحت امره مئة بندق ، يرفقون القوافل ويسلبونها ويأتون بالغنيمة اليه . من منا في اليمن وفي تهامة كان يجراً ان يمر بهذه البلاد في ايام الدولة ؟ قلت : وهل كان يقطع الطريق يوم كان شيخ الحبيلة ؟ فاجاب بالايجاب ثم قال : كان يأخذ من الترك ويأخذ من العرب . كلهم كانوا يخافونه ولا احد يعترضه بشي .

سبحان الله ! هو الان رسول الامن والسلام بين القطرين ، وصديق الشيخ حمزه الذي يحسن ولا شك اختيار رجاله واصدقائه لمقاصده التجارية والسلمية المفيدة . اجتذبتني خير الرجل اليه . فسقت بغلتي نحو حمارة ، وسلمت فرد السلام . ثم سألت لافتح الحديث سؤالاً اجابني عليه دون ان ينظر الي : هذا قاع الحبيلة وقريباً نصل الى البلد .

كنا وقتئذ نجناز ارضاً لا سيادة فيها لا للادريسي ولا للامام ، يصح ان تدعى بلاد الجن . ولولا تيقظ الشيخ حمزه وحزمه لما كان يأمن فيها انسان او تسلم فيها قافلة . هي نقطة الحياض بين عبال اخر حدود السيد وبين مضارب الشيخ حمزه ، آخر حدود الامام . اما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الاميال ، في وسطها الحبيلة ، وهي اليوم اثر من آثار الحرب المفجعة . شريط التلغراف فيها مقطوع ، والعمد مكسرة ، وما تبقى من مظاهر الحكم التركي - مناضد وكراسي ودواوين - رأيناها مبعثرة تحت سقف متهدمة . اما اهل البلد فلا يزالون مشتتين في تهامة وفي الجبال . لا عجب اذا كان العرب يفضلون الحيام وبيوت القش على الحجارة والخشب . قد هيج هذا المشهد في الاشجان واثار في الشيخ كامن الغضب . وكنت لا ازال اتدرجه الى الحديث فقال :

- ما الادريسي وما الامام ؟ عندهم كل شي . ، ما عدا الاخطار والفقر .

وعندهم السادة يستمعون لهم ويستشيرونهم . بعيد عن الحرب ، قريب من السادة ، هذه بلية السيد وبلية الامام . ولكن الله يغفر ذنوبهم لو بعدوا

عن السادة وخاضوا المعركة مع الجيوش . عندئذ تنتهي الحرب كلنا والله نشتهي السلم . ولكن اين رجل السلم ؟ اين هو الرجل الذي يستطيع ان يصلح بين السيد وبين الامام . لا في عسير ولا في اليمن موجود . لا يتم الصلح الا بواسطة احد الكبار يجي . من وراء البحار . . . ثم تنهد وقال : مصيبتنا من الله . فقلت : من الله وحده ؟ ألا دخل للانسان فيها ؟ فقال مستحسناً سؤالي : ثلثها من الله . ولكنه لم يشأ مواصلة الحديث فساق حماره ، فلعقت به وسأته عن الثلثين الآخرين . فاجاب وهو يستحث حماره ليمعد عني : وثلث من السادة . فسقت بغاتي اليه وسأته معتذراً ان يعلمني بثالث المصيبة الثالث . فوقف الرجل حماره ونظر اليّ وقال : الثلث الاخير ، لا والله بل الاول ، هو منكم .

ظنني الشيخ معتمد الانكليز ، ولكنه لم يخطي . برأيه في قضية اليمن وعسير . انه اقرب رأي الى الصواب سمعته . وهو ينطبق على العرب كاهم وما يكابدون من السياسة الانكليزية ومن السادة - حيث لا سادة ولا اشراف فقل العلماء - ومن التقادير .

الفصل الثالث

نساء تهامة

اشكال العرب - الشبان المخضبون - الشعور الطويلة والقرين - السفور -
 الرعايب - المرأة واحدة في باريس وفي عبال - الحنا والكحل والظيب - شين
 عبال يورنا - خطبة البليغة - ابنه يعطينا ريالين - طريق عدن وطريق
 العديدة الى صنعاء - الاسراء - المقني المكرب - التنجيس - المحسن المجهول
 - ابن شين عبال - عساكر الادريسي السود - « الحوانج » والحنا - العرب
 والترك - البرنطة - شمس تهامة - باجل - سوقها ولساوها - مودة عربية
 باريسية - ضيافة الشوافر - الشيخ محمد طاهر رضوان - القحرا - الرحان
 - عساكر الزيود - اطياف الليل - القجر - البحر .

ان العرب على الرغم من البلايا الثلاث التي تقدم ذكرها في الفصل السابق
 لم يدعوا مدهشون في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية . وهم على ما بينهم من
 روابط الدين والجنس واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهراً ومعنى . فلا
 يختلط الياني باين عسير ، ولا هذا باين الحجاز . يخاطبون ولا يختلطون . حتى
 اذا جردتهم مناسك الحج مثلاً من الثياب فالاحرام لا يساوي بين ذي القرون
 - الجدائل - وذي الشعر الطويل السبط ، وذي الشعر الكث الجعد الذي
 يشبه شعر النساء الاوروبيات في هذا الزمان .

انك لتسافر في اميركا مثلاً من طرف البلاد الشرقي الى طرفها الغربي
 فلا ترى في اختلاف العادات والتقاليد والازياء ما يستوقف النظر او يستحق
 الذكر . بل قلما ترى اختلافاً ظاهراً او معنوياً . اما في بلاد العرب فكلما
 انتقلت من جهة فيها الى اخرى تغيرت الثياب والازياء والعادات ، وتغيرت
 كذلك المساكن . فلو اجتمع الحجازي والتهامي والياني والحجبي والحضرمي
 والنجدي والعرابي لكان في اجتماعهم معرض ازياء وثياب مدهش مفيد .
 من مناخة الى جمال ! كأنك انتقلت من سويسرة الى بلاد المكسيك .

وان جمال عبال في القاع الفسيح ساعة الشفق ليضاهي جمال مناخة في رأس الجبال ساعة الغروب . عبال ، قرية ساكنة مطمئنة بيوتها الهرمية من القش شبيهة بنجيام المنود في المكسيك . وابتناؤها يشبهون العرب في سائر الاقطار بامرئ ، يتكحلون ويتطيون ، وفي ما سوى ذلك يختلفون . فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة ، هم اشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات . فهم يدهنون شعرهم بالادهان ، ويربطونه بشرائط من الحرير او الجلد ، ويزينونه بالريش او الزهر او الرياحين ، ويقصونه مثل البنات اليوم لساوي القذال ، ولا يقصرونه كالرجال . وهم يتدرون بالفوطة مثل اهل الحج ، وقد تكون طويلة ماونة مخططة ، فيشدونها على الحقوين ويلبسون فوقها صدرية بيضاء بينها وبين الفوطة زنار من القطن او الجلد للخنجر دائماً ، وغالباً للخنجر والخرطوش . ان اول ما يدهشك من اولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء ، وارجلهم المخضبة بالحناء .

وفي عبال نعود الى السفور، الى اول الاسلام . في عبال تعددت المدهشات وكان اشدها واحبها اليها النساء ، وقد وقفن في ابواب الخيام يتفرجن على الغرباء . ولا نظن انهن كنن اشد تعجباً منا ونحن نتفرج عليهن . الجمال الاسمر نشدناه في كل مكان فما لقناه حتى وصلنا الى تهامة . والرعايب ، ها هن ذا في عبال . وسيهيجك منهن ما ستراه غداً في باجل . نزلنا في بيت اخوته لنا احدى النساء بامر من الشيخ ثم جاءت تخدمنا . فسالنا مستطعين حالها ، فقيل لنا انها مزوجة ، مطلقة ، وتكره الرجال . اي نعم تكره الرجال . فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن اختها في عواصم التمدن والجمال ؟ اجتمع في الباب وخارجه الاولاد والرجال متفرجين مدهوشين . فجات العساكر تبدهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر الى زيارتنا . وهو رجل طويل القامة ، مهيب الطلعة ، فخم اللباس ، متطيب متكحل حاف ، الا ان

رجليه المخضبتين تلعمان بالحناء . دخل يحمل بيده السيف وبالاخرى اغصاناً من الحبق قدمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا . هنا فأبوصولنا الى بلاد السيد سالمين ، ثم قال معتذراً : لا يمكننا ونحن في رمضان ان نقوم بما يوجب علينا الشرف والناموس . انتم الان في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون وبال مطنش . عندنا سلام وامان . ولكننا نرجوكم ان لا تحكموا علينا بما يظهر . نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود ان نقرهم في بيوت من الرخام والمرمر . فاحمونا وانتم اهل الفضل من العين واللسان .

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نسعد برؤيته مرة اخرى لان سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكننا ارسل الينا ابنه قائد الجيش فاسمعنا خطبة شبيهة بخطبة ابيه واعطانا ريالين قائلاً : رمضان يسود الوجه . انتم ضيوفنا اشترؤا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين لان رفضه رفض الضيافة واكبر الاهانات . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم ، فما رأينا في غير كأس من اللجين ، وما رأينا فيه غير اللبن الرائب . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسر به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة . ان اهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الاتراك في مواقع متعددة .

فما تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الاسرة ، تحت سما تهامة الصافية الحارة ، فما احتجنا فراشاً غير جبل مشبوك ولا غطاء غير شبك النجوم . ان التعب في النهار مصدر النعم في الليل . فما كان في مراحلنا اليانية العديدة اطول من هذه الثلاثة الاخيرة واوعر^(١) لان الطريق من عدن الى

(١) ركبتنا في المرحلة الاولى احدى عشرة ساعة ، وفي الثانية عشر ساعات ، وفي الثالثة من مناخة الى وسل اربع ساعات ونصف ، ومن وسل الى الشيخ حمزه ثلاث ساعات ونصف ، ومن الشيخ حمزه الى عبال ثلاث ساعات ، اي احدى عشرة ساعة كالمحلة الاولى .

صنعا . وان كانت اطول فهي اسهل من طريق الحديدية . هذه تشبه من حدود الامام اليوم درجاً طويلاً عالي الدرجات لا انقطاع فيه وتلك تشبه درجاً منبسطاً عريض الدرجات تتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم . وبكلمة هندسية : اذا مددت خطين واحداً من عدن و آخر من عبال الى صنعا . تكون زاوية الاول حادة ، وزاوية الثاني مستقيمة . والفرق بين الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة .

اسرينا في الساعة الثانية بعد نصف الليل وكان قمر رمضان اكنجل من فضة فوق قنة شبام . وكان قد نبض الهواء . كذلك فانعش فينا ما خدره الحر وازال ما تبقى في الاجفان من اثر النعاس . بيد انه لم يحرك في احدٍ من الربع اللسان ، الا واحداً كانت عقيرته تذكرنا بصر والشام في ما رددت من الاغاني القديمة ، وقد اجرت انغامها ، ثم اتهمت ، ثم المنجذت ، فافسدتها الاسفار ، واكسبتها المسافات على ردايتها ذكراً من الاوطان عزيزاً . ولكنهما لم تكن عندي ساعة غنا . بل ساعة تأمل وصلاة .

ياذا الجلال الازلي الحفني بشي . من جلالك ، ياذا النور الدائم امددني بقبس من نورك ، ياذا القوة غير المتناهية ابعث منها في قواي .

فهل من حاجة ان اصف ما حل بي ، وهذه حاتي الروحية ، من مجرد الصدى بعد السكوت « يارايحة عالشام خذيني معاك » ٩ . ما عرفت صاحب الصوت حتى ولى ، لاننا لولا وط . الدواب كنا كالاخيلة الساكنة السارية في الليل ، فلم تباين في نور القمر الضئيل الوجوه . ولكنني سألت عند الفجر عن المعنى فقيل لي انه رافقتنا ساعة اكراماً وعاد الى عبال . وشد ما كانت دهشتي واسفي عندما علمت انه الرجل الذي كُتبتني^(١) مساء البارح فحرك

(١) من العادات الحبيدة في تمامة والحجاز التكبيس . هو علم جام على ما اظن من الهند . فيكبسون المرء من راسه حتى قدميه . ويدكون الاعصاب ذلكاً ، ويفركون العضلات ويمسوخا بعدئذ غيبدا . ان المسافر في تلك البلاد لا يتأنس في آخر خار السفر بشي استنشاه بالكبيس . وحتى الصغار هناك يمسنون هذا العلم .

الدم في العروق وازال من المفاصل التعب ومن الاعصاب الالوجاع . ثم نهض
وايانا ورافقنا اكراماً دون ان يبن وشاء فوق ذلك ان يسليتنا باغاني بلادنا .
فيا ايها المحسن المجهول ، يا ايها العربي الكريم ، ما اخترت لاكمرام
الضيف احسن من يد مرنة تسكن الآلام ، ومن صوت مرن ، مها شذ
والتوى ، يذكر الغريب بالاطوان . وما كان اشبهك عندنا بعكرمة الفياض ،
فلم نعرفك مؤاسياً منعماً ، ولم نعرفك مشيعاً مكرماً . جثتنا من النسق ،
وانعشتنا في الليل ، وشيعتنا في ضره القمر ، واختفيت دون ان تبوح باسمك ،
كالطيف في الظلام . ومهما كان اسمك وايضا كنت فانت اخو الانسان ،
وامبر الذوق والاحسان .

كشف الفجر عن الوجوه فرأينا في الربيع بدل شيخ الحجيلية ابن شيخ
عبال ، وبدل رجال الشيخ حمزه عساكر السيد ابن ادريس . وشم من العبيد
صحيحو الاجسام ، خفيفو الاقدام ، قليو الكلام . لا يختلف الواحد عن
الاخر ، وكلهم سود ، بغير لون السواد . فهذا كقهوة البن ، وذلك
كالشوكولات ، والاخر كلابنوس المصقول . سألت « الابنوسي » وهو يركض
ويشير بجافريه الغبار : هل انت دنقلي او سوداني ؟ فاجاب : أبي طلع من
البحر وانا ولدت في البر ، في هذا البر . لا اعرف غير ذلك . والمؤكد يا افندي
اني اسود . قال ذلك وراح يضحك ويهز عطفه .

بعد ان اجترنا قاع عبال وصلنا الى الساعة الاولى من النهار الى الجحاح
وهي قرية فيها مقهاية رجة نظيفة ، فدخلنا وكنا اول الزائرين ، فخرجت
من البيت عربية حسناء ، ممشوقة القوام ، في جلباب انيق الشكل فوق دثار
ازرق طويل الذيل . كأنها من بنات المدن وقد تدرت عند نهوضها فوق
قيص النوم . هشت لنا وبشت واسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في
تهامة من القشر الا انهم يضيفون اليها بعض الاباذير كالزنجبيل والمال - كثير

من الاباذير - يسمونها حوائج . وكان حسن العربية يتجاوز قوامها ووجهها الى الذوق والحلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بحوائج . فاجاب العبيد صوتاً واحداً بالايجاب . وشربوا هنيئاً وثلثوا . اما نحن ، انا والرفيق قسطنطين ، فكنا نشتهي قهوة البن . . . حوائج وهذه الحسنة ؟ اركب يا امين .

وبما زاد في كربة الرجال صباح ذلك اليوم ان لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسنة اخرى ، رعبوبة في شعار شفاف ، تنشر للشمس شعرها ، كأنها خرجت من الحمام ، او من مسرح الاحلام . فحسنا المطايا مسرعين الى القاع ، الى الفلاة ، معتمدين بمحدث الشيخ علي بن شيخ عبال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس . لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجله . والترك ، ما الترك ؟ هناك - اشار بيده وهو ينتفض اصابعه - هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذلك الجبل ، حفرنا الخنادق - كنا تسعين ، تسعين فقط - واطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النظام ، وهم خمسة الاف ومعهم الاطواب . من الفجر الى ان صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة ، كلة نار ، ونحن نطمعهم الرصاص . وعند الظهر ، والله ، ونور هذا النهار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا نقص واحداً ، ومشينا الى القاع . كانت الارض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك اكلوا رصاصنا وسكتوا . سكتوا الى آخر الدهر . والباقي تشتتوا هربوا فما لقيناهم . ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات . ياله من يوم . كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق ويخفيها وراء الخنادق ويعود يفتش على غيرها . . . ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجله . . . هؤلاء من رجالي . يمشون بل يركضون كما تراهم الان ، اثنتي عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتذمرون . ولا يشكون غير حلم السيد فهم يغابون الزيود ، ويأخذونهم اسرى والسيد

لا يأذن بتذبيحهم .

سرتنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاحت لنا على الافق غيمة سوداء . هي باجل . كنا غر في طريقنا بنساء . لابسات الهراييط وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان الهريطة او الشبقة لتقدمية العهد في تهامة وبعض فواحي اليمن الاخرى ، وهي صنع اهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في الجنس والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد . هو يبنذها او ينساعا او يغير فيها لتمكته من دفع العدو الصائل ، بل من الدفاع عن الحياة .

وباى سلاح تحارب هذه الشمس شمس تهامة اذا اضطررك رزقك ان تشتغل او تسافر نهاراً . أبالكوفية ، وهي اذا تلمت بها تدفع نائر الغبار والرمال فقط ! قد تقى العيون من وهج الشمس ولكنها لا تقى الرأس من سهام اشعتها الكاوية . اما العمامة فلا بأس بها لاصحاب التجلة والكرامة ، للسادة والعلما . الذين لا يضطرون الى السعي في سبيل الرزق والرفاه . قد يرهن الياني التهامي في لبسه الشبقة على ان التريزة في الانسان ، شرقياً كان او غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الاولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد احسن اياما احسان في صنع شبقة من القش متراخية النسيج فلا تنقع الهواء ، واسعة الاطراف تظلل الوجه والتذال ، عالية القبع تحفظ الرأس من سهام الشمس .

ويا لها من شمس لا تحجب ظلها ساعة من النهار . كانت لا تزال في صهوة الافق عندما دخلنا باجل فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلد هي وحدها الحاكمة بامرها فيه . ولكن باجل تنسي السائح لاول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً اذا دخلها مثلنا يوم سوقها . هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الاجر الاحمر ، يقام فيها سوقان في الاسبوع ، فيؤمها العرب

من كل القرى والمضارب المجاورة لها ويتزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون ويشترون طيلة ذلك النهار .

مشينا بين صناديق من الغاز واثواب من الخام ، بين المواعين المصفوفة على الارض والاكياس ، بين الابازير والحبوب ، والى جنب كل « فرش » رجل او ولد او امرأة . والناس في الساحة رائحون جاؤون ، والنساء وبأيديهن السلال اظهر ما هناك يكثرون البيع والشراء . ادعشنا من هذا المشهد مظهره النسائي لاتنا لم نَرَ في بلاد اليمن ، بل في البلاد العربية كلها خلا العراق ، من النساء . بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات ، واكثرهن حسان الوجوه والقودود . اما البنات فما رأيت فيهن غير المشوقة الهيفاء ، وهي لولا لونها اشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً ، وخفة ومشياً . لكن لبسها قد ينسب لولا السذاجة والفقر الى التمهتك . هي تلف ذراعاً من القماش حول وسطها فيصل الى الخلل ولا يخفيه ، وتلبس فوقه صدره ضيقة قصيرة لا يتصل طرفها بطرفه فيبدو شي . من الكشح بينها . ولها مشية تكشف بها الساق ، واذا ساعدها الهواء ، تنكشف الركبة كذلك . ولها لسان لا اثر فيه لما في قدها ومشيتها من حسن وبراعة . سمعناها تشم الصبيان فاستعذنا بالله . ورأيناها تمشي الى السوق والسلة بيدها فاسفنا لبدامة تشينها .

اما تلك العربية التي « تمشي الهويتنا مشية البقر » فلم نجدتها في باجل . ها هنا حركة كأنها اوروبية . ها هنا نشاط اميركي . وتلك الشبقة على رؤوسهن ورؤوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعدك في الانتقال . كنت اظني في بلد من بلاد المكسيك الجنوبية . واغرب من ذلك ان هذه الحركة في بلد عربية اسلامية وفي شهر رمضان . بل في بلد حورها^(١) حتى في شهر ايار لا

(١) في ٢٤ ايار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مئة درجة ودرجة في ميزان فارغيت .

يطاق نهاراً. ولولا انه جاف لما كانت باجل^(١)، ولما كان في ذا القاع اهلها. استقبلنا بعض رجال القائد العام فأتزلونا بيتاً رأس محاسنه النظافة ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظهر في الحديث وفي الخدمة وكذلك في الطبخ. ناهيك بشي. في اخلاق الشوافع، بشي. من التساهل بل الاخاء والكياسة، يمتازون به عن سواهم. تركونا بعد الفطور وشأننا ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الاسود وآخر من الموز، فادهشنا وايهجتنا الاول لاننا لم نكن نتوقع العنب في هذا الشهر من السنة. ولكننا في تهاة، فلا عجب اذا نضح في ايار وهو لا يزال حامضاً في صنعا. وزهراً في لبنان.

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ محمد طاهر رضوان عامل باجل وقائد العساكر الادريسية فيها، فسلم واعتذر. هو يشتغل في الليل ويصعد صباحاً الى ربوة خارج البلد لينام. سألنا عن السياسة الاوروبية، وعن الانكليز، وعن مصر والهند، سؤالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفتقران، بخلاف العادة العامة، الى شي. من الحكمة والذوق. فقد كان يسأل مستخبراً مستفيداً، دون رأي خاص له يبيديه. ولكنه في ما يختص ببلاده كان مفيداً مفضلاً. فعلنا من حديثه ان القحرا. يسكنون تلك الجهات بين وادي سردود ووادي سهام، وانهم على العموم من افضل قبائل اليمن واشجعها ومن اشد الشوافع بأساً واکرمهم خلقاً. وعلمنا كذلك ان السيد الادريسي يسير في بعض اموره على خطة الامام في الرهائن. فيها هم في البيت تحتنا، عشرون رجلاً، وفيهم العبيد، من الزرانيق. سيجي. الكلام على هذه القبيلة في الفصل التالي. سمعناهم في الليل يجودون، وينقرون الدف وينشدون. وما سمعنا من فم اسير اجمل من سورة يوسف انشاداً. سمعنا كذلك «الزامل» في البلد فدهشنا لاول وهلة وسألنا عما اذا كان عسكر السيد ينشد اناشيد عسكر الامام.

(١) باجل هي على مسيرة ثلاثين ميلاً من البحر.

فقيل لنا بل هم عساكر الامام . فما صدقت حتى عاينت . وقد تأكدت ان بعض الزيود يجيئون تهامة و« يتعسكرون » عند السيد لانه يحسن معاملتهم ويدفع راتباً اكثر من « ابن حميد الدين » ولكنه ساء في رجال السيد انهم اذا ذكروا الامام يدعونه احتقاراً « ابن حميد الدين » وما معنا في صنعاء واحداً من رجال الامام يقول مرة في السيد ما يشتم منه المقت والتحقير .

اقنا في باجل وسافرنا في مساء اليوم الثاني . لا سفر في تهامة نهراً مثلنا في الاقل . وكانت ليلة ليلاً ، ما خفنا في طرق الجبال الوعرة الموحشة خوفنا فيها ، لان الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته . وكنت كل مرة تطأ الدابة حجراً فتعثر اري وهدة انفتحت امامي . واية الوهاد اشد هولاً من وهدة الظلام ؟ ومع ان اسرافاً كان في قاع بسيط فسيح ، بعيد عن الجبال والري ، فما اطمان ولا يطمئن قلب الغريب اليه . كانت تمر بنا القوافل كالاطياف فتسلم على اطراف تمر بها ، والامن والظلام رقيقان ملازمان . انه ليدهشك مثل هذا الامن نهراً في البن وعسير فكيف به ليلاً ؟ وكيف به في بلدن متحاربين ؟ مها قبيل في العرب ، انهم في حروبهم متمدون ، يحترمون حقوق الناس ويحافظون على ارواح العباد . قد صحبتنا ايها القارى . في طريق التجارة بين البلدين فتيقنت ولا شك ان في هذا الشعب الماجد الباسل من الشرف وكرم الاخلاق والحكمة والذوق ما لا يظن مثلها في مثله . وهي تمنح على كثيرين من الناس ، وتقل بين الناس في البلاد المتمدنة .

وصلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى مقهاية الطم فاسترحنا فيها ساعة ثم استأنفنا السير ، وكان قد هلّ الهلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل . وبعد ساعة من سيرنا في ارض رملية تتخللها السبخة بين احراج من الشورى ، ذاك الشجر الذي لا ينبت الا بالقرب من البحر في تهامة ، اطلت علينا ربة النور والنار . واكفنا عندما دنونا من البحر شمنا رائحة الملح واحسنا

بالرطوبة في الهواء ، فاستعذبنا الاثنين .

البحر ! ذلك الحُط الأزرق على الافق امامنا ، ذلك العلم الأزرق على
ساحل العزلة العربية ، تلك الطريق الى الاهل ، الى الاوطان ، الى المدينة ،
وفيها الامل الكبير بالعود الى الحياة والجهاد . البحر ! ان الطف ما لقيناه
بعد صنعا . وتهامة وايهيج ما شاهدته آنشد العين انما هو البحر .

الفصل الرابع

الحديده

الاشباه - قصر الوكالة البريطانية - احتلالنا القصر - ضرب الحديده من البحر
- خراب الحرب - التنصل الانكليزي يخرب بيته طمعاً بالتمويض - قرينة
الحرب وقرينة السياسة - الاستفتاء - « نبي الترك » - « نبي الاتضام » الى
مصر - دخول الادريسي - القرض المالي - تأديب التجار - الزرانيق - التفرّد
والثقل في الاحكام - بيت القتيه - بيت بخسة بيوت وخسة رويس - من
من الامامين يستحق الحديده .

هوذا شيخ الحرب ! من مدافن الآرغون ، من خراب فرنسا في الشمال
جا . يلاقينا في الحديده . هو اول من حياً صامتاً عند دخولنا البلد ، اول من
وقف في الطريق يلفت الى حاله نظر الغرباء . ثم تبعنا كالظل ، وما توارى
عن الابصار الا في جوار السلطة والمدنية . فلا عجب ، ونحن ضيوف الاولى
وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية ، اذا نسيناها كما ينسى العابرين شجاذاً في
الطريق . نسيناها ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمد فضل الدين
وكيل بريطانيا العظمى السيامي في الحديده وسفيرا الى السيد الادريسي .
صعدنا الى الطابق الاول فاذا فيه صناديق من حديد ، صناديق كبيرة
ذات اقفال ضخمة ، كانت مملوءة في الماضي بالصكوك والاوراق ، وبالذهب
والفضة . هوذا شيخ آخر يجيئنا صامتاً ، شيخ القوة وراء العروش ، وفي
الحروب والجيوش ، شيخ المال . انما نحن في دائرة البنك العثماني ، ولم يبق
منه غير هذه الصناديق الفارغة وبعض المواعين المكسرة .

صعدنا الى الطابق الاعلى ، الى مكتب الوكيل وبيته ، ففتح لنا باب
من خشب الهند ففتح كبير ، نقشه يبهز الابصار ، ويؤهله لاعلى مقام في دور
الآثار ، فدخلنا الى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين

الهندية والطنافس العجبية، ومزينة جدرانها بالرسوم الهندسية والايات القرآنية .
وفي سقفها العالي من صناعة النقش بالدهان ما يدهش لونا ودقة غواة الفن
واربابه . والى احد طرفيها ، بين السقف والارض ، ردهة خاصة تجبها
شعرية من الخشب الهندي ، كانت مُعدة للحريم يطلن منها على القاعة تحتن
في ايام العيد وفي ليالي الانس والطرب . وهوذا شبح آخر يستقبلنا صامتاً ،
شبح الثراء ، والجاه ، شبح القصف والتترف ، شبح السرور والذات .

كان القصر الذي دخلناه لأكبر الاغنياء في الحديده ، بناه لعينه وقلبه
وشهواته ، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته . فصار بعد موته اجاراً للبنك
العثماني ، ثم بعد الحرب فتحاً للوكالة الانكليزية . وها نحن اقتداء بالانكليز
نحتل قسماً منه . فان حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحباً خيرنا في امرين اما
ان ننزل في البيت الذي اعده لنا واما ان نقيم واياه في القصر . ومن ساح
مثلنا في السن قلما يسي . الاختيار وقلما يستحي بذلك . قلنا نحدث انفسنا :
من المؤكد ان ليس في الحديده كلها مثل هذا القصر . ثم خاطبنا صاحبه
قائلين : ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا . فرحب ثانية بنا واصبحنا من
تلك الساعة شركاه بما يحسبه نعيماً ليس من جاء من الجبال فقط بل من
يحيي . من وراء البحار .

عجبنا لسماحة الوكيل وكرم اخلاقه عندما عدنا الى المرآة بعد غيبة
طويلة . فاننا كنا ، بعد شهرين فطنا الشعر عن المشط والمقراض ، كابناء
عسير في رؤوسنا وكابناء الروس البلشفيك في لحانا .

ولكنه ، امر اولاً باعداد الحمام ، ثم استحضر المزين الهندي ليعيد لنا
شيتاً من الكرامة في الاقل .

وكانت باسم الله بدامة احتلال دام شهراً فقط ، وبدامة صداقة لا تقاس
بمقياس السياسة ولا تقيد بعوامل الاحتلال واسبابه . اما الاشباح فكنا واسفاه

مخاطين دائماً بها . شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان . وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود اليه . وشبح الذوات كان يحف بنا ويرف فوق رؤوسنا ليل نهار ويؤلمنا في ساعات يسودنا فيها ما يسود الرجال . الا انه لم يكن يحزننا حزناً شديداً غير الاول . قد هربنا من دمار الحرب وويلاتها ، من ظلماتها في النفوس والعقول ، من فسادها في القلوب والاخلاق ، من محومها في الامم المتسدنة . وها هو شبحها في الحديدية يذكرنا بها ويرينا شيئاً منها .

ضربت هذه البلدة مرقين من البحر ، المرة الاولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الايطالية ، والمرة الثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آتني على الترك في فلسطين فكان ضرب الحديدية جزءاً من الهجوم العام . وكان قنصل الانكليزي يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تصدر منها الاوامر باطلاق المدافع . وكانت دار القنصلية ، بامر القنصل نفسه ، للهدف الاول لقنابل الاسطول ، لان فيها حسب ادعاء حضرته اوراقاً سرية . ولكن الاشاعات لا تثبت الادعاء . قيل ان القنصل دمر بيته ، امر بتدميره لان فيه فرشاً شا . حرقه طمعاً بالتعويض . وقد دفعت له الحكومة بعدئذ اضعاف قيمته تعويضاً . هذا شبح الحرب واثر من افسادها في الاخلاق .

وفي الحديدية واهلها غيره من الآثار المحزنة مما كنا نشاهده ونسمع به كل يوم . ميل في الناس ولا حجة ، امل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا قوة ، قوة ولا قصد ولا حسن نية . وبنائيات في المدينة ولا سقف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافذ ولا خشب ولا زجاج ، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، واخشاب تحت الردم وآمال ، وهجر في بيوت ذهبت القنابل بحياة اهلها ، وحزن تحت سقف هجرها الناس اما خوفاً واما فقراً ، ووحشة في اسواق كانت يوماً عامرة بالتجارة . أضف الى ذلك كله ما قد

يكون السبب في ذلك كله اي شكل حكم او « لا حكم » لا نرضاه لمولانا السيد ولا لاصحابنا الانكليز .

الحديده التي كانت من اجل البلدان العربية على البحر واكبرها تجارة . هي اليوم مجردة عن الاثنين . فريسة الحرب هي وفريسة السياسة . ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية تتجاذبها وتتقاسم ما تبقى فيها من حياة ومن امل . اجل ، هي بين الانكليز والسيد والامام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودها ، ولكن الحسد فيهم وبينهم يفوق الحب والاخلاص . فلا تركز الى احد منهم ، بل هي تتشى اذا ما اظهرت ميلها ان تفقد الثلاثة ، وهناك الطامة الكبرى ، هناك الزرانيق .

اما الشوافع فيها فهم لا يميلون الى الامام ولكنهم لا يرون في حكم السيد ما يعيد الى البلد شيئاً من تجارتها وبهايتها . وحضرة السيد لا يقدم على عمل سياسي او اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة لانه لا يتأكد انها ستكون دائماً في حوزته . والانكليز لا يتدخلون في غير ما فيه حفظ الامن والنظام لان موقفهم فيها انما هو موقف المقامر . فهي بيدهم الورقة المجهولة في الصفقة الاخيرة ، وبكلمة اخرى هي الفكرة المكونة في سياستهم مع الامامين .

وهناك فئة من التجار يبنون امام الزيد . فهم لا يرضون لا بالسيد ولا بالانكليز ، لانهم لم ينالوا من احدهما غرساً واحداً تعويض ما خربته مدافع الاسطول . وتراحم ، اذا ذكروا التعويضات ، يعودون دائماً الى قصة القنصل الذي هدم بيته جأبها . على ان الانكليز يتملصون من دفعها الى الاهالي بقولهم ان ذلك متوجب على صاحب الحديده ، وقد اهدوه المدينة ، جأب به او نكايه بالامام على السواء . ولكن صاحب الحديده يعني مع الهدية شيئاً من اسباب الحكم الاولى ، شيئاً من المال . فمن اين يجيء به ليدفع بعض التعويضات عن الانكليز ، وهو لا يجمع من اهلها زكاة ما يكفي لادارة شؤونها .

ان البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضاً . فان ادارة الحديد في يد خمسة من الحكام اولهم اسماً عامل السيد واخرهم رسماً الوكيل السياسي ، وبين الاثنين مدير الجمرك ومدير الشرطة ورئيس المينا يشاركونها في المسؤولية ووجع الراس . الا ان الوجع الاشد هو في العاصمة في جيزان . لذلك فوجئت الحديد ذات يوم بارادة ادريسية محورها قرض قيمته ثلاثون الف ليرة ، تُعطى به صكوك على الجمرك . فجلس العامل والوكيل نبض البلد و اشار بنصف القية . فتردد التجار وتأوهوا واعتذروا . وما كان السبب في ذلك غير الخوف وعدم الثقة . فانهم اذا اشتركوا بالقرض اليوم وانتقلت المدينة غداً من يد السيد الى يد الامام فمن يدفع الدين يا ترى ؟ لا لوم عليهم اذا ولا لوم على حاكم البلاد . وليت شعري من المعلوم ؟ الحالة السياسية وحدها ؟ ومن المسؤول عن هذه الحالة السياسية ؟ لا ريب عندي ان وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن اشد منه في الحديد وفي جيزان .

وبين جيزان وعدن وصنعا . قلب مدينة يجترق و كليس مدينة يئن . قلت ان الحديد تخشى ان تظهر ميلها وهي في هذا المثلث الزوايا السياسي . فقد اقدمت على ذلك مرة وكانت منها الاولى والاخيرة . عندما ضرب الانكليز البلد واتزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن الناس انها بداية الاحتلال فسر التجار بذلك خصوصاً الهنود منهم . وبعد ذلك - بعد ان غيرت الحكومة الانكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديد ومنهم صاحب التعويضات الذي مر ذكره ، وكلهم في الحمق والتصرف واحد ، غير التجار والاهالي رأيهم بالانكليز . فلما سئلوا رسمياً كما سئل السوريون مرة : من تريدون ان يحكمكم ؟ اجابوا بصوت واحد : الترك . فقال القنصل : هذا مستحيل . فقالوا : نبغي اذاً الحكومة العربية المصرية ، نبغي الانضمام الى مصر .

ثم جاء احد اعوان المعتد في عدن يمثل اخر فصل من رواية الاستفتاء .

فجلس في القصر ودعا اليه تجار المدينة واعيانها وسألهم ثانية فاجابوا كما اجابوا سابقاً . فأفهموا ان رجوع الترك الى الحديدة امر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين فيها . في ذلك الاثناء اي قبل انتهاء الفصل الاخير دخل المدينة معتمد السيد علي رأس طايور من العساكر الادريسية ، فحتمت الرواية في الشهر الاول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الادريسي الذي استمر منذ ذلك الحين . ليست هذه بالنتيجة الواحدة الغريبة لذلك الاستفتاء . ان له نتيجة اخرى ظهرت خصوصاً في التجار الذين جهروا بيلهم الى الاتراك والى المصريين .

عندما تأسست الحكومة الادريسية في المدينة استدعى العامل اليه اولئك التجار وهم خمسة الذين تولوا الزعامة فتكلموا باسم الاهالي ، وأشار عليهم ان يزوروا حضرة السيد في جيزان . فاعتذروا وترددوا . ثم استدعاهم ثانية ، وبينما هم ينتظرون في دار الحكومة احاطت بهم العساكر ، وكانت الركائب حاضرة ، فاركبهم وساقوهم امامهم الى العاصمة التي هي على مسيرة اربعة ايام من الحديدة ، فأزّلوا في القلعة هناك وظلوا سبعة اشهر اسراء فيها . ثم اعلوا بذنبهم وبالجزاء فدفع من يستطيع الجزاء مالا وقدم الآخرون ابناً هم رهائن « المحسوبة » والاخلاص ان مثل هذه الحوادث في حكومة فردية ابوية لا تستغرب ولا تستنكر اذا كان الفصد منها منفعة البلاد واهلها . ولكن المرء لا يرى في هذا الحادث وامثاله^(١) غير الاستفتاء والاستبداد . قد حان لامراء العرب ان يعدلوا في ما عيس بكرامتهم فقط عدلهم في غيرها من الشؤون .

لا عجب اذا كانت الحديدة تحشى الاستفتاء اذن وتحشى اظهار ميلها للسياسي الاسراء وهمساً في بعض الاحايين . قلت انها اذا فعلت تقع في الشر الاكبر، شر القرضي وما يتبعها من الغزوات ، من السلب والنهب والتدمير .

(١) راجع قصة الاسطول الانكليزي في صفحة ٥٥ من هذا الجزء

اما الانكليز فاعرب لا يبعونهم محتلين ، لا يبعونهم على الاطلاق . ولو لم يكن الوكيل السياسي مساهماً لما كانوا يقبأون به مهما كانت وظيفته وحدودها . اما اذا قاموا يطلبون الامام ، قبل ان يقرر الانكليز ان يعيدوا الحديدية اليه ، فيضربهم السيد ويستنفر عليهم القهراء ، وقد يغري بهم الزرانيق . واذا قاموا يثبتون حكم السيد فيها ويعلنون رغبتهم رسمياً فقد يحرك الامام عليهم اما زيوده واما من يستطيع استنفاارهم واستفواهم كذلك من الزرانيق . أيستغرب القارى . ذكر الزرانيق واحتمال نصرتهم في الامرين ؟ ان هؤلاء العربان لمن اغرب المستغربات في تهامة .

الزرانيق اشد القبائل التهامية بأساً ، واكثرها عدأً واكبرها قوة ، واقلها صدقاً ووفاء . هم لا يطيعون الامام ، ولا يطيعون السيد ، ولا يأنهون بالانكليز . هم مستقلون من كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها . بل هم ، مثل اشرف ذي الحسن في الحجاز ، قطاعر طرق وقرصان بجر ، يهربون السلاح ، ويتاجرون بالرقيق ، وبما عندهم من قوة حربية . بلادهم في سفح جبال اليمن بين الحديدية وزبيد في طرف تهامة الجنوبي ، وميناؤهم الاولى الطائف في حور غليفة . انهم يقسمون قسمين ، زرانيق الشام اي القسم الشمالي وزرانيق اليمن اي القسم الجنوبي . اما قوتهم الحربية فتدنون من عشرة الاف بندق ، ثلثها في زرانيق اليمن .

كان الزرانيق في ايام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة يأخذون المشاهرات من الدولة ، ويقطعون مع ذلك اسلاك التلنراف ، وينهبون في البر القوافل وفي البحر السنايبك . اما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء . هم دائماً يثلون في رواية تهامة السياسة دورين وثلاثة ادوار في وقت واحد ، ثم يميلون في النهاية الى من يزيد في المال او في السلاح . كان احد شيوخهم يفاوض مرة الانكليز يستنصرهم على الترك ويطلب سلاحاً منهم وذخيرة .

ثم قبل وظيفة من والي اليمن فصار قائمقام زيد . ثم نصر قبيلة القجره
عندما أسرت البعثة الانكليزية في باجل ، ثم ساعد من سعى في اخلاء سبيلها .
فلا عجب اذا مال قسم من الزرائق الى الامام يحيى اليوم وقسم الى السيد
الادريسي .

انت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم ، وتذكر انهم ارونا الرهائن .
اما الحقيقة فغير ما سمعت . واليك الخبر اليقين . جاء عدد من الزرائق ،
خمسة وعشرون ، الى الشيخ طاهر رضوان يقولون : للسيد القبيلة كلها ، ونحن
الكاقلون ، بشرط واحد . فأنخدع القائد واعطاهم ما يبغون من المال . ثم
عادوا - الرسالة لا تتم الا بدفعة اخرى - فلم ينخدع القائد ثانية ، فقبض
عليهم واسرهم وقيدهم بالحديد ، وادعى لغرض سياسي ان الزرائق كلهم
مع السيد - وهذه رهائنهم .

قلت ان في الزرائق سياسيين دهاة كما ان فيهم اصوصاً عتاة . لما اسر
قائد باجل رجالهم قالوا : هؤلاء اصوص تتبرأ القبيلة منهم ، بل انكروا
انهم من الزرائق . ولو كان من مصاحبتهم يومئذ ان يحاربوا الادريسي لكان
اولئك الرهائن من سراة القبيلة ، فيتذرعون بهم ويعلمون من اجلهم الحرب
على امام صبيا وجيزان . ان عند الزرائق شيئاً كذلك من الشرف ، شرف
الصوص ، ولهم الجوايس في الحديدة وفي باجل وفي بلاد الامام يحيى مثل
ما للحكومات المتسدنة . جاءهم الخبر ذات يوم ، كانوا ناقلين فيه على السيد
وعلى الانكليز ، ان سنوكين من السلاح اقلعا من الحديدة ووجهتهما جيزان ،
فاسرع قرصان الزرائق شمالاً ، فلقوا بالسنوكين . قطعوا عليهما البحر ،
اطلقوا عليهما وعلى عساكرهما الرصاص ، فقتلوهم وعادوا بالسنوكين غنيمة
كبيرة . ولما افرغوهما علموا ان احدهما ملك نوبتي في الحديدة لا ملك الحكومة
فاعادوه اليه ان لهم حتى في اللصوصية قواعد يحافظون عليها وحقوقاً يحترمونها .

واغرب من كل ذلك ما نراه في بلادهم من الادلة على ما في البلاد العربية من التفكك في عرى الاحكام والتفرد المضعف المهلك في السيادة .

ان في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديماً مشهورة بالعلم والصناعة ، هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام وزرانيق اليمن . وبيت الفقيه ايها القاري . حرة مستقلة ذات سيادة مطلقة ، لا تعترف باحد من الائمة ، ولا باحد من الاجانب ، ولا باحد من الزرانيق سيداً عليها . بل هي نفسها مقسومة خمسة اقسام خمسة احياء ، لا يزيد سكان الحي الواحد على الالف ، وكل حي هو مدينة حرة مستقلة ، يحكمه باسم الله وباسم الالف حراً مستقلاً شيخ لا صلة بينه وبين زملائه ، ولا يعترف لاحد منهم بشيء من السيادة ضمن حكمه . انه لأعجب ما كان وما يكون في الاحكام الحرة المستقلة . وبيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصب ساداتها ، وبفسق نساها ، ولبست في منسوجاتها كما كانت في الماضي .

لا عذر لحضرة الامام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف . ولا يمكننا ان نعزو ذلك الى النفوذ الاجنبي والدسائس الخارجية ، اذ لا اثر لها يذكر في بيت الفقيه وفي الزرانيق . ان مثل هذه القبائل العاصية العاتية ، المتاجرة بعصيانها وبقوتها ، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لا كبر العقبات في سبيل القومية الناهضة والوحدة العربية . ان البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح ، هذا الاجرام باسم القومية ، هذه الاصوصية باسم الاستقلال . ليبدأ كل امير في بيته ، فيحكمه باسم الله حكماً قاسياً عادلاً . ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان . ليحكمه بيد من حديد وبقلب لا يرى غير الحق ، كما يفعل اليوم ابن سعود السلطان عبد العزيز . فلا يهيم اذ ذاك من يستولي على الحديدية . وعندى ان من يستطيع من الامامين ، امام صنما . وامام صبيا وجيزان ، ان يغلب الزرانيق ويؤدبهم ويدخلهم في حكمه يستحق ان يكون صاحب الحديدية .

الفصل الخامس

اديان واشجان

العيد - لتقبل المهتمين - معرض من الشعوب - التراويح المختلط والتسل - لا
 حياة في الدين - لا دين في الترفيع - الهندوس - الفارسي - عيسى صواب -
 « ادين بكل الاديان » - الشركة الدينية لضمان الحياة الالهية - محاوره في
 سر الوجود والخلود - محمد فضل الدين الصوفي - التنصص - العقل سجن الروح
 - قصة الحكيم الصيني والبراشة - رموز زائلة لعتائق خالدة - صوفي يونس
 ملكا في تهامة - الاولياء والتوحيد - وصف حلقة الذكر - الكرامات والشعوذات .

العيد ا وحق لنا ان نعيد لاننا اشتركنا في رمضان مع الزيد ومع
 الشوافع ، فقل نومنا واكلنا ، وحرمتنا طيبات الحياة فقلت ذنوبنا ، وطاقت
 مثل النساك شعورنا ، وكثرت تفشقاتنا واوساخنا . العيد ! نهضت صباح
 اليوم المبارك فارتديت افخر ما عندي ، قيصاً حجازية بدوية ، و« قديمة »
 مكية ، وكرفية مزركشة هندية ، وعقالاً مقصباً شريفياً ، وزلت اهني .
 مضيقي وصديقي محمد فضل الدين .

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عالية تشرف على البحر فرشت
 بسجادة ووسائد فاصبحت ديواناً يجلس فيه الوكيل المحترم . هو عرشه ساعة
 الاستقبال ، ومكتبه في غير الامور السياسية ، والمرصاد الذي يرصد منه ما
 حام على الافق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق . وجدته
 صباح العيد جالساً على العرش معتماً بعمامة هندية وافرة ، طويلاً الذؤابة ، باهرة
 الالوان ، ويده سفر انكليزي في الفطريات كان يترجمه الى اللغة الهندستانية .

سلمت وهنأته باسم الله ، فأعجب بقيافتي واشركني في عرشه . ثم دخلنا
 في موضوع لا صلة له ظاهراً بالعروش والعمائم او بمرضان المبارك والنوافل
 الروحية . ولكن يتصل باطناً بها كلها . الدكتور محمد فضل الدين رجلا

مثل كل ذي فكر وعلم وحجى، رجل يعرفه الناس والحكومة الانكليزية وهو الملازم م. فضل الدين من اطباء الحكومة الهندية، ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس وهو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحية .

اما الرجل الاول اي طيب العيون ووكيل بريطانيا العظمى السياسي فتمتركه للناس . ليس فيه ما يميزه عن زملائه الاطباء والوكلاء السياسيين . ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني ، الرجل الهندي الذي لم يقفد في معاهد الغرب العالمية وفي الدوائر السياسية جمال ارثه الشرقي . ان افضل الدين قلب شاعر ، وروح صوفي . اصف الى ذلك انه مثلي جبلي . هو من قرية صغيرة في جبال الـ « بنجاب » التي تضاهي بجبالها جبل لبنان .

دخلنا الموضوع الذي اشترت اليه، وفيه تشابه العمام والشيخان وتضمحل اشكالها الظاهرة ، ووقفنا عند اول ابوابه لنستقبل اول مهنيء بالعيد السيد محمد العربي نامل الجديدة ومندوب الادريسي فيها . السيد محمد ابن عم حضرة الامام واكنه مصري المولد والقيافة والحديث . حلوا الشائل دمت الاخلاق . وقد كان في نيتي ان ازور المدينة ذاك اليوم مستطلعاً حال اهليها فجات المدينة تزورني في القصر لتمتني وشريك في العرش بالعيد . جاء الحديدون زرافات ووجدانا من موظفين وتجار ، وسوقة وسادة ، ونوتيين وادباء . وفيهم من اجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والايروني ، وفيهم من انواع المذاهب والاديان الشافعي والمالكي والحفي والزيدي والجمفري والاسماعيلي والماروني^(١) والفارسي عابد النار ، والوثني عابد البقرة ، والبوذني عابد اللاشي . في اللانهاية السرمدية . وفيهم من القيافات والازياء العباة والمقال ، والحبة والعمامة ، والصدرة والسراريل ،

(١) هو ترجمان قنصل فرنسا في الجديدة .

وقبص النوم والنعل ، والفوطة والعري الواناً واشكالاً . اجل ، قد عرض امامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب ، ومعرض اديان ، ومعرض ازياء . في الملابس والعري قلما نشاهده في غير مكان .

تعددت الشعوب في الحديدية ، بل في تهامة ، وامتزج دم السوداني بدم العربي ، ودم الصومالي بدم الهندي ، ودم الجاري بدم الايراني ، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة . ان صفاء الدم في النسل لأعز ما في الامم . وان حفظ الجنس والنسب مع الرقي العقلي والادي لا أجل ما في الشعوب . أفلا تتقرز من هذا الشريف الغائر العين ، الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني وهو من ابناء بنت الرسول ؟ أو تروك طاعة ذلك السيد صاحب العين اللوزية « جاوية صينية » والاذن المفلطح « تكروني دنقلي » واليد العربية الجميلة ؟ وهل تسرك رؤية ذلك ، هندي الام ، صومالي الاب ، عربي اللسان ، الاسلامي الدين ، ولا شيء فيه من صدق العقيدة ومن الفصاحة والحسن والبراعة ؟ فلا هو مسلم ، ولا هو عربي ، ولا هو صومالي ، ولا هو هندي ، لا في اخلاقه ، ولا في وجهه ، ولا في ملابسه ،

ان من يعتقد من العلماء بان امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسن النسل ليعبر عقيدته ، لينبذها اذا جاء الحديدية . ولو كان ذا الامتزاج يقرب اصحاب الاديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة الواحدة ، خصوصاً في الشرق ، بسيناته كلها . ولكن الهندي يظل هندياً ، والفارسي يظل فارسياً ، والمسلم يظل مسلماً ، ولو امتزجت في سائلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها .

كنت جالساً انا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائر احد الهندوس ، اصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين وتبوح بكل اسرارها ، فسألني ان اقدم له بيدي فنجاناً من الشاي . ففعلت ، فرفض .

ثم قدمه له فضل الدين فرفضه كذلك بامتنان. والسبب في رفضه فنجان الشاي؟ ان هذا الهندوس يتنجس منا من المسيحي ومن المسلم ، بل من كل من لا يعبد البقرة مثله . ولا خجل في فعلته ولا حياء .

وهناك من يلبس دينه كما يلبس ثيابه ، وهي قديمة ولكنها نظيفة ، باليد اليسرى دون اعتناء . ان المعلم الكبير اذدرشت رعية في الحديدية لا يتجاوز عددها الواحد الفرد . وقد كان يزورنا كل يوم فيزينا علماء بدينه الجليل وبحاله . هو خان باهادور الفارسي اصلاً ، الهندي بلداً ، الازدرشتي ديناً ، الازكليزي لساناً . خان باهادور ، وحديثه كزقزقة العصفور ، فيه تكسير وفيه تنعيم . على رأسه عمارة ابنا . جنسه ، شارة مذهبه ، وعلى قامته الطويلة «فراك» الاسلامبولي مزورراً تحت الذقن ، وتحت بانطالون افرنجي ابيض عريض ، وعندما يجلس يظهر خلال «فراك» طرف قميص بيضا . تدعى في دينهم «سُدرا» Sudra اي الصراط المستقيم ، وفيها جيب صغير يدعى «كيس صواب» اي كيس الافكار والاعمال الصالحة .

— ولكن الكيس فارغ يا مستر امين . لا شي . في كيس صواب —
السبب لا شي . تسألني ؟ تراني وحدي في هذه المدينة . منذ عشرين سنة انا وحدي في الحديدية مقيم بين اتاس لا يعرفون شيئاً من ديننا . يظنون اني اعبد الشمس . ومن يعبد الشمس في الحديدية ، هذه الشمس الظالمة المحرقة ، من يعبدها ؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة ، وكلهم مثلي بشر ، ابنا . اله واحد ؟ بدأت اشك في هذا الدين ، في ديني . لو كان الاله العظيم يهتم للحقيقة لما تركها وحدها في ادارة الفهوجي^(١) وقد يكون يهتم يا مستر امين . وقد لا تكون الحقيقة كلها محصورة بال «سُدرا» . كنت اشغل فكري كثيراً

(١) خان باهادور هو في الحديدية وكيل شركة بواخر الفهوجي بعدن .

بالاخرة ، فإين أدفن مثلاً وليس في هذا البلد برج من ابراج السكينة ؟ ^(١)
 في الهند نضطر ان نلبس مثل الهنود ، ونشكلم لغة الهنود ، ونظهر «نعيد»
 ابناؤنا ببول بقر الهنود . الفارسي يا مستر امين يقتبس كل شي . ها هنا في
 الحديدية ترى المسلم والنيان ^(٢) والمسيحي وكان فيها اليهود ، وتراني انا خان
 باهادور الفارسي الوحيد فيها اقتبس كل شي . ادين بكل الاديان . انا
 مسلم ويهودي ومسيحي وهندوس وفارسي ساقط لا ينفع . الصلاة ؟ اصلي
 قليلاً . فلو كنت اصلي مع الجميع لما بقي لدي وقت للتهوجي وبواخره .
 اتعرف يا مستر امين ان اليهود والمسلمين والنصارى اخوان لنا ، هم منا . بيننا
 وبينهم قرابة تتصل بازدرشت و ابراهيم الخليل . من هو ابراهيم الخليل ؟
 الا تعرف وانت العالم المطلع على كل شي . ؟ ابراهيم الخليل هو ازدرشت
 بنفسه ^(٣) هو نبينا ونييكم . اضطهد في ايران فسافر الى فلسطين ازدرشت
 هو خليل الله و خليل الله ابراهيم الخليل هو ازدرشت . لا تتعجب اذن من
 قولي اني مع الكل نعم يا مستر امين انا مع الكل . ولكني لا اخاف
 لاني متمسك بال«سُدرا» . البسها كما ترى دائماً ، و«كيس صواب» لا يظل
 فارغاً دائماً ان شاء الله . عندي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم .
 اسمه يرددها دائماً . فصرت ارددها مثله : الله كريم . اذا كان سراط خادمي
 السراط المستقيم فاتا معه . واذا كان في ضلال فهذه «سدرتي» يا مستر امين
 وهذه كذلك ال«كُنْتِي» حياتي مضمونة في الاخرة وان كانت في هذه الدنيا
 لا تساوي سجاراً في باخرة من بواخر التهوجي . الشركة الدينية ، لضمان الحياة

(١) برج السكينة Tower of Silence عند الفرس هو برج عال يضعون فيه موتاهم ليأكلها العقاب .

(٢) هم الهندوس او بالخرى التجار منهم .

(٣) هذا رأي في ابراهيم الخليل غريب . وقد سمعت في الهند اغرب منه اخبرني احد العلماء هناك أن بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله .

الابدية ، مؤسسها خان باهادور ، هي شركة قوية يا مستر امين . واحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي . الا تريد ان تشترك فيها ؟

الفرس يغسلون اولادهم ببول البقر^(١) والعادة هندية اتبعوها في الهند خوفاً من الاضطهاد . لكنهم يربطون على وسطهم اثناء الغسل ال « كستي » اي زنار الايمان ، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تقرؤها نساء الكهان ، ويرددون هذه الكلمات : الافكار الصالحة ، الاقوال الصالحة ، الاعمال الصالحة . وكل ما يجرز الفارسي منها يضعه في « كيس صواب » ايوم الحساب .

كان صديقنا خان باهادور يربط الكيس ، وهو شارة قدر طابع الهريد على قيضه ، ويقول : الكيس كبير يا مستر امين ولكنه فارغ . . . الله كريم .

خان باهادور يموت في الحديدية وتأكله العقبان وهو مرمي على شاطئ البحر . ولكن سيصلي من اجله المسلم والمهندوس والمسيحي . وكل واحد منهم يضع شيئاً في كيس صواب . الله كريم . الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية ، الله رئيسها يا مستر امين

كنا انا وفضل الدين نقضي ساعات في السماء على السطح تحت النجوم وحديثنا الحياة والآخرة وسر الوجود والحلود . وما احلاها ساعة انستنا السياسات والاديان كلها . ان في شخصية فضل الدين الروحية العقلية من الادب الشرقي ما هو مزيج من الاسلام والصوفية . بل في عقيدته الاسلامية شي . من الاسرار البوذية والقوامض الهندية ولا عجب اذا ظل هذا الاساس الهندي وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير . كنت اشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالاسلام ، دين التوحيد ، اني مثله مسلم . وكنا عندما نصل الى ذروة الوحدة الكلية نشعر بتأويلها من الفيوضات الكونية الالهية

(١) عجبت لكسرى وانشاعه وغسل الوجوه ببول البقر .

فتأكد ان ذلك اننا واحد في الشك وفي اليقين .

— اتعتقد يا فضل الدين بالتجسد ثانية وتكراراً ؟

— لا احب ان اعود الى هذا العالم وهذه الحياة . اما اذا كان في تلك النجوم حياة اخرى بشرية او روحية محضة فلا شك انها تكون اسمى من الحياة التي نحن فيها .

— يروعي التأمل بحدود الادراك في الانسان ، بل يملأني حزناً وغماً .
خذ العقل واركن اليه فيخونك في النور احياناً وفي الظلام . وراه ذلك الافق يهجرك او تحت هذه المياه . أو ليس من المحزلات ان يضمحل هذا العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه ؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب وبيننا ويعرف اجزاها والوانها وسرعة دورانها .

لا يدهشني ذلك ولا يحزني . في اضحلال العقل على ما اظن تتحرر الروح . العقل للروح مثل السجن للجسد . واطن ان الحياة مجردة عن الهولية ، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود بل عن الادراك البشري الذي يدور على محوره ولا يعرف غير الـ « انا » فيه ، هذه الروح خالدة وتحيا ما وراء الحدود التي تحزنك . واطن كذلك انها تكون مقرونة بادراك يوافق طبيعتها ، وعقل يوازي قوتها ، فتكشف حقائق في الكون جديدة ، وتغلب تدريجاً على العناصر المادية كلها . وقد تندرج في التجسد الى ادراك درجات التجسد كلها ، وادواره البشرية والروحية كلها . نعم يا عزيزي الريحاني ان العقل في هذه الحياة سجن الروح . وكثيراً ما اشعر بظلمه واتلم من قيوده .

— وما برهانك ان الروح تحيا حياة مستقلة مجردة خالدة بالرغم عن انفصالها عن العقل الذي تدعوه سجيناً ؟

— انها تحيا بسبب هذا الانفصال وليس بالرغم عنه . برهاني ؟ لا برهان عندي غير تلك الانوار ، انوار النجوم والكواكب . ان فيها ، في اشعتها

وفي فلكتها عقلاً يدورها ، وقد يكون ذلك العقل مكوناً من ارواح من تقدمنا من الناس . وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها ، منفصلة في الفردية متصلة في الجوهر الكلي . قد تكون تلك الارواح كنه الجاذبية في الافلاك .

— ارواحنا اذن تحوم حول تلك الانوار كالفراشة ولا تحترق ؟

— فراشة النفس ، نعم ، وهي من نور ، فتجذبها نار الحب نار الالهية اليها ولا تحرقها . وعلى ذكر الفراشة ، قرأت مرة قصة حكيم صيني حلم في نومه انه فراشة في بستان الجبور تنتقل من زهرة زكية الى اخرى . وعندما استفاق حزن جداً لما شاهد من حقيقة حاله فسأل نفسه حائراً باثراً : هل انا رجل يحلم بانه فراشة ام فراشة تحلم بانها رجل ؟

— جميل ، جميل . ومن يزيل الحيرة من قلب الحكيم ؟ يجيل الي يا فضل الدين اننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة . وكل حقيقة تتكون تكوناً روحياً جديداً كلما طوي رمزها . وفي كل تكون ترداد انتشاراً وقوة وحباً . فيكون رمزها في هذا العالم شبيهاً بها ، مثلاً لها ، عظيماً في الناس . ويستمر هذا الطي والنشر ، هذا التجسد في الرمز والنسب في الحقيقة ، الى ان تجتمع ، وها هنا معنى جمع الجمع في نظري ، بالفيض الاولي الاكبر ، الفيض الالهي . فيكون في ذلك اوج مجدها ، النهاية في اللانهاية ، ويكون اخر التجسيدات لرمزها المادي البشري . هذا ما تراه عين البداة في التجسد والحلود ، وهذا ما افهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي .

— ولكن عقلك لا يثبت ذلك . العقل عدو البداة . العقل — اعود الى ما قلت — سجن الروح .

— وما دمنا في السجن لا اري اصلح من البداة غذاء وهواء . وفي البداة كذلك شيء من الخيال هو خير التعزية اذا نكب البرهان .

- وما الفرق بين الحيال والاوهام الدينية ؟
- الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد خادملك العبد بالجنة .
- وهل تسميها جنة العبيد - عبيد الاوهام ؟
- قد سماها من هو اكبر منا^(١) بجنة البله .
- اني افضل ان اكون فراشة .
- فراشة من النور تجذبها اليها نار الالهية ولا تحرقها ؟ اني اشاركك في التفضيل .

في صباح اليوم التالي اهداني صديقي كتاباً صغيراً ما عرفت من عنوانه شيئاً من اغراضه . ولكن مؤلفه السيد احمد بن ادريس مؤسس الحكم الادريسي في عسير هو من اولئك الروحين الذين يرفعهم محمد فضل الدين الى مقام ابن العربي وجلال الدين الرومي . امر عجيب يتلوه في تهامة امر اعجب . كيف لا وهذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالمياً ، الطريقة فيه اساس الحكم ، والحكم اساس الطريقة . ولكن الطرق تفسد التصوف فكيف بها في الاحكام ؟

لمسري ان اجل البكالات التي نتمناها محققة في الحياة هي تلك التي تقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالاعمال الاجتماعية والسياسية والادبية كلها . فتصفو مجاري العقل في مواردها ، وتدق خيوط النفس في منسوجها ، يتقل الجشع والحذاع والوهم في فروع الحياة الثلاثة المذكورة . ولكن والصف اجتهاد شخصي ، ونعمة فردية ، لا تورث ولا تعلم ولا تُنشر بالاجازات . ومن الاسف انه لا يبقى منها ، بعد موت صاحبها ، غير الطريقة او الحلقة وخرابلاتها ، والمشايخ وجوزراتهم .

قال فضل الدين عندما اهداني الكتاب : الجهل المخيم في هذه البلاد

(١) ابو حامد الغزالي .

يفسد اغراض هذا الرجل الكبير . تجي . المرأة الي وهي تشكو من مرض
او الم فاعالجها فلتشفى بفضل « الشيخ احمد » . يحي . العربي وهو يصرخ من
اوجاعه ويصيح : جربي يا شيخ احمد يا شيخ احمد لا تنساني ! يغيظني هذا
الاشراك بل هذا الكفر . اكاد اجن منه . قلت مرة لاحد المرضى : رح
الي الشيخ احمد يداويك . ورفضت مرة ان اعالج امرأة حتى انتقلت في
استغاثتها من الشيخ احمد الي النبي . فصحت بها : لا احمد ولا محمد يا كافرة .
استغيثي بالله : اتكلي على الله وحده اما حلقة الذكر فستشاهدها
باذن الله في الحديدة

وكان قد توفي فيها يومئذ شيخ الطريقة المرغنية^(١) فاشتركت الطرق
كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المسلمين واستمرت خمس
ساعات . صحبني تلك الليلة الي مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة
وكاتب العامل وأحد اصحاب فضل الدين . فجلسنا في منصة في صحن المسجد
اشرفنا منها على الحلقة كلها . وكان الناس جالسين على الارض في الفلاة
وعلى الحصر في الايوان ، ووقف في الايواب وحول الجدران جمع من المتفرجين ،
وجلس في الصدر في حلقة خاصة ابنا . الشيخ المتوفى ومشايخ الطرق الاخرى ،
وبينهم سراج منير وقارى . كان يقرأ ساعة وصولنا المناقب التي تفتتح بها
حلقات الذكر

ان المناقب شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ، فهم يعددون
فيها فضائل الفقيه ، فيجيتون بنذرة من سيرة حياته ، ويذكرون بعض
كراماته . استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة ، وعندما وقف القارى .
الوقف الاخير فيها هتف المصلون : آمين . ثم ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة
يرثي فيها الفقيه الابرو فكانت مثل المناقب طويلة ، وما كنت وحدي

(١) الطريقة المرغنية لاجد المرغني الذي اخذ عن احمد بن ادريس هي احدى الطرق
الاحمدية الادريسية في عسير وعدن والسودان .

معضجراً . قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق عن جبينه : طويلة ، والله
طويلة . الشيخ يحتاج الى الصلاة لا الى الاشعار .

ولكن الشعراء . لا يملون استماع قوافيهم . هوذا اخر لا حسنة حتى في
صوته . ولا حق جعلنا نترحم على السابق . ثم هتفنا مع المصلين : آمين ،
آمين . وكان الحر شديداً ، والهواء ساكناً عنيداً ، لا يحرك منه لساناً ،
فينعش قوانا ، والرطوبة اثقل ما فيه ، والزوجة افجع قوافيه فاستجرونا منه
بروح الشيخ الطاهرة ، ورفعنا الادعية والطلبات الى سدتها الجليلة الباهرة :
يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كريمة ابي حنيفة ، يا مسكنة الشعراء ، ومنطقة
الاولياء ، يا مسكنة النهقات ، ومحركة الحلقات ، اسمعنا ، ارحمنا ، آمين .

استجيب في الحال طلبتنا ، فوافت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء
الآخر ، ووقف الشيخ احد ابنا الفقيه في وسطها فحركها باسم الله . بدأ
بصوت هادي . وشارة لطيفة ، بدأ بـ « لا اله الا الله » . فالت الحلقات الى
الامام ، ومالت الى الورا ، وراحت تكررهما وتردد الشهادة . وكان صوت
الاربعمئة مصلياً ، وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمئة مجلياً ، وكأنها
حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ وبشارة يئناه ،
وهو يجول في الحلقة مستحثاً محرضاً .

آلا الله ! وضرب كفاً على كف فرددت الحلقة : آلا الله ! بسرعة لمح
البصر ثم امست كأنها تصيح : لله لله لله ، وسكمت فجأة كمن أنغمي عليه .
ثم عادت تدريجياً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله .
وجلس الشيخ . فقام آخر يشب وثباً ويقول : حَيْمٌ حَيْمٌ ^(١) . شرعنا نتقدم
هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حَيْمٌ حَيْمٌ ! وتحركة الحلقة حركة
سريمة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ثم نطحاً في الجو ، واستمرت في

حُمٍ قِيمَ نصف ساعة والشيخ يشب في وسطها ويحلج، ويصفق كفاً على كنف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم نهض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة سنأ ، وهو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث انتهى اخوه . وكان يتلوى كالسكران ، ويرقص تارة ويشب طوراً كالمجنون . مثل الولد دوره تمثيلاً ادهش حتى الذين الفوا الحلقات ومدعشاتهما واضحكهم كذلك . كهرب الولد الحلقة . اضرم فيها النار .

قبض على ما تبقى من رشداه ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات ولم نعد نفهم ما يراد . الا انها اشبه بالانين . كأن الاربعمئة رجلاً اصيبوا باللم شديد فأثروا انة واحدة . وبدأت تظهر كرامات الشيخ . هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه . وذلك وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط فسقط صريعاً مغنى عليه . وهاك من يبغى الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد فامسكه رفيقاه فتفلت منهما وضربها ، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد . سقط امام الولد الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضا . طويلة والزيد يسيل من فيه عليها ، فوثب فوقه ولم يأبه له . وهذا آخر يخلع ثيابه .

« خلعت عذارى واعتذارى لابس ال . خلاعة مسروراً بجلمي وخلعتي » رمى بعمامته وبجبتته وبدناره الى الارض . فاوقفوه عند هذا الحد واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية . استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الظاهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كريمة ابي حنيفة ، يا مسكنة العباد ، ومنطقة الجماد ، يا ربة الحال ، وسراج الترحال ، قفي ، والطفني . لا تقتلينا بالكرامات ، ولا تسكريتنا بالشعوذات ، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات ، امين ، امين .

الفصل السادس

احمد بن ادريس والتصوف

قطبا الصوفية في العالم الاسلامي - مولد السيد احمد - يدرس ويدرس في فاس - اجتماعه بالشيخ عبد الوهاب التازي - العلم بالغيب وما يدعى عند الاقربح Clairvoyance - اجتماع التازي بالشيخ عبد العزيز الدهاء - اجتماع الدهاء بالمختصر الي العباس - الطريقة الاحمدية - « امرنا شاه جد . من يُعطي الجد يُعطي الجد » - السيد احمد في مكة - رحلته في تهامة - انتشار الدعوة - وفاته في صيبا - تلميذ الشيخ ابراهيم الرشيد - الطريقة الرشيدية وترحاتها - آيات صوفية - فلسفة الزهد والفقر - الامام علي وقلب النجان القتالي - المجيدري يأخذ عن قطب النجان والسيد احمد عن المجيدري - معاهد وصلوات وتلحات - استعارات صوفية - الساكنون والمعوزون .

كُتبت عند وصولي الى الحديدية كتاباً الى السيد محمد امام صيبا وجيزان استأذنه بزيارته ، وبت انتظار الجواب . وانتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق فصارَت تعمل يوماً في الاسبوع وتعيد ستة ايام فعيدت معها وكان سروري مزدوجاً لاني اجتمعت ايام العيد بقطب دائرة التقديس ، السيد احمد ابن ادريس ، كبير بيت الادارسة ومؤسس ملكهم في عسير . وفزت بطرفة من ترجمة حياته ، وبنفحات من قدسياته ، فجنث امتع القارى . بها عله اذا كان مادياً يستفيد ، واذا كان روحياً يستريد .

ان في العالم الاسلامي قطبين للصوفية وموردين هما ايران وبلاد المغرب . والسيد احمد ، نور من انوار الثاني . فقد كان شروقه ينعكس الكواكب من الغرب وغروبه الظاهري في الشرق في بلاد العرب . ولد في بلدة العرائش على ساحل البحر من اعمال فاس في السنة الثانية والسبعين ، والمئة بعد الالف (١٧٥٨ م) وهو شريف حسني من السادات الادارسة المشهورين في بلاد المغرب . درس العلوم في مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في « ما شاء الله » اي

في المواضيع التي شامت الغزوة السرمدية تلقينه آياها بالوسائط وبدونها .

كان السيد احمد وهو في الدور الاول من استشفائه على الاسرار الالهية والكونية يكثر التردد على المشايخ العارفين الابرار الذين اصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك .

اما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد احمد في فاس فقد صار بعدئذ شيخه الاكبر ونور طريقه الانور . ولا اهمية للسنة في المرحيات ولا للشيخوخة في الربانيات . فمن جمال هذه الارواح القدسية وكالاتها ان المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف ان يأخذها ، وهو شيخ طاعن في السن ، عن تلميذه بل عن احقر الناس واصغرهم لديه .

قد اجتمع السيد احمد بشيخه التازي بواسطة عالم من علماء شنقيط يدعى المجيدري ، وكانت في الاجتماع الاول فاتحة الالطاف والاشراف . ولا عجب اذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته يفتح له باباً او يشير الى باب من ابواب الحقيقة الكلية الازلية . اني اتصور المجيدري يقول للتازي : هذا الشاب الادريسي مجد مجتهد ، وهو على سنه طويل الباع في علوم اسرار الكتاب والسنة . فيقول التازي : قد علمت بذلك قبلك . سمعته في هادي . امره يدرس فقلت في نفسي : لا بد ان يشرق على كلماته نور الاذن الرباني . وها دنّت الساعة يا مجيدري ، ابتني به فاجعه برسول الله .

وكذلك كان . ذهب السيد احمد مع المجيدري الى الشيخ عبد الوهاب واحس من اول لحظة ان ها هنا الباب الاول ، ها هنا سراج الطريق . فلزمه وانقطع اليه بكليته . وقد كان للتازي في ساعات احوال نظرات تحترق استرة الغيب فيرى ما لا يُرى ويشعر بما يحدث بعيداً عنه على الطريقة التي يدعوها علماء اليوم Clairvoyance منها انه عرف وهو في فاس بموت المجيدري ساعة وفاته في شنقيط . وقد علل الشيخ التازي للسيد احمد هذا العلم بالغيب

تعليلاً لطيفاً جديراً بالذكر. ان المرئي او الواسطة الاولى بين النفس والمصادر الروحانية اذا اتجه في ساعات أحال الى احد تلاميذه يراه بعين الغيب ويراه ما دام حياً في حالات شتى ، « تارة انور وتارة اظلم بحسب سلوكه وطاعته ، وتارة اقرب الى الله وتارة ابعد » . اما اذا رآه على حال واحدة في المكان الذي يعمده فيه فيستنتج من ذلك انه مات . أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الانسان اطلاقاً ؟ هو ما دام حياً متقلب ، او بالحري يتنازعه دائماً عاملان ، عامل الخير فيقربه من الله وعامل الشر فيبعده عنه تعالى . ولا يوحد العاملين او يزيلهما الا الموت .

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد احمد غير الواسطة الاولى . اما الثانية وهي بشرية كذلك ، فتجسده بالحضر ابي العباس . الا انه قبل ان نصل الى الحد لا بد من الدخول في الباب الثاني اي شيخ الشيخ التازي . نعم قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس . وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ستة وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشر سنة منها .

قد اخبرتك كيف اجتمع الادريسي بالتازي ، فاخبرك الان كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ . يظهر ان شيخ سيدي احمد كان تاجراً في اول امره ، او انه كان يتجر في بعض الاحايين ارتفاقاً . فمر يوماً بالدباغ وهو يريد ان يتجر في الخنطة فدنا الدباغ منه وهمس في اذنه : لا تتجر في الحب والتجر في السن . اشتره من يوم كذا وبعه في يوم كذا ولا تبقه بعده . فعمل التازي بما قال فربح ربحاً كثيراً . فجاه اليه شاكراً . فقال الدباغ : ليس المقصود هذا ، وانما المقصود ان تتجر تجارة لن تبور ابداً . فقال التازي : كيف ذلك ؟ فاجاب الدباغ : اخرج مما ملكت يدك فنصدق به . فعمل بامره ولزمه منذ ذلك الحين واطلع على اسرار في العلوم والتفسير تلقنها

بواسطته من الحضرة ابي العباس . وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه
الدباغ وكان هو وتلميذه الادريسي يزوران ضريحه وينشدان هناك الاشعار .
لقد نبئت في القلب منكم محبة كما نبئت في الراحتين الاصابع

.....

تعشقتكم طفلاً ولم ادر ما الهوى فشاب عذارى والهوى فيكم طفلاً

من كرامات التازي انه غاب عن بلده مرة يذكر اخوانه في الله مات
ولده فأخبر بذلك فارس الى اهل يقول : لا تدفونوه حتى احضر . فحضر
بعد ثلاثة ايام فخطب ابنه قائلاً : من قال لك تموت ؟ ثم باذن الله . فقام
الولد حياً . ان كاتب الترجمة التي اعتمد عليها يذكر هذه الكرامة كأنها
حدث عادي مألوف . واني ناقل الخبر حياً بنشر ما اظنه ظلماً الهياً حقيقة كلية
لا بد في مستقبل الانسان والايمان ان تصبح قوة من القوى البشرية العامة
يستخدمها صاحبها لخير الناس . يستخدمها في الشفاء من الامراض على الاقل .
فاذا مرض احد في بيتك تقول له : من قال لك تمرض . اشف باذن الله تعالى
فيشفى في الحال . وكان التازي يهذر احياناً بين اصحابه امتحاناً لهم ، فيقول
مثلاً : وددنا لو جاءنا احد بشر من القوقاس ، او بعنب من البحر . فيقول
بعض اصحابه : كبير سن الشيخ . ولكن السيد احمد ، وقد كان اطوع له
من بنانه ، كان ينهض فيتهياً ويتروود للسفر ويجيء الى شيخه فيقبل يده
مودعاً ويقول : سأجني لك بعنب من البحر . فيقول له التازي سرأ في اذنه :
يا احمد امرنا كله جد ، من يُعطِ الجد يُعطِ الجد .

ما اكبرها وما اجملها كلمة . اخذها السيد احمد عن شيخه التازي وجاء
بها الى مصر . من يُعطِ الجد يُعطِ الجد . كان يومئذ في العقد الرابع من
العمر ، فاقام في ارض الكنانة قليلاً ثم سافر الى مكة فاقام فيها ثلاثين
سنة يجادل ويناقش العلماء ، ويشرح ويعلم العوام الروحية . وكان يقول دائماً :

لكل نبي دعوة مجابة ، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة . هذه هي نقطة الخلاف بين السالكين من سنيين وشيعيين وبين اهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذلك الحين على الحرمين .

اما اذا قبلت قاعدة السيد احمد فينبغي لك ان تقبل كذلك نتائجها . فتقول ، والمنطق اساس المعقول : ولكل شيخ طريقة عند وليه طلبة مقبولة ، ولكل سالك عند شيخه شفاعة ، ولكل امرى عند السالك مثلها الخ . هذا نظام في العقيدة والايان يفسد غالباً الغرض السامي منها . قد رأينا مثلاً منه في حلقة الذكر . وهناك امثلة اخرى عديدة في من يلجأون الى الاولياء . والى المشايخ ، بل الى الاشجار والاحجار عند ضريح من كان من الابرار . ليس المقام مقام جدال في الدين وتفضيل بين السالكين والموحدين . ولكي اقول ان السالك الحقيقي يصل في نهاية امره اللهم اذا كان مجدداً مخلصاً الى اسمى درجات التوحيد .

هذا السيد احمد ابن ادريس الذي لم ينقطع قط عن صحبتة المشايخ العلماء . يأخذ عنهم وعن المتقدمين من السالكين حتى قيل له من الحضرة الالهية : لم يبق على وجه الارض احد تنتفع منه الا القرآن . فقضى بعد ذلك سنيماً عديدة لا يشتغل بغير الكتاب وتفسير آياته ودرس حقائق معانيه . واظن انه قال اثناء ذلك كلمته الماثورة : طريقتي سُم السعادة . ثم تدرج منها الى كلمة اكبر واجمل : طريقتي ما فيها كون^(١) القدم الاول ها هنا والثاني عند الله . هوذا الصوفي في اسمى درجات التوحيد .

قد تدرج السيد احمد في الوسائط كذلك . فقد كان بينه وبين النبي كما تبين واسطتان بشريتان هما التازي والدباغ وواسطة روحية هي الحضرة

(١) يريد بالكون الوجود بعد الدم والعدم بعد الوجود . اي لا عدم في طريقته سابقاً ولاحقاً .

ابو العباس. والحضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الواسطة بينه «ص» وبين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به ويأخذ عنه في اليقظة وفي المنام. وكذلك السيد احمد، فقد استغنى رويداً رويداً عن الوسائط كلها، كما استغنى بالقرآن عن العلماء اجمعين، وصار في آخر امره - ويصح ان نقول في بداءته - يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام.

قال السيد احمد: اجتمعت بالنبي اجتماعاً سورياً ومعه الحضر فامرته النبي ان يلقتني اوراد الطريقة الشاذلية^(١) فتلقنتها بحضرتة «ص» ثم لقتني بامر من النبي ايضاً سائر الاذكار والصلوات. ثم رفع النبي السيد احمد الى مقام الحضر وصار يكلمه بدون واسطة: يا احمد قد اعطيتك مفاتيح السموات والارض وهي التهليل المخصوص^(٢) والصلاة العظيمة^(٣) والاستغفار الكبير^(٤) المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والاخرة. وقد قال له مخصوص الاستغفار الكبير: خزنتها لك يا احمد. ما سبقك اليها احد. علمها اصحابك ليسبقوا

(١) قد سمي السيد احمد طريقته احمدية نسبة الى اسمه وهي تدعى كذلك في تمامه وسببها اما عنوانها فنون الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادمية مسلكت الشاذليين. وقد كانت طريقة التايزي شاذلية ناصرية تنصل بواسطة شيخ بني ناصر في المغرب بالشاذلي. وطريقة بني ناصر هي في نظر المارفين اشرف الطرق الشاذلية هناك ولا يسبحون بها الا للعلماء.

(٢) اي لا اله الا الله في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله

(٣) منها: اللهم اني اسألك . . . ان تصلي علي مولانا محمد ذي القدر العظيم . . . صلاة دائمة بدوام الله العظيم، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً، يقظةً ومناماً، واجعله يا رب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الاخرة يا عظيم - كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٨٢

(٤) منه: استغفر الله العظيم . . . واتوب اليه من جميع المعاصي ككافها والذنوب والاثام . . . من الذنب الذي اعلم ومن الذي لا اعلم عدد ما احاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم . . . كما يبني لجمال وجه ربنا وجماله . - كتاب الاحزاب

فيها الاوائل .

لعلمي ان من يتجه بكل قواه العقلية والروحية والقلبية الى كتاب او الى امر او الى عقيدة او الى طريقة صوفية كانت او تجارية يرى منها ومن نفسه العجب . فكيف لا يجتمع بالنبي من قضي ستين سنة يفكر بالنبي ، ويقرأ ويردد كلمات النبي ، ويتوسل « بالصلاة العظيمة » الى النبي في اليقظة وفي المنام ؟ ان صورة اصولها في قلبي كل يوم لتنعكس امامي من حين الى حين فاراها بالعين المجردة كما اراها بين الحلم والروح ، وان شئت فقل بعين الخيال ، واسمها كذلك تنطق بما طالما حملت به ورددته مراراً وتكراراً ، يقظة ومناماً . فضلاً عن ان السيد احمد الذي ابتداء بالتأزي معلاً وانتهى بحمد اصبح والنبي شيخه الاكبر ونوره الانور . وهو اي السيد احمد القائل : الاستفادة من شيخك اكثرها يكون بالتوجيه القلبي . اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه ^(١) هوذا الصوفي الحقيقي يتكلم . وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة .

اما من وجهة علمية عرفية فقد كان السيد احمد سيد العارفين وقطب المحققين ، جامعاً بين علمي الظاهر والباطن . وله فيها الباع الطويل على الاخص في علمي القرآن والحديث « رواية ودراسة » كما يقول صاحب الترجمة « وكشفاً وتحقيقاً » وهو يريد بذلك المعقول والمنقول ، الحقائق الوضعية والتقاليد ، ما روي منها وما ادركته البهامة وأقره العقل . واني ازيدك من كلام كاتب الترجمة ما لا غلوف فيه ولا مبالغة : « قد خصه الله بالمواهب

(١) وأسألك يا الهي ان تحققي بشهود ذاك اذا الجلال تحقياً كلياً وشهوداً عينياً يستغرق جميع ذاتي وصفاتي وجملة اجزائي وكلياتي ويخرجني من شهود كل شيء . سواك وأسألك باسمك العظيم ان تمنعني في شهود تجليات ذاك بالبين التي لا يجذب عنها شيء في الارض ولا في السماوات وأفض على جميع ذاتي لذة ذلك الشهود حتى اكون كلي لذة ذاتية الهبة سارية في نفسي من نفسي لنفسي . - كتاب الاحزاب

المحمدية والعلوم الدينية^(١) والاجتماعية الصورية». كل هذا صحيح شريف .
 واشرف من الاثنين الاخرين الاول ابي تحلقه باخلاق النبي او ببعضها .

على ان هناك امرأً يختص بعلوم السيد احمد قد يُظن في ظاهره الشعوذة
 التي اجله عنها . ولكنه استحال علي فهم السر في يده . فقد كانت كما قيل
 لوح العلم المكنون ، ينظر اليها فيرى ويسمع ما وراء المحسوس والمظنون .
 بل كان اذا سئل عن شي . في القرآن ينظر الى باطن كفه ثم يشرع يفسر بنا
 شاء . من العلوم الدينية . واذا سئل عن حديث شريف ينظر الى ظاهر كفه
 ثم يتكلم بما يبهر العقول . فما الصلة ياترى بين كفه وبين تلك العلوم والاسرار ؟
 حبذا لو اذن للشيخ السنوسي بشرح « احزابه واوراده » . فقد يكون تمكن
 من اماطة النقاب عن هذا السر في طريقة السيد احمد وفي يده . ولكنه لم
 يأذن للسنوسي بشرح الاحزاب خوفاً من ان تفسدها الشروح . فقد قال له :
 لا تحريها يا ولد السنوسي ، انما شرحها في جنة عدن .

اما السيد محمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحج بالسيد احمد
 الادريسي فهو من علماء المغرب الكبار . وقد أعجب جداً بالسيد احمد ولزمه
 مدة اقامته في مكة ، فاخذ عنه واذعن له الاذعان التام . لذلك ترى الطريقة
 السنوسية في كفرة اليوم جامعة بين الادريسية والشاذلية . ولكنها تدعى
 محمدية لاتصالها بواسطة الادريسي فالتازي فالديباغ فالخضر بالنبي . وقد عادت
 الى الغرب بواسطة السنوسي ، وسارت الى افريقيا بواسطة محمد المجذوبي
 السواكبي ، احد اولياء السودان « الشهير في وقته بين الخلائق » ، بالكشف
 الصادق ، والكرامات الخوارق . فقد صحب السيد احمد مدة عديدة واخذ
 الطريق عنه .

(١) العلوم الدينية التي هي من لدته تعالى اما رأساً بالوحي وبالبداهة واما بواسطة
 بشرية او روحية .

ثم انجبه القلب الى اليمن، فبعث الله منها احد السادة، جاء مثل السنوسي للحج . وليس خيراً من مكة لمن يروم الصيد، صيد القلوب . كلها تحوم هناك . جاء السيد عبدالرحمن بن سليمان الاهدل^(١) مفتي زبيد في عصره فالقى السيد احمد فيها « كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الاليم » ولما عاد الى وطنه حدث في زبيد عن شيخه الادريسي واثني عليه كثيراً . ثم كتب ترجمته في كتاب دعاه النفس الياني والروح الريحاني . وبين هو وبعض العلماء يوماً في ذكر كراماته - بذكر الصالحين تنزل الرحمت - هزهم الشوق اليه، ومثلهم الوجد بين يديه، فقال السيد الاهدل : هذه ساعة الاجابة ان شاء الله . ارفعوا ايديكم بالدعاء . ان يأتي الله به الينا . فلما تم المجلس قال : أرخوا اليوم وهذه الساعة . وكان في مكة يومئذ ان حرك الله داعي السفر في قلب السيد احمد ثم امر به فخرج يبغى مريديه يوم هاجهم الشوق اليه . وعندما وصل الى تهامة كان اول نزوله في زبيد عند السيد الاهدل عبدالرحمن .

جاء الادريسي اليمن مبشراً بعقيدته، داعياً الى طريقته، ناشراً ما منحه الله من علوم اسرار الكتاب والسنة . وكان حيثما نزل محترماً مبعجلاً، فنظمت في مدحه القصائد وتبارى في ذي الحلبه شعراء . زبيد وبيت الفقيه وتيزر ووصاب، وتهافت عليه الناس خاصة وعامة يستنيرون بشكائهم ويتنفعون بهركاته^(٢) بل كان العلماء والمشايخ له سامعين، ومنه اخذين، وكانت زبيد نقطة دائرة اماله . اقام اول مرة فيها عشرين يوماً، وعاد بعد ان ضاف في تهامة اليها، فاقام فيها بضعة اشهر، فاخذ الناس يتسابقون الى اقتبال دعوته

(١) السيد عبد القادر الاهدل في مراوغه اليوم هو حفيد السيد عبد الرحمن واحد افاض العلماء هناك

(٢) ولقد امل عافاه الله من تلك الرقائق والحقائق ما استنارت منه قلوب سليمة، وتداولت من جراحات غلغلا قلوب أليمة . - من كتاب النفس الياني والروح الريحاني .

ونشر طريقته ، التي اجازها للسيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل هو واولاده اجازة عامة « في جميع العلوم المقربة من الله تعالى » . ولا تزال زعامتها في بيت الاهدل الى اليوم .

كما يحزن في اخبار رحلة السيد في اليمن ان تلك البلاد كانت منذ مئة سنة ارقى مما هي اليوم . فقد كان اهلها متيقظين ، وفي العلم راغبين . فكان الشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى ، واليوم لا نجد في تهامة كلها شاعراً واحداً ينظم باللغة الفصحى . اتلوم الترك الذين حكموا بعدئذ البلاد ، ام نلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس . لني متيقن ان لا تصوف في الجماعات ، وقد استحال عندهم طرقاً وحلقات .

عاد السيد احمد شمالاً في رحلته فزار الحديدة ومراوغه وهاجل ثم صيبا البلدة المشهورة القريبة من ابي عريش ، فاستقر فيها واستوطنها ، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفية ، وفاحة الطريقة الاحمدية .

شرفت صيبا بكم فقدت مورداً للعلم والتزل
ليت شعري ما الذي فعلت فعلت قدراً على زحل

ان اخر من اخذ عنه اثناء اقامته هناك هو الشيخ ابراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية . فقد صحبه في صيبا مدة السبع السنوات الاخيرة من حياته فاغتم فيوض بركاته حتى النفحة الاخيرة منها التي فاضت من نفس السيد احمد ورأسه الشريف على ركبة تلميذه ، وذلك في تسعة بقين من رجب في السنة الثالثة والخمسين والمئتين والالف (١٨٣٧ م)

قد قيل ان الرشيد كان اقرب الناس الى شيخ صيبا ووليها ، وارسخهم قدماً في علومه واسراره . ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما ينفي ذلك . حلقة حضرتها في عدن فيها الولدان ينغمون ، ورجال بطيون ويتصابون ،

وصغوف من الحسن والشوق تميل بعضها الى بعض ، وعيون ترنو الى القمر في السماء ثم الى الاقار امامها ، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل بل التشيل . انه في تعليم الولدان ، لاستاذ بارع يعلمهم الغناء والحداء والسجود ، فيستصي في اذكارهم الجمود ، ويغرس في الحلقة سر الوجود - خاتمة المحامد والورود . ان مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جداً . واني اجل السيد احمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان ، واعتصم بروحه الشريفة الطاهرة منها .

حققتي يا الهي بانسانيتي حتى اكون انسان العين الكلية الالهية التي لا يحصرها شيء . ولا يقدر قدرها سواك .

واسمعي غاية لذيذ خطابك ومحادثتك في كل حال من احوالي بجميع كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات اجزاء ذاتي من ذلك الجامع الالهي لحظة ولا اقل من ذلك .

واجعني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة لا رائحة ربوية فيها على احد من خلقك .

وتجلى لي يا الهي بمقام الاستواء الجامع المراتب الخفية الالهية كلها حتى اعطي كل مرتبة الهية حقها من نفسي .
وتجلى لي يا الهي بسر توحيد الذات المطلسم في آية الانانية الموسومة :
انا الله لا اله الا انا فاعبدني .

وتجلى لي يا الهي يا ذا الجلال والاکرام فاجد لذة الوحي الالهي مني الي دائماً ابداً سرمداً متهمة ان يلحق بها او يقرب منها لذة في جميع الوجود بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لهام بعضه ببعض ، من غير ان تفارقني تلك الذة لحظة ولا اقل منها حتى اكون

حقاً الهياً في نفسي .^(١)

من اين للعامة الذين يصيحون في الحلقات ويرقصون ان يتفهوا مثل هذه الروحيات ، ويتذوقوا مثل هذه الالهيات ؟ بل من اين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين ان يدركوا معاني شيخهم الاكبر في « الاستواء الجامع لل مراتب الحقية الالهية » وفي « آية الانانية الموسوية » و « بسر توحيد الذات » و « بانسان العين الكلية الالهية » ؟ انهم لو ادركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والتشوقات لغفروا من الحلقات هارين ، وراحوا افراداً ساكنين قانتين ساكنين . ان بشراً يصبو الى قلب الالهيات بل الى ذروتها ويبتغي ان يكون انسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها ، فيرى في كل مرتبة ، في كل دين ، في كل مذهب ، صلة الهية فيعطها حقها من نفسه . ان مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس ، ولا ينفع بعد موته غير افراد من الناس بل يضر كثيراً في ما يقام له من التكيات وما يسود باسمه من الجزرات .

اجل ، وقد يضر اشد الضرر بفلسفة في الزهد والفقر تصلح للزاهدين ولا تصلح للامم والشعوب الا اذا عمتهم اجمعين . واعمرى انها حتى في كايتهما وشعرها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصاً للانسان ونعمة ويمنا . بعرق جيلتك تأكل خبزك انها حقيقة اقتصادية واهية معاً . ولكني انا الكسلان اتفلسف في الزهد وقد اكون صادقاً في زهدى مقتدياً بالنبي القائل : لكل نبي حرفة وحرفتي الفقر والجهاد . وقد اكون كذلك فصيحاً بليغاً ، فاكتب رسالة اسمها « كيميا اليقين » كما فعل سيدي الابراهيم بن ادريس ، فابرهن فيها ان طلب الرزق حرام ، واجبي بالشواهد الدينية ، والاحاديث النبوية ، والنوادير والملح اثبت ما اقول واستغوي به الناس ،

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٢ - ١٥

فاظلم امة كاملة بجديث من الاحاديث النبوية : - لو ركب الانسان الريح
وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وادركه حتى يدخل فيه .

ما اجمله والطفه حديثاً ، وما اقرب الموت من حقيقته . قد ينجو بها
امرؤ وتهلك بها امة جمعا . اني اذا اخترت لنفسى الفقر والزهد اخطى . اذا
استخلصت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس او مثلاً يتشبهون به فكيف لي
اذا قصت تعريزاً لطريقتي مثل هذه القصص اللطيفة . كان امرؤ يصلي في
المسجد ويأزمه دائماً ليل نهار . فسأله الامام : من اين تأكل ؟ فقال له :
من ملك السماوات . فقال : وهل يدلي لك بالقفة ؟ فاجاب : نعم . فاخذه
الامام الى بيته ودلاه في البئر وذهب الى السوق . وكانت امرأة الامام
وخادماتها وامامها اكلة طيبة همتا باكلها ، فطرق الباب طارق فضأت الاكل
في البئر . دته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها واكل هنيئاً . دلى له الاكل
ملك السماوات . اجل ، رزقك يتبعك كالظل . كثر المؤمن ربه . قد وعد
الله العباد برزقهم وانه صادق بوعده . . . ان الاهتمام بالرزق اذن تكذيب
لله . ها هنا قلب الجود في ما التوى من الاسلام ، وموطن الضعف والحمول
في معظم المسامين .

ولكن في هذا الكتاب الصغير الكبير ، كتاب الاحزاب والاوراد ،
غير رسالة « كسيما اليقين » العجيبة التي يستوقف عنوانها المتكسر الانظار ،
ويغفك فحواها الابرار والتجار ، ويساعد كذلك من ينبغي في الصوفية والزهد
مسلكاً صالحاً قريباً ان فيه كذلك « الخرب السيفي » وقصته اغرب ما فيه .

قد عرفتك ايها القارى . تعريفاً سطحياً بالمجيدري العالم الشنقيطي الذي
جمع « سيدنا احمد بولانا عبدالوهاب التازي » . وازيدك الان به علماً . يظهر
ان روحية المجيدري كانت مزدوجة اي مركبة من روحيتي الانس والجن .
ويظهر انه كان يباري الدباغ بالاسفار في عالم الغيب يقظة ومناماً . فاجتمع

هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقاً لسيدنا علي رضي الله عنه . من
المعالم في التاريخ ان علياً حارب الجن وغلبهم ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم
في جهاده اخوانهم الكفار . ومن اولئك الصحابة قطب الجن الققائي الذي
كان لعلي كالحضر ابي العباس للنبي . هو الققائي الشهير بعينه الذي اجتمع به
المجيدري فلقنه « الحزب السيفي » عن الامام علي . ثم تلقاه السيد احمد عن
المجيدري بروايته التامة وحرقه الواحد . اللهم افتح لنا .

ان الفرق بين هذا الحزب وبين غيره من الاحزاب يجعلنا على تفضيل
الحزب في الرواية والحديث . بل فيه ما يحيط من قدر الانس والجن واسطة
ولا يزيد الامام علياً والسيد الادريسي رفعة وفضلاً . فيه من مرادفات
الادعية والمحامد ، والطلبات والاستغاثات ، ما نجد في غيره من الصلوات ،
وفيه من التسخط والغضب على الاعداء والاستغاثة بالله عليهم ما يروعك
ويؤزع فيك لأول وهلة الايمان بالصالحين الابرار . ولكنك اذا تبصرت
قليلاً بطمأن بالك وترى في دعوات السيد الساخط عين الصواب . خذنا بجملك
في ما سنسمع . ان من يستحسن شيئاً يرغب فيه . فلو كان السياسي او
التاجر او الجندي او الكاهن او الطبيب او المحامي يدعو على اعدائه دعوات
سيدي احمد لقلت : كفر بالله . ولكن المحنون بالحقيقة الكلية ، المجذوب
اليها بجمعيته ، ومن صح ايمانه ، وصدق يقينه ، وكرمت اخلاقه ، وصمت
اشواقه ، وتترهت عن الاثم والجشع والانانية والكهريا . والنفات اعماله ،
وكان مجاهداً في سبيل الفضائل الروحانية والحلقة كلها ، ان هذا الرجل
يشتهي ان يطهر العالم والناس من اضرارها .

وان اعداء مثل هذا الرجل لاعداء الحقيقة والصدق والامانة والايمان
والشرف والتزاهة وكرم الاخلاق . فيحق له ان يستجير منهم بالله وان يسأله
تعالى - وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين - ان يباعد

بينه وبينهم كما باعد بين المشرق والمغرب . وفوق ذلك ، نعم ، واكثر من ذلك : اخطف اللهم ابصارهم بنور قدسك ، واضرب رقابهم بجلال مجدك ، واقطع اعناقهم بسطوات قهرك ، واهلكهم ودمرهم تدميراً ، كما دفعت كيد الحساد عن انبيائك ، وضربت رقاب الجبابرة لاصفيائك ، وخطفت ابصار الاعداء عن اوليائك ، وقطعت اعناق الاكاسرة لاتقيائك واهلكت الفراعنة ودمرت الدجاجة لحواصك المقربين وعبادك الصالحين . . . اللهم بك نصول على الاعداء ، واياك نزجو ولاية الاحياء والاولياء والقرباء امين .^(١)

هذا في كتاب الاحزاب ، ويتاوه من المحامد ما لا تضاهاه ورعاً وانسانية ما جاء في اوله اخص منها المحمودة الثانية وهي جامعة مستوفية ، وجيزة بليغة . هي روح المحامد كلها .

الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم اعلم . ولكن السيد احمد بشر كريم صادق اللهجة في حالاته كلها فقد كانت له فترات من الحياة فيها الظلام اكثر من النور ، والبؤس اشد من الجور ، فخرج لذلك من التعميم الى التخصيص ، ومن الحمد على ما لا يعلم الى الشكوى بما هو معلوم محسوس . اجل ، وقف مرة في « كنف الله وجواره » يمدد مثل ايوب الصديق المصائب والافات والامراض والمفاسد كلها ، ولم ينس الفالج والياسور ، ولا استثنى وحشة القبور .

هذا ما في « الحزب السيفي » الذي تلقاه الادريسي عن المجيدري عن قطب الجان العقاني عن الامام الاكبر رضي الله عنهم اجمعين .

وايضا ذكرت وقتها هنا في التعريف لولا حاشية « لبعض الواجدين من اهل العمل المحققين » التي تذكرنا بالمتنطعين والمشعوذين . قال المذكور في

كلامه عن حزب آخر^(١) : ان المثابرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى ، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر . اي انك اذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر واذا قرأت الحزبين تغني . فما اشبه هذه الشروط بل هذه الرشوات في الاوراد والحزب بالمعفرات والاجور عند المسيحيين . انها والحق يقال لآفات التقوى وسيئات الصلوات .

اسألك اللهم بنور عظمتك الذي لا يحتمل ظهوره احد غيرك .
لولا لطفك بجحباك النورانية لاحترقت صور الكون كلها .
ان دون الله عز وجل سبعين حجاً من نور وظلمة وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب الا زهقت .

ما قرأت في الاستعارات الصوفية ، وما سمعت من انغامها ، وما شاهدت في صورها ، اجمل من « حس تلك الحجب » وقد حركتها النسام الربانية فهمست اسرارها همساً في الاكوان .

واسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق انبيائك والمرسلين وطاشت بجباله ابواب ملائكتك الكروبيين ، وانعدمت فيه معارف اوليائك واصفيائك المقربين ، حتى تاه الكل في الكل ، وتخيّر الكل في الكل . . . ان تخرجني من شهود كل شيء . سواك . . . فتفتجر ارض طبعي كلها عيوناً عشقية . . . هنا وهناك . . . ورا . الورا . بلا ورا . ودون الدون بلا دون .

وهذه في نظري اجمل الازهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية ، اذا فاز بها السالك ، المالك هنا وهناك . كلمة اخرى قبل ان اختم هذا الفصل . لو ارتقى كل السالكين الى هذه الدرجة من الادراك الروحي والتذوق الالهي لبطلت حلقة الذكر . واذا لم يرتقوا فحلقات الذكر كلها لا تفيد .

(١) الحزب المغني لسبدي اويس القرني . ولم يذكر شيئاً من مصادره الانسية او الروحية او الجنية .

الفصل السابع

الادارة في عسير

الرسالة الروحية - الحكم في عسير في ايام ابراهيم باشا المصري - التشار الوهابية - ثورة الاماني على الحكم المصري الحجازي - التشار الطريقة الاحمدية - خروج المصريين من البلاد - حكم الشريف حسين - رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ - امار صتما - والاساطل البحرية - الادارة واشرف الي عرش - زيارة الامار في صيبا - الادارة في مصر والسودان - التزج بالجواري العبيد - فساد السر والملك - السيد محمد الكبير - اخلاقه - مصادره قوته - معاهدته مع الانكليز - احترامه واعداؤه - الترك والزيود - ما ضربه بعد الحرب - الصوفي والسياسي ومصدر القوة والضعف فيهما - علي بن محمد الامار الحالي - شجرة بيت ادريس *

واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة
لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .
احمد بن ادريس

ان الرجل الذي توفي سنة ١٨٣٧ م في صيبا . فكفّن بكفن التقديس وشيع الى القبر ولياً ، لم يبيغ السيادة على احد من الناس . ولم يحلم على ما اظن واعتقد بملك عالمي ادريسي في البلاد العربية او خارجها . ولكن من ضريحه ، وقد امسى مقاماً ومزاراً ، مدت يد السيادة وهي تحمل رسالة طالما سمعها العرب ، خصوصاً البدو منهم ، واذعنوا لها . ولا غرو والدين عندهم اساس الملك في الدنيا ، والسبب الاول في خرابه لو انهم يفتنون . يموت الرجل الصالح الابر الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة ، المجردة من الربوبية على احد من خلق الله ، فيرفع الى مقام الاولياء ، ويؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك عربي جديد .

كانت تهامة وعسير يوم توفي السيد احمد بن ادريس في حكمهم مضطرب

لا تركياً يُعرف ولا مصرياً. ومع ان البلاد، من القنفذة حتى المخا، كانت في حوزة ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير الذي احتلها بجنوده سنة ١٨٢٦م باسم الباب العالي . فالاهالي على الرغم من الاحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر ظاولوا نافرين منه نافرين عليه .

ومن اسباب ثورتهم على المصريين والحجازيين ان كثيرين منهم، اقتداء بزعيصهم ابي نقطة ، انتحلوا المذهب الوهابي وكانوا من انصار الامير سعود الكبير الذي استولى على الاقطار العربية كلها . وقد كان انتشار الوهابية في تهامة احد الاسباب في نجاح الطريقة الاحمدية . بالمقاومة تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات . ولكن السيادة الروحية المغربية فازت نهائياً على السيادة الوهابية . لان « توهيب » الناس يومئذ في تهامة لم يمكن غالباً عن اعتقاد بل كرهاً للحكم الشريفى الذي كان يوماً تركياً ، ويوماً مصرياً ، ويوماً عربياً ، ودائماً حكماً ظالماً جائراً .

استمرت هذه الحال عشرين سنة . وعندما قررت الدولة ان تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠م^(١) كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من امراء العرب ، هم الشريف محمد بن عون في مكة الذي كان يساعد المصريين في حملاتهم على تلك البلاد ، والشريف حسين بن علي بن حيدر من اشراف ابي عريش الذين كانوا يحكمونها ، والامام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقاً في حوزته وجزءاً من بلادها . فاتفق محمد علي باشا يومئذ مع اقدر الثلاثة وادعاهم وهو الشريف حسين فسلمه زمام الحكم في تهامة ، على ان يدفع سنوياً الى الدولة قيمة من المال .

كان الشريف حسين في حكمه ظالماً ، وفي سياسته مراوغاً مستبداً ، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله وبإخراج الانكليز من عدن . فنشبت بينه

(١) في الفصل الثاني من القسم الرابع في هذا الجزء . بيان الاسباب في الجلاء .

وبين امام صنعاء حرب استمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ،
فوقع مرة في يد الزيد اسيراً ، وبسط بعدئذ سيادته على اساكل تهامة كلها
حتى الحما ، فأنت من جورهِ ومظالمه الناس .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير ، فزلت
جيوشها بقيادة توفيق باشا في الحديدية واسترجعت الحكم من الشريف حسين
الذي عاد الى مقره في ابي عريش .

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه ان امام صنعاء كان يجارب
يومئذ ليسترجع الحديدية من الادريسي . وكان الانكليزي يومئذ كما هم اليوم
متذبذبين بين الاثنين اي بين حاكم الاساكل وحاكم الجبال .

تزل توفيق باشا في الحديدية ، وبسط شيئاً من حكمه في تهامة ، وتقدم
بجيوشه الى صنعاء كما اسلفت القول في الفصل السادس من القسم الثاني من
هذا الكتاب . وقد كان اليمن الاعلى اهم ما ينبغي في خطة الاستيلاء ،
فعدت تهامة الى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلاً لا الاتراك
ولا اشراف ابي عريش . فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال الساداتين
المتداعيتين حكماً روحياً بل حكماً حقيقياً ، انتشرت كلمته وتعددت رسله
شمالاً وجنوباً في البلاد .

جاء الناس من اليمن ومن تهامة وعسير يزورون المقام في صبا ويتبركون .
وكان السيد محمد بن الولي الجديد مقياً هناك تتنازعه عوامل الدنيا ونوافل
الدين . ولكن المقام صار عرشاً ، وصار سيد المقام تدريجياً سيد الاقوام ،
فسرت في مجاري القديسات السياسة ، وشرع ابنا ادريس يناهضون سرأ
وعناً اشراف ابي عريش حتى تغلبوا عليهم . ثم حاولوا بواسطة العشائر ،
ابناء الطريقة الاحمدية الجديدة ، ان يتغلبوا على الاتراك فلم يفلحوا في بادىء
الامر . ولكنهم استمروا يستشرون تلك السيادة الارثية التي اصبحوا

بسيها اثبت قدماً ، وابعده نفوذاً ، واوسع جاهاً من سائر اعدانهم في البلاد .
وقد تجاوز ذلك الجاه عسيراً فوصل بالمهاجرة الى مصر وبلاد المغرب .

جا . ابن ادريس مهاجراً من الغرب ، وراح ابن ادريس مهاجراً من بلاد
العرب . ولد للسيد محمد ولد دعاه عبد المتعال فلما شب سافر الى مصر وتزوج
واقام هناك في قرية الزينية قرب الاقصر وولد للسيد عبد المتعال عدة اولاد
سافر بعضهم الى المغرب فتزوجوا من بيت السنوسي هناك واقاموا في
القيروان . ان لهم كذلك بيوتاً في الزينية وفي ارجو بالسودان . اما في عسير
فمنهم اليوم ثلاثة هم السيد مصطفى والسيد السنوسي والسيد العربي ابنا
عبد المتعال . وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الاكبر على مقامهم
وسليلتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الاكفاء والاقربان .

اما جد هم السيد محمد فقد استرسل الى اهوائه فاساء الى شريف ارنه .
بل ان فعلته التي اضررت ولا شك بسليلته لتجاوز الاساءة لانها حدثت وهو
لا يزال في ظل ابيه الابر ، قريباً من اثاره القدسية . قلت في فصل سابق
كلمة في اختلاط الشعوب جنساً ولوناً بالمزاج ، وقدمت شهوداً احياء على
بعض نتائجها . ان من يجب بيت ادريس ويغار على خيره واسمه لياسف جداً
لما بدا من السيد محمد الاول رحمه الله وما كان عمله ليستوقف الانتظار ،
ويحزن الانصار ، لولا مقامه الديني والمدني ، لان من يقتنون الجوارى في
الحجاز وعسير ويتزوجون بهن حتى من الاشراف كثيرين . الا ان من كان
بعيد النظر حكماً يدرك ان البيت الشريف الطالب للسيادة والملك لا يسلم
بين شريفين كبيرين ، شريف مكة وشريف صنعاء ، اذا كان لا يحافظ
على شرفه في دمه ونسله .

اقتدى السيد محمد بالسادة زملائه فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابناً
دعاه علياً ، فكانت بداية الدم الاسود في سليله بني ادريس بعسير . ثم

تزوج السيد علي بفتاة هندية هي ام السيد محمد الثاني فلم يصلح في خطأ ابيه شيئاً ظاهراً . ومع ان هذا الولد الهندي الام ، السوداني الاب النجب ونسب في بيته ، فلا النجاسة ولا النبوغ يصلحان ما تفسده السياسة بسبب النجاسة في ملكه .

ولد السيد محمد الذي يستحق ان يدعى الكبير في صيا سنة ١٨٧٦^(١) وجي . به شاباً الى مصر فدخل كلية الازهر وتخرج فيها . ثم سافر الى كفرة بالمغرب فقرأ هناك على السيد السنوسي ، وجاء منها الى السودان فاقام في ارجو بدنته ، وتزوج بابنة الشيخ هرون الطويل شيخ الطريقة الاحمدية هناك . رسا وتزوج في بلاد السود ، بلاد ابيه وجدته ، لانه لم يكن في دمه وهياته ما يوقفه الى غير ذلك . ولكن نفسه الكبيرة الشريفة ابت عليه الخمول والاستبعاد . وكانت الاسفار قد زادت بعلومه ومداركه ، فكبرت معها المطامع واستيقظت قواه فشد للرحيل .

عاد السيد محمد من دنقله الى عسير ، الى مسقط رأسه ، الى قاعدة ملك جلّه في ذاك الحين صوري او متزعزع ، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد اطناها ، وكان الترك جنوباً يحكمون حيثما يستطيعون ، ويستغفون رؤوسا المشائر بمشاهرات لا بدفعون غير اليسير منها . فانقلبت عليهم اصحاب الديون واستألمهم الادريسي اليه . وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون فاستفاد بما هم فيه ، واستعان بزعم على اخيه . حتى ساد اكثرهم فثبت كل كبير في قومه ، واقتمدى بامام صنعاء فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والحيانة . ثم مد سيادته شمالاً وشرقاً الى الجبال فجمع عدة افخاذ وبطون من المشائر تحت لوائه الذي رُفِع برهة عند حصن أبها وعلى حدود حاشد وبكيل .

ولكن نجم السيد محمد لم يعلُ ويتلأأ في سما آل ادريس الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، اي حربيها سنة ١٨١٢ مع ايطاليا

(١) توفي في نيسان سنة ١٩٢٣

ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الاحلاف . فقد كان في الحربين خصم
الترك اللدود ، والحلف الذي لا يتقض اليهود . اخذ من الايطاليين سلاحاً
فاستخدمها ناراً وسياسة على عدوها وعدوه . واخذ من الانكليز مالاً وسلاحاً
فخدم الاحلاف في الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الاطماع ، ولا
يفسدها الحُداع . وقد كان لا يزال له غير الاتراك عدواً . فحارب هذا العدو
كذلك بما جاء من الحليفتين . ولكن انتصاره على الزيود في ذلك الحين كان
يعد انتصاراً على الاتراك .

ان من فضائل السيد محمد ثباته منذ بداية امره على مبدأ واحد . فقد
كان عربياً صميماً ، جسوراً في سبيل ما يبغيه ، يحاف اية دولة كانت على
اعدائه الترك ومن كان حلفهم من امراء العرب عليه . فما تذبذب في مبدئه ،
ولا تحول عن عزمه . حارب الاتراك وحليفهم الشريف وصديقهم الامام
فكان في الغالب منتصراً ودائماً عزيزاً . لا انكر ان الاحوال كانت حليفته ،
ولكنه سلاحها من لدنه بالعزم والمضاء .

وبما يجمل الافرنج والعرب ان السيد محمداً كان اول من انضم الى
الاحلاف من امراء العرب ، واول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك
حليفة الالمان . فقد عقد معه الانكليز بواسطة حكومتهم في عدن المعاهدة
الاولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بوجها تعهدوا ان يقده ، واهل السلاح والمال ،
ويجسوا اساكل بلاده من التعديات الخارجية . فباشر في الشهر التالي القتال .
خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر الف مقاتل على الاتراك فذحرم
دحرات متواليات ، ووصلت جنوده شرقاً الى قرب صنعده وشمالاً في تهامة الى
الغنفذة . ولكن الادريسي بعد ان استولى عليها في ١٥ تموز سنة ١٩١٦
اخلاها للملك حسين اكراماً لاصدقائه الانكليز الذين عقدوا معه معاهدة
ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ تتعلق بجزيرة فرسان وكان قد اخرج الحامية

التركيب منها واستولى عليها .

كان السيد محمد حصيفاً ذكياً ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشعقات ، بالزرايينق مثلاً على الاتراك ، وبالشوافع على الزيود ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع . وكان له عون كبير في ارته الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاه الفطري لمعانا .

ان مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلية في معظم شأنها على الانكليز لا تُستغرب من امير يُعد في البلاد دخيلاً ، وهو في تجهيز العساكر والدفاع عن نفسه يحتاج دائماً الى المال والسلاح . اما خراج عسير فلا يتجاوز المئة الف ريال اي اثنا عشر الف جنيه شهرياً ، منها ثلاثون الف ريال من الحديدية^(١) بيد ان جنده لا يتجاوز في ايام السلم الخمسة نفراً وهو يقوم اذ ذاك مقام الشرطة في البلاد .

ولكن الادريسي يستنفر في الحرب القبائل بواسطة المشايخ والمقدمين فيليبته ثلاثون الف مقاتل ويزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الاولى حرب البدو . يجي رجال كل قبيلة او بطان او فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زيادة ، ويدعم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية . ولكن الغنائم هي الجاذب الاكبر في حروب العرب كلها . لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر . اما الامير الكريم الذي يصدق على المشايخ والزعماء فهو الفاتر على زملائه في السياسة ، والمتصر على اعدائه في الحروب . ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها امضى من هذا السلاح اي الكرم . فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السباهلة والمشايخ الذين يؤمنون صيباً من بلاد المغرب ومن مصر .

(١) اي ان خراجه السنوي نحو مئة وخمسين الف جنيه ، منها ١٥ في المئة عشود اي حبوب وغيره و ٨٥ في المئة ذهب وفضة .

دعوته بالكبير ، وهو لا مشاحة اكبر من حكم في عسير من بني ادريس ، بل هو مدنياً سيدهم الاكبر كما ان جده السيد احمد اميرهم الاكبر روحياً . عرفى الاثنين ، الصوفي والسياسي ، مصدر القوة والضعف في الحكم الادريسي . قد تكون العبارة مبهمة ، فيفهم منها ان مصدر القوة في واحدة من تلك القوتين ومصدر الضعف في الاخرى . ليس هذا ما اريد . ان في الاساس الديني لهذا الحكم قوة تعززه في البداية وتضعفه في النهاية ، تعززه في دور التأسيس والنشؤ ، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء . ولا بد في الدورين من التطور ، ولا بد في التطور من التفكك في العناصر المذهبية . اي ان حكماً مثل حكم الادريسي يضعف في التوسع ، يرق في الامتداد ، لان اساسه المذهب واساس المذهب الطريقة . والطريقة لها مقام قد تصفو في جوارها ولكنها تفسد وتعقم كلما بعدت عنه . وها هنا لعري فشل الصوفي .

اما السياسي فمصدر الضعف فيه ، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد ، انا هو في الدم الذي تخلل صفاء النسل وسلامة النسب في بيته . وليس تبرغه وكبر اخلاقه بحجة على ما اقول . فلو كان المرء شاعراً او صوفياً او فلاحاً او تاجراً لما هم لونه وشكله ولما اثر الدم في حياته ومقاصدها . ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد اعدائه من الحجج القاطعة عليه . خدمت الحروب الاجنبية مقاصد السيد محمد فاتسع ملكه وما ازدادت شوكته . فقد كانت قبل الحرب حدوده جنوباً بين ميدي والصحبة عند سيل يدعى وادي العين ، فامتدت بعد الحرب الى ما دون الحديدية فدخلت هذه المدينة ومعها الصحبة والصليف وابل وعبال والزيدية في ملكه . ولكنني لم اشاهد عندما كنت هناك ، لا في الحكم المدني ولا في السيادة الروحية ، ما يساعد على عمرانها ويثبت قدم السيد فيها .

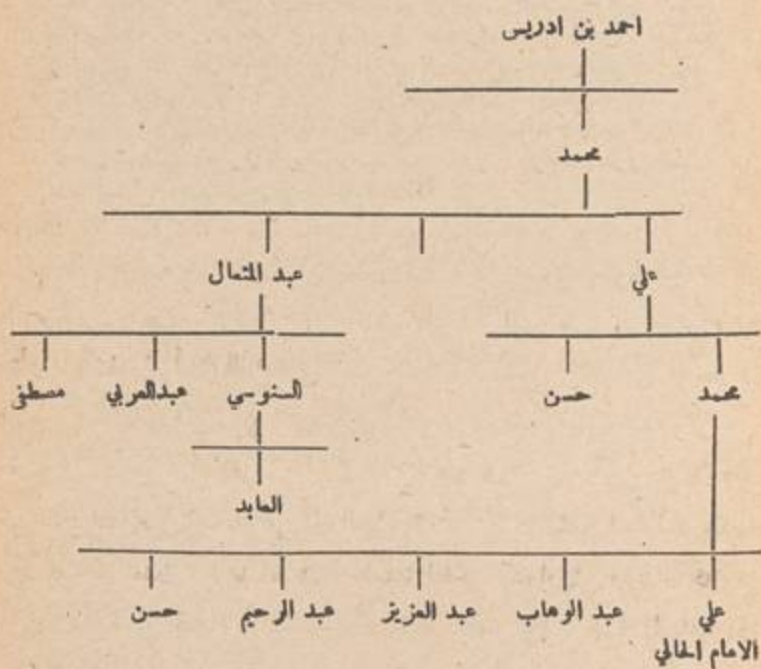
فهل تتغير الاحوال فتخدم خلفه في ما ضنت به عليه ؟ ان ابنه البكر

علياً في التاسعة عشرة من سنه . وقد بايعه الناس بعد ان عرضوا البيعة على عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد محمد فرفضها متعللاً بصحته وعزلته . والسيد حسن في العقد الرابع من العمر وهو يتحدى في سلوكه وزهده جده السيد الاكبر .

ولد السيد علي الامام اطالي في دنقله سنة ١٩٠٥ من ام سودانية هي كما تقدم ابنة الشيخ هرون الطويل . وهي اول حرم الادريسي ولا تزال حية ومقيمة في جيزان . وكانت قد اقامت وابنها علي سبع سنوات في دنقله بعد رجوع السيد محمد منها ، ثم جا . بها السيد مصطفى سنة ١٩١٢ الى صيا ، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة ، ونشأ في ظل ابيه متشرباً ببادئه في السياسة والوطنية . ان العارفين هناك وفيهم سلطان طنجيشون عليه ويقولون انه على جانب كبير من النباهة والهمة . اما المقربون اليه ففيهم رفيق صباه وصديقه الحميم السيد العابد السنوسي الادريسي المولود في مصر المقيم في جيزان . والسيد العابد الشاب اديب ، عصري الروح ، ذكي الفؤاد ، له آراء حديثة صائبة في عمران البلاد سيتوقف ان شاء الله في قربه وقرب ابيه من حضرة الامام الى تحقيقها^(١) وللسيد علي اربعة اشقاء . هم عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحيم . هؤلاء الثلاثة من امهات حبشيات متوفيات . ثم حسن الصغير وامه كذلك حبشية ولا تزال في قيد الحياة .

(١) لم يتوفى السيد العابد ولا ابوه ولا عمه السيد مصطفى ولا الامام الشاب ومن نفي معه من المشائخ في دفع اغارات الزيود في ربيع سنة ١٩٢٥ . فاستولوا باسم الامام يحيى بن حميد الدين على المدينة كما تقدم وعلى الاساكن البحرية الاخرى . واستمر بعد ذلك الحكم الادريسي مضطرباً متزعزعا الى ان تنازل الامام علي عن الامارة لعمه الامير حسن الذي عقد وجمالة ملك نجد والحجاز الملك عبدالعزيز ابن سعود معاهدة بمكة في سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يقددها بعض امراء العرب والانكليز اي ان لها هو ما معناه : سنحيك بشرط ان تسع وتذعن .

هاك شجرة هذا البيت الحاكم في عسير



الفصل الثامن

على ظهر الباخرة

ثياني المنشورة - رفيقي المحزون - الوداء - الرفيق الجديد - الحر والليل
والامواج ساكنة - بويخرة التهويج - جيش المسافرين - شي . ينعش - اصوات
تذهب النور - النجر النضام - لا خوف على من ينام بين العك والغارطة - رمان
الانكليزي كريم - يهدينا الباخرة - يحيي . الى اللادة مثلنا في ثيابه الرسمية -
« دخلت لعل اكراما لكم ايها الافاضل » - شاطي . تهامة - جزيرة قمران -
الحجاج - السيد الحضري - ضجيج بعد نصف الليل - الرمان يساور المبيد
ويومئذ - التربة الشرقية والتربة الانكليزية .

جاء الجواب من حضرة الامام مرحباً بنا ، ورست في مياه الحديد ذلك
اليوم باخرة وجهتها جيزان ، فأثرناها على السيارة التي استمرت معيدة وقنا
نتأهب للسفر بجراً الى العاصمة . لكن التأهب لا يشغل كثيراً من اصبح في
ملابسه وحاجاته اخف من الجندي في تهامة . ان قصة ثياني قصة محزنة .
نقمتها في الطريق برأ وبعجراً . تركت الرسمية منها في مصر - ومن غير الانكليز
من عباد الله يحمل ثوبه الرسمي الى البادية ؟ ثم تركت الشتوية منها في جده ،
والصيفية في عدن ، وما انا في الحديد افاخر الدراويش والسالكين بما
ارتقيت اليه من القناعة والبساطة والحكمة . اجل ، وما فضل المسافر اذا
كان لا يتنفع بشي . من عادات البلاد واهلها ؟ خرجت من القصر في قيافتي
الحجازية احمل عصاي و فوطه فيها ما لا يستطيع حتى السالك ان يستغني عنه .
اما رفيقي الجديد - وقد يسأل القارى . عن الرفيق الاول ، عن
القسطنطين . فالجواب واجب قبل ان نستأنف السفر . فُجعت في الحديد
بفراق القسطنطين . فقد وصله كتاب من جده فيه ان الوزير الشاعر في
الديوان الهاشمي لم ينظم بيتاً في غيابه ، وان الفارس الفيلسوف في القشلاق لم
يسحب السيف مرة من نصابه ، وان نظارة الطيران مكسرة الاجنحة ،

والطيارين يائسون ، وان مدير الميناء هجر الشراع وراح يرمي الابل ، وان الشريف الايطالي الذي استودعه ماله فرهارباً ، وان «توتو» كلبته المعبودة ، وقد اضناها الشوق والنوى ، مشرفة على الموت . فلو لم يكن من نكبة جدة في غيابه غير ما حل بتوتو الكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال .

جاءني صباح يوم والكتاب بيده ، والدمعة تترقرق في زاوية عينه ، وهو يقول : اعذرني يا امين . اود ان ارافقك في الرحلة كلها . ولكن توتو - اقرأ - اقرأ ما يقوله الطبيب . توتو في حال الخطر . ولا عزيز في الدنيا كما تعلم اعز عندي منها - هوذا المركب في الميناء . ساركب اليوم فاراها بعد يومين اعذرني يا امين .

ثم نادى خادمه وبدأ يجمع ثيابه . فقلت أو لا يبقى المدني ممي ؟ فقال الولد وهو يشب من رأس الدرج الى اسفله وثبة واحدة : وأمي ، انا مشتاق الى امي ! مبالغاً على عاداته في الضم والتشديد اطال الله بعمر امك يا مدني ، وحرس الله توتوك يا قسطنطين ، يا من لا يبالي بما يفعل ويقول يا عدو نفسه في بعض ما يراه ويهواه . رأيتك ذات يوم عائداً من الباخرة تحمل رزمة كبيرة ، كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان ، ما قد يكفي عشرة رجال شهراً . فظننت انك تنوي المتاجرة في الحديد بالسكاير ولكني سمعتك تقول : قد لا يرسو في المينا باخرة اخرى في هذا الاسبوع .

كنت اشفق عليك منها ، ايها الرفيق العزيز ، وكنت ارى لك الخير الجلم في نجد ، اجل ، كنت ابغي تأديبك هناك ، وفضحك عن هواك . فياليتك دمت رفيقاً لأراك «تُبَسَط» في بلاد الوهابيين اذا داومت التدخين . فما شأنك الان وتلك اللغائف التي كانت تتلو الواحدة الاخرى في فك ؟ وكنت تدخن في اول الرحلة الممطرة الذهبية الغم ، فصرت تدخن ، لهفي

عليك ، ما لو شمت رائحتها «توتو» لأعجبني عليها . وانت الشاعر الذي لا يسر
بغير الجميل من منظور وملوس ومشروب ومشوم . فاسأل الله ان يعصك
دائماً من كل مكروه ، ومن كل هوس يشوه النفس ، وان يملكك دائماً من
تلك المعطرة الذهبية الفم ، ويعلمك فوق ذلك الحكمة والاعتدال ، دعت
محروساً في كل حال ، رفيق الحقيقة شقيق الخيال .

اما الرفيق الجديد فيحمل في اسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة ولا
يقتدي ظاهراً بالسالكين في سواها . فقد كان معه كذلك من الامتعة
والحقائب ما لا يلبق بالفلاسفة ، وخادم هو من السادة ، ليفرش له السجادة .
وكنت انا في ذي الابهة جزءاً منها افتش عن رفيقي الصوفي فلا اجد غير
الوكيل السياسي ، واغرب ما في حاجاته ومواينه سجادة الصلاة .

خرجنا من القصر فاذا بثلة من الجنود العارية في الباب راقبتنا الى
الرصيف . وكان هناك وجهاً المدينة والمتوظفون في انتظارنا للوداع ، لوداع
الوكيل المحترم ، وانا في معيته عباءة وعقال ليس غير . فما سرني ذلك لان
البشرية آنشد تغلبت في علي الصوفية . ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر
والمودعين . لم يشأ ان يرافقه في السنبوك الى الباخرة ، فاستأنست بذلك
وحمدت الله . لا بد ان يظهر التصوف في صاحبه ، في كلمته او اشارته ،
ولو في الدقيقة الاخيرة من ساعة الرسميات والترهات .

وكان الهواء ساكناً ، والحرم من شمس النهار كامنأ فيه ، والبحر رهواً ،
وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الاوج فاشغل النوتيون الجاذيف ،
ووصلنا بعد ساعة الى جانب بومنجرة لا صوت فيها ولا حركة ، ولا نور غير
ذاك الاحمر الضئيل في رأس الدقل . فنادى احد رجالنا الربان فلم يجبه ، ثم
نادى وكرر التندا . فهض احد النوتيين يفرك عينيه ، ثم نهض آخرون وبادروا
الينا يسبون ويزجرون . « لستا بلصوص يا كلاب اتزلوا السلم لحضرة

الوكيل « فانزلوا السلم واعتذروا ، فصعدنا الى ما هو اشبه بمركب فحم منه بياخرة .

مشينا بين جث بشرية غارية هامة قضى الحر والليل اللزج عليها فلصقت بعضها ببعض ، ونامت نوم الاموات بين البضائع وفوقها ، تحت الالغام وعلى الصناديق ، في الاقدار ، في كل مكان . صعدنا سلعاً اخر الى ما يسمى الدرجة الاولى فرأينا في الغرف المفتوحة ابوابها اناساً نائمين نوم الاطفال . ما يقظ نداؤنا احداً منهم . ثم تزل الرهان وهو انكليزي حليق في ثوب النوم فسلم على الوكيل واعتذر . فاستأنست بصوته المومى الى ما في نفسه من التهذيب والكياسة . ثم نادى احد الخدم فكفر عن ايماله بان امر لنا بزجاجة من السودا باردة وبكأس من الوسكي . فشربنا وشكرناه ، ورغب في الحديث فحدثنا . فكان انتقالنا في ساعة الى شي . من المدينة مستحب ، وادبر في رهان باخرة مستغرب .

وكانه احس بما تسال الى الاجفان فنهض يتقدمنا الى ظهر الباخرة ، الى كنفه الخاص ، حيث الاسرة العسكرية ، فتمنا كلنا تحت القبة الزرقاء . وليس بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع . ساعة فقط . ثم ضججات وقرقعات ، واصوات ترعج الاموات ، وسلاسل تشد ، وابواب تسد ، وحبال تن ، وجرس يطن ، وصوت الرهان فوقها يحرك العبيد والحديد . سرت الباخرة ، وهدأت الاصوات والضججات ، فعدنا الى ما يشبه النوم وانبلج بعد قليل الفجر على وجوه صفراء ، وعيون فيها الذبول والعياء .

اول ما شاهدته قربي دولاب الرهان ، ووراءه ولد في ثوب ازرق على صدره نيشان ، يقرأ الحلك ويدبر الدفة . وكان الرهان واقفاً قبالة وراء طاولة عليها الخريطة البحرية . فقلت في نفسي : لا خوف على من ينام بين الخريطة والحلك . اما الولد صاحب الثوب الازرق والزنار الاحمر والنيشان

فهم من الذين ورثوا الحرفة عن اجدادهم . هو من سليله اوائك البرتغاليين الذين فتحوا الهند قبل الانكليز ، ولكنهم لم يثبتوا فيها اعزاً . فقد كان الجزويت في استشارهم عوناً للانكليز عليهم . اما ابناؤهم اليوم ، وقد اختلط دمهم بدم الهنود وسلم شي . من دينهم الكاثوليكي ، فهم يقيمون على شواطئ البحر الهندي ويدعون غوا Goa ويستخدمهم الانكليز في كل الوظائف النزبية ما سوى العالية منها . ذكرت النيشان ، وما هو الا تطوير بالحيط الاحمر والاصفر يطرزون به قصائهم ، كل لنفسه في ساعات الراحة من العمل . ما رأيت في التوتيين انظف ثوباً ، واخف حركة ، والطف شكلاً ، من ولد الـ «غوا» ابن الهند والبرتغال .

كشف الفجر عن البويرة وركبها فكان فضاءً . هلك رهطاً كرهط الحجاج في اشكالهم والوائهم واجناسهم وقيافاتهم وعدم اكرامهم بما هم فيه من ضيق وحريق وقذارة . كل يهتم لأمره ، لما يلزم المؤمن ويتحتم عليه ساعة الفجر . هذا يصلي ، وذاك يدق البن . هنا امرأة تنفخ بالنار ، وهناك شيخ يغسل فناجين القهوة ، واخر يدخن المداعة هذا يعد اكياسه ، وذاك يلبس ثيابه . وهناك فوق زنايل التمر شاب احكم بين رجله مرآة صغيرة وهو يلف عمامته على رأسه لفاً هندياً بتأني الفتاة التي تجلس الى المرآة تزين شعرها . والى جانبي سابر الغور يومي بجديده الى القمر ويسحبها منادياً بالانكليزية : سبعة ، ثمانية ، عشرة ونصف ا فلا تزال قريين من الشاطي . شاطي . تهامة الموحش العقيم ، ولا يزال رفاقي تائمين ، الأفضل الدين . فقد كان تلك الساعة من المصلين .

ان الباخرة التي نحن فيها مسافرون ، وقد صنعت في بلاد الانكليز ، هي من بواخر القهوجي المشهور في عدن والبحر الاحمر ، صاحب صديقنا خان يهادور الفيلسوف الحديدي . والقهوجي اسم لشركة من «عبدة النار»

نوتيوها كما ذكرت من الـ «غوا» نصف المسيحيين ، وربانها معاونه والمهندس من الكفار التي صنعت الباخرة في بلادهم . هذه شركة ملاحه شرقية هندية ، ولكنها لا تستغني عن الانكليز مديرين لباوخرها . وهذا الانكليزي ، وقد اعتاد ان يأمر في الشرق ، لا يتمتع من حال توجب عليه الاثثار باوامر الهنود سادته .

قال الربان هاي : كنت قبل الحرب اسير باخرة في البحر الاتلنتيكي محمولا خمسة وعشرون الف طن . وتراي الان على رأس هذا المركب العجيب اخدم القهوجي الفارسي بنجس ما كنت اتقاضاه من شركة انكليزية . وما العدل ؟ حامض القهوجي احسن من مر البطالة في بلادي ولكني احب العرب واحترمهم . ما رأيت شعباً هادئاً في السفر كترماً ، على ما تراهم فيه ، مخلداً الى السكينة ، جليداً قنوعاً سكوتاً مثل العرب .

ترانا الى المائدة في ثيابنا الرسمية ، انا في قيصي البدوية و ارداني مربوطة حول وسطي ، وفضل الدين في سرواله الهندي وتكته تصل الى ركبته . وجاءنا الربان هاي ، بارك الله فيه وفي ذوقه ، حافياً يلبس «البجاما» اي ثوب النوم . جلسنا الى المائدة وهو يقول : خلعت نعلي اكراماً لكم ايها الافاضل . اهلاً وسهلاً بكم الى بيت القهوجي ، بل الى بيتكم . الباخرة لكم ، تأمرون فيها بما تشاؤون .

كذلك كنا نجتمع الى المائدة ورئيسها هذا الانكليزي المهذب الفاضل الذي رأت عيناه احسن من «افريقيا»^(١) باخرة واحسن منا ركباً . وهو دوماً لا يرى غير الحسن في الناس . وما كان في حديثه مرة مستهجنًا ، بل دائماً مفكهاً مفيداً . الرسيمات ؟ ربطنا في عنقها صخوراً ورميناها في البحر ، فبدت لذلك الباخرة الصغيرة وبفضل الربان هاي ، ونحن في كنفه على الظاهر

(١) اسم الباخرة .

في عزلة الاماجد وعزهم ، بدت كبريتنا الحاص ، لا نتكلف فيه شيئاً يزعج اريسي ، ولا نضطر الى اجهاد النفس حتى في لبس النعال . بدو متحضرين ، برابرة متمدون ؟ اي وايبك . انما هذه هي الذة الصافية الحقيقية في الاسفار البحرية .

كنا نسير في مضائق خفية وظاهرة قرب الشاطي . بين جزر صغيرة لا اسماء لها ، الا قرآن وهي اكبرها . ولها في جنوبي البحر الاحمر من الامة ما للطور في الشمال ، لان فيها محجراً صحياً للحجاج القادمين بجرأ من الشرق ، من الهند وجاوة ومن العراق وايران ، فيعرجون عليها للتطهر في رواحهم وبحيئهم ، قبل الحج وبعده ، فتناقضهم السلطة الانكليزية ربما مدة الثلاثة الايام التي يقيمون فيها . وجمالة الملك حسين يحتج على الرسم ، وعلى الثلاثة الايام ، وعلى محجر قرآن ، وعلى الجزيرة كلها بجذافيرها . لا لزوم لها وعندنا جزيرة ابي سعد . هذا صحيح . ولكن في قرآن مركزاً لاسلكياً افادنا ، ومعمل تلج انعشنا ونحن في الحديدية . وهما يفيدان وينعشان كثيرين غيرنا ، فلا نشارك جمالة الملك اذن الا في قسم من احتجابه . لا تظلموا الحجاج بدفع الرسوم .

وها هي الجزيرة الى شمالنا ونحن نسير بينها وبين الشاطي . وها هي الخريطة على منضدة الربان تني . بالاعماق المختلفة تحتنا وحولنا . من هو ياترى اول من سهر هذا البحر العربي ، البحر الاحمر ، وغيره من بحار الشرق ؟ من ذا الذي ركب الامواج والاهوال ومد يده الى مكامن اليم يستطلع اسراره ، ويكشف للنرتي اخطاره ؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر وحدد الطرق بين الصخور الكامنة تحت المياه ؟ من ذا الذي فتح سبل البواخر وآمنها في الليل بالانوار ؟ هو الانكليزي ابن البحار وسيدها . ليعترف بفضل كل من سبر باخرة في البحر الشرقية ولجأ الى علومه ليسلم من الاخطار . اجل ، قد تستغني شركة بواخر شرقية عن الربان الانكليزي . ولكنها

لا تستفيي مها كانت عظيمة عن خرائط الانكليز البحرية . هب ان دولة بريطانيا العظمى تفككت غداً وتقسمت ، وعادت انكلترا كما كانت في عهد السكسون الاولين ، حكومة صغيرة وامة مثل جزائرها حقيرة ، فهي تظل غنية بعلومها وبرجالها . ولا خوف وايم الله على امة عندها العلم وعندها الرجال . لا ترتب ايها القاريء العزيز بنا اقول ان الانكليزي الحقيقي هو مثل هذا الربان الذي يسقط من عرشه ويظل ملكاً باخلاقه في احط الحالات الاجتماعية واحقرها ، ملكاً يعمل ليومه ، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر . بل يعمل العمل المفروض عليه مجدداً مخلصاً تزيماً .

كان معنا في الدرجة الاولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على الظهر ولا يذاكلنا . رجل طويل القامة ، حسن الطلعة ، قوي البنية ، مقتول الساق . وهو من سادات صيرون ، مدينة العلم في ذاك القطر ، ومن ادبائها ، حاد الذهن ، فضيح اللسان . حدثته فحدثني متنازلاً متكلفاً ، وما كان في ما باح به ليخرج من دائرة التكمم والتأدب . الا اني علمت من تلوحياته انه عالم من العلماء وخطيب من خطباء حضرموت المشهورين . وهو ينظم كذلك الشعر . قرأ شوقي وحافظ ابراهيم والمنفلوطي والبستاني وغيرهما من شعراء وادباء مصر وسوريا ، ولم يسمع باريحاني الا مؤخراً في عدن .

- سمعت ان الاستاذ جاسوس للانكليز .

- قد يكون ذلك .

- وكيف ينفذع به امرأنا يا ترى ؟

- العصمة لله .

- صحيح . ولكني سمعت كذلك انه رسول الملك حسين وفي خدمته

وانه مع ذلك يحسن اللغة العربية .

- كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية .

- صحيح . وفي حضرموت كذلك :

- وهل انت مسافر الى جيزان ؟

- ان وفق الله .

وكان قد اخبرنا الربان ان السيد من تجار حضرموت ، حسب ادعائه ،
وانه مسافر الى ميدي . ولكن رقيقاً من عدن اخبرني انه رآه في دار الاعتماد
هناك يعني مقابلة المعاون . ثم علمت انه من زعماء الحزب الكييري في
حضرموت القائم على الحزب الثقيطي وسلطانه ، وانه جاء ليرفع قضيته الى
الانكليز في عدن والى السيد في جيزان . اما فضل الدين الذي يعرف السادة
من رائجتهم فقال اذ رأى الرجل : هوذا سيد شحاذ . كثيرون مثله يجيئون
الى جيزان ليمدحوا الامام ويستجدوه . وعندما تزل مساء ذلك اليوم في ميدي
ظننت فضل الدين متعاملاً فقلت : بل هو تاجر كما قال الربان . فاجابني هو
شحاذ كما اقول . وسيرجع وسترى . قد قدر الله ان يكون الرجل رفيقنا
الى جيزان ومنها ، فيسسم القارىء عنه ومنه في ما بعد .

ميدي بنت الحرب ، اي انها نشأت في اثناؤها وهي اكبر مدينة تجارية
اليوم بين الحديدية وجيزان . بيد انه لا وكالة لشركة القهوجي فيها فيضطر
الربان ان يقول العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة الى البلد ويدفع
اجورهم . واكثر هؤلاء من العبيد والمولدين . هذه كلمة تهيد لما اقص
عليك . غت تلك الليلة على عادتي فاستفتت نصف الليل لاصوات تلبج وتضج
وقد اختلط اللسانان فيها ، الانكليزي والعربي ، وتناكرا .

- يا اولاد الزنى تيجيئون في هذه الساعة من الليل تساووني ؟

عرفت من الصوت ان الربان يتكلم . ثم - وهي الكلمة العربية الوحيدة

التي يحسنها - امش ، امش .

وكان الربان الثاني وهو رجل ضخم الجثة عريض الصوت قد استفاق مثلي

وسمع زميله يتسخط ويسب . فخطبه بصوت عريض ناعس مطاط .
 دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى غدارون . ثم الربان :
 يانتانة العبيد ، يبيحكم رزقكم فلا تقبلونه الا بشروط . امش ، امش !
 والا اكتر رؤوسكم . اذا كان القهوجي يعبد النار فهل يحق لكم ان
 تسرقوه ، يانتانة العبيد يا اولاد الزنى ! اذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة
 مثل العادة - امش .

ثم الربان الثاني وهو يقب في سريره من جنب الى جنب ويئن : دعهم
 يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى ، انا اعرفهم ، غدارون .
 الربان : ما في شغل لكم . امش . الباخرة تسافر هذه الساعة . امش .
 زعيم العمال - على ما ظننت - باللسان الانكليزي المفجع : يشتغلون
 يا قبطان كما تريد . يشتغلون بروبية واحدة . انا الكفيل .
 ثم سمعت الربان وهو عائد الى سريره يقول : اذا كان الانسان يعبد النار
 فهل يحق لهؤلاء العبيد ان يسرقوه .

ولكن العبيد قبلوا ، شكراً لعضبه وامانته ، ان يشتغلوا بروبية واحدة
 نهاراً ، فباشروا عملهم في الليل واتوه قبل الفجر . هذه هي الحادثة التي
 ايقظتني تلك الليلة فلسبني العبيد بعد ذلك ، في ضجيج العمل والقرعة ،
 الراحة والنوم . ومع ذلك قد كنت مسروراً بما علمت . لا اظن ان شركة
 القهوجي التي لا يزعج يقظتها الدائمة شي . في البر والبحر تعرف ان ربان احدى
 بواخرها يدافع عن مصلحتها هذا الدفاع . ولا اظن ان الربان هاي ، وانا
 اعرف شيئاً من طباع امثاله الانكليز ، يجهدا ويئن عليهما . فهو يعمل ما
 يعتقد وواجباً عليه ويسكت .

في صباح اليوم التالي جاءني فضل الدين يقول : قد عاد السيد . هو سيد
 شحاذ كما قلت لك .

فقلت : هل علمت بجادث الليل البارح - هل سمعت الربان يتسخط على

المبيد ؟

فقال : سمعته وشكرته باسم القهوجي . لو كان السيد ربان هذه
الباخرة لما كان يتخرج من سريره في تلك الساعة اكراماً لاحد من الناس .

- ولكن تربية السيد شرقية وتربية الربان انكليزية .

- نعم ، والشرق كله في حاجة الى التربية التي تقدر العمل وتفرض

في العامل مبادئ الجد والامانة والتزاهة والاخلاص .

الفصل التاسع

جيزان

القائمة - المدينة - الذهب والفضة - جيزان في ايام الحرب - المتاجرة - الزوار
 - الى السدة الادريسية - الاستقبال العسكري - والسياسي - في مجلس الامام
 - « عثمان ربحانة العرب » - « هل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟ » - « هل
 الاميركيين دين ؟ » - الاقتران والانتخاب - قصة جورج واشنطن - استحسان
 السيد محمد واعتراضه - سوانال في الجغرافية - قصة لير نقص - محاسن السيد
 محمد - اجتماعنا به في الليل - الحر في جيزان .

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر ، فانكشفت امامنا ونحن في
 السنبوك بقعة من الارض سوداء بين الشاطي . والماء لا يمكن المرء اجتيازها
 الا حافياً مشراً . فلاقانا الى حد الجزر رجال يجملون الكراسي او بالحري
 الاسرة التي تشبه العنقريب ، فانزلونا واجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم
 الى البر في شبه السبخة التي كانوا يفرقون فيها الى الركبة . وهناك استقبلنا
 بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الادريسي
 الذي رحب بنا باسم حضرة الامام ومضى وايانا الى القلعة القائمة على ربوة خارج
 البلدة قريبة منها ومن البحر . والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يانية ، اي
 انه ضخم البناء رفيمه صغير النوافذ قليلها ، والنصف الاخر جديد بناه السيد
 مصطفى الادريسي ، واعده للضيافة التي يليق بها . فهو يشتمل على عدة غرف
 كبيرة ترقص فيها الشمس ويلعب فيها الهواء والغبار ، وعلى حوشين الواحد
 ضمن الآخر ، وحمام ومائدة افرنجية ، وسطح مسور جميل .

كنت بما سمعته عن جيزان امثل لنفسي بيتاً من القش نقيم فيه ، وجواري
 حبشيات يخدمنا ، ولداناً يقفون فوق رؤوسنا وبايدهم المراوح يروحون .
 اما الجواري فارأينا غير اثر من آثار ايديهن في الدواوين البيضاء الشريفة ،

والوسائد الوثيرة اللطيفة ، واغطية الفرش النظيفة ، واما الولدان فكانوا واقفين في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات .

جيزان بلدة قديمة في تهامة تكاد تبعد عن ابي عريش شرقاً بعدها عن صبيا شمالاً . فهي من البلدين رأس المثلث الزوايا على البحر الذي يحيطها كالهلال من ثلاث جهات . بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة الاف نفساً ولكنها كانت في الماضي على ما يقال اكبر مما هي اليوم واوسع عمراناً . بناها احد المحسنين الى الانسانية ليقرّب ابناء الجبال من البحر والرزق ، احد المحسنين المدفونة اسمائهم في اثارهم . على انه لم يبق من مؤسس جيزان واثاره غير اسم البلد الذي يحمله العارفون الى كلمتين جا وزان اي جاء الزان ، من اسس المدينة وزينها بخلق الله . ولكننا لا نعرف من هو ولا نتيقن ان ما شيده وزينه كان في مكان جيزان اليوم او في غيره من سبخات تهامة .

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعة اكواخ من القش هرمية الشكل يتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بعمابد الاقدمين ، مربع سطحها اصفر من مربع اساسها . وبينها مفردات وثريرات من النخيل ، وحولها ذلك الحط الذي يحيط بها كعتلة الفرس ، وهو ازرق ساعة المد ، اسود ساعة الجزر ، اصفر في ساعات الشفق والغروب . وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوي اليه احد الخرس في النهار . وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع ، وهو بناء صغير ذو مأذنة متواضعة وايوان تحته الشمس طوال النهار . ووراء القلعة ، او بالحري القصر شرقاً بجنوب ، قلعة اخرى تشرّف على البلد والبحر ، فيها بعض المدافع وحولها المتاريس .

سررنا بيتنا الجديد ، وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناءً ، واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا ابيه فيها ولا جلال . ولكنها ترمي . كلها الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها ، من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر والسكينة

والاطنثنان . على اني من وجهة اجتماعية اقتصادية ، حرت في امر اصحاب هذه الفضائل القدسية . حرت في امر اهل هذه البلدة وموارد رزقهم .

عندما رسونا في مياه جيزان كان اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل واكياساً صغيرة ثقيلة ، اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسأت الربان هاي عما اذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان . فضحك ثم قال : اني اعجب لهذا الامر . من اين يجيء الذهب الى هذا البلد ؟ وفي كل سفرة نحمل منه اكياساً الى عدن .

اجل ، ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيها سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة الاف نفس تحيا وتحمد الله ، وان كنت لا ترى حولها بقعة ارض خضراء . فمن اين يجينهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف بمدن ؟ سؤال بديه حري بالجواب .

كانت جيزان في سنتي الحرب الاولين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان العم الغربي من شبه الجزيرة او جله يستقي من وواردها . فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الى ميدي . اما اليوم فجيزان هي احدي عاصمتي الادريسي ، وهذا اول مصادر الخير فيها . هي نقطة دائرة خصبة انحازها ، غضة حواشها . يزومها الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعالي عسير ومن المدن جنوباً وشمالاً في تهامة ، فيجي معهم الرزق ، التجارة والكسب والحيرات . يحمل الخنطة اليها تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معانها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجبي بها بواخر القهوجي والسنابيك . جيزان مركز استيراد وتوزيع . جيزان مورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك ، فتتوزع منه الى الجهات كلها . وهكذا تعيش جيزان من لاشي . يوي ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ،

وتفدق على كل محترم كسلان . اما سيد هذه الحركة الحفية ، وقطب تلك الاريجية ، فهو السيد الادريسي .

جا رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليه ، فركبنا «موتر» السيارة وسرنا في اسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون ورامنا ويصيحون حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ريوه تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الادريسية اصحاب الشهور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لاضباط من الترك ها هنا ولا صوت الزامل ولا البرزان^(١) تولنا من السيارة ومشينا بين صفين من الجنود الى بوابة حارسها مولد عمليق سأم ويده على رأسه وادخلنا آمنين ، فاذا نحن في حوش كبير وبين اخرين من الجنود . مشى فريق منهم الى باب دخلناه فاذا بقم مولانا واعوانه يسلمون ويرحبون . حلوا محل الجنود فتقدمونا الى حوش ثالث واستقبلنا عند بابه وزيراً حضرة الامام وحاشيتهما فدخلنا وايامهم الى رواق صغير ، وقفنا فيه عند باب كبير ، فخلعنا نعالنا هناك ودخلنا الى المقام الشريف المنيف ، الى قدس الاقداس والتقديس ، الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس .

وما المكان غير بضعة ابواع اخرى من ارض الله وسقفه القبة الزرقاء . وهو محاط باربعة جدران عالية في احدها باب يفضي الى بيت الحريم ، وفي الثاني باب اخر يدخل الامام ويخرج منه ، وفي الثالث ثالث هو باب المسجد الحاص . اما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحداً عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند . هوذا المجلس الشريف والمقام المنيف ، وفي صدره حضرة الامام جالساً ، ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص .

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحة ١٠٠

وقف لنا ورحب بنا ترحيباً جميلاً . فسلم على الدكتور فضل الدين سلام
الامامة على احد المقربين منها ، قبله في وجهه ، وسلم علي مصافحاً ، ثم امر
لنا بالجلوس على ديوان قربه . وكان في المجلس ساعته السيد السنوسي
والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم .

رأيتني لأول مرة امام سيد من السود ، امام عبد يسود مليوناً من العرب ،
وفيهم الوف من السليلة النبوية . وقر التقرز لأول وهلة في نفسي ولكنه لم
يكذب يتكلم مسترسلاً حتى ارتحت الى حديثه وملت اليه ، فأرأيتني رويداً
رويداً مكبراً الرجل معجباً به . كان السيد محمد بن علي بن محمد بن احمد ابن
ادريس ، رحمه الله اجمعين ، جاحظ العين صغيرها ، رفع الجبين ، دقيق
الانف ، ضخم الشفة والرقبة ، مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض
المنكبين ، طويل القامة ، شديد البأس والهجعة والغضب . لم يكن فيه من
ملامح العبيد البارزة غير فمه ، وشكل وجهه ، ولونه شديد السواد . وكان
فيه من اثر الجنس السامي الآري - اسلفت القول ان امه هندية - ما ذكرت ،
اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات المصبوغة اضعف في
عينيه ، ويجلس مقرباً على الديوان ، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة ،
وله في الوقفات اشارة تمكين خاصة به كأنه يجز الآف والهاء ثم الهاء
والالف ليثبت ما يقول .

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الحفاوة والضيافة
والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل في جانب ما تسعون اليه . انتم
تسيحون في البلاد العربية لحيرها وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم
ومن اجلنا نحن حكامها . فتستحقون اضافة الاكرام الذي تشكرونا
عليه . ولا شكرا يا حضرة الاديب على الواجب .

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقده واجباً علي . اني اشعر

يا مولاي بان في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقد به . نعم ، وان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان ، مثلي . فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه : ونعم النسب . غسان ريحانة العرب . ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ، ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطامع الاجنبية والسياسة الاوروبية ثم انتقل فوراً الى اميركا . كأنه لم يشأ ان يكون الحديث ساعثند في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه . وكانت سؤالاته تدل على انه عالم ببعض شؤون تلك البلاد الا انه لم يطالع تاريخها . قصصت عليه قصة نيويورك واصحابها الهنود الاولين وبيعهم المدينة الى الاوروبيين بشيء . من الودع لا تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالاً . فسر جداً ايها وسألني قائلاً : وهل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟

فقلت كلمة في الجمهورية الاميركية ورئيسها . فقال : وهل للاميركيين دين ؟ فاجبته قائلاً : شيء . من الدين ، نعم . ثم سألني و كأنه كان يستدرجني الى امر اراده ، لانه كان عالماً بما في اميركا من الاديان .

- وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ - ولم عددهم اذن ؟

- لا يقل عن عشرة ملايين ،

- كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

- يزداد نفوذهم يوماً فيوماً .

- وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

- ليس ما يمنع ذلك شرعاً او في القانون الاساسي . ولكن الحكم

في البلاد للاكثرية وبالاقتراع .

فاسترداني ايضاحاً في طريقة الاقتراع والانتخاب وكان يعي الكلام

ويتأمله ويهز برأسه من حين الى حين استعساناً .

- ولكنهم يبذلون اموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس . افا كان خيراً
ان يعطوه ربعها راتباً ويقسوه ملكاً عليهم ؟ فيوفروا ملايين من الريالات .
- كان جورج واشنتون يا مولاي رئيساً اولاً وثانياً - هي القصة التي
كنت اقصها على امراء العرب وفي مجالسهم ، وصرت اخجل ان ارددها .
« ما هربنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا » كلمة قالها جورج واشنتون الاول
والاخير ، ابو الجمهورية ، اعجب بها كل من سمعها في الجزيرة . اما السيد محمد
فقال : امرنا نحن العرب غير امر الاميركيين . اذا رفض اميرنا الامارة
فعشرون حوله في الميدان يطلبونها وينتازعونها ويختربون من اجلها . على
الامير الحاكم اذن وهذه حالنا ، مهما تعددت تكاليف الملك واشتدت صعوباته ،
ان يقف مكانه كالجندي ويقوم بواجبه دفعاً للفوضى ، وحقناً للدماء .

ثم انتقل مرة اخرى فوراً . وما كان اسرعه انتقالاً وابعده ، فسألني
سؤالاً جغرافياً : وهل اميركا بعيدة عن خط الاستواء ؟

- اميركا الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خط الاستواء يا مولاي
خمسة عشر يوماً في البحر . واميركا كلها ، اي قارة العالم الجديد ، هي
شطران ، الشطر الاكبر شمالاً والشطر الاصغر جنوباً من خط الاستواء .

وهل يمكن الوصول الى روسيا عن طريق اميركا ؟

- بحراً من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيريا فروسيا ، نعم .
- نعم لهذا ولكن هناك طريق اقصر . بين اخر بر اميركا واخر بر
روسيا مضيق ، اتذكر اسمه ؟

- مضيق بيرنغ .

- نعم ، مضيق بيرنغ ما هي المسافة فيه بين البرين ؟

وها هنا رأيت نفسي في مضيق من البحث . ما جال قط في ذهني اني سأسأل مسائل جغرافية في مجلس الامام لا استطع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المبادأة المزعجة . فقلت : لا ادري . ولكنني اظن وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب . ان اخر عهدي بمضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيويورك ، وكان استاذنا يقول بين المرح والجد : من يجيد السباحة يمكنه ان يسبح من اميركا الى روسيا .

لكني لم اتذكر القصة الا بعد خروجنا من مجلس الامام ، فتأسفت جداً . ولت ذاكرتي ووجدتها لانها لا تلبيني ساعة يازم ويليق وتميدها الى الذهن ساعة لا تفيد . وتنسني قصة افككه حضرة الامام بها ثم قلت في نفسي : سأقصها في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكن الامام لم يذن بعدئذ من الموضوع . ولا انا ، والحق يقال ، تذكرت القصة الا مرة واحدة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينه وبين الملك حسين فكيف يجوز ان اوقف البحث لا قص قصة مهما كانت مضحكة ؟ هل اقول له : على ذكر بني عائض يا مولاي ، او على ذكر القنفذة اقص عليك قصة مضيق بيرنغ ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة ورغبتني الشديدة في قصها فلم يسمعها السيد محمد .

خرجت من مجلسه وفي من الرجل تذكارات كلها حب واعجاب ، وهي اليوم ، وانا بعد سنتين اعيد ذكرها ، لا تحرك في غير الاعجاب والحب . فيصح اذن ان انقل الى القارى . كلمة من مذكراتي في جيزان .

اول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح المجرد عن الاصطلاحات واللاهجات المحلية . ثم وقفاته في الحديث وكلمته - إهاً - في التمكن والتثبوت . واول نظرة في مواهبه واخلاقه تريك انه ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم ، وهو ساذج ، كريم الاخلاق . لا اثر للروحانيات في وجهه . ولكن قياس الفراسة الذي

يصح في البيض قلما يصح في السود . ان في الولايات المتحدة عبيداً يسرقون الدجاج وعبيداً لا يجيئون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح - جاء في المزمور الواحد والخمسين : طهرني بالزوفى فاطهر . اغسلني فابيض اكثر من الثلج . وهم يؤمنون بكل الانبياء وبكل شي . اذا خبرت احداً منهم في رئاسة الجمهورية وقيثارة داوود يفضل القيثارة ولا غرو قد تكون روحانية السيد محمد اذن كامنة لا تظهرها كلمات اللقمة وسياه الوجوه ، لا تظهرها غير الاعمال . واني متيقن انه لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك .

نظرة ثانية : اصف الى ما تقدم ان السيد محمد الادريسي صريح في حديثه ، صادق في ما يقول ، ساذج في ما هو دون معقوله ومعلومه . كبير الخلق والقلب . يميل الى السلم والائتلاف . . . احسن ما في العبد قلبه اذا حسنت اخلاقه . واكبر ما في السيد محمد قلبه ولا غرو . . .

تعددت الجلسات والاحاديث التي كان قطب دائرتها أولاً الملك حسين والوحدة العربية وثانياً الامام يحيى والصلح . وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لان الحر في جيزان لا يأذن ابداً بالتجوال او باقل الاعمال نهاراً . فكنا بحكم الشمس والبحر ، والميزان دائماً فوق المئة « فارنهيت » في الظل ، نستسلم الى ما تبطل فيه الحركات كلها ، الا حركة التنفس . وهذه تضعف فنقف احياناً نستغيث . ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة واصيلاً ونكفر ليلاً عما نهله عمداً او في حال الاغماء من الحماد .

خبرت الحر في اماكن كثيرة ، من المكسيك الى عدن والعراق ، فما وجدت حرأ جامعاً محاسن الحر كلها وفي اعلى درجة منها مثل حر جيزان . ان الشمس ها هنا قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتعل فتترسل اشعتها عكساً الى كبد السماء . بل كأنها جيبتك تشاركك في الحياة فتجلس على

ر كبتك تقبلك في فك قبلة تدوم اثنتي عشرة ساعة ولا تنقطع . واذا نظرت اليها وانت تلجأ الى الماء منها تراها ترقص في هوا . كأنه حجاب من الشاش الهندي الابيض فتبدو اشعة الشمس فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر ، وكالوهج الاصفر ساعة الاصيل فترفع يديك الى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية .

اما الرطوبة ، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك ، فلها لون يجيشها من يدي المد والجزر ، ولها جسم من كرم العناصر في تهامة ، ولها رائحة هي بنات الطحلب والسبخة والملح ، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام تلصقها بك اذا دنت منك . فهي كورق الغراء الحلو تجذب الذبابة اليها فتعلق بها . بل هي كتوب يلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس ، فتلبسه كرهاً وانت تشتتهي فوقه ثوباً من الامواج . لله موجة تعيد اليك الحياة . ولكنك في القلعة ، في القصر ، ضيف محترم . والامواج تحتك للفتيان والفتيات يلاعبونها ، فلا يليق بك في ذي البلاد العربية التي يرم فيها الاحترام فيؤلم ، ما يجوز للصبيان .

الفصل العاشر

بين الامامين

ساعة الاصل . والرأس المتطوع - ساعة الاستقبال . والغيل والليل - السيد
والملك حسين - « المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة ميسرة » - ابن سعود -
المحافظة الرباعية - الاتراك - « حارثا مهر واخر جناهر من البلاد » - الامام
يحيى - « ضنا واياه متعاهدين » - قصاصة من ورق - خطاب من الامام الى
الادريسي - « وهذا اليكم كتاب انه الى اخيه » - كتاب من الادريسي الى الامام
- « وقد انكشف الحال عن برالتنا من كل دسيسة » - الفرق بين الامامين .

كنا في القاعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور ، فننتقل من غرفة
الى غرفة ، ومن رواق الى رواق ، اتقاء وجه الشمس . وما كنا نحشى مثل
ساعة الظهر خطبا ، ساعة يحيى . الخدم من بيت السيد السنوسي وعلى رؤوسهم
الاطباق ، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء ، وتحت الغطاء الرأس المقطوع .
فنجلس الى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حيا وقد حشي بالارز
والبيض والزبيب ، وفي الوسط الرأس ينظر عطفاً اليك . اخجلني والله وجعب
الي التنحس في مذهب الهندوس .

والحق يقال انني مللت اللحم ، خصوصاً في مثل ذلك التليظ ، وكنت
اشتهي بعد سف شي . من الارز بقعة خضراء . ارعى فيها . واشتهي قبل
كل شي . الماء . فاجده في العارة فاتراً ، فاصبه في الكأس فاذا هو اصفر اللون ،
فاغض عيني واشرب باسم الله . اما كرم الادارسة فا كان ليخل قطعاً بقاعدة
الضيافة عندهم - قوزة كل يوم . اغدق الله عليكم ايها الافاضل ، وبارك
الله فيك يا جيزان ، بركة تشمل من اجل سادتنا بني ادريس آلة لتصفية
الماء . ومعلاً للثلج .

- هات المروحة يا أبكر .

يدخل السيد ابكر ويديه عدة مراوح وعلى لسانه خبر ما سر فضل الدين .

- قل له الحكيم نائم . ليجنني نصف الليل .

ثم يدخل الحاجب . الشيخ الشنقيطي يبغى التسليم على الاستاذ .

- صل على النبي . هات القميص والعباءة يا ابكر .

وكان فضل الدين يدفع عني احياناً مؤونة المقابلات في النهار .

- قل للشيخ ان الاستاذ لا يستقبل الا ليلاً - بعد نصف الليل .

كذلك تنعكس الحياة في تهامة . نعدنا الشمس ، تمهكنا ، فيجئنا الليل فرعاً ويوقظنا القمر . ساعة من الفرج - . الا اننا والحق يقال لم نكن لنسر بشي . سرورنا بكلمة الحاجب : جاءت الحيل . والحيل من حضرة الامام ومعها رسول يدعونا اليه . فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش ، ونحضر مجلس الامام فنستأنس ، ونواصل السعي في سبيل السلام ، فالالفة ، فالتضامن ، بين ثلاثة من ملوك العرب .

- المسئلة بيننا وبين الشريف^(١) - الكلام حضرة الامام - قريبة ميسرة . نحن اولاده ، نحتومه ونحمله . ولكننا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم في الامر ، اها ، ليسألنا ، ليشاورنا نعم ، هو لنا بمثابة الاب ونحن ابناؤه الراشدون . عندنا حكمة ، اها ، حكمة في الدين وفي السياسة . وعندنا قوة . القبائل في يدنا . . . وافه لا تمر اربعة اشهر على المعاهدة الا نكون اصلحنا الامر بينه وبين ابن سعود فتسير القوافل آمنة الى مكة والمدينة . . . ان عند الشريف الحرمين ، ونحن نبذل انفسنا من اجل حب الحرمين . لا تخير في حياة المسلم اذا كان لا يفار على الحرمين ويسعى دائماً في المحافظة عليهما .

(١) اي الملك حسين .

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود فقلت : اذا اصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد فهو ولا شك يسهي ليصلح بين سيادتكم وبين الامام يحيى . فيتم اذ ذلك الاتفاق الرباعي ، او المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن حجر الزاوية في الوحدة العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الامر بيننا وبين ذلك الرجل ^(١) بعيد .

- وليس على الله يا مولانا امر عسير .

- نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الاديب بعيدين مما تروم . ولكن ذلك الرجل اضر بنا ، اضر بنا والله ضرراً جسيماً . ونحن نفعناه . وكان نفعنا مجزواً عن كل ضرر وغش . اما نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا منا ومنه . لذلك ترى الامر قريباً بيننا . . . العرب خداعون غدارون .

كان يردد رحمه الله هذه الكلمة كل مرة يحيى . على ذكر هذا الرجل ، اي الامام يحيى ، في المقابلات الاولى . ولكنه عندما تحقق مقاصدي غير لهجته .

- نحن اول من حمل على الاتراك في الحرب الكبرى ، اول من انضم الى الاحلاف . اما هو فاتفق والترك وانسحب الى شهاره واقام هناك بعيداً عن ساحة القتال . اي خير جاءنا نحن العرب من الترك ؟ اية منفعة نفعونا بها ؟ نحن حاربناهم قبل الحرب ، وحاربناهم اثنا . الحرب ، وسنحاربهم اذا عادوا الى بلادنا . نحن كنا نحاربهم في تهامة لئلا يردهم عن ابن حميد الدين . او قفناهم مراراً في زحفهم عليه . دفنناهم عنه فراح يعقد واياهم صلحاً ورا . ظهرنا هذا في اثنا . الحرب . اما قبلها فكنا واياه متعاهدين . عقدنا محالفة لمحاربة الاتراك وطردهم من اليمن . ولما جاؤوا يمزون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال او قفناهم وقنا لهم : كيف نقبل وبيننا وبينه عهد الله . وصل الترك بعدئذ

(١) اي الامام يحيى بن حميد الدين .

الى صنعاء فهوا بضربنا من وراء ، من الجبال ، فلم ينعهم ابن حميد الدين ،
حليفنا صنو عهدنا . كأن العهد عنده قصاصة من ورق .

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الامام يحيى الى السيد والثاني
جوابه ما يزيد سياسة الرجلين بياناً ، وعقليتهما جلاء .^(١)

في كتاب الامام الى « الصنو السيد العلامة » بعد السلام مقدمات ادارية
في تاريخ المفاوضات ووسائطها^(٢) ثم انه يرحب بسعي كل من يرجو الله في
دفع الدسائس الاجنبية « وصوت هذه القطعة العربية اي اليمن من تدخل
الاجانب ، وعدوان يحدث من اي جانب » .

واعلموا يقيناً ان ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله
بالقلب واليد واللسان . ووالله لولا ان نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن
عادة الكافرين على هذه الاصقاع لما حركنا ساكننا ، ولما اظهرنا كامناً .
ونصرح لكم بانه معاً بينكم وبين الدول من الروابط والسلم : با لهم
من المقاصد الضارة بالاسلام والمسلمين وما يروحون من التسلط العام
والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام ، وبانهم لا يدفعون الاموال
والذخائر الا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم ومثلهم .
ولم يحلهم على اظهار عدواننا الا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد
اليسنية . ولولا ذلك لما كان بيننا وبينهم ما كان وما سيكون . قد
انصقم بما اوضحتموه لشرقي من القيام بالعدد والنجر والتشهير لدفاعهم

(١) بعد دخول الاتكيز الجديدة وخرجهم منها واستلام الادريسي زعماها سمي
بعض رجال الامامين في عقد الصلح بينهما . وقد ذكر الامام يحيى اسما ثلاثة من رسل
السلم والوفاق .

(٢) تاريخ الكتاب ٢٥ جمادي الثاني سنة ١٣٣٩ والاشارة الادارية فيه هي : بعد
وصول نقيب حسن بن مقبل وانفاقه (اجتماعه) بالقاضي عباد الله الفخري واطلاعهما
على ما بيد شرقي والعرض علينا . . .

ومنهمم وحريهم في البر والبحر^(١) وذلك هو الغرض المقصود . ولكن بقي امر وهو هل لهم من حجة يحتجون بها ويجاوبونها ذريعة لهم الى مقصدهم الجيئ من ادعاء الحق في اي جانب لهم من اليمن . وهل لكم من فكاك من تلك الوابطة يزول به كل وسيلة لهم الى اي تجاوز . المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ان لا تكتسونا شيئاً . فانه لا محاباً بعد بوس ، ولا عطر بعد عروس ، وانتم اعرف بسياسة الدول ومساكها الى الوصول الى اغراضها بما تعبره من متلونات الحيل . وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه للنظر في ما يعز الاسلام والمسلمين ويدفع كيد وضرر الكافرين .

وختام الكتاب انتحاب مجد السلام الغابر ، واستنهاض المسلمين على جهاد الكفار الذين « تسلطوا بانواع التسلطات الجيئة على المسلمين فصاروا لا يملكون مستقلين قياد انفسهم . ولكنها الاهواء . عمت فأعمت ، ولو عقل المسلمون وعملوا بما امر الله به الخ . »

اما جواب السيد محمد بن ادريس الى « الجتاب الشريف والمقام المنيق » الصنو العلامة الامام يحيى بن حميد الدين فبعد حمد الله والسلام يعلمه بوصول كتابه مع النقيب الشرفي ويؤكد له ان بغيته المقصودة وضائته المنشودة « ان نرى انفسنا على محكم الاخاء . والوفاق مع جميع الامة فرداً فرداً . فضلاً عن هو مثلكم ممن ضمنا وضمه رحم العلم والنسب »^(٢)

(١) اي الانكليز . وفي هذه الجدة اختلاف على ما قيل لي وقصد سي . لان شرفي لم ينطق بهذا الكلام او بجملة ولا السيد الادريسي ولا احد خاصته . ومن اين للادريسي ان يجارب الانكليز برأ ومجرأ . فضلاً عن انه كان يومئذ صديقهم وحليفهم . اما القصد منها فظاهر . وقد كان الادريسي يفتي تقرب الانكليز من الامام كما كان يسعى الامام ليبعد بين السيد والانكليز .

(٢) « من ضمنا وضمه رحم العلم والنسب » . اما العلم فلا مشاحة ان السيد محمد

ولو نظرنا الى ما جرى من الحوادث حتى كاد لم يكن هناك رحم
توصل ، ونفوس بين يدي الله مما تفعل وتُستل ، فدعا الاخ اخاه الى
حكم السيف والسنان ، بل كر عليه بما هو انكر من وخزات القلم
واللسان ، لطال الشرح وتقادى الحال . ولكن حيث اوجب تعالى على
الكافة ان يكونوا اخواناً ، وفي الحق اعواناً ، فلا مخلص لنا ولكم
لدى الباري من الحجّة ، الا ان نسلك واضح طريق هذه الحجّة . .
اما ما اشرتم اليه في ما بيننا وبين الاجانب فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما
قدم مضى بيننا وبين الطليان وقد امددنا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم
وبين الترك فانكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة^(١) . بل ظهر
لعموم ما اجراه الله على يدنا من الخير المعالوم^(٢) لاتضحت لكم الحقيقة
الحاضرة وعرفتم المثل السائر : ما اشبه الديلة بالبارحة . وفي الجملة ما
حالنا وحال اهل اليمن الا كما قال حجة الاسلام :

كان صنو حضرة الامام بالعلوم الاسلامية والنقح واللغة . واما النسب فقد طعن الزبيد
به طعناً ثبت ما قلته في التشرّي واختلاط دم السود بدم الاشراف في فصل سابق .
(١) « انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » عندما نهاده وابطاليا اضم
بدسيسة يراد منها ادخال الاجانب الى البلاد العربية . قالوا : هذا اجني - والزبيد
يحسبون الادارة دخلاء في اليمن - ويتواطأ والاجانب علينا . فكان انه اخذ مال
الاجانب وسلاحهم واستخدمها في محاربة اعدائه الاتراك . اما الايطاليون ، وم في
الناطية . الافريقي من البحر الاحمر قبالة الادريسي ، فلم يطأوا ارض شامة ، ولا
اثر لنفوذهم هناك اليوم . ثم اضم التهمة نفسها عندما دخل الانكليز الحديدية ، وما
عسوا ان خرجوا منها .

(٢) « اجراه الله تعالى على يدنا » كل امراء العرب او من قام منهم بميل خطير
نافع بقول هذا القول : سخرنا له الله ، وفيه تواضع ونفوق . فالرجل الكبير
متواضع لانه لم ينسب كبير حمله الى نفسه بل الى الله الذي اجراه على يد عبده . في
هذا الادعاء يقول ضمناً للناس : لو لم اكن عظيمكم وزعيمكم لما خصني الله بحديكم
واختارني آلة لمحبكم .

غزت لهم غزلاً دقيقاً فلم اجد لغزلي نساجاً

ان الله تبارك وتعالى اذا فتح باباً للخير فلا راد لفضله . واما ما طلبتم البيان فيه عن اليمن وما ترمي اليه السياسة الاجنبية فن المعلوم انها لما قامت الحرب الاوروبية اعلنت دولة بريطانيا مساعدة العرب اذا ارادوا الاستقلال دون ان تتدخل في شئ . من شؤونهم . ولكن من الاسف انهم على اراء متفرقة واهواء مختلفة . ومرت هذه القرصة وكادت تم ولم يرفعوا اليها رأساً . . . على ما نشهده الان في الاختلاف وعدم الانتباه ، لما يرفع شأنهم دينياً وسياسة . اثبتوا على انفسهم عدم الرشد فاحتقرتهم اعين العالم وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم . من بين سائر الامم . فلا حول ولا . . . ومثلكم على وفور من العلم والسياسة ، وبجل من المالي والرئاسة ، فلا يخفى عليكم كيف يكون لم شعث هذه الامة ، وما هو الاقوم عند الله طريقة في زوال هذه القمة ، وحسينا الله ونعم الوكيل . في ١٥ شعبان سنة ١٣٣٩

في هذين الكتابين يتضح امران ، الاول : ان دعوة الامام يحيى دينية ظاهراً وسياسية ضمناً ، ودعوة السيد الادريسي دينية اساساً وسياسية قومية عملاً . الثاني : في كتاب امام صنعا . غموض مقصود وعموميات قلما تفيد ، وفي كتاب امام جيزان صراحة مبرورة وتخصيص ليس فيه ايهام .

الفصل الحادي عشر

المعاهدة

انصاة بين الضعيف والقوي - النفع السوي المتبادل - سياسة الانكليلز بعد
الحرب - السلاح والمال - السياسة الجديدة - لا مشاهرات - ولا دسائس - ولا
تجسس - ولا ارحاب - الامتيازات الاقتصادية - البحث في المعاهدة - نظرة
خلاف تختص بالانكليلز - حجة السيد وحجتي - رغبتني في خدمة الملك حسين -
نص المعاهدة وشرح بعض بنودها .

من طبع الضعيف وان كان مستقلاً ان يوالي الغني ويستنصر في اموره
القوي . ومن مظاهر القوة ان الضعيف في مكانه وببشته هو غالباً اقوى منها
في غير مكانه وببشته . فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف فيقوى
بها وتنتفع به . وما دام الانتفاع متبادلاً متساوياً ، وهو لا يكون كذلك
الا اذا كان في الفريقين شيء من الوجدان ، فالولا . بينهما امر طبيعي ، اما
اذا اختلف التوازن في المنفعة ومالت كفة الميزان فهناك السيادة الفاسدة اجنبية
كانت ام وطنية ، من القوي كانت ام من الضعيف . هناك الاستيلاء
والاعتصاب والظلم والاستبداد . وبكلمة اخرى ان القوي القليل الوجدان
يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط ، يرضه اليه فيبتاعه او يستعبده .
والضعيف ، الضعيف الوجدان ، يجادع القوي وينافق فيكسب بعض القوة
التي يسي . استخدامها ، فلا ينفع نفسه نفعاً يذكر ولا ينفع احداً من الناس .
هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما ياتلها في السياسة وفي الملك .

كان السيد الادريسي يدرك امرين في حياته جوهريين ، اولها انه قوي
في ذاته ، وثانيهما ان ملك الادريسي ضعيف بين اقوياء عم اعدائه . بديهي
اذن انه ، وهو الطموح الحكيم ، اذا عرف قوياً يروم الولا . والاه واستنصره
على الاعداء . وكذلك كان . جاء القوي عدو الاتراك - ايضاً لانه انكليلز -

والمرء في ايام الحرب ابعد عن المحاطلة والحداع منه في ايام السلم ، فنفع
الادريسي وانتفع به . ها هنا قوة وضعف فيها حكمة ووجدان ، وفي
اتحادهما نفع سوي متبادل .

اما بعد الحرب فانقلبت الحال ، وساءت الاعمال . امست حليقة السيد
ولا قصد لها ظاهراً في بلاد العرب غير نفوذ قدمه الى مقامات السيادة ، لمرض
مجهول كثر المتكهنون به وقل المدركون ، دون ان تبدل شيئاً مما كانت
تبدله اثناء الحرب . زد على ذلك انه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف ،
وليس لها الان غير اعداء سياسيين . فاستمرت على سياسة العنوض توالي هذا
الامير علناً وتفاوض عدوه سرا حتى ساء حالها ، وساءت اعمال رجالها .

ويودي ان يعود الفريقان ، الانكليز واصدقاؤهم العرب ، الى شي .
طبيعي عادل في العلائق السياسية واولائية تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية .
لان ذلك لا يكون الا بالسياسة القومية الصريحة من قبل الانكليز ،
وبالصدق والزهارة والاقبال على الحسن من التمدن الارروبي من قبل العرب .
كانت انكلترا تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الاموال فتسيطر
بواسطتها على الرجال ، فانتفعت منفعة محلية وقتية ، وما كسبت بوجه الاجمال
من العرب غير المقت والاحتقار . ولعمري انها في ما كسبت غير مظلومة .
فقد افسدت باموالها الامراء واهلكت بسلاحها العشائر ، وهي لا تزال تسعى
في نفوذها وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة . وهذا
لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الاحوال . فالسيد الادريسي نفسه لم
يذعن لمثلها الاذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها ويسلمح المشائر بسلاحها .
وكثيراً ما كان يردم في ما يقترحون خائبين « لم يربط الانكليز احد مثلي .
انا رقصت الانكليز » . سمعته يردد هذه الكلمات مراراً في حضور وكيل
انكلترا السياسي صديقي محمد فضل الدين . ومهما كان من زعمه فلا احد

ينكر ان السيد كان عربياً حراً صحيحاً يأبى التسيطر الاجنبي كما ياباه غيره من ملوك العرب الكبار ، الا انه لا يرى الضرر والكفر في موالاته اجنبي ينتفع به . اما الانتفاع اننا . الحرب فمرفتاء . فماذا عسى ان يكون في ايام السلم ؟
 هذا دوام العلائق الولائية بين امراء العرب وبين انكلترا . ولكنها لا تدوم كما قلت على الطريقة القديمة . لا ولا . متبادل ولا اكرام حقيقي مع التذبذب والنجس ، والدسائس والارهاب . ان الحكمة كل الحكمة والحير كل الحير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة وحب السيادة التي لا طائل تحتها . واذا كان لا بد من السياسة الى حين فحذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن ال « لا » وال « نعم » معاً ، وعن الختل والخداع .

اني لا ارى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلاً قوية الى الولا . الاكيد بين الامم وفيه النفع المتبادل الدائم . اننا نتاجر معكم ، ونمنحكم الامتيازات ، ونأذن لكم ببناء المستشفيات مثلاً والمعاهد العلمية ، ونؤمن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الاحمر ومن الخليج ونحافظ عليها ، فتمدونا في مقابلة ذلك بالمساعدات الادبية والسياسية والمالية التي من شأنها ترقية البلاد وتعميرها واحياء موارد الرزق والثروة فيها ، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتد والمندوب لتسبدلون القناصل بهم ، فستقيم العلائق بيننا وتصفو موارد الثقة والوداد^(١) .

هذا ما اشرت به شفاهاً واشير به كتابة على الدوام ، وقد كان السيد الادريسي من رأيي . فلما وصلنا ونحن نبحث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين الى بند يحدد علاقة الامير العربي بدولة اجنبية قال : ولا بأس

(١) في معاهدة جده التي عقدت في ٢٠ ايار سنة ١٩٢٧ بين جلالة ملك بريطانيا العظمى وجلالة ملك نجد والحجاز برهان ساطع على ان الحكومة البريطانية بدأت تعمل بحسب هذه السياسة الجديدة السديدة التي اشترك فيها المصالح العربية والانكليزية وتساوى فيها الملقوق والواجبات .

من ذكر انكلترا في المعاهدة ، بل يجب ذكرها . فقلت : وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل انكلترا على سواها من الدول الاوروبية فلا استحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين . ولم اكنم السبب وجله سياسي في ما دعاني الى مخالفته ، بل صرحت برأيي ، وكان فضل الدين حاضراً اجلسات كلها ، دفاعاً عن القضية العربية والقصد الاكبر فيها ، وهو تألف ماوك العرب وتحالفهم في سبيلها . فقد كان الملك حسين ناقماً يومئذ على الانكليز ، وكان الامام يحيى حرباً عليهم ، وانا ابغى عقد معاهدة بينهما وبين الادريسي ، فكيف السبيل الى ذلك واحد الثلاثة بقيد نفسه بانكلترا ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله اياها على سواها من الدول الاوروبية . فقلت مصراً :

خير لكم يا مولاي ولانكلترا ان لا نذكرها في المعاهدة . واني لا ارى ما يوجب ذكرها هنا خصوصاً في معاهدة بينكم وبين امير عربي آخر . كنت افكر دائماً بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمة حقيقية تقرب امراء العرب منه وتربطهم بالمعاهدات واياها ، خدمة تفيده اكثر من ارساله الوفود الى انكلترا وجنيف ، وكانت هذه الرغبة تشيخ بنا اقل واقول . ولم يكن الامام يحيى ولا الادريسي مغبوناً في عمل مجرد عن الاغراض السياسية والذاتية كلها . فضئت ان يفسده ذكر انكلترا ، فيرفض الملك ان يوقع المعاهدة بسببها وينكر الامام كذلك مساعي الملك في سبيل الصلح بينه وبين الادريسي . لذلك دافعت عن نظريتي بكل ما عندي من حجة وبقين . ودافع السيد عن نظريته لا اعتقاداً فقط على ما اظن ، بل رغبة بالحفاظة على صداقة الانكليز . فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هتاني فضل الدين وقال : قد نلت من الامام ما لم ينله احد قبلك .

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر بريطانيا العظمى ولا كلمة تشيخ اليها .

وكان الانكليز مع ذلك راضين بها . مما دل على ان انكلترا لا تعارض في عقد معاهدات ولائية اقتصادية - دفاعية كذلك - بين امراء العرب اذا وُفق الامراء الى من يسمى في هذا السبيل سميّاً فيه نزاهة ووطنية حقة ، ثم شي . من الاعتدال والانصاف .

وها اني اثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والامام يحيى .

التشديد واحد في المعاهدتين .

المادة الاولى : البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها الموجودة وتحويل امرائها وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخلتها . وانا المطلوب اجتماع الكلمة القومية^(١) وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير تدخل اجنبي يحل باستقلال البلاد العربية^(٢) على ما سيعرف من المواد الآتية .

المادة الثانية : يعترف جلالة الملك لسيادة الامام الادريسي بالامامة ويعترف بسيادة الامام جلالة الملك بالملك^(٣)

(١) قبل السيد محمد بانص الذي قدمته وهو هذا : وانا المطلوب اجتماع الكلمة القومية راجع شرح هذه المادة في معاهدة الامام صفحة ١٩٢ من هذا الجزء .

(٢) راجع الشرح في معاهدة الامام صفحة ٣١١ من هذا الجزء .

(٣) كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هذه المادة لان المادة الثالثة نفي بالفرض المطلوب . فقبل السيد اعتراضه . ثم جاء في منه مع نسختين من المعاهدة الرسمية هذه الكلمة : بعد اعدائكم النتيجة الزاهرة . صدرت نسختان احدهما بدون مادة الاعتراف بالامامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة لاننا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحاً . وفي الاخرى تلك المادة . فلكم الحيار في اية النسختين اردتم .

المادة الثالثة : يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . ويختص سيادة الامام الادريسي بادارة بلاده الداخلية والخارجية . وليس لاحدهما ان يعقد معاهدة اجنبية في ما يتعلق بادارة الثاني من البلاد ، ولا ان يغير شيئاً جارياً من طرف صاحب ادارتها ، ولا ان يتدخل بادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة^(١) الا بعد المشاورة والاتفاق بينهما . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد معاقلة اجنبية في ما يتعلق ببلاد الاخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه . وليس لاحدهما نقض معاقلة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخصية عاقدتها وبلاده ، ولا تعتبر في بلاد الثاني الا اذا تم الاتفاق على ذلك . ويوزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل حتى يصلح كل فريق الجهة التي اليه ويعد بها المعدات اللازمة وقت الحاجة للطرفين^(٢) ولو كانت جرت المذاكرات باوفاق مثل ما جرت الان قبل سنة تقريباً لتتمكن الجميع من اختيار الحدود المعتدلة وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة اعلاه . حيث كان لا حائل بين الجوارين ولا منازع آخر بينهما . اما الان بانسبة للحدود فيكشف حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين بعدم الاعتراض في مسألة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الاخر منه بالكلية^(٣) او ارضائه

(١) كان قد اصر الامامان بالوقوف عند هذا الحد فاقنتهما باضافة الجملة الشرطية بعدها اي « بعد المشاورة والاتفاق بينهما » الى اخر الجملة اي « فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه » والغرض منها تقييدهم في ما يهد السيل الى الوحدة العربية .

(٢) ما يبلي اي من « ولو كانت جرت المذاكرة » الى اخر المادة ، اضافها السيد محمد . فارنايت ان تضمن في كتاب خصوصي الى جلالة الملك لانها حملة شرحية لا اساسية ، فلم يستحسن رأبي وامر ان تكون جزءاً من هذه المادة . وفي ذلك دليل اخر على سلامة نية السيد وتساهله رحمه الله .

(٣) يراد هذا المنازع ابن سعود سلطان نجد وهو محتل مدينة اجا التي كانت قاعدة

بجزء لا يحول بيننا وبين جلالة الملك حسين في الجوار . وهذا يقتضي ان تقوم بسعي الاصلاح بينه وبين السلطان عبدالعزيز ابن سعود^(١) لاجل تمييز حدود معتدلة بين الاطراف الثلاثة .

المادة الرابعة : الاتفاق على مدافعة من اراد الاعتداء على احد الطرفين . وهذا حق المسلم على المسلم . والكل منا يبحث في تلك الحادثة والسعي فيها بما يمكن من الاصلاح سواء كان مما يرجع الى الخارج او المعارض في الداخل . فاذا لم يكن الا مجرد الاعتداء . والبني فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه . ويلزم الامداد بقدر ما يمكن من مال او رجال او سلاح او معدات حربية وعلى طالب المدد ان يقوم بلوازم المطورين^(٢)

المادة الخامسة : اذا وقع تشاجر بين رعايا الفريقين يرد الى حكم الشرع فينصب قاضيان من الجهتين او قاض من احدهما حسب التراضي لفصل المادة .

المادة السادسة : الاتفاق في العمل الذي يحفظ القطرين من اي تدخل اجنبي . فاذا حدثت مشكلة مهمة كالتقود والمعاهدات يلزم كل من الطرفين اخذ رأي الطرف الاخر حتى يؤمن الالتباس في الموضوع ويكون العمل بقوله تعالى : وامرهم شورى بينهم . وقوله عز وجل : شاورهم في الامر .

المادة السابعة : تبادل المنافع التجارية من الطرفين مع تسهيل امور الصادر

لواء عسير في الماضي

(١) ولا شك ان السيد الادريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاة .

(٢) في هذه المادة الدفاعية نقض مادة الهجوم اي المادة السادسة من معاهدة الامام والقصد منها كف يد حكام الشطر الغربي من الجزيرة بعضهم عن بعض . راجع المادة السادسة وشرحها صفحة ٣١٣ .

والوارد والمحافظة على اطمئنانها .

المادة الثامنة: التي تختص بصندوق توفير من مال الزكاة هي مثل المادة العاشرة في معاهدة الامام^(١) والمادة التاسعة التي تختص بتعيين مندوبين من قبل الفريقين هي مثل المادة الثامنة^(٢) والمادة العاشرة اي الاخيرة هي مثل المادة الاخيرة كذلك في معاهدة الامام .^(٣)

(١) راجع تلك المادة والشرح عليها في صفحة ٣١٤

(٢) « « « « « « (٣)

« « « « « « (٣) من هذا الجزء .

الفصل الثاني عشر

جوارر وسادات

نائب ابلبس في عاصمة ابن ادريس - اخبار العاصمة - الجارية المجرمة والسيد
 العادل والتاضي الذي نبتت في قلبه ريعانة الرحمة - ابو فراه - الدنقلبات
 الجسان - وفد ابن سعود - المناقشة بين الوهابيين وعلماء شقيط - « لا تشعلوها
 يا ابناء نجد » - السيد الحضرمي - فضل الشجاعة عند السادة - الاثرالك يمتنون
 الجوارري والمعيد - السيارة تسير - شجر الشورى - مظهر من مظاهر المد -
 سيد من الاماجد - ميدي - سوق الرقيق - « يلزمنا جارية للاستاذ » -
 سنيوك الجوارري المنتظر - سيد من اهل الاماجد - ضللتنا الطريق في الليل -
 اللحية - السراب - الصليف - معادن الملح - التطن - آخر غرقاتنا في الرمل -
 السائق اصعب بدوار - السيد الحضرمي يقرأ الفاتحة - النجدة من القرية -
 بنت الجن .

وقف الحاجب في الباب يقول: الحاج محمد . فنهض فضل الدين واستوى
 جالساً على الديوان . ومن هو الحاج محمد ؟ هو في عاصمة ابن ادريس نائب
 ابلبس . درويش وحريذة اخبار وحجام ، وطبيب يطبب العيون ، ويتاجر
 بالدر المكتنون ، ويمارس كل الفنون . هو من مراکش ، جاء مثل كثيرين
 من اخوانه الى بلاد السيد حاجاً ، وبقي فيها ينتقل مع الامام فيعيش في ظله
 المغذي للروح والجسد معاً . والحاج محمد جبار ، يكتب بيده الحجاره . صافحته
 مرة واحدة وصرت بعدئذ اكتبني بالسلام من بعد عشرة اقدم . اعجب
 بتلك اليد ، يد ولا مخالب البهوت ، كل اصبع منها نبوت ، وهي مع ذلك
 يد ساحر ، يعدها الى ادق اعضاء الجسم البشري الى العين فينشفها - بشهادة
 الدكتور فضل الدين - من الآلام . يقبض السكين ، وبغيرها وغير الله لا
 يستعين . وما فشل مرة في عملية من العمليات ، ولا عصته العيون والحدقات .
 لكن ذلك لا يزهله لا كرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل

غيره في النهار . دخل يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فجلس على الارض ، طوى نفسه على السجادة امامنا ، وبدأ باسم الله .

— سافر الـ «موتّر» الى صيبا منذ ايام وعاد اليوم كاملاً بكل اجزائه والحمد لله . وحضرة القاضي فيه سالماً متعافياً باذن الله . وقد وفق بين السيد وجارية من جواريه جاءت تشكوه الى مولانا . ولدت هذه الجارية ابنة فلم تعش يوماً كاملاً . فعول السيد على بيع الجارية فاحتجت متمسكة بالشرع والحق في جانبها لانها ، وقد ولدت له ولداً ، اصحبه زوجة شرعية . ولكن السيد يقول : هي جارية نحس ، جارية جانية . لو انها ولدت ابنة حية لما استحقت ان ارفعها الى مقام الزوجة فكيف وهي تجيئني بالاموات . جانية تستحق فوق البيع الذبح . ولكني ارحمها وايبعها فقط . فقال القاضي ، وقد نبتت في قلبه ريحانة الرحمة : بثلك وانت من اهل البيت يليق العدل ويليق الحنان . فقد قال صلى الله عليه وسلم . قال : نسيت يا دقتور الحديث . ولكن القاضي اقع السيد فدخلت التقوى والحنان الى قلبه . فقاطعه فضل الدين قائلاً : نار الجحيم في قلبه . فقال الحاج : وايكته رحمها يا دقتور . قال لها : ساشرفك بيدرتي مرة اخرى فاذا جئتني بولد ذكر حي كان لك ما تريدن . والا اتبعتك بابنتك . قلبي يد القاضي ، وركبته ، ورجله . واشكري الله على مجيئه . وجيزان تشكر الله على عودته سالماً في الـ «موتّر» .

رفع الحاج محمد رأسه ومسح بطرف قيصه العرق من جبينه ثم طوى نفسه ثلاث طيات — اليديه على كعبيه وصدرة على ركبتيه — ومد عنقه نحو فضل الدين وهمس قائلاً : سيدخل عم مولانا الامام على فتاة اخرى . ابو فواخ يبغى شراء فرخة سوداء وراح امس يستأذن صهره . وراحت المسكينة الى الامام قبكي وتستغيث . فقال الامام الى عمه الشائب : لا اصمح لك بها الا اذا كتبت كتابك عليها . اخذت ابنتك بالكتاب والسنة فكيف احل لك

ما لا احله لنفسه . فقبل ابو فراخ بذلك وسيدخل الليلة هذه الليلة على الفرخة
الذنقلية . . لا والله ما رأيتها ولكني سمعتهم يقولون انها اجل ما جاء من
وراء البحر . درة سوداء .

ورفع الحاج رأسه وصعد الزفرات ثم قال : والسيد . . . عافاه الله
وحجب عليه . جاءت احدى جواريه بولد . . . بعد الله الذنقلات عن بيت
سادقنا . فرخة سوداء ، رأس البلاء ، في كنف ادريس . الادارسة يا دكتور
يذبحون انفسهم ولا يذبحون سود الفراخ .

ضحك الدكتور وامر له بالقهوة فشرب الحاج ومسح بقميصه العرق من
جبينه ووجهه واستأنف الحديث .

- سيرجع غداً وفد ابن سعود . اعطى مولانا كل واحد منهم كيساً
وكسوة . وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف فتناقشوا وعلما شقيقط
في التوحيد والاولياء . خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين . تذكر
الرجل الذي ذبح ابنه في ابها لانه افترى على زوجة ابيه وفر هارباً الى صبا ،
فقبض عليه فيها وسجن باسر من الامام . جاء كتاب من عامل ابها يقول
فيه : ارسلوا الخاني الينا . انتم لا تحسنون القصاص . شرائعكم لا تنفع .
عندكم محاكم وتأجيلات وتعويضات ورشوات . احياوه علينا عندنا السيف .
وامس قال احد هؤلاء الوهابيين : لا يظهر الاسلام من الشرك الا السيف .
وهو حجتهم الوحيدة . من يصلي الى العظام في القبور ويستغيث بالاشجار
والحجارة يشرك بالله ، يكفر بالله ، والكافر يقتل . فرد عليه احد علمائنا
بقوله : وانتم تستغيثون بالنبي ، انتم كذلك مشركون . فقال الوهابي :
نذكر النبي اجلاً ولا نستغيث به ابداً . فقال علمنا الذكر والاجلال
يتضمنان الاقتداء ، والاقتداء هو ضمناً النداء ، وفي النداء الاستغاثة . فقال
الوهابي : هذا ابهام وكفر الابهام اشد من الكفر الصريح . دامت المناقشة

ساعتين فدخل اذ ذاك مولانا فقال : لا تشعلوها يا ابنا . نجد . وجادلهم بالتي هي احسن . ثم قال والانكليز مشركون وليس علينا ان نهديكم الى الدين الحنيف . . . من آمن بالله وباليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم « الاية » ونحن اصدقاء الانكليز . نخلص لهم ما داموا مخلصين لنا ، وانتم في نجد كذلك ان الله يهدي من يشاء . هذا ما قاله مولانا الامام . وقف الحاج محمد هنيئة وقد عمد الى طرف قيصة فأمرها اولاً وثانياً على جبينه ثم دنا من فضل الدين هامساً : سنبوك جوارر يصل الى ميدي بعد يومين . ثم مال بوجهه الي وقال : السيد الحضرمي يسلم عليك .

كنت قد نسبت رفيقنا في الباخرة . وها ان الحاج محمد يشبث ما قاله فضل الدين . - قرأ السيد قصيدة في مجلس الامام يدحه فيها قاسر له مولانا بمئة ليرة ، وهو عائد معكم في الـ « موتر » الى الحديدية .

وتب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذاً بالله . ثم دعاني وهو واقف امام الشباك لاشاهد ما شاهد في ذاك الحين فرأيت في الرواق الخادم ابكر - السيد ابكر - وحوله بعض ابنا . قريته جاؤوا يسلمون عليه ويقبلون يديه - هذا سيد ولكنه خادم مخلص . لا بأس اذا قبل يده ابنا بلده . ولكن في السادة الشحاذ واللص والزاني والقاتل والمتاجر بالزقيق . والناس يقبلون ايديهم وركابهم . ان مراوعة^(١) مدينة السادة ، كلها سادات وفيها من كل من ذكرت . ينزل السيد الى السوق حاملاً الملة فيألاها بما يحتاج اليه خضر وجبوب ولحم وحلوى ، دون ان يدفع غرضاً واحداً . ولا احد يقول : لا . ولا احد يجراً ان يمنع رزقه عنهم . وفي اشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون رمضان والشهر السابق واللاحق ، هذا فصل الشحاذة عند السادة . جاء في الكتاب : وأنذر عشيرتک الاقربين ، فن

(١) مراوعة هي على مسافة عشرين ميلاً شرقاً من الحديدية .

ينذرها اليوم ؟ عادات وخزعبلات وقبايات يعبراً منها الاسلام اذا تزوج
السيد ابنة من غير آل البيت وولدت له ابناً فمن الواجب عليها ان تقبل يده
وركبته ورجله كل يوم لانه سيد ولانها من عامة الناس . وابنها يحترقها ،
ينظر اليها نظر السيد الى العبد . مثل آخر : سيد عنده جارية وخدام متزوج
بامرأة حرة . فزوجة الخادم تحترق جارية السيد ولا تحترقها ولو صارت اماً
وزوجة شرعية . وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال ان السيد يبيع الجارية
الى خادمه ويكرهه على طلاق زوجته فيتزوج بها . فساد لا يطهره غير
الحجيم . . . من فضل الاتراك انهم كانوا يعتقدون الجوارى والبيد ويعطونهم
شهادات العتق . وكان السادة يوم كان الترك في البلاد يعتبرون هذه الشهادات .
اما الان فلا قيمة لها . . . ولا تظن ان سادات حضرموت ارقى من سادات
اليمن . هذا واحد منهم عرفناه رفياً وسيرافقتنا مرة اخرى اعوذ برب الغلق .
ولكننا علمنا بعدئذ ان حضرة السيد سبقنا الى ميدي وسيرافقتنا من
هناك . فقال فضل الدين : والحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية ركبتنا
السيارة صباحاً يصحبنا جندي من جنود الامام ، وهو سيد من سادات اليمن
الاعلى يناهز الستين عمراً ، دقيق الانف والفم واليدين ، حليق الشارب ،
ابيض اللحية ، بهي الطلعة ، لطيف الحيا . جالس بعد ان سلم الى جنب
السائق ، وبندقيته بين يديه فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين
ميلاً من جيزان . وكان السهل الذي رحنا « غموت » فيه كبلاد حرب كله
درب . مورنا بعدن ملح هو للحكومة قرب قرية تدعى مضايه . ولم يكن
في الارض حولنا ما يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت
صفوفه تمتد اميالاً الى جانب الشاطي . كانت جدار اخضر قائم بين البحر
والسهل . اما قشر هذا الشجر فايض مثل عوده والمتكسر منها شبيه بالعظام
يجمعه العرب حطباً . واما الورق الشبيه بورق الغار فيعاه الغزلان . كنا
نرى اسراباً منها عادية ، شاردة ، نافرة من كل ما تحرك في تلك الارض سواها .

وفي تهامة مظهر من مظاهر المد غريب . ان مياه البحر تجري تحت الارض ، خلال شقوق في التربة رملية ، فتدرب الى مشافة خمسة اميال في بعض الاماكن ، وتظهر فوراً في السهل بجيرات مالحة ، تجف في الصيف مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجة اذا علقت السيارة فيها استحال على غير الجمال جرّها منها .

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدبه . سأته سؤالاً فأدار بوجهه واجاب بصوت لطيف ولغة فصيحة انه من عرب حاشد ، من الحوارث فيهم ، وان جبال حاشد هي كالحلقة حولهم . نعم ، هو زيدي ولكنه منذ عشر سنين « في خدمة هذا الامام » اي الادريسي . بعد ان اجاب سؤالي امال وجهه وسكت . أعجبني من الرجل محاسن ثلاث فيه ظاهرة - حسن طلعه ، وحسن منطقه ، وحسن ادبه . وهو سيد زيدي . بل هو سيد من الاملجيد ، شريف حتى اطراف انامله كما يقول الانكليز . وفيه برهان جلي على أن في التعميم ضللاً . اجل ، ان في السادة كما في طبقات الناس كلها ثلاثة رجال ، الشريف طبياً ، والشريف وراثه ، والذي لا شرف له .

وصلنا الى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جيزان قبل ان يشتد حر الشمس ، فاقنا فيها يوماً نستطلع احوالها ونستكشف اسرارها . اما الاسرار فهي والحريم في بيوت القش الهرمية ، واما الاحوال فاول ما يظهر منها اناس اكثرهم من السود والمولدين يزدهمون في اسواق تباريهم فيها الروائح والاقذار .

ولكن للاشغال ، للصناعة والتجارة ، اثرأ باهراً فيها لا تجد مثله حتى في الحديدية . ذلك لان ميدي اليوم هي كجيزان في اثناء الحرب العظمى ، وقد كانت المدينة الوحيدة على شاطي . البحر الاحمر العربي المفتوحة للبوخر والتجارة فتسير منها الى العقبة ، عقبة السن ، فجال عسير ، وفي السنه ول شمالاً

الى جده . اما تجارة ميدي فاكثرها بالسلاح والرقيق وبالتهريب . اذا احتاج امام صنعا . مثلاً الى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي او يطلبها لترسل عن طريق ميدي . واذا اراد احد تجار الحجاز ان يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجرك يستجلبها الى ميدي ، ومنها برأ الى جده . واذا اراد احد السادة شراء جارية حسنة . يجي الى ميدي فلا تفضل خطاه ومناه . وانك لتجد فيها اللؤلؤ ودهن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال ، والبنيات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان . ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم المنوع ، اي في الرقيق والسلاح ، وسهام الملاح .

ان الدكتور فضل الدين في صفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين بالرقيق وعدوهم الاشد . اخوه الحاج محمد المغربي بان سنوكاً من الجواربي يصل قريباً الى ميدي فباشر عند وصوله البحث والاستقراء . جا . احد « اصدقائه » من تجار الرقيق مسلماً . فسأله كيف السوق ؟ فقال : واقفة يا حكيم .

- يلزمنا جارية للاستاذ .

- غرضك يا حكيم على الرأس والعين . ولكن لا يوجد اليوم . لا واقفة ولا واحدة .

- ولا عند اصحابك ؟

- لا والله السوق واقفة . لم يدخل ميدي سنوك واحد منذ شهرين .

- غرض الاستاذ عزيز لدينا . فتنش ولو على دنقلية . والتمن يرضيك .

- سنبدل الجهد . غرضكم يا حكيم وغرض الاستاذ على الرأس والعين .

راح ولم يرجع . وجاء اخر فكانت اجوبته تومي . الى ريب في نفسه بحسن نية الوكيل . فانكر بتاتاً .

- لا جوارري في ميدي ، ولا احد يتاجر بالرقيق اليوم . لا والنبي ولا احد يشترى .

- وها من يشترى ويدفع ما تشاء . هات لنا ولو سودانية .

- توكل على الله غرض الحكيم لشتره بعيوننا .

وراح كذلك ولم يرجع . ثم جاء رجل طويل القامة ، طويل الشارب ، اجش الصوت ، جاحظ العين ، فسلم سلام الاحباب وترجع على الديوان .

- ستري قريباً ما يسرك يا حكيم . والله ما نبغي الا خدمتكم وخدمة مولانا السيد . لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي . نظفنا البلد . والتجار كلهم يلعنوننا . لا يهم والله اذا كنتم راضين . اول سنوك يدخل ميدي نحن ورجالنا نحجزه باسم مولانا ونعلمكم بذلك .

وقد علمت بعدئذ ان الرجل من اكبر تجار الرقيق في تهاة . له قصر كبير بين ميدي والحيّة يستخدمه تهريب الجوارري والسلاح . والرجل عالم بقصد الحكيم ويظن انه يجادعه . على انه ينجح احياناً في ما يمتال به . فاذا حجز سنوكاً مرة في السنة وسلم من فيه الى الحكومة يشترين بعدئذ بواسطة احد رجاله وبأخذهن الى القصر .

سأله فضل الدين عن السنوك المنتظر وصوله فقال : بعد شهر في الاقل . صاحبه سافر البارح الى جيبوتي^(١) عيننا عليه ، كن مطمئن البال .

وقد يكون « صاحبه » احد رجاله . عرفنا بعدئذ انه كان صادقاً في بعض ما قال . ولكن الرجل لم يسافر الى جيبوتي . ان في هذا الخبر بداية حادثة يجي . ذكرها في الفصل الثاني .

زلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى الساحة لتركب السيارة فلقينا

(١) مدينة على ساحل بلاد الحبشة جنوباً وهي مستعمرة افرنسية .

هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي وهو ينتظرنا .

وضع الخادم أبكر امتعة سيده في السيارة عند ارجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا اليه . ثم اشار فضل الدين الى السيد ان يجلس جنب السائق . فاني وقال : ارفعوا هذه الحقيبة فاجلس معكم . فضل الدين : يد الاستاذ تألمه وهو يحتاج الى شي . يسندها اليه . تفضل اجلس قدامنا .

السيد مثلي لا يجلس جنب السائق .

فضل الدين يتلو الفاتحة ، والسيد يحرقل ، ثم : اجلس او نمشي . فهز السيد رأسه ، فامر فضل الدين السائق بالسير ، فرفع السيد امتعته الى السيارة وصعد الى جنب السائق وهو يتلو الفاتحة . فقلت انا مع الاثنين : اهدنا السراط المستقيم .

والظاهر انه لم يكن فينا احد ممن انعم الله عليهم . او ان السيد هو سيد برج النحوس ف جذبنا كلنا اليه في تلك الساعة وحجب عنا سواه . بل اعمانا فبتنا لا نعرف في السماء نجماً نهتدي به . ضللنا الطريق ، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب مثل بلاد حرب ، ولا اثر فيه يرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم ترل طفلة في البلاد . بعدنا في الدوران ثم عدنا فدوتنا من ميدي ، فن الله علينا برجل هدانا السراط المستقيم . ثم ضللنا ثانياً وثالثاً قبل ان نصل الى جبل ، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بالرقيق ، وعندنا اتفاقاً او حياً الى اثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويختفي في نور القمر الضئيل .

وصلنا الى اللحية عند شروق الشمس ، فاليناها كالحديده حافلة بانار القنابل الايطالية والانكليزية ، لانها ضربت مرات من البحر في الحرب الايطالية التركية وفي الحرب العظمى . الا انها لا تزال على شي . من العمران

في ابنتها الكبيرة ، وفي اسواقها التي لا تشبه اسواق ميدي بالروائح والاقذار ، ولا بالناس وحركة الاشغال . هي قريبة من البحر ولا تزال الكياسة التركية باقية في بعض ارجائها ولا سيما في دائرة الحكومة ، حيث استقبلنا بعض الافاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقاً في خدمة الدولة ، منهم رجل له ابن في الروس كان حاضراً ليلة الولاية والرقص التي احيها جلالة الملك حسين اكراماً لي فكتب الى ابيه يصفها . وما قال : وكنا ساعة الفجر لا تزال نرقص حول النار . هذا اجل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت اخبارها الى اليمن .

واما سكان اللحية ، وفيهم الصومالي والسوداني والمولد ، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة الاف وهو خمس سكانها قبل الحرب . وفيها ثكنة مهجورة وقلعة متهدمة ، واخرية كما قلت كثيرة . فقد كانت في اخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر ، لان عساكر الادريسي بقيادة ضابط انكليزي كانوا مخندقين خارج المدينة ، وكانت ابو حلق على مسيرة ساعة منها جنوباً ، في يدىهم . فتجيشهم الذخيرة والمؤونة والماء كذلك من المراكب الحربية . وما عم ان تغلب الاسطول الانكليزي فخرج الترك من المدينة ودخلت عساكر الادريسي اليها . وبعد قليل وصل الى تلك البلاد خبى المدنة فأرخه الانكليز هكذا : ١١ - ١١ - ١١ ، اي ان الخبر وصل الى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من سنة ١٩١٨ كان السيد مصطفى يومئذ نائباً عن ابن عمه الامام والدكتور فضل الدين طيباً في الجيش الادريسي . فقول بعض الضباط الانكليز الى البر يعيدون معهم للخبر السعيد . احتفلوا بالنصر وبانتها . الحرب في بلاد لا تنتهي وأسفاه فيها الحروب .

استأنفنا السير صباح ذاك اليوم فررنا ونحن قريبون من الشاطي . بالتسنية

وهي قرية صيادين ، وكذلك بالحربة التي لم يكن فيها ساعتئذ غير الارلاد .
فخرجوا جميعاً يلاقوننا ويوكضون ليسانقوا السيارة . وظل بعضهم وهم يشبون
مكالقرلان سائرين معنا بضع دقائق ، فتقهقروا الا واحداً ادھشنا في ثباته
وعدوه . ثم سمعناه يقول للسائق : دكّه دكّه ، اي على مهل . كأنه اراد ان
يرافقنا بل يسابقنا الى الحديدية .

سمعت السموات والارض طلبتة الولد ، فوقفنا فجأة ، وقفنا تماماً . غرقت
دواليب السيارة في الرمل ، فخرجنا كلنا الا السيد الذي ظل جالساً ، وجاء
الولد يساعداً فدفعناها الى الامام . اخرجناها مع من فيها من الرمل وعدنا
الى مجالسنا وفضل الدين يقول : والحمد لله يا سيد . فاجاب بلا خجل ولا
اعتذار : والحمد لله .

دع السيد يا دكتور واستقبل السراب . هوذا السراب ، وقد تراءى
لنا بعيداً فظنناه لاول وهلة احدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب اليها
مياه البحر ، او لساناً من الهر امتد اليه . وكانت اكواخ القرية تنعكس في
السراب فيشبه ظلها ظل الاشجار — ظلال في المياه ، ولا مياه ولا ظلال .
اما لون السراب فكان اشبه بلون السماء منه بلون البحر . لذلك كنا نرى
قرية ابن عباس كأنها واحدة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته
وفوقه السماء . ولما دنونا منها بدت اكواخاً لا ريب فيها ، وكانت المياه اي
السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب رويداً رويداً
عن الابصار .

بعد ان اجترنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل ، فخرجنا ندفع ونجر ،
والسيد في مكانه لا يتحرك . فرجونا ان يتفضل فينزل في الاقل فتخف
علينا المصيبة ، فعمل متردداً . وما كادت رجله الشريفة تظأ الارض حتى
تحركت الدواليب وجرت السيارة باسم الله ، فركض السيد وراءها وهو

يظن انها ستستمر جارية .

وصلنا الى الصَّيف المشهورة بحلها . وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة انكليزية منحتها الدولة امتيازاً لاستخراج الملح من ارضها . انها لقرية جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر ، والهلال ذيل ضلع اي جبل يمتد شرقاً الى الزيدية في سفح جبال السن . خطرتي ونحن نجتاز هذا الجبل الضيق الطويل ، هذا الضلع في الارض ، خاطر قد يهيم الانكليز والامامين اذا كانوا حقاً يبعثون الصلح . ها هنا الحدود الطبيعية في تهامة بين السن وعسير ، بين امام صنعاء وامام جيزان . فتكون الزيدية وما دونها جنوباً الزيد ، وتكون الصلح وما دونها شمالاً للادارسة . والجبل فاصل بين الاتنين . تغيرت التربة دون ذلك الجبل جنوباً فقلت فيها السبخة وكثرت الرمال . وقلت كذلك المياه المالحة وبدت هنا وهناك ، في النبات والاشجار ، دلائل الماء القراح . فهناك السلم والاب والعشر والنخيل . وهاك دلائل الاجتهاد في بقعة من القطن شاهداً غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه . تبارك الماء العذب ولكن الرمال كنا قد علقنا ثلاث مرات اخرى فيها وما كان السيد يشرف الارض برجله الا بعد ان ندعوه رسمياً ونزجوه .

انتصف النهار واشتد القيظ الى درجة يكاد لا يحتملها حتى ابناء البلاد ، فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوها الرمل نحس بالنار تحترق نعالنا فتحرق ارجلنا . وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوكه يغيظ حتى الاولياء .

فضل الدين ، ويده على السيارة ورجلاه مثل دواليبها في الرمل المحرق : يا سيد يا ابن النبي تعال ساعدنا والا تبقى هنا . فقول هذه المرة السيد ولبس نعله وجاء على مهل يعيننا فوضع يده على السيارة وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد تسييرها بالس والصلاة . فازدادت السيارة ترداً ، وفضل الدين غيضاً ، فقال : سيادتك مثل السراب ، بل السراب احسن لانه يسر العين .

كنا ساعته في اشد حالنا أصيب السائق بدوار فوقع مغنى عليه ،
 وكنت انا اقع كذلك من شدة القيظ والعياء ، وفضل الدين وحده يعالج
 السيارة ويستعيد بالله من برج النجوس . فارسلنا السيد الصالح ابكر الى
 تربه اقرب قربة منا يستنجد رجالها ، فعاد بعد ساعة ومعه بعض الاقويا . من
 العرب والسود يرأسهم قزم جبار سلم علينا فاضحكنا ، وحرك السيارة
 فادهشنا وملأ قلوبنا ابتهاجاً .

- السلام عليكم وعلى بنت الجن . هل تبغون تكسيها او تسيها .
 اذا تبتم الى الله نكسرها ونزلكم عندنا وتركبون غداً المهجين مثل المؤمنين .
 خلصونا بما كنا فيه ، بارك الله فيهم ، واخذ الصغير البخيش فتقاسمه
 ورجاله وودعنا قائلاً : احمدوا الله وتوبوا اليه . ولا تقطعوا الحمد ما دمتم في
 بنت الجن هاتين .

ما كدنا ننتهي من المحدثات حتى بدأنا بالحوقلة . وكان السائق لا يزال
 متأثراً بما اصابه فغاصت السيارة للمرة العاشرة وعلقت الدواليب و - ثم ياسيد
 فقال السيد المحترم : لا اقوم ولا أنزل حتى نصل الى الحديدية . فقلت ،
 وكانت شعلة الفيظ قد اضطربت في ايضاً : ستزل هنا وتبقى هنا : ان
 من يراك يظنك قوياً نشيطاً ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية ،
 يا لضيعة النسب .

لم يجب الرجل بكلمة . وظل ساكناً حتى وصلنا الى الحديدية فودعنا
 هناك واعتذر عما بدا منه .

وبعد يومين جاء الخادم يقول : رأيت السيد الحضرمي في السوق
 والتجار الحضارمة يشون ورااه بعيدين عنه ، وهو يشي ويهز كفيه كأنه
 حاتم البلد .

ثم علمت انه من كبار سادات صيرون ومقامه هناك شبيه بمقام استقف عندنا . فثلث لنفسي استقفاً رفيقنا في السيارة فجلسه جنب السائق ، ونستعينه على جرها من الرمل ، ونقول له فوق ذلك : انت مثل السراب . بل السراب احسن منك لانه يسر النظر . فاسفت لما بدا ، ووددته رفيقاً مرة اخرى لا كفر عن ذنب كان فيه ، سامحه وسامحنا الله شريكاً كريماً .^(١)

(١) جاءني جريدة عربية نطبع في جاوه وفيها مقال طويل كتبه احد الحضارمة هناك يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي ، كبير قومه ، وفخر السادة العلماء ، ويطعن علي طناً عجيباً ، كسفت الفيط في كل انوار العلم والادب في صيرون . ولكن الكتاب لم يتصد لنني شيء . مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من اخبار السيد المحترم .

الفصل الثالث عشر

تجارة الرقيق

للمراقبة في البحر الاحمر - الحكومة الانكليزية في عدن - الحكومة الافرنسية في جيبوتي - سلطان تاجورا - بلاد الحبشة - مصدر التجارة - رئيسها الاكبر - حديث مع الوكيل في عدن - الشريعة لتقييد الوجدان - في العجواز يحللون النخاسة - الحكومة الحجازية تناومها ظاهراً - حادثة الحديدية - الوكيل يحاول توقيف السبوك وتخليص الارقاء - الحكومة لأذن بتزولهم الى المدينة - صتاب الى عامل الحديدية - الارقاء يساقون ليلاً الى ميدي - آيات قرآنية واحاديث نبوية تأمر بالاعتناق - التبعة على السادة والاعراف .

ايما رجل كانت له جارية فأدبها

واعتقها وتزوجها فله اجران .

حديث شريف

كنت انكر وجود النخاسة في العالم اليوم ، فبحثت هذه البلاد ورأيتها بعيني . كنت اظن ان التجارة بالرقيق محرمة ومنوعة شرعاً في هذا الزمان فظاب في البلاد العربية ظني . كنت اؤمل ، على فرض وجود الرقيق والنخاسة ، ان تكون الحكومة ناهضة الامر متعقبة المجرمين ، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة ، الاثيمة ، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة وأسفاه او متناومة ، او عاجزة . بل وجدت الحكومة احياناً حليفة الاشقياء .

اما الحكومة الانكليزية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الاحمر ، وفي ما تحجز بواخرها الحربية احياناً من السنائيك حاملة الرقيق . ولكنها لا تكمل عملها . فهي بعد ان تحجز السبوك تطلق سراح العبيد والمستعبدين معاً . او بالبحري تعيد اذا شأوزوا الى بلادهم وتبعث الناخوذاه والنوتيين الى جيبوتي لتحاكمهم هناك الحكومة الافرنسية .

والحكومة الافرنسية الجيبوتية رعاها الله تحمي اكبر تجار الرقيق في بلاد الحبشة اي سلطان تاجورا^(١). اما هذا السلطان الدنقلي المستقل الذي لم اشرف بزيارته فالذي يظهر من امره هو انه ابعد نظراً واكبر دهاء من الذين يحبونه . هو سلطان ، نعم . ولكنه كذلك عامل حاذق ، وتاجر ماهر ، يحب المال كثيراً ، وله في احراره حرفتان غير « التسلطن » واحدة شريفة وهي السكافة - ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله - والاخرى تباركت ثرة بطنك ايها الحبشية . اذا كسدت النعال عند السلطان فلا تنفد الجوارى ولا تكسد سوقهن .

ان لسوه في بلاد الحبشة رجالاً يجيئون دائماً بين بيتاعون او يخطفون او يستفون من البنات والصبيان ، وهو يبيعهم الى تجار الحجاز وعسير . الى تاجورا اذن لا الى جيبوتي بحبي . تاجر الرقيق ، فيرحب به السلطان الاسكاف ، ويقتح له الكيس ، فيبلاه التاجر ذهباً وفضة ويعود بسنبوك الى بلاد العرب ملؤه الجوارى والعبيد . قد قيل لي ان الحكومة الجيبوتية الافرنسية تقاسم السلطان الدنقلي ارباحه في هذه التجارة المستنكرة . وما لا ريب فيه انها تحسن معاملته وتكرمه وتجاهله . دعاه مرة احاكم الافرنسي ليزل بضعة ايام ضيقاً عليه في جيبوتي ، فقبل السلطان الدعوة .

جاء الى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالاً يليق بمقامه وانزل في قصر فضم فرشه ورياشه من باريس . فحدثت السلطان نفسه ان هؤلاء الافرنسيين تجار مثله ويرجون من بلاده ارباحاً كثيرة . فلماذا لا يقتدي بهم ؟ اغتم السلطان هذه الفرصة الثمينة فذمها تجار المدينة الى القصر ، وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش ، ووضع المال في اكيسه وعاد الى قاعدة ملكه .

(١) تاجورا مقاطعة حبشية مستقلة شرقي جيبوتي شبيهة بالنواحي التسع المحيطة حول عدن . !

ان تاجروا اذن مصدر التجارة بالرقيق ، وان سلطانها ، وهو تحت الحماية
الافرنسية ، سلطان تلك التجارة . أفتعجب بعد ذلك من فساد المدنية الغربية
في الشرق ونفور الشرقيين منها ؟ حدثت وكيل المعتمد في عدن بالامر فقال
ان لا حق لهم من وجهة شرعية بمماقبة النخاسين لانهم غالباً من بلاد لا سيادة
لهم اي للانكليز فيها . فقلت : ومن جهة ادبية ، ومن جهة دينية ، ومن
جهة محض انسانية ؟ اذا جردنا المدنية الغربية من الادب والتهديب والحب
الانساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها للسيادة يوماً للشرق . واذا المعتمد مثل
بنخاس من تهامة او من الحجاز او من اليمن فامر بشنقه في ساحة عدن أيظن
ان السيد الادريسي او الملك حسين يحتج عليه ؟ واذا احتج ماوك العرب كلهم
اتظن ايها القاري ان العالم المتمدن ينصرهم في هذا الامر على الانكليز مها
كان حقهم الشرعي ؟ اينصرهم العالم والنبي نفسه يأمرهم باعتاق الرقيق ؟ اني
انصر كل من يسمي في محق النخاسة وان تجاوز حدوده الشرعية على من
يحميها او يتفاضى عنها وان كانت حكومته مقدسة .

ان في الحجاز من يخللون ويحبذون النخاسة ومنهم من يأسف انها غير
مستمرة ويلعن المراقبة الانكليزية الا اني سمعت ان الملك حسين يستنكرها
وينهى عنها وان حكومته تسعى في مقاومتها واستئصالها . فشرعت ابحث
لأثبت الامرين . لا ريب ان جلاله الملك حسين يستنكر العبودية وهو اعلم
الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرقيق والاعتاق . ولكن حكومته
والسفاه هي يوماً نائمة ويوماً متناومة . وقد تأكدت انها تشارك النخاسين في
ما تفرضه ضريبة على كل رقيق يدخل جده .

حدث انها حجرت ذات يوم سنبروكاً من سنابيك الاثم والعار بما فيه من
جوارر وعبيد فأوتهم واحسنت معاملتهم ثم - ماذا ؟ قد اطلعت على نسخة
من تقرير الوكيل البريطاني في جده وفيه ما يلي : قيل ان الحكومة باعت

الارقاء على حسابها . والحقيقة انها اذنت بيعهم على حساب اصحابهم ،
 واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة اي خمسة وعشرين ريالاً على كل رقيق . .
 يحيي . النخاسون بالعبيد اما بحراً في السنابيك واما برأ من ميدي . وقد اطلعت
 القاري . على شي . من حال النخاسة في تلك البلدة واسمته كلام بعض النخاسين
 وعم بخادعون الانكليز والحكومة الادريسية . على ان احد السادة قال لي
 واثبت قوله بمض المتوظفين ان الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد . بالمرصاد؟
 بعد وصولي الى الحديدية حدثت حادث يدل على احد امرين ، اما ان الحكومة
 تقف بالمرصاد وتنام ، او انها لا ترصد الا عندما يكون الجو صافياً ، فلا
 ترى اذ ذاك ما يشغل البال .

اعود الى يوميتي فانقل منها ما يلي :

الحديدية في ٢ يوليو ١٩٢٢ - ٣ ذي القعدة ١٣٤٠

دخل على الوكيل مأمور المينا يقول : سنبوك جوارر رسا في المينا
 والناخوذاه ورجاله دخلوا البلد . وقد اعلمنا ايضاً انهم سائرون الى ميدي
 وانهم لم يرسوا في الحديدية الا ليتاعوا بعض التراد .

الوكيل : قل لمدير الشرطة ان يحضر حالاً .

بعد عشر دقائق حضر المدير .

الوكيل : هل علمت بسنبوك الجواري الذي في المينا ؟

المدير : نعم .

الوكيل : وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله الى المدينة ؟

المدير : معهم اذن يا سيدي من الحكومة .

امر الوكيل مدير الشرطة ان يحضرهم امامه . فاحضرهم بعد نصف
 ساعة وكان يتقدمهم رجل طويل القامة ، شديد الوطأة ، حاد النظر ، دخل

المكان كأنه سيده وتقدم الى الوكيل فصافحه مصافحة الاقران وجلس على الديوان . من الرجل ؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الادريسية بميدي الذي اشار اليه تاجر الرقيق هناك ، جاء الحديدية خصوصاً ليلاقي السنوك المذكور ويرافقه محافظاً الى مقره .

بعد استنطاق الناخوذاه علمنا انه جاء من تاجورا ، وان معه اربعة وعشرين رقيقاً منهم عشرة صبيان والبقية بنات يتراوح عمرهن بين الثامنة والثالثة عشرة ، وان صاحب « المال » - البضاعة - سبقهم الى ميدي . وما عم الا ماجورون مأمورون . اما اذن الحكومة فيها هو المحافظ بنفسه .

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية ، ولكنه طيب وله كذلك صلاحية طبية . فسأل الناخوذاه ان يحضر الارقا . ليفحصهم قبل ان يدخلوا المدينة . فوعد ان يجي . بهم بعد الظهر .

تكاد تكون الحديدية اليوم منقطعة عن العالم ، والسبيل الوحيد الى المراسلات البرقية هو بواسطة سنوك الى جزيرة قران ، اي ست ساعات في الريح الموالي ، ومنها بالاسلكي الى عدن . صدر الامر باعداد السنوك للسفر ، وولى الاصيل ودنا الغروب ولم يبر الناخوذاه بوعده على انه جاء في المساء . يعتذر ، فلم يتمكن من شدة النوء والريح من انزال العبيد الى البر ولكنه سيحضرهم صباح الغد - « والله بالله » وأشار بيده الى السماء .

وكان قد كتب الوكيل الى عامل الحديدية الكتاب التالي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قد بلغني ان بالقرب من ميناء الحديدية اليوم سنوكاً يحمل عدداً من الجوارى والعبيد ، قيل خمسة وعشرين ، جاء بعض تجار الرقيق بهم من الشاطي . الافريقي . وهم متوجهون الى ميدي قصد التجارة . وقد سمعت ايضاً ان الحكومة

الادريسية اباحت لهم ذلك، الامر الذي استفزته جداً ، فجنحت الفت اليه نظر سيادتكم وأعيد ما قلته مراراً ان التجارة بالرقيق ، فضلاً عن انها مدمومة في الكتاب الكريم بل منهي عنها ضمناً ، فضلاً عن ان الدول المتعدنة وفي مقدمتها بريطانيا العظمى تمنعها منعاً باتاً، فهي تشين الاسم الادريسي وتضر بالحكومة الادريسية اديباً وسياسياً ضرراً جسيماً . واني في طلبي من سيادتكم ان تحلوا المسئلة محل الاعتبار والاهتمام افصح عن عقيدتي وعواظفي كسلم وعن رغبة الحكومة البريطانية التي امتثلها . اما السنبوك المذكور فاملي ان تتخذ الحكومة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه ومعاقبة ناخوذاه وبجريته وتجار الرقيق فيه، ثم تمتق اولئك البنات والصبيان من الاسر . فان في مثل هذا العمل تريد الحكومة الادريسية اسمها شرفاً وعدلها عدلاً ، وتبهرن على رغبتهما وقوتها في تنفيذ احكامها المبنية على الشرع الكريم . وفقكم الله الى ما فيه خير الجزاء .

محمد فضل الدين

معتد بريطانيا السياسي

جا. الجواب ، فلم يكن مرضياً ، على ما فيه من عذر ووعد وتأكيده ،
اما الجواب الحقيقي فاليك من يوميتي :

في ٣ يوليو - ٤ ذي القعدة

جا. مأمور المينا هذا الصباح وفي وجهه خبر منجع . ثم جاء مدير الشرطة وفي وجهه ما يثبت الخبر . نعم اتولوا الجوارى والعبيد ايلاً خارج المدينة وجاء... « احد متوظفي الحكومة في الحديدية » فاختار من الجوارى واحدة واشترها . ثم ساقوا الباقين وهم حفاة عراة برأ الى ميدي .

سأت وسذاجة الجاهل في سؤالي : وهل اعدوا لهم الركائب للسفر ؟

فاجاب المدير : اعدوا لهم ياسيدي السياط .

امش - امشوا . وهم يشون حفاة عراة من الحديد الى ميدي ، منتي
ميل في شمس تهامة وقبظها . وانك اذا وقفت دقيقة في تلك الطريق في
نصف النهار تحترق النار نعلك وتحرق رجلك .

رحمكم ايها السادة انتم اعيان الحجاز ووجوه اليمن ، انتم حياة التجارة
بالرقيق ، انتم اهل النخاس الاكبر ومورد رزقه ، انتم الطالبون ، انتم الراغبون
في الاستعباد . فاذا كنتم حقاً مسلمين فعودوا الى كتابكم واقروا عفا الله
عنكم ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالاعتاق الجزئي
المتدرج ، ثم في سورة البلد وسورة التوبة وفيها الامر بالاعتاق التام .

وهل من يأمر بالاعتاق التام يروم دوام العبودية في العالم ؟

ايما رجل كانت له جارية فادبها فاحسن تأديبها

واعتقها وتزوجها فله اجران - حديث شريف .

ولا يقل احدكم عبدي ابتي وليقل فتاي

وفتاي - حديث شريف .

فهل من يدعو الى المساواة يخلل الاستعباد والنخاسة ؟ انه لمن العار ايها
السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال ، وتدعوا البر والاحسان ، وتفاخروا
بالعلم وحب الانسان ، ثم لطمع بالخدمة مجاناً او لغرض في النفس تستعبدون
في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة ، ولا عذر لكم في ذلك ،
ولا ما يجلله او يبيزه لا ادباً ولا شرعاً ولا ديناً . واذا اتخذتم الاية - وما
ملكتم ايديكم - حجة وسلاحاً فانكم تحتجون وتتسلحون بالحرف على
المنفي ، وبالعرض على الجوهر ، وبالخال ، وقد زال ، على الحقيقة . تتسلحون
بظاهر الامور وكل ما فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم ، يشهد على

جهل فيكم ، او على علم افسده حب الذات .

اجل ان اكثر الذين يقتنون العبيد اليوم لمن الاشراف والسادة والاعيان ، فلا اظنهم يجهلون ان النبي اراد بحق العبودية تماماً بالطرق المسكنة في زمانه . فنهى عن ظلم العبيد ، وامر بتعليمهم ، وبالاحسان اليهم . بل امر باعتاقهم وجعل الاجر في الاعتاق اجرين بل اضعاف الاجرين .

ايما رجل اعتق امراً استنقذه الله بكل عضو منه

عضواً منه من النار - حديث شريف .

افلا ذكركم يا سيادي ، وانتم تفاخرون بانكم من السليلة النبوية المباركة ، ما جاء في الكتاب ؟ افلا أنصم الى الحديث الشريف ؟ افلا اقتديتم ولو في هذه بالنبي ؟ اليكم صحيح البخاري ، اقرأوا فيه الفصل في الاعتاق وفضله .

دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني . فقالت عائشة : نعم . فقالت الجارية : ولكن لا يبيعونني حتى يشترطوا ولائي . فرفضت عائشة . ولما علم النبي بذلك غضب وجاء الى عائشة يقول : اشترها واعتقها ودميهم يشترطون ما شاؤوا .

فهل من يقول هذا القول ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة ؟ ان من يستعبد الناس لا يستحق الحرية . ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب انسان . وان من يشتري الرقيق يقادي بشرفه ويفقد كرامة نفسه . اجل ، وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها فحقها لأذل في عين الله ممن لا يعرفون الله ، واحط في نظر العالم المتسدين ممن يبعدون الحجارة ، ويأكلون لحم الانسان .

الفصل الرابع عشر

خطوات الى الوحدة

كتاب الى الملك حسين - والامر بشورى بينهم - اصلاح ذات البين - حسن نية
الاحرسي - تمييز الحدود بين العجاز وعسير واليمن - بريطانيا العظمى -
المدخلة الاجنبية - الخطوة الاولى الى الوحدة - خطاب الى وزير الخارجية -
الاتفاق مقدمة لازمة للوحدة - توحيد النظام العسكري والسياسة الخارجية -
التصرفات اللاسلكية - العهد التومية - صندوق التوفير من مال الرضاة -
لاذ لم يوقم الملك حسين على المعاهدة

ودعت الحديدية بعد تلك الحادثة التي دونت في الفصل السابق . بل
ودعت تهامة آسفاً لما كان من ختام رحلتي فيها . على انه لو حدثت قبل
سفري الى جيزان ، وكانت فاتحة الاشجان ، لما اظنني كنت فزت بما ابغيه
من عقد معاهدة بين السيد والملك . وكيف افوز ومثل هذه الحوادث ، بل
هذه المآثم التي تقترف تحت عين الحكومة ، تثير السخط والفيظ ، وتضعف
فوق ذلك الغرم واليقين في من يسعون في سبيل الامة وعمرائها . ولا عمران
وربك مع نخاسة ، ولا رقي مع رقيق .

بيد ان لنا في من يشعرون شعورنا في البلاد العربية ويرون رأينا املاً
بمحق تلك التجارة المعيبة واستئصال شأفتها . اقرب السبل الى ذلك انما هو
الغرم في الحكومة ، والوجدان في السادة والاعيان . ثم اتفاق بين الملوك
والامراء الحاكين على المؤازرة في مقاومتها ومحققها . ولكنك سميت في اضافة
بند في هذا الموضوع الى المعاهدة لو كان لي سابق علم به . فعمى ان ما فاتني
لا يفوت غيبي ممن سيقتفون الاثر ويسعون في النجاح العمل ان شاء الله .

قبل سفري من الحديدية ارسلت المعاهدة الى جلالة الملك حسين مشفوعة
بالكتاب التالي :

صاحب الجلالة العظمى ايده الله

حياً الله مولاي الملك بالخير والسعادة . اما بعد قد ارسلت كتاباً مع الصديق قسطنطين في الشهر الماضي فحسب ان يكون حاز موضوعه استحسان جلالتهكم . والان ، وقد عدت من جيزان ، اسارع الى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيها وتم الاتفاق عليها .

ان في سيادة السيد الأدرسي قلباً كبيراً ، وله نظر في الامور غالباً ثاقب ، وعند جلالتهكم من الاخلاص ما لا غبار عليه . من حديثه الذي علق في ذهني : المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة سهلة^(١) وقد اطلعني سيادته على نسختين من معاهدة او تمهيد لمعاهدة كان النظر فيها سابقاً مع السيد السقاف . فاضفنا بعض ما جاء فيها الى المعاهدة التي كتبتمها وعرضتمها على سيادته . ثم اضاف سيادته اليها ، بعد تكرار البحث والمداولة ، المادة الخامسة وما جاء في المادة الرابعة ابتداءً بـ « وكل منا يبحث في تلك الحادثة ويسعى فيها بما يمكن من الاصلاح » الى حد « مجرد الاعتداء . والبغي » وما جاء في المادة الثالثة بخصوص الحدود ابتداءً بـ « ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين » الى اخرها . وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص اصلاح ذات البين قبل العداء ، وبالنص في مسئلة الحدود على هذا الشكل اي التعهد من جلالتهكم بعدم الاعتراض في لواء عسير الى ان يتم بينكم « تمييز حدود معتدلة فاصلة بين الاطراف الثلاثة » وعسى ان يكون الاربعة كذلك . فاني اعتقد ان حضرة الامام محيى رغبة بالتسوية ايضاً اللهم اذا جنتاه من باب يأمن اليه . وان مفتاح هذا الباب بيد جلالتهكم الان . اما ما اضيف الى المادة الثالثة بخصوص الحدود فانه هو الا اساس للعمل .

(١) راجع الحديث في الفصل العاشر صفحة ٣٢٦

بقي مسألة اخرى . كان قد اضاف سيادته بنداً بخصوص بريطانيا العظمى وحاجة امراء العرب الى مولاتها وصدقتها . فبحثت وسيادته في الموضوع وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئياً عن رأيه ، وقد تضمن في المادة الاولى من المعاهدة في قولنا « وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تحل باستقلال البلاد العربية » وقد اقتنع سيادته بقولي ان ينبغي ان يكون الولا والاعتماد من الامور المعروفة والمتقائم فيها بيننا ، لا من الامور المسجلة في المعاهدات الرسمية . فتنازل عن تلك المادة . اني مقدم المعاهدة لجلالتكم يصحبها كتاب من سيادة الامام و آخر من السيد السنوسي . فعمى ان تنال استحسانكم فتوقعوها قريباً وتعيدوها مع الوفد الى جيزان . است اري يا مولاي غير هذه الطريقة الى تحقيق امالنا في الوحدة العربية . لان الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً باحوال الجزيرة هي ان امراءنا اليوم ، وان كانوا يميلون الى الاتفاق ، لا يزالون متنافرين متشاكين . وقل كذلك متحاربين . فينبغي اذن ان تكون الخطوة الاولى خطوة سلم وولا . بين الاقران والاكفاء ، يتبعها ان شاء الله خطوات فيها ما نشده من وحدة سياسية قومية عربية . واني لأسعى طاقتي في هذا السبيل . ولكن لا نجاح اعمل لا يشارك فيه ذو الامر ذوي الاراء . فالامر الان لجلالتكم . ولا اشك انكم ستسعون ، وسيكفل سعيكم بالنجاح ، في اصلاح ذات البين بين السيد الادريسي والامام محيي ، كما انه سيسعى هو في اصلاح بينكم وبين ابن سعود . وفقنا الله الى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريباً . ايدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة .

المخلص لجلالتكم

وكتبت الى صاحب الاقبال وزيد الحارجية صديقي الشيخ فؤاد
الخطيب ما يلي :

عزيزي الشيخ فؤاد .

السلام عليك ، عسى ان تكون بخير ، وان يكون وصلك كتابي
السابق الذي ارسلته مع العزيز قسطنطين . وها اناذا اكتب اليك الان
بخصوص معاهدة اخرى تباحثنا والسيد الادريسي فيها وتم الاتفاق عليها .
وقد ارسلتها الى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة يشفع بها
علي واخلاصي . لا بد من الصراحة في الامر . ان الاتفاق بين امراء
العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية . والاتفاق لا يكون الا اذا تنازل
كل امير عن بعض اشياءه . انتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية ونحن
نبيعها والامراء الذين حدثتهم يبيعونها . ولكنهم حراس على استقلالهم ،
وعم يخشون نفوذاً يظنونونه سرى اليكم وتمكن منكم . قد ازالت
هذا الظن من صدورهم ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك .
اظن ان قسطنطين اخبركم بذلك ، وبما اصلحته من سوء الظن في القنصلية
الاميركية بعدن .

بقي ان اقول هذه الكلمة . لا تطالبوا الان بتوحيد العالم ، وتوحيد
النظام العسكري ، وتوحيد السياسة الحارجية . لا . ولا بالاعتراف بان
جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب ، لان ذلك مبتسر . وقد يهد ما
هو الزم في البداية . ان الوحدات هذه درجات في سلم الرقي القومي
السياسي ، ولا بد ان تصالوا اليها وتصدوها . الحكيم يا شيخ فؤاد لا
يكره صاحبه . عليك اذن وعلى الامير زيد ان تقرأ النظر في المسئلة
وتبدلا الجهد في اقناع جلالة الملك حسين اذا كان لم يقتنع بما كتبه اليه .
قد يكون عقد هاتين المعاهدتين امراً بسيطاً ، ولكنه مهم اذا

اعتبرناه مقدمة لحظير الاعمال . ومن الزم الاشياء التي ينبغي ان تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية . فقد تباحت والسيد الادريسي خصوصاً بذلك ، وهم مستعدون ان يقرموا بنفقات آلة تركيب في جيزان او في صيبا . اني افضل صيبا . وستبحثون ملياً في الامر عندما تؤمون جيزان ، والمعاهدة بيدكم وقد وقعها جلالة الملك حسين . اما انكلكرا فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات ، رغبة فيها . واما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن امراء العرب لا من شأنها . فتمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للامامين في مكة ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كالكم تتوقعون ان شاء الله الى تقرير امور اخرى مهمة في التوحيد السياسي العربي .

وعندي ان من اهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص باذخاريات معاومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الانشآت العمومية المشتركة اسبابها ومنافعها . في هذه المادة اذا عمل بها بدياة الاستقلال الاقتصادي الذي بدونه لا يتم استقلال سياسي في هذا الزمان . واني رسول هذه الفكرة ابشها في ديوان كل امير وكل سلطان عربي . صندوق توفير من مال الزكاة ، هوذا استقلال العرب ومفتاحه اذا كانوا يفتقون . صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلاً في مدسكة حديد بين الحجاز وعسير واليمن . واذا احتاج حكام البلاد الى اخصائين من الاجانب يستأجرونهم ويدفعون اجورهم من اموال عربية ، ويشترتون ما يحتاجون من مواد وادوات باموال عربية . فلو كانت المعاهدة بين الملك والامام وبين السيد والملك محصورة في هذه المادة ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الان خيراً ونفعاً للجميع ، وقررها اذن . وفقكم الله واطال بقاءكم . صديقكم المخلص

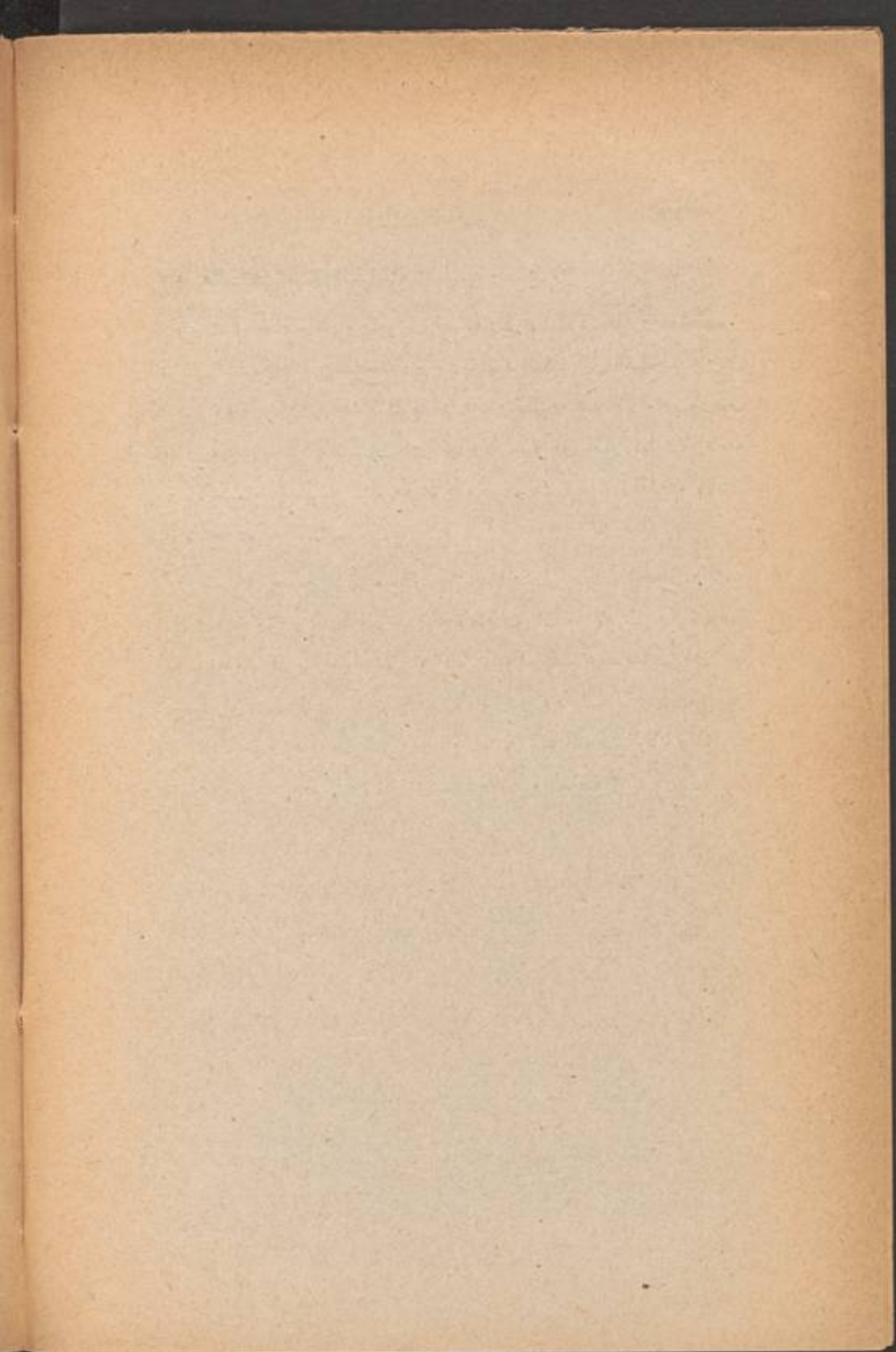
ها هنا تنتهي مهتي السياسية في اليمن وعسير .

رغبت في خدمة الامام بتقريب قضيته من فهم الانكليز ومصالحهم ،
وبتقريب الانكليز من عقلية الامام ، وبتهديد السبيل الى الصلح بينه وبين
الادريسي ، فاقترحت ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الاراء ويتعارفون
ويتفقون ، فابي حضرته لاسباب ادراكها ولا سبيل الى تداركها ان الامام
طامع بالاستيلاء على اليمن كله ، وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب
الذي لا يعترف به الملك حسين .

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز واليمن
وعسير في البدائة ولو يجيئ من حروب ، لاقتقادي ان جلالة يمثل فكرة عربية
قومية شريفة . فلم يوقع واحدة منهما ولا اظنه استحسنها لاسباب ادراكها
ولا سبيل الى تداركها . لم يعترف الامام بجي ولا السيد الادريسي بان
جلالة الملك حسين هو ملك العرب^(١) . ولكنها مدا اليه يد الولا . والمؤازرة
فرفضها . من هو حجر العثرة اذن في سبيل النهضة العربية ؟

الشمى الضم الثالث

(١) كان مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية ابن : كل
شيء او لا شيء . وقد سكنت خايته بعد ثلاث سنين مثل خاية البطل في الرواية :
لا شيء - الا الغم له ولا له ولكل مرديبه . اني متيقن - واظن ان كل من له
شيء من العلم في الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين - انه لو وقع
الحسين هاتين المعاهدتين لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٣٤ . راجع تاريخ
نجد الحديث : صفحات ٣٠٤ - ٣١٧ .





محمود السلطان عبد الكريم فضل

سلطان حلب

الفصل الرابع

الحج

والنواحي التسع المحمية

الحج

والنواحي التسع المحمية

سنة ١٩٢٢م ١٣٤٠هـ

هرودها : جنوباً ساحل البحر العربي من باب المنذب الى بلحاف بالقرب من التقاء الخطين الثامن والاربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي . شرقاً حضرموت . غرباً البحر الاحمر . شمالاً البلاد التي يحكمها الامام يحيى . وقد قلقت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين اصحاب الحماية .

مسانريا : نحو الفين وخمسة مئيل مربع .

سكانريا : نحو ثلاثئة الف نفس .

اهم قبائلها : العبادلة واليوافع وآل فضل والعواتق والحواشب والصبيحة .

اهم بلادها : شقره والحوطه وبلحاف على البحر العربي . ولحج وآبين وأنصاب ومسيير وحبان .

مذاهبها : السنة ، شوافع وحنفيون . الشيعة ، جعفريون وامتاعيليون

وزيديون . وفي عدن اليهود والمهندوس والنصارى . وفي

القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا

يعرفون الاسلام .

الفصل الاول

الثالث المادي في عدن

لمبدأ المرن في السياسة الانكليزية - درجات المرونة في البلاد العربية - رتبة
تسرع رتبة تلمحق ورتبة لا تضر - المعاهدات والمجاهرات والتدخلات - « انت
تعي الاستقلال ، انت مستقل ، ونحن ندفع لك المال لتعافظ على استقلالك » -
النياشين ومدافع الترحيب - بعثة افرنسية زور عدن سنة ١٧٠٩ - عدن حيا
شاهدنا السيولاروك - عدن اليوم - شعوب واديان - التواهي ابي التمر
الاوربي - الثالث المادي - البرق والنور والبخار - الاستعمار والاستثمار -
الاوربيون اعداء بعضهم لبعض - الدماء عن عدن - المبدأ التجاري في الدفاع -
المال ارخص من الرجال - من هو الكاسب من يدقم المشاهرات اذ من يقبضها ؟

قال المستر لويد جورج مرة ان المبدأ المرن في السياسة هو اصلح المبادئ.
حل المشاكل الخارجية والاستعمارية . لا تكن قاسياً فتكسر . واكفنا
نظلم الانكليز اذا ظننا ان هذا المبدأ هو دائماً مبدؤهم في البلدان التي يحكمونها
خارج الجزائر البريطانية . اما في البلاد العربية فلاريب ان المرونة هي غالباً
روح سياستهم قولاً وعملاً . وقد يتخللها في الازمات اطلاق مدفع او في
الاقبل مناورة بحرية ، فتعود السياسة بعدئذ الى مجاريها المتتوية المائعة .

ان من ينعم النظر في بلاد العرب واحوالها الجغرافية والسياسية
والدينية ، وفي تشنت امورها واختلاف نزعاتها ، يرى بعض الحكمة في خطة
سياسية تمتد الى كل مكان دون ان تنقطع او يعترضها شيء . من الضعف .
مدها ، مطها ، من عدن فتصل الى صنعاء . رقيقة لطيفة . مطها من الكويت
فتصل الى ما وراء الدهناء ، ومن شرقي الاردن فتصل الى الحوف ، فتداعب
اطرافها الوهابية وتتعلق بانامل ابن سعود . مطها من الحديدية فتتعدق في صيبا ،
ومن جده فتلتوي وتدق ولا تنقطع حتى في خلال الكعبة . ولكل مطة
خطة ، ولكل يدق اسلوب خاص بصاحبها في الذين ربقات لكل الرؤوس ،

والسوائل تدخل في كل الكؤوس .

ان اجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الاءباد .
بعدن من الربقات السياسية . هذه ربة تسر ، وهذه ربة تخنق ، وتلك تؤلم
ولا تضر ، وبينها كلها درجات في الضغط والارخاء ، في الربط والحل ،
توجهها احوال اليمى الاسفل والعشائر القاطنة تلك الانحاء . وكيف لا وفي
سلاطينها من لا يلبس غير القوطة ، يستر بها عورته ، ومن هو في لبهه وفرش
بيته ، واخلاقه وتهذيبه من ارقى امراء العرب . اجل ، ان بين الاثنين درجات
في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهسه من الامر غير الحكم
والمصلحة ان يشملها كلها بنفوذه ، ويقيدها بحكمه ، الا اذا عمل بقاعدة
لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ، اولها المعاهدات الولائية ، في المشاهرات
المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجي . الى عدن من السلاطين او يسافر
منها ، ثم الالقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك
او عكس ذلك ، فالتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب او تعيين احد
الحكام . واخيراً ، بل يصح ان يكون الاخير اولاً ، المحافظة على استقلال
كل سلطان وامير ، عملاً برغبتهم وبمصلحة بريطانيا العظى . نعم ، ما من
امير او سلطان او شيخ قبيلة الا ينبغي الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد
بمشاهرات وبهدية كل عام . هذه لعسري بلية العرب الكبرى التي توافق
مصلحة الانكليز الكبرى . وكأني بهم يقولون الامير العربي : انت تبغى
الاستقلال . انت مستقل . نحن نعرف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على
استقلالك . نحن لا نبغى الا ما تبغيه وهذا عهد الولاة والحماية . ولكن في
هذا العهد الربة التي تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق للسلطان او الامير
ان يتعاهد واحد زملائه او ان يبيع او يؤجر او يهب شيئاً من بلاده الى احد

امراء العرب او الاجانب او يمنح امتيازاً دون ان يستشعروا ويستأذن الحاكم في عدن .

هي سياسة التفريق ولا شك^(١) وسياسة الاسيلا والاستئثار كذلك . فالانكليز وهم سادة عدن ونواحيها لا يبغون غيرهم من الاوربيين هناك ، وامراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهباً وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطة من جند وسلاح . كلمة الانكليزي وعهده : سنساعدك يا حضرة الامير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج .

اما الحماية فامرها عجيب وفيها غالباً تنعكس الآية ، فيحتمي العرب الانكليز لا الانكليز العرب . لذلك هم يستحقون في الاقل المشاهرات . ومنهم « اصداقنا المخلصون المحبون » الذين حازوا من ملك انكلترا وامبراطور الهند لقباً^(٢) او رتبة ونيشاناً فتطلق لهم المدافع ترحيباً وتوديداً في عدن .

هذه خطة الانكليز في عدن والنواحي التسع المحمية ، وهي تختلف عن خطتهم في عسير مثلاً بعض الاختلاف ولا تلتئم اساساً بخطتهم في العراق .

(١) كانت سياسة حاكم عدن الاول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة : فرق تسد . لان الحكومة او البحري ادارة شركة الهند يومئذ لم تشأ ان تده بما يمتاح من الجنود لحماية عدن فاذا قامت على الانكليز احدى القبائل كان الحاكم يثير قبيلة اخرى عليها . « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانيا » .

« وانه وان كان صدر الدعاء بما يورث له فبئس هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسع التمسك بين القبائل » . هذا ما كتبه ادارة شركة الهند الى الحاكم هينس نقله الكرنل جاكوب في كتابه « ملوك العرب صفحة ٤٥ »

(٢) النياشين الانكليزية التي تمنح الانكليز والاجانب في الشرق الادنى والاوسط تنحصر برتبة K. C. I. E. اي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I. اي Knight Companion of the Star of India

ورين هذين الطرفين في القاعدة المرنة ، بين عدن وبغداد ، مظاهر اخرى في المرونة سترها في الكويت وفي البحرين .

كانت عدن منذ خمس وعشرين سنة من املاك الدولة العثمانية اسماً وفي حوزة سلطان لحج فعلاً ، وكانت قيل ذلك اي قبل ان تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن او امام صنعاء تفاخر المدين بجدها والاساكل البحرية بتجارتها . فقد جاءها في سنة ١٧٠٩ م بعثة افرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن ، يصحبها رجل اسمه لاروك ، كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة ^(١) . فعرفنا هذا الاجنبي بعدن العربية في ذلك الزمان ، وبجاءتها الكرم الاخلاق الذي ارسل عندما ابصر مراكب الاجانب رجالاً من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم ، وخدامين يحملون اليهم الزاد والحلوى والمرطبات

اقام الافرنسيون في عدن بضعة اسابيع شاهدوا فيها ما لا يشاهده السائح اليوم . قد كانت في تلك الايام عدن العرب والتوحيد ، بل عدن الشرق الصميم ، الرقيق الجانب ، الكرم الخلق ، العزيز الشأن . والفضل لكاتب تلك البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفاً تثبت جله صورة حفرها على النحاس رسام هولندي في ذلك الزمان . رأيت الصورة وقرأت الكتاب ، فقلت : اين ارميا ينثر الاشعار في نذب الديار ؟ اين سورك الذي كان يطوق الجزيرة يا عدن ؟ و اين قصورك تفوق قصور ابن ذي جَدَن ؟ و اين حماماتك الجميلة المرصوفة بانواع الرخام ، المزدانة ببقية من عمد الاصنام ؟ و اين مساجدك ذات القباب البيضاء والزرقاء ، والمآذن الدقيقة البناء . و اين آثار ادبائك وشعرائك ، ومن كان يشي سامد الرأس تحت لوانك ؟ بل اين تلك اللغة اليوم من رطانات وطمطهانيات سرت من الشرق ومن الغرب اليها ؟ بل اين تلك الروح روح قحطان ، وتلك المكارم مكارم عدنان ، وذلك المظهر

الشريف النقي مظهر الوحدة القومية ، تزينه الفصاحة والفروسية .

قلت ان عدن تلك الايام كانت عدن العرب والتوحيد . ولا اريد بالتوحيد الدين فقط بل اللغة ايضاً والجنس . اما الوحدة الجنسية فكان قد تخللها شي . من خليط المهنود الذين هاجروا الى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل ان احتلها الانكليز . كان البنيان^(١) في عدن يوم جاءت البعثة الافرنسية ، والسيولاروك يذكرهم في كتابه ويقول انهم يهود المدينة اي التجار والصيارفة فيها . وكان العربي الباني الزيدي يكرمهم ويتخذ له منهم الاخذان ، ويمسح اليهم كل الاحسان ، وهو لا يدري ان ابناءه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب .

اما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيد . مدينة عمومية لا اوربية ولا شرقية ولا عربية . مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية . هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز استيراد وتوزيع مهم في البحر العربي ، ومن الوجهة البحرية العمومية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب ، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك للمستودع الثالث للباواخر الانكليزية في الطريق بين الجزائر البريطانية والهند . اما المستودعان الاول والثاني ففي جبل طارق والسويس .

ان المدينة تقسم قسمين عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي ، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كعب اي المعسكر . في الاولى وهي على الشاطي . دار الاعمال والقنصليات وبيوت الضباط والمتوظفين والاتزال ، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية . وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في فم الهركان ، او ما كان يركناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب

(١) ببا في لغتهم صاحب حانوت والبنيان فينبغو الهند كثير الاسفار والاتجار .

الارض والاديان . فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والفارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبُنْيَا الذي يصلي الى الاوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاممعلي صاحب صاحب الزمان ، واليهودي مسبح الذهب الرنان . وفيها من يفسلون ويكفنون امواتهم ومن يحرقونهم ومن يحلونهم الى برج السكينة لتأكلهم النور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويرجون ولا يفاخرون . اما بيوتهم فواحدة لا تعرف أعربية هي ام هندية ام اوروبية ، واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وعم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون . الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات . قلت ان يوم زار المسير لاروك عدناً لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبنيان . اما اليوم ففيها من المذاهب الدينية مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في فم البركان ، بسلام وامان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية ، تصونه الثقة ، ويعززها الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر ، وطنياً كان او اجنبياً ، هو دائماً مع الحكومة . او بالحرى لا ييهه من الحكومة غير الامن والنظام . ومهما قيل في حكومة عدن الانكليزية فالامن والنظام ركنان فيها ثابتان .

تدعى عدن الثانية المعسكر لان فيها الثكنات وقمماً من جيش الاحتلال . وهي في حلقة من الجبال السحاه . يكفل قننها حصون قديمة مجهزة لان الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية . اما اشهر ما فيها من الاثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي اسداد الماء .^(١) تلك الاسداد المبينة

(١) تاريخ هذه الاسداد مجهول . فن المؤرخين من يقول انها بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى الف وخمسة مئة سنة قبل المسيح . وما لا يختلف في امرها انها كانت مردومة عند الاحتلال الانكليزي فحفرت ورمت سنة ١٨٥٦ وانها تسع ثمانين مليون جالون من الماء .

في مضيق متحدر بين جبلين ، بناء متيناً محكماً ، محفوراً بعضها في الصخور .
سد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلئ . في السد تحته ، حتى تفضي بعد
امتلاء عدة اسداد الى الحزان الاخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه
الاسداد وهي من اجمل الاعمال الهندسية في العالم ، لا يمتلئ . لثقل الامطار الا
او مرتين في كل بضع سنين .

وفي التواهي اي عدن السياسة دائرة اشغال هي اعم من كل ما ذكر
هناك . بين تلك الربى المكلفة بالحصون الحديثة ، المتصلة بعضها ببعض بواسطة
الانفاق ، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب او بالسياسة . رابية عامرة نيرة
منيرة ، بيوتها كلها حديثة بناء ومهندسة ، ومهنة سكانها اعم من المهن الرسمية
كلها . هي قرية قائمة بذاتها فيها المطعم والحانة والنادي واسباب اللهو والرياضة
والراحة جميعها . واليها ومنها تمتد الاسلاك ، اسلاك السحر الحديث ، سحر
العلم والعمل . من الشرق وجزر الشرق الكبيرة ، من استراليا والفيليبين ،
من افريقيا واوروبا ، من قارات الارض تجري امواج السحر في اسلاك العلم
والعمل . فتهمهم وتطنن في اعماق البحار ، وتبرق تحت الماء على صدر اليبس ،
ونورها كلمن في السلك ، والسلك في القماش ، والقماش في القار ، والقار في
الحديد . هي انباء العالم ، انباء التجارة والسياسة والاجتماع ، يحملها البرق
تحت الامواج فتصل الى عدن ، تلك الرية المهمة فيها ، الى مركز البرق
هناك . ثم توزع منه كما تسوج اليه امواجاً . فتربط الامم الشرقية بالغربية ،
وتتضي على المسافات في المعاملات والمراسلات ، تحصرها في سلك نصفه يمتد
من تلك الرابية شرقاً وجنوباً ، والنصف الاخر غرباً وشمالاً . وهذا السلك
هو حياة الاتصال بين الشرق والغرب ، بل هو حياة التجارة واحد اركان
المدنية والعمران .

لا شك ان في العالم دوائر برق اكبر من تلك التي في عدن . ولكن

ليس في العالم على ما اظن اهم منها . اقطع ذلك السلك ، اوقف العمل على تلك الزاوية ، اسكت المثة آلة التي تدندن ليل نهار هناك ، فتعود البحار الى ظلمها القديم واستبدادها في المسافات ، وتسي قارات العالم القديم كلها ، آسيا واوروبا وافريقيا واستراليا ، وكل منها في عزلة الجزر او الجبال ، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها الرسول او البخار .

اجل ان شركة التنعريف في عدن لاحدى ايدي المدنية والعمران . وهناك في تلك الاهرام والركام ، على شاطي . البحر يد سوداء ، والكنها في العمران بيضاء ، هي يد الفجهم والبخار . وفوقها وفوق المدينة نور وهاج ينير الميناء . ليلاً ويدير حركة البواخر والمراكب بانواره الملونة . هوذا ثالث عدن المادي . عرش البرق على هذه الزاوية ، وعرش النور على جارتها ، وعرش البخار على الشاطي . فوق ركام الفجهم العالية . ان فيها كلها حياة يكبر الغربيون اسبابها ولا يزدريها باطناً الشرقيون . وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجارة والبحارة فيها ! ليطفا نور تلك المئارة ، مئارة عدن ، فتصطدم وتفرق المراكب في البحر . تنقل ابواب شركات الفجهم فتقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب ، وتنقطع اذ ذلك آخر صلة حديثة بين القارات كلها .

ها هنا اذن في اسلاك البرق وفي اسباب البخار اهمية هذه الزاوية الجنوبية من البلاد العربية . ومعلوم ان اساس الاتنين العلم والاجتهاد . وسياج الاتنين الامن والنظام . يستطيع سلطان لحج او امام صنعاء ان يوجد الامن والنظام ويوطدهما في عدن ؟ او يستطيع اذا فوض اليه امرهما ان يحافظ عليهما ؟ لا اظن ان احداً من ابنا . العرب مهما صفت وطنيته وكبرت همته يجب اليوم بالايجاب . او يستطيع العالم اليوم شرقاً وغرباً ان يستغني عن البرق والبخار ؟ لا اظن ان رجلاً عاقلاً يجب بالايجاب . وهل يريد الشرق ان يستقل كل

الاستقلال فيقطع الصلات كلها بينه وبين العرب ؟ لا اظن ان احداً من الشرقيين مهاغالي بالوطنية يجيب بالاجاب .

لا بد اذن من البرق والنور والبضار في عدن . ومن يد تدبيرها وتحافظ عليها وتحميها . واليد اليوم انكليزية . وقد تكون غداً يابانية او عربية . لكن الغد لله . يهينا اليوم ويهم العالم اجمع ان تبقى هذه المحطة الكبيرة ، هذه الصلة المهمة ، في كنف الامن والنظام . ولو كان في ذرة من اليقين ان الامام محيي يستطيع ان يقوم مقام الانكليز لما فضلت احداً وطنياً كان او اجنبياً عليه . اني آسف ان الروح العربية تقلصت في عدن واضمعلت ، وانه ليحزنني ويحزنك ايها القاري العربي العزيز ، وقد اشرفنا على شيء من مجد غابرها ، ان زهاها في يد الاجانب . ولكننا في زمان سيده المال ، وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الاول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الاكبر .

لنعدل حتى في انفسنا . لنقل الحق ولو كان علينا ، ان عدناً محطة في طريق العالم ، وان للعالم كله مصلحة فيها . مها استأثر الانكليز اذن فهم ولا ريب مقيمون ببعض الواجب عليهم . وان العرب انفسهم لينتفعون بحكم فيه الامن والنظام . على اننا نبغي من الانكليز اكثر ما يشاهده السائح في اليوم الاول من اقامته في عدن . نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم . نبغي منهم الانصاف الذي هو من نزاي الشعب الكسوني . نبغي منهم الاهتمام لما فيه تعبير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم - المحافظة على شيء من الروح العربية - مدارس تعلم الناشئة لغتهم واداب بلادهم - ماء يصلح للشرب^(١) . مضى على الانكليز في عدن خمس وثلاثون

(١) المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم . والماء وهو مالح يُجر من بئر في شيخ عثان ويوزع بهراجل تجرها الجمال . والطرق وهي دائماً في حاجة الى الاصلاح

سنة وهم لا يزالون يستخدمون الألسان والقربة لرش الأسواق .

قلت الانصاف ، وهاك مثلاً واحداً من آفاته . في عدن صيارفة وتجار عديدون يتاجرون بالاوراق المالية والتقود ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع من فروع مصرف الهند - الانكليزي - المشهور . وهذا المصرف لانه الوحيد يستبد بالتجار استبداداً يعرقل التجارة ويضعف اسبابها . قد شكوا كثيرين منهم الامر الى القناصل على مصرفاً اميركياً او افرنسياً او ايطالياً يفتح له فرعاً هناك بواسطةهم فيخفف بالمناظرة استبداد مصرف الهند واستثنائه . ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية ، ولحكومة عدن ولا ريب يد فيها .

اني لا ارى عذراً لمثل هذا الاستثناء الذي يعد صغارة في الاستعمار . بيد ان من العدل ألا افرد الانكليز بالذنب واخصصهم دون سواهم بالتعريب . فالافرنسيون في جيبوتي مثلاً والايطاليون في مصوع هم من هذا القبيل مثل الانكليز في عدن . قد لا تجد تاجراً واحداً انكليزياً او ايطالياً في جيبوتي فكيف بمصرف غير افرنسي ؟ وقد لا تجد عاملاً افرنسياً او انكليزياً في مصوع فكيف بمصرف غير ايطالي ؟ ان هذه الروح الاوروبية الصنيرة في التجارة والاستعمار ، وان شئت فقل روح الاستثناء والاحتكار ، لمن اول اسباب الانحطاط الاوروبي في الشرق . فاذا كنت لا تطيق اخاك الاوروبي مزاحماً ، اذا كنت تضمن عليه بفرصة يغتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة ، فكيف تطيق الوطني او تحسن به الظن في الاقل ؟ وبأي حق والحال هذه تطلب منه الثقة والاحترام ؟ اني مخلص لك ايها الاخ الاوروبي في ما اقول . قد يطبعك الشرقي ويخدمك ، ويكون لك جاسوساً على اخيه ، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك . وليس هو وحده المسؤول المالموم . عد الى نفسك

والانارة لا تزال على الطريقة القديمة . اما عذر الحكومة في ذلك كله ففلة المال .

هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب » صفحة ٢٦٣

ايها الاخ الاوروبي وفكر في ما اقول . اني ابغى لك ولابن الشرق خيراً في بلادهم مشتركاً ، متبادلاً ، متساوياً .

لكن روحك ايها المستعمر لا تعجب المنصفين من الامتين . كآني اصمك تقول: جنبنا هذه البلاد وفتحناها وعمروناها وليس لغربنا الحق ان ينتفع منها وفيها انتفاعنا . هذه هي روح الاستعمار الاوروبي في عدن وفي جيبوتي وفي مصوع ، وقل ان شئت في الهند وفي الجزائر وفي طرابلس الغرب وهي الروح التي قفسد على الشرقي اعم مظاهر الحكم الغربي ابي الادارة والنظام . فجنبنا الحكمة في اطاعتهم تطفئها ، وجنبنا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة . لست ممن يعضون عيونهم ويضربون ، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكروهون . ولكني اخشى والله على الاوروبيين من يوم يعم فيه البلاد . فينهض الشرق - الشرق العاقل والشرق المجنون ، الشرق المتعصب والشرق المتساهل - ينهض نهضة واحدة على المدنية الاوروبية ككاهها ، يجذافيرها ، لانه لا يرى فيها غير سيناتها ، غير الثروة والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . يودي اذن قبل ان تأزف تلك الساعة ان يعدل الاوروبي ويعقل الشرقي ، فيتقاعم الاتزان ويأثقلان ، وينتفع الواحد بالآخر ومنه .

قلت ان الامن والنظام في عدن ركنان ثابتان ، ولا شك ان الانكليز قد بذلوا في سبيلها شيئاً من القوة جسيماً مقرونناً بمثله من السياسة والدهاء ، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس في الامم الاوروبية اكبر منهم فيها واسبق منهم اليها . بيد ان احتلالهم عدن واستيلائهم على النواحي المجاورة لها لا يجنحون من الحيف والاجحاف والخذاع . لا ينكر ان الامن والنظام من الامور الجوهرية الاساسية ولا تقتصر اهميتها على الانكليز وحدهم بل على العالم اجمع . ولكن الاسباب اذا اكتشفت تشين ، والسبل اذا ادركت تستير كوامن الوجد والغضب . من المشهور عن الانكليز انهم في سبيل

مقاصد عم كرماء ، ولكنهم ايضاً حكيما . اذا بذلوا المال يمدون ما توفر عليهم من الرجال . واذا دفعوا المشاهرات يتقاضون بدلها الارادات .

قد علموا عند احتلالهم عدن بانه يجب لحايتها جيش كبير يقيم فيها . ولكن ادارة شركة الهند يومئذ فضلت تلك الحطة التي تقدم الكلام عليها . ثم عندما استلمت الحكومة البريطانية زمام الامور في الهند ، واستخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن ، رأت أنها تحتاج الى قوات بحرية وبحرية تقيم فيها دائماً . وقد تعجز مع ذلك عن الحماية اذا لم يكن لعدن منطقة كالدرع يصونها من تعديات العرب الذين يجيئون بها من الجهات الثلاث اي من الشرق والغرب والشمال ، وبحاريون كالكروود ، ويمتصون بالجيال . فاتخذت لذلك سياسة اين تدعه الشدة ، وباشرت المفاوضات ، وابتاعت من الاراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ اخذه بالقوة . فقم لعدن الدرع الذي تحتاجه وهو خط يمتد من العدير على البحر غرباً الى دار الامير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال الى ام العمد على البحر . ثم اقامت في هذه المنطقة الانكليزية الاستحكامات العسكرية ، ونقلت اليها الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقيين بها ، من الصيحة والحراشب واليوافع وغيرهم .

فا العمل اذن ؟ قد يكلفنا الدفاع عن عدن الف ليرة في الاقل يوماً اذا فرضنا انه يتعين علينا ان نقيم فيها دائماً عشرة الاف جندي . وقد يكلفنا الدفاع عن المنطقة التي ظنناها درعاً منيعاً الف ليرة اخرى . ولكني افق عند حد في النفقات لا يتجاوز نصف هذه القيسة ، اي الف ليرة كل يوم ، وافترض ان الحكومة الانكليزية تستطيع بذلك ان تدوخ العربان وتؤدبهم ، وتستولي على بلادهم فتدخلها في منطقة الاحتلال . ولكنها تضطر عندئذ ان تضاعف قواتها العسكرية ، فتضاعف النفقات ، لتدفع عن هذه المقاطعات غارات

عرب الجبال من زيود وشوافع شرقاً وشمالاً . النتيجة : اننا كلما توغلنا في
اليسن زادت النفقات والاحطار . فالولا . اذن خير من العدا . على ان لا بد
لنا من قوة زهب بها اولاً من نبغي ولاه . فاذا كسرنا هذا الامير ، ونكلنا
بذاك الشيخ ، ثم صافعنا ووالينا وبذلنا المال مشاهرات ، كان لنا من الصداقة
والاذعان ما يزيد .

وكذلك كان . مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها انكلترا
بكتير من المال والرجال . حاربت القبائل ثم عاهدت امراء ثم واحداً واحداً .
ضربتهم ، وفرقتهم ، واقامت الحدود بينهم ، ورفعتهم الى مقام السلاطين ،
واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية . وما هي تلك المشاهرات بالنسبة الى
نفقات الحرب والدفاع ؟

اليك جدول الحساب الثاني . في المنطقة المحمية تسع ولايات او امارات
او سلطنات . فلو فرضنا ان كل امير يتقاضى الانكليز اربعمئة روية كل
شهر وهي اكبر المشاهرات ، اذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج ، وان في كل
امارة زعماء ، رجال الامير او اعدائه ، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيسة ،
فيبلغ ما تدفعه عن ولا . الامراء التسعة ورجالهم سبعة او ثمانية الاف روية
كل شهر اي خمسمئة ليرة انكليزية^(١) . فلو دفعت هذه القيسة يوماً لا شهرياً
لتوفر عليها ضعفاها او في الاقل مثلها كل يوم . واذا فرضنا ان في الافتراضين ،
اي حساب الجيش وحساب الامراء ، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها .
ان النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير ولا تتحل . عشرون الف جندي
للدفاع يقوم مقامهم عشرة امراء او سلاطين . هذه هي النسبة الاساسية .

(١) راجع لائحة المشاهرات في اخر هذا الجزء .

بمن الكاسب اذن ؟ أمن يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟
 انها من الانكليز سياسة العزم ، تتلوها سياسة الحكمة اي المبدأ المرن
 المقرون بالقاعدة التجارية في الاشغال . وهم لا مرا . تجار لا ييارون ، كما انهم
 ساسة محنكون . فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية
 ولا غرو . انها ، اذا اعتبرنا مصلحة انكثرا اولاً ثم العالم الذي تمهه محطة
 المواصلات البرقية والبخارية ، لصفقة غائمة . اما اذا اعتبرنا مصلحة العرب
 فيعترينا الاسف والنعم لانهم الخاسرون في كل حال ، الخاسرون وان
 تضاعفت الاموال .

الفصل الثاني

من اجل شركة الهند

المسئلة الشرقية - انكلترا تدافع عن الدولة العلية - خوقها من محمد علي باشا -
معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ - اخراج ابراهيم باشا من سوريا ومن اليمن - شركة
الهند مستوردة للفحم - عدن - احتلالها سنة ١٨٣٩ - معاهدة الانكليز من
سلطان لعج - بنودها - المبدأ الثرن - « انت صاحب الامر ونحن نتولى تنفيذ
عك » - توسيع حدود عدن - كيف اشتروا الشيخة عثمان - طريقة لا يحلها
الانكليز في بلادهم - والشيخة عثمان لا تكفي - توسيع المنطقة المحتلة - كيد
وقيد ومشاهرة .

لا يزال اولو العلم يذكرون ، برغم عاديات الحرب الكبري وذاريات
مؤتمر لوزان ، تلك المسئلة المشؤومة في سياسة اوروبا والشرق الادنى التي تعثر
في اذيلها اكبر السياسيين ، بل تحطمت في طواحينها اكبر الاحلام ، وأفسدت
في ظلالها احسن المقاصد والنيات ، فكان انتفاع كل امة منها وبسببها بالنسبة
الى ما افادت به من الشرف والوجدان . الا وهي المسئلة الشرقية . ولا يزال
اولو العلم والانصاف يذكرون كذلك ، برغم انقلابات كان للدهر فيها
اليد الكبري - قلت الدهر واريد الحوادث التي تسيطر على الرجال والامم
- وبرغم صيحات الهند التي اختلطت فيها اصوات « الخلافة » باصوات
ال « صوارج »^(١) وبرغم تهليل في انقرة والاستانة ، ومناجزات في دوائر
السياسة يكابر الديك « العالي » فيها الاسد البريطاني ، ان انكلترا في مقدمة
الدول واحياناً وحدها كانت تدافع دائماً عن سلامة الدولة العثمانية . ولم يكن
دفاعها لينحصر في الكلمة المنشورة والمقولة بل كان يتجاوزها الى السيف
والمدفع والاموال . بيد انه لم يكن مجاناً لوجه الله .

(١) صوارج Swaraj كلمة هندية يراد بها الحكم الذاتي المستقل او ما يدعى في

انكلترا Home Rule

ليس المقصد من هذه الكلمة ان اجدد ذكر تلك المسئلة السياسية الخطيرة التي يظن الناس ان قد حل عقدها مؤتمر لوزان . وانما قصدي ان اعود بالقارى . الى تسعين سنة مضت فاقص عليه قصة تتعلق بعدن وبشركة الهند الشرقية ، وبدفاع بريطانيا العظمى عن الدولة العثمانية .

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة والانكليز في تلك الايام ان محمد علي باشا بواسطة ابنه ابراهيم كان قد استولى على سوريا واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن . فسعت الدولة ان تخرجه من هذه الاقطار فلم تفلح . ورأت انكلترا ان مطامع محمد علي باشا في البلاد العربية لا تلتئم مع مصالحها ، لاسيما ما كان يتعلق منها بالهند وبشركة الهند الشرقية ، فامشقت الحسام ، او بالحري حركت الاسطول دفاعاً عن الدولة ، وكانت هي العامل الاكبر في اخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحاب ابراهيم باشا من اليمن .

ثم عقد مؤتمر لندن فأبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تفضي الى الحرب بين فرنسا وانكلترا ، أعيدت بموجبها سوريا الى الدولة العلية وأثبت محمد علي في ولاية مصر . ولكان قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذلك المؤتمر السياسة الفرنسية التي كانت تحشى مقاصد الانكليز الخفية . لم تكن تلك المقاصد يومئذ غيرها اليوم ، وقد كشف الزمان عنها الحجاب ، وحققت بعضها الحوادث . فها قد انفتحت طريق البر من مصر الى سوريا ، فالعراق ، فالهند .

اما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة فهي طريق البحر . وقد كانت انكلترا في تلك الايام ، ايام البضار الاولى ، تفتش عن مكان في البحر الاحمر او البحر العربي يصلح لان يكون مستودعاً للقمح لتأمين البواخر في طريقها الى الهند ومنها . فرأى رجال الشركة الهندية الشرقية

ان عدن اصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة ان يرفعوا فوق قلاعها العلم الهريطاني . وكان ابراهيم باشا وهو في تهامة يبيعها كذلك ويخبر سلطان حلب بخصوصها . اوجس الانكليز خوفاً من ابراهيم فاقتربت مصالحتهم بصاحبة العثمانيين واتحدوا سياسة عليه .

كتب رئيس الوزارة الانكليزية يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا سنة ١٧٣٨ يقول ان لاحق له في البلاد العربية فيجب ان يسحب جنوده منها . ثم عقد معاهدة مع الدولة تحول الانكليز الاتجار في المالك العثمانية ، وطلب منها عدن لتكون لهم مركزاً تجارياً في تلك الانحاء . على انهم كانوا يبعونها مستودعاً للفحم كما قلت . وما هي اهميتها للدولة في كلا الحالين ؟ عدن ، اين هي عدن ؟ ورا . ثلاثة بحار ، في آخر البلاد العربية ، تبعد الفمي ميل عن الاستانة ، ولا سيادة حقيقية للدولة فيها .

منح السلطان عبد المجيد فرمان . ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلم ان السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب وان فرمان وحده لا يكفي . فينبغي للاحتلال حادث يتدعون به . كانت المراكب الانكليزية تمر في تلك الايام بعدن للتجارة فحدث ذات يوم ان مركباً شراعياً غرق هناك فسطا عليه العرب ونهبوه ، فبعثت ادارة الشركة القبطان هينس^(١) على مركب حربي في ثلاثة من الجنود يطلب التعويض ، فجا . الى عدن وفاوض السلطان ، سلطان حلب ، الذي كان مقياً فيها ، فابي بموه ، فاحتج الانكليزي بالفرمان ، فاستشاط السلطان العربي غيظاً . ومن هو سلطان العثمانيين ؟ وهل يهب بلاداً ليست له ؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك ٢ سنة ١٨٣٩ فامر السلطان الخامية

بالدفاع ، فحدث بينها وبين الانكليز قتال لم يدم طويلاً . سلم العرب ، ولكن سلطان الحج في ازدرائه الحط الهايوي ومقاومة الفاتحين تمكن من عقد معاهدة معهم حفظت له بعض حقوقه ، وقطع الانكليز معه عهداً بان يدفعوا له تعويضاً عن الاحتلال ستة الاف ريال مسانحة ، كانت بداية تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مئة الف روبية .

احتل الانكليز باسم شركة الهند الشرقية قسماً من عدن يدعى النواهي ولم تكن يومئذ غير اعشاش لصيادي السمك ، لا يتجاوز سكانها السائة نفساً . وظل السلطان مقيماً فيها مدة قصيرة فقط اذ قلعها بقوم الى جنب السلطة الانكليزية سلطة اخرى وطنية او اجنبية ، فتراخت العلائق بين السلطان ووكيل بريطانيا العظمى ، فحدث قتال ثان كان للانكليز رغبة فيه - يقول عرب عدن : كاد الانكليز كيدهم المعروف - فانتصروا على العبادة اي قبيلة السلطان واخرجوهم من النواهي واستولوا على عدن استيلاء تاماً . منذ ذلك الحين لم يأذنوا اسلاطينهم ان يكون لهم في عدن بيت ولو صغيراً . ثم جددت المعاهدة التي من شروطها :

اولاً : ان يعترف السلطان بسيادة الانكليز ويقبل حمايتهم في مملكته .

ثانياً : ان تكون البلاد مستقلة في داخلها استقلالاً تاماً .

ثالثاً : ان تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأساً دون تدخل الانكليز . « قد كان هذا التدخل احد اسباب الخلاف بين الفريقين »

رابعاً : ان يكون له الحق بان يصدر ما شاء من القوانين في بلاده .

خامساً : ان لا يعقد معاهدات مع الاجانب (امراء العرب لا يعدون من الاجانب)^(١) .

(١) قد ندرجوا من هذه القاعدة الى قاعدة اعم ، فصار الامير العربي المستقل في

سادساً : ان يكون له راية خاصة وجند وحق بمنح الاقاب والرتب .
 سابعاً : ان تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين وان يكون ما
 دونها بما فيه بلدة الشيخ عثمان من املاك سلطنة لحج .
 ثامناً : ان لا يجوز لاجني التملك في لحج او الدخول اليها بدون اذن
 من السلطان تعطيه الحكومة البريطانية .

الخط تحت الكلمات الاخيرة مني لالفت النظر اليه خصوصاً . تأملها ايها
 القارى . ان فيها مثلاً للقاعدة المرنة في السياسة . لم يقل الانكليز :
 بدون اذن تعطيه الحكومة البريطانية ، وهي حقيقة الحال ، لانهم يتحاشون
 ان يمسا كرامة السلطان . فطوا البند ليبر السيادةتين ويرضي الفريقين .
 انت يا صاحب السمو صاحب الامر . ولكتنا نحن خدامك نتولى امره ،
 نتوكل عنك في اعطاء الاذن . وهو لان كذلك . اذا وصل السائح الى
 عدن وشاء زيارة سلطان لحج يتحتم عليه ان يقوم بواجبين : اولهما ان يكتب
 كتاباً الى سموه يستأذن بالزيارة والثاني ان يطلب الاذن رسمياً من دار الاعتماد .
 فاذا كان هناك من مانع يعلمون سموه بذلك ويرفضون الاذن عنه . والا
 فيمنحونه ويحددون وقته وصلاحيته ، فلا يتجاوز حامله حدود لحج ولا يقيم
 فيها غير ايام معدودة .

اشرنا في الفصل السابق الى صعوبة الدفاع عن عدن اذا كانت وحدها
 البلدة المحتلة ما لم تخصصها الحكومة بقلق وبعض المدرعات فيضطرون اذ
 ذلك الى مكان تقيم الجنود فيه . وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن فسعوا
 في توسيع الحدود . ولكنهم اكتفوا ببضعة اميال شمالاً وفيها بلدة الشيخ
 عثمان ، فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم . قالوا : « اشتريها ، فقال : لا .

نظرم كالاخير الاجني ، فلا يحق لامير آخر عربي ان يقدمه معاهدة دون ان
 يستشير ويستأذن حكومة « جلاله الملك » .

قالوا : هي لازمة ، فلم يكثر .

فلجأت اذ ذاك دار الاعتماد الى وسائل لا تحلها الحكومة البريطانية في بلادها . كان للسلطان شقيق يجب المال اكثر من حبه الشيخ عثمان وكانت لهذا العبدلي يد في ادارة امور السلطنة ، معززة بثقة اخيه . فتقرب الانكليز منه وتم سنة ١٨٨٢ الاتفاق بينهم وبينه سراً على التنازل عن الشيخ عثمان في مقابلة مبلغ قدره عشرون الف ريال ، اي اربعون الف روبية ، اي الفان وخمسة ذهب انكليزي . فامضى صك البيع بالنيابة عن اخيه السلطان ، فاعتبه الانكليز صكاً شرعياً وحددوا بوجبه حدودهم التي شملت تلك القرية وهي على مسافة عشرة اميال من عدن .

اما السلطان فلما علم بالامر طرد اخاه من البلاد وصادر املاكه وحرمه حقوقه في الاسرة المالكة . ولكن ذلك لم يؤثر في خطة الانكليز وسياستهم . دخلوا الشيخ عثمان واقاموا فيها حامية قوية لم يستطع السلطان ولا خلفاؤه ان يقاوموها . ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعاً ، فرضوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم ، وعقدوا معاهدة جديدة مع الانكليز قبلوا فيها ان تكون دار الامير ، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان ، الحدود الفاصلة بين لحج وبين الحكومة المحتلة .

ومنذ ذلك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن الى توسيع الحدود مرة اخرى ، فلا يزال جمرك السلطنة اللججية في دار الامير .

اما الشيخ عثمان فقد اصبحت بلدة عامرة بالعساكر الهندية والجانات ، وبالصوماليات السافرات ، وبانواع الموبقات . وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر ، وبساتين اغنيا . عدن ، وجنينة حيوانات سكانها غزال وقمقمة وسعدان .

الفصل الثالث

سلاطين لحج

مؤسس سلطنة لحج - اصل العبادلة - السلطان محسن بن فضل العبدلي -
 للمعاينة بينه وبين الانكليز - السلطان فضل بن علي بن محسن - اركان الملك الاربعة
 - السلطان احمد بن فضل - اتفاه وامام صنعا - علي الاتراك - المناوضات السرية
 بينه وبين الادريسي - الملك حسين نصير الاتراك - السلطان احمد اول من سعى في
 سبيل الوحدة العربية - سفره الى مصر - الزراعة في لحج - السلطان علي بن
 محسن بن فضل - ابن عمه المحسن المصلح محسن بن فضل - السلطان العالي -
 تحسين علاقته مع الانكليز - المناوضات بخصوص معاينة جديدة - نظام العبادلة
 في النواحي التمس - طريقة الورثة وتدخّل الانكليز - المقال والتخاب السلطان .

في سنة ١٧٠٩ ، عندما جاءت البعثة الافرنسية الى اليمن ، كان حاكم
 عدن مستقلاً عن امام صنعا . وبعد ست وعشرين سنة من ذلك الحين استولى
 علي عدن اول سلطان من سلاطين لحج . كان هذا الرجل قائداً من قواد
 الزيد ، طامعاً بالسيادة والمجد ، متساهلاً على ما يظهر في الامور الدينية .
 اقامه امام صنعا . عاملاً على اليمن الاسفل فتوسع بالايحازة الامامية واقام
 نفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً ، بل اقام نفسه سلطاناً . وبما ان عرب البلاد التي
 استولى عليها من الشوافع ، فلا يعززون حاكماً زيدياً ولو اطاعوه ، نبذ من
 اجلهم وفي سبيل مطامعهم مذهب اجداده ، واتخذ للمذهب الشافعي سراطاً
 الى النجاح قوياً . هو مؤسس سلطنة لحج .

ثم خلفه في الحكم امراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة
 والعدالة ، وبجبههم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة وموضوع
 اهتمام سلاطينها . والعبادلة من اليمن الاعلى ، زيديو الاصل كما تبين يتون
 بنسبهم الى عرب حمدان .

من سلاطين لحج اربعة مشهورون ، اولهم محسن بن فضل الذي احتل

الانكليز عدن في عهده . وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ اول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان احمد فاستمرت مرعية الى سنة ١٨٢٧ ، فنقضها السلطان محسن عندما ادرك مطامع الانكليز الذين كانوا يبحثون في تلك الايام عن مكان في البحر العربي يصلح مستودعاً للفحم . ولكنه غلب في نهاية امره فاضطر ان يعقد وايام معاهدة عندما احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ كما اوضحت في الفصل السابق . ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا تزي لها غير الاثر الضئيل في المعاهدات الحديثة ، اولها : ان لا يفتح للاجنبي ، وان كان موظفاً بريطانياً في حكومة عدن ، ان يدخل الى الحج بدون اذن من سلطانها ، والثاني : ان من يرتكب جرماً من الانكليز او من رعايهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها .

قبل الانكليز في البداية يهذين البندين ، ثم سعوا في توسيع الحدود الشرعية شيئاً فشيئاً ، فعدلوا البند الاول بل نقضوه باضافتهم اليه تلك الكلمة الاعتمادية ، فقالوا : لا يفتح لاجنبي ان يدخل الى الحج بدون اذن سلطانها والاذن يطلب من دار الاعتماد بعدن . وقد اسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الاجانب .

كان السلطان محسن غير راض على استقلاله ، تواقفاً الى السيادة الواسعة النطاق ، محسناً الى العشائر ، محباً للعلم والعلامة . ولكنه كان متقلباً في سياسته ، يترقب الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يوماً واحداً مع مقاصد الانكليز . غلبوه اولاً وثانياً ، في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا التواهي وفي السنة التالية عندما حاول ان يخرجهم منها ، فدارت عليه الدوائر وكان هو من الظالمين . اخرجوه من عدن ولم يأذنوا بان يكون له بعدئذ بيت فيها . ولا اذنوا بذلك لاحد من خلفائه كما هم .

ولكن خلف السلطان محسن لم يناوىء الانكليز ولا همته ظاهراً امرهم ،

بل ولي وجهه الشمال والغرب فسمى ان يعوض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها . هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي . وقد كان باسلاً مقداماً حكيماً ، يقرن البطش باصالة الرأي ، ويرى ، وهو امي ، ان لا عز للملك بغير الثروة ، ولا ثروة بغير الزراعة ، ولا زراعة بغير الامن والعدل . فسعى في سبيلها كلها سعياً شريفاً . امتشق الحسام وكان منتصراً في غزواته كلها ، فاستولى على الحواشب ، ومكن نفوذ العبادلة في العشائر ، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الانكليز واعجابهم ولكنهم غلبوه بسياسة اللين ، بالقاعدة المرنة ، فاعاد الى سلطان الحواشب ملكه بعد ان استولى عليه بضع سنين ، فاستحكمت بعدئذ العلاقات بينه وبين عدن والمسيير .^(١) حكم السلطان فضل ثلاثين سنة وكان في حكمه عادلاً حكيماً ، فسن شرائع لا تزال حتى اليوم مرعية تتعلق بالزراعة ، وبادارة الاوقاف ، وبتسهيل صلات العشائر بعضها ببعض .

اما خلفه السلطان احمد بن فضل بن محسن ابن عم السلطان الحالي وقرين سلفه السلطان محسن في الذكاء وحب العلم والعلف ، فقد كان اشد حنكة ودهاء من اسلافه ولكنه لم يكن مثاهم كريماً احقرمه الانكليز ظاهراً وتسدوا في معاملته ما كان من خلقه اي النكتم والمراربة .

وقد كان بين السلطان احمد والامام المنصور والد الامام محيي صلة ولا . ادت الى اتفاق سري بينهما ، من شأنه مقاومة الترك والتزعة التركية في اليمن . ولم يقف السلطان احمد عند هذا الحد في مناوئته الاتراك ، بل مد يد الولا والعون الى السيد الادريسي فكان سرأ عضداً له في عسير ، وارسل الى الشريف حسين وهو يومئذ امير مكة دعوة للانضمام اليهم ، او الكف

(١) المسيير هي عاصمة سلطنة الحواشب .

في الاقل عن مساعدة الاتراك على امام صيبا وجيزان^(١)

هوذا السلطان احمد عدو الترك واول من سعى على ما اعلم في سبيل الوحدة العربية . فقد دعا امراء العرب الى مؤتمر عام يعقد في احدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الامة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها . ولكنه ، بعد ان ارسل منشوره الى الامراء ، عدل عن عمله لاسباب مجهولة . وقد تكون الحرب التركية الايطالية احد تلك الاسباب ، لانه تغير في سياسته حوفي عواطفه بعد تلك الحرب تغيراً سريعاً مدهشاً .

كلما جئت على ذكر الاتراك في البلاد العربية اراني مكبراً السيد محمد الادريسي وثباته في مبدئه وجهاده . فقد كان الامام يحيى عدو الاتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى . وكذلك كان سلطان لحج السلطان احمد بن فضل ، فتحول في الحرب التركية الايطالية عن سياسته ومبادئه ، كانه لم يسع سراً وجهراً في تقويض السيادة التركية في البلاد العربية . وقد كان من امراء العرب الذين ساعدوا الدولة بلال ايضاً ، فدعي لذلك الى مصر ليقابل مندوبها السامي رؤوف باشا ، فلبى الدعوة ، وعاد من القاهرة يحمل وساماً من اوصمة الدولة ، ويحمل ايضاً غراساً من ارض الفراعنة .

ان للسلطان احمد مساعي مهرورة في تحسين الزراعة في لحج . فقد جلب الاغراس من مصر ومن الهند وكان في اهتمامه بها مثالاً للفلاح عالياً . وقد كان شغفاً كذلك بالاوصمة ، فصك منها باسمه وشرع يمنحها الناس من عرب

(١) كان الادريسي في تلك الايام خارجاً على الدولة ومهدداً بمؤامرة تركية شريفة زيدية . فسمى السلطان احمد ان يقاومها ويدفعها باتفاق او حلف عربي فلم يفر بذلك . جاء عزت باشا الى الحجاز في اذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الادريسي فانجده بجملة يقودها نجله الاميران عبدالله وفيصل . وكتب الى السلطان احمد يستنصره على عدو الدولة ويسأله ان يسمي في سبيل الصلح بينها وبين الامام يحيى . ولكن سياسة السلطان احمد كانت بومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين .

وهنود وانكليز . ثم باشر تنظيم المالية والجرك فسن قوانين عديدة ، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى . لا برة في القول انه كان سلطاناً كبيراً ذا همه قماء ، وذكاء ودهاء . هو السلطان الزراع السياسي ، محب الابهة والاشجار الغربية . ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها .

وما كان في خلفه ما يومي . الى التوفيق والتحسين من هذا القبيل . كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلاً ورعاً تقياً يحترم علماء الدين والسادة الاشراف احتراماً جزيلاً ، ولم يكن له ارادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة . ولكنه لم يهتم لادارة الملك فاتكحل في ذلك علي ابن عمه محسن فضل شقيق السلطان الحالي .

كان السلطان محسن^(١) ادبياً ذكي الفؤاد ، عصرياً في ارائه واعماله ، محباً للاصلاح والعبان ، عالي الهمة ، بعيد النظر ، شديد البأس ، ثابت الغرم والارادة . فباشر في ايامه القصيرة اصلاحات كثيرة في الجندي والمالية والمعارف ، ولكن الاقدار لم تشأ ان يكملها بنفسه فتوفي في عدن عقيب الهدنة عن اثنين وثلاثين ربيعاً . ان مثله من امراء العرب شديدي التزعة الى القومية العربية ، الراغبين في تعليم الناشئة على الاسلوب الحديث ، الساعين في تحقيق امالهم الوطنية العالية ، ليؤسف على موتهم في ريعان الشباب . وقد وقف السلطان محسن ثروته كلها على انشاء مدرسة عصرية ومستشفى وصيدلية في الحوطة ، فأنست المدرسة وسيتم قريباً بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي .

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه واخلاقه ، ولا اقول في ملابسه التي هي هندية اوروية . اما ملاحه العربية فمثل اخلاقه

(١) كل اعضاء الاسرة المالكة يلقبون بالسلطين ، وم يدعوون السلطان الاكبر «الوالد المالك والسلطان الممان» .

وحدثه لا غبار عليها . هو نحيل الجسم ، عصبي المزاج ، مستطيل الوجه ، دقيق الأنف ، غائر العين ، في الخامسة والاربعين من العمر . لكنه يظهر اكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد وقتام ، ولما قاساه اثناء الحرب من الشدة والاحزان . وهو مثل اخيه الباسل وابيه سلطان لحج الكبير يكره النفوذ الاجنبي ويسعى سعياً هادئاً سلمياً في مقاومته وتقويضه . ولا عجب اذا كان من مساعيه ان يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل ابوه فاضاعها من خلفه .

على ان السلطان عبد الكريم يفتقر الى شيء من شدة ابيه وطوحه ، ومن نشاط اخيه وعزمه . فهو والحق يقال اقرب الى الادب والزراعة منه الى السياسة والادارة . له ذوق في الموسيقى ويحسن بعض الاحيان الغزف على البيانو . وله رغبة في المطالعة فيهتم خصوصاً بتاريخ العرب والاسلام . وهو مثل السلطان احمد شغف بالزراعة يقضي ساعات من يومه في بسايقته . لذلك قيل فيه على ما اظن انه قليل الاكتراث ضعيف الارادة . وقد يتخلل عزمه ، وهو عصبي المزاج ، فترات يسي . الناس فهم اسبابها ونتائجها . ومن مزاياه انه يحترم الرأي والحرية الفكرية في الناس . اما علاقته مع الانكليز فالمدارة اظهر ما فيها . على ان له في دار الاعتماد مقاماً محترماً وكلمة مسموعة ، فيستشيره اولو الامر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر واحوال البلاد الداخلية .

ان في لحج على صغرها نهضة في التعليم تذكر ، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية ، سيدتهم ادبياً ومعنوياً وفي بعضها سياسياً ايضاً . فان ام السلطان عبد الكريم من الیوافع ، وبينه وبين العواتق ولا . وثيق العرى ، وله على الصبيحة والحواسب سيادة لا بد ان تمتد الى سواهما . اما الامارة في لحج وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا ارثية . لذلك تقدم السلطان عبد الكريم اثنان من اخوته بعد موت ابيه السلطان فضل .

ولكن الانتخاب ابي المبايعة هي من قبل الخاصة فالمبايعون هم العقال^(١) ابي
حكام البلدان الذين يعينهم السلطان فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا
ولي العهد الذي يجوز ان يكون من غير الاسرة المالكة . ولا شك ان هذه
الطريقة تفتح ابواباً واسعة لتدخل الانكليز في شؤون البلاد وسياستها فيولون
عليها من المواليين لهم من يشارون .

اما ولي العهد فهو يُنتخب في عهد السلطان احاكم فيصبح منذ ذلك الحين
مقيداً بالسياسيين ، سياسة لحج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين ، ارادة
المعتمد و ارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائزة مثل
الاولى . هوذا موطن الضعف والحلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها .
لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ،
ولكنهم ولا شك ينتفعون بها انتفاعاً يضر بمن هم اصحابهم وحلفائهم
واصحاب البلاد التي احتلواها .

جذا لو ساعدوا اذن في تغيير هذه الطريقة فيكتبوا حب الناشئة
العربية الراقية وثقة اولياء الامر في البلاد . ولا اظنهم يفقدون في ذلك شيئاً
من حقوقهم الشرعية او من نفوذهم الصالح المفيد . اما غير ذلك من حق او
نفوذ فهو يضر بالانكليز اليوم اكثر من ضرره بالعرب . اجل ، ان الحقيقة
البليغة الرائعة التي يجب ان تدبرها اليوم وزارة المستعمرات بلندن او دائرة
الشرق الاوسط في تلك الوزارة هي هذه : كلما قل تدخل بريطانيا العظمى
في شؤون الامراء الوطنية والخاصة تعزز مركزها لديهم . وكلما تقلص نفوذ
الانكليز في داخل البلاد ازداد في السواحل . او بالاحرى كلما امتنعوا ،
حكمة وتزاهة ، عن مد يددهم الى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم
ضمن تلك الحدود . ولا اظنهم يبغون اكثر من ذلك .

(١) حاكم الولاية او ما يناهها يدعى في اليمن عاملاً وفي نجد اميراً وفي هذه النواحي
عاقلاً .

الفصل الرابع

لحج في الحرب العظمى

جزيرة الشيخ سعيد - ضربها واحتلالها - احتجاج الامام يحيى - زحف الاتراك على عدن - الجنود الانكليزية تنتدب الى الشيخ عثمان - تأخير النجدة الانكليزية - الامير لواء علي سعيد باشا يفاوض سلطان لحج - وقعة الدكير - تدمير لحج - وصول النجدة الانكليزية في الليل - اطلاق النار خطأ على السلطان ورجال - الاسيرة المالكة في عدن - لحج وعدن تتهادنان وتتسالمان - تركي كريم النجار - وما جزاء الاحسان الا الاحسان .

في باب المنذب ، على مقربة من رأس البر اليمني ، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد ، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية اثناء الحرب ، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهتمهم امتيازات النفط والمعادن .

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد كانت اثناء الحرب في يد الاتراك تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة . وعندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى ، وشهرت في تلك الحرب الضروس السيف على الحلفاء ، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن . فلما علم بذلك الانكليز اوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند الى السويس ، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الابار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الانواء ، التزول الى الجزيرة فزلوا الى البر^(١) قريباً منها

(١) قد اغضب هذا الاعتداء الامام يحيى فاحتج عليه . فكتب اليه الكرنال جاكوب الماعون الاول بومثذ في دار الاعتاد يقول : ان الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد وان ليس لهم في ذلك قصد خفي او سياسي ، وان جلاءهم قريباً عن تلك الناحية يثبت ما يقول . - ملوك العرب لجاكوب صفحة ١٥٩

في جمي مدافع البواخر الحربية ، فتقهقر العدو الى داخل البلاد . ثم دمر الانكليز قلعة ترنبه وغيرها من الحصون في تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع فظنوا انهم اوقفوا الاتراك في الزحف على عدن . نعم ، اوقفوهم سبعة اشهر ، فعادوا اذ ذاك الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، ومشت جنودهم من ماوية الى لحج تقصد الهجوم على عدن .

وكانت السلطة الانكليزية فيها قد احتاطت الامر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، فامرت بنقل الحامية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى لحج . جاء في التقارير الرسمية : « ان شدة الحر وقلة الماء ، وفرار المهجانة للمأجورين اخرجت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » .

على ان طليعة الجيش وصلت مع ذلك الى محجتها في ذلك اليوم ونازلت الاتراك خارج لحج قبل ان تصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على الانكليز ، فتقهقروا عن لحج مهزومين ، فدمرها الاتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها . ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها في اليوم التالي .

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ الى عدن اخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها ، وظلت شذمات منهم في أم العُمد والوهط ، فحاول الانكليز مراراً ان يخرجوهم منها فلم يتمكنوا من ذلك الا بعد ان نجدهم عشائر العرب التي استنجدوها . ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ ان يخرجوا الاتراك من لحج . فظلوا فيها الى نهاية الحرب .

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من اخبار تلك الزاوية العربية القصية ، وليس فيه كلمة عن نكبة لحج وعماحل بالاسرة المالكة وبسلطانها حليف بريطانيا العظمى . فجئت اروي الخبر كله كما سمعته وتثبتته من مصادر شتى هناك .

في السنة الثانية من الحرب اي في صيف سنة ١٩١٥ كان لدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثون طابوراً ، اي نحو خمسة عشر الف جندي ، اكثرهم من السوريين . وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الامير لواء علي سعيد باشا الجركسي الذي سعى ان يضيف اليه قوة من العربان . كان سعيد باشا كريم الاخلاق جواداً ، فاحبه العرب وانضم الي جيشه بضعة الاف من الحواشب واليوافع والصبيحة^(١) فعزل اذ ذاك على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال الانكليز هناك . وبنا ان لحج ، وهي في طريقه ، سلطنة مستقلة تمتد الي سلطنتها يستأذنه بالمرور ويعدده بالحفاظة عليه وعلى ملكه . فابى السلطان علي لانه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها . ما اشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبليجيك واهلها : ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون .

خرجت جيوش سعيد باشا من ماوية وسقطت على لحج ، فاستنفر سلطنتها الورع بعض العشائر المجاورة فأنجدوه ، وخرجوا وهم بضعة الاف يلاقون الاتراك وهم ضعفاهم عدداً واضعافهم عدة . فاصطدم الجيشان قرب الدكيم ، على مسافة عشرة اميال من لحج ، فانهزم اللحجيون . ولذلك اسباب ثلاثة - اولاً : لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل . ثانياً : لم يكونوا على شيء من النظام . ثالثاً : لم تجنهم النجدة من الانكليز الا بعد الهزيمة . وقد جاء في التقارير الرسمية ان لابطاء تلك النجدة ثلاثة اسباب ايضاً . ولكن هناك سبباً آخر غير القبط وقلة الماء وفرار الهجانة . فقد سمعت في عدن ان الجنود الهدية عصوا يومئذ بضابطهم لانهم كرهوا ان يحاربوا اخوانهم المسلمين . والحقيقة التي لا ريب فيها انهم ابطأوا في الانجاذ ثم انهزموا .

(١) وقد كتب الي الامام يحيى يطلب منه المساعدة فلم ياب الامام طلبه كما تقدم . بل ان الامام ، كما قال سعيد باشا عندما سلم الي الانكليز ، كان يعارض رأيه في الزحف على عدن .

عندما دخل الاتراك لحج كان السلطان علي واسرته لا يزالون في القصر يدافعون عن انفسهم ، فاضطروا ان يخرجوا منه عندما بدأت الحجارة تنساق عليهم من الجدران التي كانت تحترقها القنابل ، فبادروا في الفسق الى الفرار ووجهتهم الشيخ عثمان . اما الجنود البريطانية فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحيين ، فالتقوا بالسلطان واسرته تحت جناح الظلام ، فطنوهم من كثافة العدو ، فاطلقوا عليهم النار ، فقتلوا عدداً منهم واصيب السلطان علي برصاصة في رجله ، فنقل الى عدن وتوفي من اثر الجرح هناك^(١)

دخل الاتراك الى لحج فدمروا قصور السلاطين ونكلوا باهل المدينة ، ففر الى عدن من سلم من الاسرة المالكة وكثيرون من الاهالي . وعندما خلف السلطان عبدالكريم السلطان علياً كان من اول اعماله انه احتج احتجاجاً شديداً على حكومة الانكليز لانها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين اجداده ، فقبلت حكومة لندن الاحتجاج وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها .

اقام السلطان والاسرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها ، وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم ، في حين ان املاكهم وقصورهم وبلادهم كانت في حوزة الاتراك يتمتعون بها وبجيرانها . حتى اصبح هؤلاء في غنى عن الامداد والتعويض من مركز القيادة الثمانية في داخل اليمن . بل كانوا بعد ان استقر امرهم في لحج على شيء من اليسر وجانب من الامن والاطمئنان يستغرب مثله في ايام الحرب بين المتحاربين .

والسبب في ذلك بعد الفريقيين على ما اظن عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهما . كان الجنود والضباط يسمعون ولا شك بويلات تلك الايام واهوالها ويمجدون الله لما بينهم وبين تلك الولايات من المسافات .

(١) « انا في امالنا مسزولون عن وفاة السلطان علي المبصرة » . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب ، صفحة ١٦٧

فلما امن الانكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا حلج للاتراك .
ولما امن الاتراك على حلج ونواحيها تركوا عدن للانكليز . قنع كل بما ملكت
يده ، وكُلت القناعة بكرم الاخلاق .

اجل ، بينا كانت رحى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسا وقتلاً
الارض هولاً وقبوراً ، كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من
اليمن السعيد يتبادلان المعروف والاحسان وكان للقائد الجركسي سعيد باشا
الفضل الاكبر في ذلك بشهادة الانكليز انفسهم . اما العرب فلا يزالون
يذكرونه اليوم بالفخر والاعجاب .

قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى حلج بعد نكبتها لان الاهالي والعساكر
شرعوا يزرعون ويشتغلون ، فازدهت بالاخضرار والثمار تلك البقعة المحصنة
التي تستقي من فرعي وادي دُبن . اما عدن وهي في فم البركان فلا ترى
فيها ولا في جوارها ورقة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ،
ثم : - هذه بقولاتنا نزلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر
الانكليز الترك قائلين : وهذا الارز والسكر اكرم منها ما تبغون .
وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر الدولة : ليحي الانكليز .

كذلك تم الصلح بين الاحلاف والدول الوسطى ، او بالحري بين ممثليهم
في عدن وفي حلج ، قبل ان انتهت الحرب بسنتين . ولما اعلنت الهدنة دخل
علي سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالاً
جميلاً . دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور .

الفصل الخامس

التمدن الحديث في حلب

اثر من الآثار في تاريخ البطار - بين عدن ولحج - وفد المرحبين - ملابس
 المحجبين الزاهية - سمو السلطان - ردهة الاستقبال - صحبة البخاري
 والونوغراف - وزير السلطان السيد علوي الجفري ينوه بكلمة - للستر كروس
 قنصل اميركا يقتي خطاباً ينوه بعشرين كلمة وكلمة - سلطان متمدن - الموسيقى
 العسكرية تصدق بالشيخ الاميركي - مائدة السلطان - غرفة « البلياردو » - في
 البساتين مع شاعر وساطان - اشجار لحج - شاعر لحج وقيلسوقها - ولي العهد
 الصامت - المدرسة الفضلية - المدافع والاقاب - عرب الحجور - خناجر لحج -
 البخاري والسواك وعائشة - البخاري وصدوق الزجاجي - ثلوث الحرية في لحج .

كتبت بعد وصولي الى عدن كتاباً الى صاحب السمو السلطان عبدالكريم
 فضل ارجب اليه في الشرف بزيارته . وكتبت بواسطة قنصل اميركا الى دار
 الاعتماد استأذن بذلك . فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحباً بي ، ثم
 جاءني بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه اذن باسمي واسم رفيقي واذن
 اخر باسم القنصل الذي شاء ان يرافقتنا .

ركبنا من محطة عدن قطاراً عسكرياً ، خطه ضيق وعرباته قديمة ، جى .
 به من الهند ، وقاطرته اثر من الآثار في تاريخ البخار . فوقعت بنا وهي
 تخرج وتقرقع في ارض سبخة قريبة من البحر ، ومرت باكام من الملح هناك
 مستخرج منه ، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها . ومنها الى دار
 الاميراي الحدود بين عدن وحلب ، ثم صبر ، فجلال ، فنوبة الهراي ،
 فالخوطة . وكلها ما عدا العاصمة ودار الامير اسما . لا كواخ من القش واللبن
 يتخللها شي . من شجر الاسل واميال من القفر الذي تهب فيه رياح البادية
 وهي تحمل السموم والموت من الربع الحالي . ويمتد خط الحديد من الخوطة
 الى مكان يبعد ستة اميال عنها يدعى الحداد .

اما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلاً . اجتازناها
بساعتين - حتى البخار يستشرق في الشرق - ووصلنا الى العاصمة بخير وسلامة ،
فرحب بنا في المحطة ولي المهدي واخو السلطان وغيرهما من القصر ، وهم في
ملابس تدهشك منها لاول وهلة الالوان الزاهية البهيجة ، ثم شككها الذي
يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز . ما ذكرني للحجبي
في فوطته المخططة التي تصل الى الركبة وعمامته الطويلة الذؤابة بغير
الاسكتلندي اذا لبس ثوب عشيرته اي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش .

ولكن السلطان احمد وهو قائد الجيش يلبس مثل اخيه السلطان المالك
عبد الكريم ، الا ان له شغفاً بالالوان الباهرة . رأيت اول مرة في بنطالون
ابيض ضيق حول الساق ، وفوقه معطف الى الركبة اسلامبولي الشكل ، الا
انه من الحرير الازرق المخطط ، يشطره زقار وافر مشدود الى وسط الخيل ،
وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة ، وعلى رأسه عمامة
صفراء حمراء زرقاء ملفوفة في شكل هرمي - هي الموضة ، عند اعيان الحج
- وطبي اضلعه ما يناقض كل ذلك اي روح عصرية حتى الكفر . سنعود
الى السلطان احمد بعد ان نقابل سمو اخيه .

ركبتنا من المحطة في سيارة اوصلتنا الى القصر فنفخ الى استقبالنا عند
الباب سمو السلطان ، وهو يلبس فرق ثيابه الافرنجية عباءة بنية ، وعمامة ملونة
هندية ، ومعه حاشيته ووزيره الاول السيد علوي الجفري . ثم صعد بنا الى
ردهة الاستقبال في الطابق الاول ، وهي رجة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور
الشمس في جلباب من التقوى يلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ - كأنه
من بيت الصلاة عند المسيحيين - وتلطفه السُجف البيضاء المخرمة كأنها من
قصر انكليزي . ان في هذه القاعة مجلسين افريقياً وعربياً ، فرش الاول
غربي الشكل الا انه من صناعة الهند ، تحتل زاوية منه آلة الفونوغراف ،

وفرش الثاني دواوين عربية تُقطِّعها المساند والوسائد . وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري ، ذاك السفر الجليل المدَّهش ، الفريد في بابه ، الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية ، اي شرحُ شرح الشرح . ولا يجوز ذكره بغير الاجلال كامل الاسماء ، فهو القسطلاني على صحيح البخاري ، والحزرجي على القسطلاني ، والامام النووي على الحزرجي . .
 - وهوذا يا صاحب السمو المستر كروس C. M. Cross قنصل اميركا في عدن .

فرحب سموه به واجلسنا ، اكراماً له على ما اظن ، في المجلس الاول الرسمي الذي يستقبل فيه ضيوفه الاقرب . ثم تعطف فاحلنا كلنا محل الاهل والاحباب على الدواوين العربية التي تبعدنا عن القونوغراف وتقرِّبنا من البخاري .

- كان قنصل اميركا السابق صديقنا يزورنا من حين الى حين . ولكم ما كان له عندنا من الحب والاکرام قال هذا السلطان ، وكنت انا الترجمان فسرت بالقنصل لانه قليل الكلام . شكر سموه وسكت . فاستلمت اطراف الحديث شاكرآ ، ونشرت منها المألوف في السلام والتبجيل ، ثم المعروف من ظاهر سياحتنا ، فاوقفتني عند هذا الحد كلمة من السيد عآوي شوقت الي حديثه . وهو لطيف الابتسامة ، برآق العين ، فصيح اللسان ، يستأنس به جليسه من مجرد النظر اليه . وانكي عرفت انه الوزير الاكبر وانه اهل لذا المقام العالي لانه مثل القنصل الاميريكي قال كلمته وسكت .
 - مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل وقد عرفناها .

فاضاف السلطان عبدالكريم الى ذلك كلمة اخرى لطيفة : وسيزيدنا الاستاذ معرفة ان شاء الله . زيارة مثله لا تنقضي في جلسة واحدة . ثم سألنا عن صحة الملك حسين ، فكان دور القسطنطين ، الذي اجاب بما يسر المحبين ،

ويريح بال المعجبين برجل مكة الاكبر . ثم مال سموه الى القنصل فقال : يجب ان تغض النظر يا حضرة القنصل . ليس عندنا ما يليق بكم وبشرفنا في نظر الامة الاميركية العظيمة غير حبنا لكم واخلاصنا .

ترجمت الى اللغة الانكليزية هذه الكلمة وفيها جميل التواضع واللفظ فادهشي من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين قال لا فض فوه : سأنقل كلام سموكم الى حكومتي واحب ان اقول بالاصالة عن نفسي ان في العرب فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الامم الغربية .

هناك بعدئذ بحسن جوابه وحنن سلوكه . ومن ادري باخواني الاميركيين مني ؟ فقد كنت اخشى منه سكوتاً يسي . او كلمة توجب الترح والتفسير . وهو مثل اكثر الاميركيين لطيف كريم في ما يفعل اكثر منه في ما يقول .

بعد ان شربنا القهوة نهض السلطان وتقدمنا الى الجهة الاخرى ، الى المجلس العربي قائلًا : هذا بيتكم . ربما انتم تعبون . وراح يتبعه حاشيته الى داخل القصر . فجلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شي . يأبى الكتان .

— سلطان عربي في ثياب هندية افرنجية .

— سلطان كريم حكيم .

وقال المستر كروس : سلطان متمدن .

وستدهشك من تمدن هذا السلطان اشياء اخرى كثيرة . هذه مجلة عربية من مصر ، وهذه جرائد من القاهرة ومن الاستانة ، وهذه في ألواح الفونوغراف اغانٍ مصرية وانشيد انكليزية ، وهذا يا مستر كروس النشيد الوطني الاميركي تسمعه كما جوقة حلب العسكرية اسررتنا بالنشيد الاميركي لانه كان من اجل آيات الترحيب والاكرام . والحق يقال ان ما من احد

يوزر لحج الا ويعجب بذوق سلطانها الذي تفصح عنه مجالسه ، ومائدته ، وسياراته ، وخيله ، وكتبه . انك لترى اشياء من الشرق والغرب مجتمعة غير متنافرة في قصور لحج ، وتجد حتى في ازالة الضرورة الطريقتين الشرقية والغربية .

نمنا في الاسرة ضمن الكلل ، وجلسنا والسلطان الى مائدة تعددت وتنوع الوانها ، فكان الطاهي شرقي خدم في مطبخ تزل اوروني ، وشربنا التبنك في المداعة الهندية الشكل الطويلة القوام والي^(١) وركبنا السيارة بصحبنا ولي العهد واحياناً السلطان نفسه او اخوه السلطان احمد الى خارج البلد نشرف على بساقتها الا ان الدهشة الكبرى كانت في غرفة «البلياردو» وفيها طاولة انكليزية كبيرة اعدت عليها ذكرى ايام كنت بهذه اللعبة هاتماً بهزاً .

اما محاسن لحج ومستغرباتها فاكثرها في قصور الامراء وفي البساتين ، وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاتنين . اجل ، انك لتجد الشرق والغرب مجتمعين حتى في الاشجار . فهذا التفاح الشامي في جوار العنب الهندي . ولكن الزراعة ، على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها ، لا تزال في طور النشوء . مشينا صباح يوم وسمو السلطان الى احد تلك البساتين فكان اول ما اوقف النظر منا رجال يحفرون بئراً كما لو كانوا في ايام عاد وحمود . فما المانع من استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل اجرة العمل ان لم تكن اقل : ان ارض لحج صالحة الآبار الارتوازية . وهي مع ما يجري فيها من مياه وادي دُبن تحتاج الى هذه الآبار لان نهري الوادي يجفان في الصيف فلا تكفي الارض اذ ذلك مياه الصهاريج .

ها هنا وجدنا نقص في اسباب الزراعة وحياتها ، فان ارض لحج خصبة

(١) المداعة الارجبية والي القربش .

جداً . ويمكن ان يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلاً منه في البساتين اذا بني سد في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دَبْرَنْ تصب مياهه في الصيف فيسقي الارض المزروعة كلها .

— اظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العنب ناتجاً عن امرين عدم التلقيح وقلة الماء .

— ولكن عنبنا في لحج على صغره اطيب من عنب الهند .

والعنب اي Mango والجناب . Papaya من الاشجار التي لا ترى في غير المناطق الحارة . مشينتا في ظلها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع في البساتين .

— هذا السمر الذي يذكره الشعراء .

فقال رفيقنا الامير صالح وهو شاعر :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمّرات الحلي ناقف حنظل

ومنه الشوكي العربي والاشوكي الهندي .

— وهذه شجرة تعطي قطناً افخر من القطن ودود الحرير نسيها شجرة

« القطن الحريري » . هي تشابه في طولها ونحوها شجر الحور .

— وهذا العُشر الذي يستخرجون منه البارود .

فقال الامير صالح : وكان عود الكهريت عند الاقدمين .

وهذا الأسل صديق الابل .

قلت : وهو شبيه السلم .

فقال الامير الشاعر :

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ولكن شاعر لحج وفيلسوفها ، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للنشر ،
انا هو السلطان احمد فضل . قال لي ذات ليلة طال فيها السمر وما ذوى غصنه :

— وما التعصب وما المذاهب كلها ؟ بلية الامم والله ونكبة الاوطان .
لو كان العرب يعقلون لعلموا ان خلاصهم هاهنا لا هاهنا « وأشار الى رأسه
ثم الى قلبه » نعم ، ان العقل — وانت يا حضرة الاستاذ ادري بما قاله شاعر
العرب الكبير ابو العلاء المعري — ان العقل مصباح الحقيقة . والحقيقة اساس
كل عمل صالح ثابت مفيد سياسياً كان ام دينياً . اما القلب فقالباً ضال ،
والعواطف مضلة . هذا الزيدي يغس ثيابه وجسه في النيل لظنه ان النيل
يقيه البرد . والظن يصبح بالممارسة عقيدة . والعقيدة يشبثها الوهم . والوهم
منشأ العواطف والتصور . انا جربت النيل لما كنت شاباً فلم يدفع عني البرد .
ولو حكمت كل امرى . عقله في الامور لبان الضلال في كثير منها مثل النيل ،
ولما رأيت هؤلاء الجهال المتبيلين عندنا . وستراهم ، ستري خيوات « كثيراً »
منهم غداً عند الزیود . قد قيل لي ان الزیود ينيلون اجسامهم وثيابهم حداداً
على الحسين . لا يزالون الى اليوم يحدون على الحسين ! والاجدر بنا يا استاذ
ان نحد على العقل في بلادنا وعلى العلم .

اما السلطان احمد وهو الجندي الفيلسوف ، حاد المزاج ، شديد اللهجة
والبأس ، فيجد في قلبه لا في ثيابه . كان يزورنا كل يوم وهو يحمل البناضلة
من الورد فينعمش النفس منا ، كما كانت الوان ملابسه تنعش البصر ، وكما
كان حديثه ينعمش العقل والامال وهو لا يتجاوز الاربعين . له شغف بالعلوم
والفنون نادر في تلك الناحية القصية من البلاد العربية . يطالع الجرائد
والكتب والمجلات ، ويحدثك في سياسة الامم كما لو كان تزيل القاهرة .
وهو من غواة الصيد والتصوير والموسيقى ، فيجمن العزف على كثير من آلات
الطرب ويدير الجوقة العسكرية التي اسممتنا النشيد الاميركي . ولكن مهنة

المتعددة لا تبعده عن الحقل والبستان، فهو مثل اخيه مزارع كبير يجب العمل في الارض بيده . اما رأيه في المدينة الغربية فهو على شديد ترعته العربية لا يرى فيها الضرر الذي يتوهمه بعض الشرقيين .

— وما ضرنا اذا لبسنا الافرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة ؟
اذا كانت قيسيتي في هذه العمامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العمامة ولا كنت انا .

ان السلطان احمد فضل هو السلك الكهروباي في حلب . وهناك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم . وقد يكون صامتاً لانه ولي العهد الظاهر المؤيد ، وقل المقيد ، بالسياستين العدنية والصحجية ، الانكليزية والبهدية . قلت : الظاهر ، لان سمو السلطان عبد الكريم ، في ما يسعى اليه من الاصلاح الذي تقدم ذكره ، يأمل ان يكون ولي العهد ابنه الامير فضل ، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العاوم واللغة الانكليزية من اساتذة في القصر . اقترحت على السلطان ان يرسل الامير فضلاً الى مدرسة في سوريا او في مصر فقال انه يرغب في ذلك ولكن الام لا تصبر على فراق ابنها .

— ولكننا سنحضر الى حلب ان شاء الله اساتذة من مصر وسوريا يطورون في مدرستنا .

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لاهنته بعيد الاضحى . وقد هنأه يومئذ تلاميذ المدرسة الفضائية بما القوه من القوائد والخطب قديمة الاسلوب عقيمة المعنى . اما كتب التدريس التي امر المعلمين بان يطالعوني عليها فهي مصرية ومنها سورية وكلها حديثة . فاستبشرت بذلك وقلت في كلمة القيتها على التلاميذ ان حلب زاوية اليمن المباركة ، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن . هذا اذا اتم ما يقصده من الاستعانة بالاساتذة والاطباء العرب يجلبهم من سوريا او من مصر .

وحبذا الانكليز عوناً له في هذا السبيل . حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة . ليتهم يهتمون بالتعليم ربح اهتمامهم بالسياسة وبكل ما يعزز جانبهم فيها . فقد ساعدوا في تنظيم جيش لحج الصغير ، وسهروا على ارضاء سلاطينها بما يظنونها اكراماً كبيراً . وما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية انه في ١٩ ك ١٦ سنة ١٨٩٥ قررت الحكومة ان تزيد المدافع التي تطلق لسلطان لحج من التسعة الى الاحد عشر مدفعا . وفي سنة ١٩٠٣ منحت سمرة لقب ورتبة « فارس في كوكب الهند » . وهم في رسائلهم يخاطبونه كما يلي : عمدة الامراء الكرام ، وقادة النجباء الفخام ، سمو السلطان محبنا وصديقنا السيد عبدالكريم فضل بن علي العبدلي كاي . سي . آي . اي . « K. G. I. E. »^(١) وهو يبادلم هذا الاكرام والتبجيل فيرده اليهم كلمة كلمة . لو تُرجمت « عمدة الامراء الكرام وقادة النجباء الفخام » الى الانكليزية ، وهي تتقدم اسم موظف انكليزي ، لكانت تفككه وزارة المستعمرات . واكتها تظل مخزونة في رؤوس الكتاب والمترجمين في دار الاعتماد .

اما العرب فلا يخفون بمثل هذه الترهات وقلما يعرفونها . فهم يخاطبون سلطانهم بقولهم : السلطان الممان او الوالد المالك . واهالي لحج من عرب اليمن والمولدين ، اهم قبائلهم بعد العبادلة العربي واهل البان واهل سلام . وفيهم الحجور من ناحية في حضرموت تدعى حجر قوب مكلًا ، ممرتهم شديدة تضرب الى السواد ، فيظنهم السائح لاول وهلة عبيداً . هؤلاء الحجور^(٢) يشتغلون في لحج كل الاشغال الشاقة . في الحقول تجدهم وفي التصور ، يحرقون ويحدمون ويحسون العمل .

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٧٤

(٢) جمع حجري

ان الحجري اكبر جسماً واشد ساعداً من اللحجي ، على ان وجه هذا ادق ملامح من ذلك ، وفيه من سياه الذكاه ما قلما تجده في الحجري النشط الباسل . اما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا القوطة والعمامة . وقلما تجد لحجياً اياً كان ومهما بالغ في اللبس او العري ، لا يحمل خنجراً من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في الحج . ومنها ما يكون نصابها مزدوجاً بشكل اللامين في « الله » فتظن صاحبه حاملاً خنجرين . ما رأيت في كل من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية ويقربون بسورتهم الى السواد من هو اشد بأساً ، وارهب طلعة ، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيعة ، ويحمل خنجراً مزدوج النصاب . انه مع ذلك لتقي .

كنت وسمو السلطان في احد بساقيته خارج المدينة فرأيت الحجري يجرث الارض ، ورأيته يصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ما . للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد . عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع الماء ، فأذنت الشمس بالغروب ، فترك عمله ، ووقف مكانه يصلي صلاة المغرب . ان ذلك لجليل ، وان ديناً يستوقف العامل في عمله لذكر الله لأجل .

بيد أن بعد ساعة رأيت الوجه الثاني من ذا الجمال . عند رجوعنا ذلك اليوم الى القصر تناولت مجلداً من صحيح البخاري وقتحته عرضاً فاذا انا في باب المسواك والاحاديث النبوية في المسواك والشروح وشروح الشروح على الاحاديث النبوية في المسواك . أطبقت الكتاب وفتحت جزءاً آخر منه فاذا بعائشة تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعما كان مسلكه في النسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة ، فضلتني اقرأ مذكرات احدي الخواتين الافرنسيات .

ولما جاء السلطان احمد يزورنا تلك الليلة اشرت الى ما كان من حظي

في البخاري فقال : لو قرأته كله كما نقرأه نحن في شهر رجب لكان حظك احسن . ثم قال : البخاري يا حضرة الاستاذ مثل صندوق زجاج يميننا من اوروبا . صندوق كبير ، كبير جداً ، فيه ست كؤوس او ستة قناديل ملفوفة ، مدفونة ، في قنطار من القش . هذا هو البخاري .

لست اذكر الان اذا كانت الكلمة هذه للسلطان احمد او للشيخ علي رضا السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة الاحجية . كلاهما عريق في الحكمة وحرية الفكر والتساهل الديني . الا ان علي رضا ، مثل السلطان مهدي ، سكوت لا يجب الظهور . وقلمنا يعرض فكره في غير مجلس الالفة والاطننان . كان من حظي ان اجالسه غير مرة ، وان له ولاين اخيه عبدالغني الرافعي فضلاً علي ببعض المعلومات في الفصلين الثالث والرابع من هذا القسم من الكتاب .

الفصل السادس

النواحي التسع المحمية

مبدأ الحياة في السياسة الانكليزية - المعاهدات الولاية - الهندان او الهندان -
 دور الولا والعطاء . ولا بأس بالعداء - دور الحماية . ولا بأس بالشكاية -
 « لنا يد على فلان في منصبه » - الصبيحة - آل فضل او الفضلي - العواتق -
 قوم لا دين لهم - الواحدي - عرب لا يعرفون القرآن ولا النبي - الموزل -
 اليواقف دولتان مستقلتان - سلطان اليواقف السفلى يعني من الانكليز زيادة في
 المشاورة ولتبا وتيشاناً - سلطان اليواقف العليا لا يعني من الانكليز غير البعد
 والمجران - العلوي - القطبي - العواشب - الطارب - اقدم السلطات واصغرها
 - الضالمة - سياسة الامار يعني - الشيعة الاخرم يعني - الزيرد يطلقون للدافع
 ترحيباً به - الامار يقتدي بالانكليز - الولا - ثمر العطاء - ثمر الاستيلاء .

ان السياسة الانكليزية جسم حي يتعمده الساسة الانكليز بالتربية
 ويساعد في نموه الزمان . وانك لتتيقن ذلك في كل قضية مهمة ، خارجية
 كانت او داخلية ، اذا اطلمت على تاريخها . فقد اعربت في الفصل الاول من
 هذا القسم عن سياستهم في عدن وكيف نشأت وتطورت ، وازيد القارى .
 علماً في هذا الفصل الاخير بعض جزئياتها .

بدأ الانكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهوداً بسيطة تضمن
 لهم الهدنة في الاقل ريثما تجيئهم النجدات . وتدعى هذه العهود صداقة
 وولا . اول من عاهدتم من العرب عشيرة الغزبي التي هي اليوم من عشائر
 الحج . والمعاهدة هي آية في البساطة والايجاز . فبعد ذكر اسماء الفريقين تقول :

هذه معاهدة بين الانكليز والغزبي . نحن الان اصدقاء . وتتعهد
 بالسلم والولا . قلوبنا وبغياتنا واحدة . الامان الدائم على عدن وعلينا
 نتعهد به امام الله . واذا اخذ الانكليز احداً من عشائرتنا او اخذنا احداً
 من الانكليز فلا يؤذى المأسور او يهان .



في سنة ١٨٣٩ عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة : الولا. ثم العطاء. ثم الاستيلاء . فقد تدرجوا من المعاهدة ذات البند الواحد الى المعاهدات الطويلة ، وفيها كلها نجد اليوم البند الاول المهم الذي يقيد الامير او السلطان او الشيخ بالانكليز دون سواهم من الامم . اذ لا يحق له ان يفاوض او يرسل دولة اخرى ، او يماهدا ، او يقبل مساعدات مالية او غير مالية منها بدون معرفة بريطانيا العظمى واجازتها .

والبند الثاني اهم من الاول :

لا يحق لفلان « الامير المعاهد » ان يبيع او يؤجر او يهب او يرهن شيئاً من ارضه او ملكه لغير الحكومة البريطانية .

وفي بعض المعاهدات يُجمع البندان في بند واحد شامل وهو :

يتعهد فلان « الامير المعاهد » في مقابلة مساعدة مالية ان لا يتنازل عن شيء من ملكه لغير الانكليز ، وان يدعن لما توجهه السياسة الانكليزية ، وان لا يقبل مساعدات مالية او غير مالية من دولة اخرى .

وإذا اخل بأحد هذه البنود يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذلك الحين منحون به المتعاهدين . كانت هذه الرواتب تافهة في البداية تتراوح بين العشرة ريالات والمئة ريالاً في السنة الى كل امير ، ثم نشأت ترددات مع السياسة والمصلحة حتى اصبحت الان تتراوح بين الخمسين والاربعمئة روبية كل شهر . اما سلطان حلب ، وهو كما تقدم اكبر المتعاهدين ، فشاهرته تزيد على الثلاثة الاف روبية .

هذا دور الولا. والعطاء . ولكن الانكليز كانوا يتدخلون في بعض الاحايين في شؤون اصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين

من اصدقائهم ، فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار . فيستمررون
 مصلحين ويكتسبون ما لا بد منه من عدا . احد المتخاصمين . يقيمون الحدود
 بين الفريقين ، فينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجبي من لا يرضى بتدخلهم
 ظاناً نفسه مغبوناً ، فيرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذي رضي
 بالصلح ، صلح الانكليز ، ويدافع عنها ، فيعاديه ثانية ويقاقله ، ويستنصر
 عليه اصدقاءه الانكليز ، فيضطرون ان ينصروه بالسياسة والمال وبالرجال
 ايضاً ليغزوا في الاقل كلمتهم ويثبتوا نفوذهم . فينتج عن ذلك كله تلك الحماية
 التي لم تكن كما يقول بعضهم من مقاصدهم السياسية الاولى . ولكنك
 تذكر ايها القارئ . ما كتبه مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الى المعتد
 الانكليزي الاول في عدن^(١) . هوذا الجسم السياسي الحلي الذي يساعد في
 غره الزمان .

انتقلنا من دور الولا . الى دور الحماية فاصبح الانكليز حلفاء . صديقهم
 الامير العربي والمسؤولين عن استقلاله وسلامه ملكه . قد تطول مدة النشؤ
 كما في تاريخ اليرافع مثلاً الذين عاهدوا الانكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة
 وولا . ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي امسوا بوجها تحت حمايتهم الا بعد
 خمس وستين سنة . وكان النمو السياسي يوجب على الساسة اكثر ما يتعمدونه
 في البداية ويؤمن اليه . فالانكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لاصلاح
 ذات البين بين امير وامير ، بل تجاوزوه الى التحزب السياسي الذي اشترت
 اليه في فصل سابق . خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية
 التي يرفعها المعتد الى وزارة المستعمرات :

« ان لنا يداً على فلان في منصبه فقد نصرناه على من كان من

اسرته ينازعه الامارة » .

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٧٦

اما الذين عاهدوهم من العشائر وساعدوا في تقسييمهم امارات وسلطنات
وبسطوا الحماية الانكليزية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي
التسع المحمية اي الجهة الجنوبية من اليمن الاسفل . وهاك اسماها وبعض ما
علمته من الثقات عنها .

الصبيحة

النقطة المركزية عدن . فاذا نظرنا غرباً منها نرى قسماً من بلاد الصبيحة
التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المنذب . والصبيحة عشائر
متعددة منها العظيفي والبريني يحكمها الشيخ والعقال حكماً بدوياً . وهم
مشهورون بالقزوة والعدرة ، يُقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين ألفاً .
على ان لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم او بالحري شرهم . وليس
لمشايخهم وعقائهم مشاهرات معلومة . لكنهم يجيئون الى عدن كل ثلاثة
اشهر مرة او يرسلون اقاربهم ليقبضوا الاكراميات التي تتراوح بين الخمسين
والمئة روبية ، وبعضهم يتناولها بواسطة سلطان لحج .

آل فضل او الفضلي

واذا اتجهنا من عدن شرقاً وتمثلنا امامنا مئة ميل من الارض ممتدة على
الساحل من حدود العبادلة « لحج » الشرقية عند ام المُند الى حدود العوالق
الغربية في المقاطن - والبلدتان على البحر - تحيط بملك آل فضل ، الذين هم
اقوى العرب واشدهم حول عدن شرقاً بشمال منها . فان لسلطانهم عبدالقادر
بن حسين الفضلي عسكرياً من قبيلته الخاصة ، وعنده من العشرين الى الثلاثين

الفا يحملون السلاح^(١) اما عرب الفضلي فن البدو ، وهم ذوو بأس ومرؤة ، يسارعون الى النجدة ويرغبون دائماً في القتال . ويظهر ان السلطان عبدالقادر يرضى مثل زميله البديلي في توسيع ملكه ، فقد طلب من الانكليز سلاحاً ومدافع فلم يلبوا طلبه ، والعلائق بينه وبينهم متراخية في هذه الايام . بيد انه لا يزال يقبض المشاهرة وهي اربع عشرة روية ، ولا يزالون يرحبون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن .

العواتق

هم جيران آل فضل على الساحل ، وبلادهم اكبر النواحي التسع ، مساحتها مئة ميل ونيّف شرقاً ومثلها شمالاً . وهي تقسم الى قسمين العواتق العليا والعواتق السفلى . اما الاولى فيحكم اليوم قسماً منها السلطان صالح بن عبدالله العواتقي ومركزه في الانصاب . ويحكم قسماً آخر شيخ يبادل بل يفوق السلطان صالحاً قوة ونفوذاً ومركزه يشوم . وهناك بلد اسمها العرقة وميناء هو الحوزة يحكمها شيخان مستقلان الواحد عن الاخر ، ومستقلان ايضاً عن شيخ يشوم وسلطان الانصاب .

في العواتق العليا آثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها وفيها مشايخ وعلماء يؤثرون المال على الاستقلال ، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم . بيد ان ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولا عقدت سنة ١٩٠٣ .

اما العواتق السفلى فاهلها اصدقاء الانكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولا . على ان يمنع السلطان دخول الرقيق من افريقيا الى بلاده .

(١) يتبع هذا الفصل لائحة في المشاهرات كلها وما يستطيع ان يحسده كل سلطان من اللقائفة وقد يكون الفرق شامساً بين عدد من يستطيعون حمل السلاح وعدد المسلحين .

ولكنهم مع صداقتهم للانكليز واختلاطهم ، وهم على ساحل البحر ،
 بالاجانب ، فلا يزالون على شيء يروع من الوحشية . وفيهم قبائل لا يعرفون
 الديانة الاسلامية ولم يسموا بالنبي محمد . وهم يتزوجون بدون عقد نكاح
 مثل عرب الجاهلية ، وينكحون اخواتهم وزوجات ابائهم ، ولا يصومون
 ولا يصلون . سألت مرة في دار الاعتماد عما اذا كانت السياحة في بلادهم
 ممكنة فاجابوا : نعم ، اذا كانت لا تمسك حياتك .

ان اسلطان العواتق السفلى الحالي ابي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا
 تتجاوز المئة روية . اما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى
 فيقدر بثلاثين او اربعين الفاً . ولكن عدد من يستطيعون مجيئهم لا يتجاوز
 الثلاثة الاف .

الواحد

ثم جيران العواتق شرقاً بشمال ، عاصمة بلادهم حبان ومينائها المعروف
 بلحاف ، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات وليس له مدافع تكريم
 وترحيب . ذلك لان عربانه البدو بخلاف عربان العواتق وامراتهم ، ينفرون
 من الانكليز ومحاولون التغلث من ربة الحماية التي اوثقوا بها منذ سنين .
 والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الاسفل ان حبان ، وهي بلدة قديمة
 ذات ماضٍ موصوف بالعلم والادب ، ويشبوم ، وفيها اليوم عدد من العلماء ،
 لا تبعدان خمسين ميلاً عن العواتق السفلى التي لا يزال فيها من العرب من لا
 يعرفون القرآن والنبي . اما النواحي الاخرى فللاسلام ولسلالة النبي السادة
 والاشراف مكانة عالية فيها . وكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم
 الروحي فيأخذ منهم النذور ، ويحكم بينهم ، ويستغاث به وبكبار اجداده .

العوازل

إذا عدنا من بلاد الواحدي غرباً فاجتازنا بلاد العواتق عند الحُط الرابع عشر شمالاً من خط الاستواء. نصل إلى الدُّنينة بلاد العوازل البدو، وهي في ملتقى الأودية الثلاثة رُقوح وذُرَى ومروان، تربتها خصبة، ورجالها أشداء. كانت الدنينة في الماضي عاصمة التمرد و«ديرة» العصيان، فقد رفض العوازل الحماية الإنكليزية، وحاربوا الجنود الذين صدوا من عدن اليهم فهزموهم وردوهم خاسرين. ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الاجنبي لان جيранتهم العواتق اصدقاء الانكليز وانصارهم. قيل لي ان يوم خرجوا على السلطة البريطانية انتقم الانكليز من المقيمين منهم في عدن فاجاؤهم عنها بالسياط.

اليوافع

إذا واصلنا السير غرباً عند الحُط الرابع عشر من العرض وقطعنا وادي الرقوح نحو بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء، وهي بلاد خصبة فيها بضعة اثمار واهلها موالون للانكليز. ثم ندخل في بلاد اليوافع وفيها كما يقال سبعون الف مقاتل وعدة «شيخات» مستقلة خلا السلطتين العليا والسفلى. هي مثل العواتق تقسم الى قسمين. اما اليوافع السفلى فاكثر اهلها من البدو وهم منذ سنة ١٨٣٩ اصدقاء الانكليز مخلصون لهم. ويظهر ان اليوافع ثابتون في العدا. ثباتهم في الولاء. فقد كان بينهم وبين جيранتهم آل فضل عدا. منذ ١٨٧٣ استمر عشرين سنة ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم سنة ١٨٩٥ فازالت ذلك العدا. القديم او كادت. ولكن سلطان اليوافع السفلى محسن بن علي نام على الانكليز اليوم لانهم رفضوا ما طلبه من

الزيادة في المشاهدة. وهو يعني فوق ذلك لقباً يصحبه نيشان ومدافع ترحيب مثل الزملاء والخيوان .

اما سلطان اليوافع العليا فضل بن محمد ومركزه الحوطة فلا علاقة له بالانكليز ولا فضل لهم عليه ، ولا هو يعني منهم غير البعد والمهجرات . هؤلاء اليوافع مثل العبادة اكثر عرب النواحي التسع ثروة وقدناً ، فيهم من التجار من تتصل تجارتهم بالهند وباجزائر في البحر الهندي . وبينهم وبين العبادة نسب وقرابة . واهل اليوافع العليا يفاخرون اقربانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال فيقولون : لم يدخل ولن يدخل اجني الى بلادنا . اما حكومة عدن فكانت قد عينت في الماضي احد مشايخ عربان الشعب ليحافظ على عمود الحدود هناك براتب شهري قدره سبعة ريالات .

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم الى الموالين المحيين . فلم يكن بينها وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية ، ولكنها كانت تدفع المشاهرات الى شيخهم بواسطة جارهم الى القرب سلطان الحواشب . ثم عقدت معهم معاهدة شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم . اما الحماية او الولاء او الصداقة فلا تزال اسمية . وكذلك

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة . كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي ، ويتقاضون القوافل رسوماً ، ويقطعون عند الحاجة الطرق . ثم دخلوا في صف المتعاهدين اصحاب الاعاشات ولكنهم ابوا الحماية ، ودار الاعتماد لا

تركن اليهم . اما شيخهم الحلي الشيخ محمد صالح الاخوم شيخ بلاد القطيب والاجمود فقد قاوم الزيود عندما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع يبنون الاستيلاء عليها كلها . ثم صالحهم لان دار الاعتماد لم تقدمه بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها ، وصار من عمال الامام يحيى فخره الانكليز . وقد يجسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحييين . اما

الحواشب^(١)

جيران القطيبي ولحج والصبيحة فهم والعزبي اول من عقدوا مع الانكليز معاهدات . ويجاريون مع من « يلا كفيهم قروش »^(٢) عندهم من الخمسة الى العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم محسن بن علي بن مانع . هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا اباه في المسيير .

العقارب

قبل ان نتقدم شمالاً لنختم هذا الفصل يجب ان نعرف القارى . باقدم السلطنات المستقلة واصغرها ، اي سليطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة والبلد الواحد . العقارب فيخذ من المبادلة اعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر ، اي حين اعلنت الولايات المتحدة الاميركية استقلالها . وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة ، بل هي فريدة في بابها لا زادت عدأ ولا نقصت ، ولا كبرت ولا صغرت . اهلها قانعون بقسمه الجبار فيهم يجمون شتاتهم وكتلتهم في بيو احمد مدينتهم الوحيدة بل بلادهم

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحات ٩٧ الى ١٠٠

(٢) اشارة الى الكلمة المأثورة في تلك النواحي اوردها بلقهم : « لا نا قبيلة حد ولا حد دواتي سلطاني من ملا كفي قروش »

اجتماع ، فيقيمون فيها مطمئنين . وما اشبههم بين الانكليز والصليحية والعبادة بملكة لكسمبور قبل الحرب بين المانيا وفرنسا والبلجيك . ولكن الحرب قضت على لكسمبور ، ودمرت لحج ، فقربت من سليطنة بيرو احمد ولم تمسها بشي . من الضرر والويل .

الضالع

ينقلنا البحث في هذه الناحية من الجنوب الى الشمال ، ومن سياسة الانكليز الى سياسة الامام ، لانها تدخل في منطقة اليمن الاعلى ، وهي في الطريق الى صنعاء شمالاً بغرب من بلاد العلوي ، وفيها قبائل متعددة . كان يحكمها الامير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك لأن الزيد كانوا قد احتلوا الضالع واخرجوه منها . ولا عجب اذا استعاد الامام يحيى هذه المناطق التي كانت سابقاً من ملك اجداده . قد قيل ان اجداد مشايخ الضالع من المولدين ، كان اباؤهم من عبيد ائمة اليمن ، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي واقاموا منهم اميراً عليهم .

قد احتل الزيد بلاد القطيب والاجود ايضاً ، ووصلوا الى الجبال البيضاء ، فشرعوا ينشرون الدعوة الامامية وينصبون جبال السياسة والاستيلاء شرقاً وجنوباً حتى بلاد اليوافع وآل فضل . وقد كان الشيخ محمد الاخرم اول من وقع في جبالهم ، اول من اتبع المهدي .

دعاه الزيد الى الضالع باسم السلم والامام فلبى الدعوة بعد ان خذله الانكليز كما تقدم . ولما دخل البلد اطلق الزيد من اجله ، اقتداءً بحكومة عدن ، اربعة مدافع ترحيباً واکراماً ، فترنح الشيخ ورفع الادعية للحضرة الامامية بصنعاء ، فعيّنه الامام امير الجيش في القطيب والاجود ، واختصه براتب شهري ، وربع العشر من زكاة تلك المقاطعات ، وبالف قدح من

الذرة ، وباربعمة جندي من الزيود الاشوس ليكتسح النواحي العاصية
ويدخلها في طاعة الامام . ولم يكن الشيخ الاخرم ليقبض من الانكليز غير
مئة روية كل شهر . فهل يلام اذا ولي وجهه شطر صنعا . وعاد الى قديم
التبعة والولا . ؟

ان حضرة الامام ، اذا ثابر على هذه الحجة ، لمن الفاترين بما يبيغيه من
الانكليز . فهو يقتدي بهم فيحاربهم في اليمن الاسفل بتلك السياسة التي
هي عندهم رأس اسباب السيادة . الا وهي سياسة الولا . والعطاء . ثم
الاستيلاء . وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والاكرام ، فيرفع الى المناصب
العالية المشايخ والمقال ، ويدفع لهم المشاهرات ، ويخصهم فوق ذلك بجزء
من الزكاة . اي دهاة الانكليز ، ان عندنا المدافع ايضاً نطلقها مرحبين ،
باخواننا المسلمين ، ابناء اتباعنا الاقدمين .

الرواتب الشهريه وجيوش النواحي المحمية

الراتب الشهري . ما يستطيع ان يحسده

	من الجنود	روية
السلطان عبدالكريم فضل بن علي سلطان لمح	٢٠٠٠	٣٢٨٠
« عبدالقادر بن حسين الفضلي سلطان شقره	١٠٠٠	٣٦٠
« صالح بن عبدالله العولقي سلطان الموالي العليا	٣٠٠٠	٢٥٠
« الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ «		٣٥٠
« محسن بن رويس « « «		١٥٠
السلطان ابو بكر بن ناصر سلطان الموالي السفلى	١٠٠٠	١٦٠
السلطان محسن بن علي سلطان بني قاسد « صالح بن عمر « « ضبي الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي بلاد يافع « ابو بكر علي شيخ الموسطه « محمد علي محسن « « « عبد الرحمن المفلحي شيخ المفلحي	٣٠٠٠	٢٠٠
		٨٠
		٨٠
		١٠٠
		٥٠
« عبد الرحمن المفلحي شيخ المفلحي		٨٠
السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الخواشب	١٠٠٠	٤٠٠
الامير نصر بن شايف امير الضالع	١٠٠٠	٣٠٠
الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ قبيلة القطيب	٥٠٠	١٠٠
« عبدالنبي العلوي « « صهب	٥٠٠	١٠٠
	١٣٠٠٠	٦٠٤٠

ولاصحاب هذه المشاهرات اكراميات ايضاً ، يتناولها بعضهم كل ستة اشهر مرة وبعضهم كل سنة ، تتراوح بين الثلاثمئة والالف روية . وهناك آخرون من المشايخ والعلما . تخصهم عدن بمشاهرات واكراميات صغيرة . اما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكللا في حضرموت فيستطيع ان يحشد الفتي جندي ، ولكن مشاهرتة اسمية ، وهي ستون روية لا غير ، لان آل القعيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند .

(تم الجزء الاول)

فهرس الاعلام

ملاحظة

- تدل على وجوب تعداد الارقام ما بين الرقمين . مثلا ١ - ٥ يعني ١ ٢ ٣ ٤ ٥
او ان هذه الكلمة وردت في اكثر الصفحات الواردة بين هذين الرقمين

- حرف الالف -

ابن حميد الدين (القاسم بن يحيى) ١٤٨	آري ٣١٩
ابن حميد الدين (محمد سيف الاسلام بن يحيى) ١٤٨	اب مدينة ٨٥ ٩٥ ١٠٥ ١٠٧ - ١١١
ابن حميد الدين (المطهر بن يحيى) ١٤٨	١١٩ ١٥١ ١٨٨ ٢٣٥ ٢٣٧
ابن حميد الدين (الامام يحيى) راجع يحيى	ابراهيم باشا الشريف بن محمد ٦٢ ٢٩٤
ابن حميد الدين امام اليمن	٢٩٥ ٣٨٦ - ٣٨٨
ابن ذي جندن ٣٧٥	ابراهيم (حافظ) ٣١١
ابن زيدون ٢٣٦	ابراهيم الخليل ٢٧٥
ابن شايب (نصر) ٤٢٥ ٤٢٧	ابن ابي طالب (الحسن بن علي) ٦٢ ١٠٣
ابن صالح (الشيخ سالم) ٤٢٧	١٤٤ ١٤٤
ابن عباس قرية ١٦٩ ٣٥٠	ابن ابي طالب (الحسين بن علي) ١٠٣ ١٤١
ابن العربي ٢٧٤	١٤٤ ٢٩٤ ٤١٠
ابن علي بن حيدر (الشريف حسين) ٢٩٥	ابن ادريس (السيد احمد) ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٨
٢٩٦	- ٢٨٩ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٤ ٣٠٠ ٣٠١
ابن يحيى حران (موسى) ١٤٤	٣٠٣
اجا - حصن - مدينة ٢٩٨ ٣٣٧ ٣٤٢	ابن ادريس (فتادة) ٦٢
ابو بكر (الخليفة) ١٤٤	ابن ادريس (السيد محمد بن احمد) ٢٩٦
ابو جازود ١٤٤	٢٩٧ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٤٠
ابو جندب الهندي ٤٤	ابن جرير (سليمان) ١٤٤
ابو حلقه قرية ٣٤٩	ابن جعفر الصادق (اسماعيل) ٢٣٨
ابو حنيفة (الامام) ٢٧٦ ٢٧٧	ابن حميد الدين (السيد احمد بن عبد الله) ١٤٨
ابو سعد جزيرة ٤٠ - ٤٣ ٣١٠	ابن حميد الدين (الحسين بن يحيى) ١٤٨
	ابن حميد الدين (القاسم بن محمد) ١٤٤

- ٣٠٣ ٢٩٧ (احمد)
 الادريسي (السيد عبدالوهاب) ٣٠٣ ٣٠٢
 الادريسي (السيد علي بن محمد بن احمد)
 ٣٠٣ ٢٩٨ ٢٩٧
 الادريسي (علي بن محمد بن علي) ٣٠٢
 ٣٠٣
 الادريسي (محمد بن علي) حاكم عسير ١٨
 ١٤٥ ١٤٣ ١٤٠ ١٣٣ ٨٧ ٨١ ٧٥ -
 ١٤٨ ١٤٦ ١٦٧ ١٦٥ ١٦٣ ١٦١ -
 ١٩٦ ١٩٨ ٢٠١ ٢٠٥ - ٢١٣
 ٢١٨ - ٢٢٢ ٢٢٩ ٢٤٢ ٢٤٤ ٢٤٦
 ٢٥٠ ٢٥٤ ٢٥٧ ٢٦٢ ٢٦٤ ٢٦٧ ٢٨٥
 ٢٩٦ ٢٩٨ - ٣٠٣ ٣١٥ ٣١٨ ٣١٩
 ٣٢١ - ٣٢٣ ٣٢٥ ٣٢٩ ٣٣١ - ٣٣٨
 ٣٤٩ ٣٥٦ ٣٦٢ - ٣٦٧ ٣٩٢ ٣٩٤
 . ٣٩٥
 الادريسي (السيد محمد العربي) ٢٦٧ ٢٩٧
 الادريسي (السيد مصطفى) ٢٩٧ ٢٩٩ ٣٠٢
 . ٣٤٩ ٣١٥ ٣٠٣
 الادريسي ٢٧٥ ٢٨٥ ٣١٨ ٣٥٧ - ٣٥٩
 ارجو ٢٩٧ ٢٩٨
 الاردن ٢٢
 ارفنغ (واشطون) ١١ ١٥
 ازلندا ١٣٥
 ارميا ٣٧٥
 اذرشت ٢٦٩ ٢٧٠
 الازهر كلية ٢٩٨
 الاستانة ٣١ ٥٧ ٦١ - ٦٣ ١٧٠ ٢٨٦ ٢٨٨
 ٤٥٧
 استراليا ٣٧٨ ٣٧٩
 اسرئيلي راجع يهود ٤
- ابو عريش ١٤٠ ١٤٥ ٢٢٠ ٢٨٧ ٢٩٤ -
 ٢٩٦
 ابو الملا الميري ١١ ٨٤ ٨١ ١٣١ ٢٧١
 ٤١٠
 ابو منته بلد ٢٢٠
 ابو نقطة ٢٩٥
 ابو النواس ١٥٩
 ابو هادي (شيخ مشايخ الفقهاء) ١٩٦
 اين بلد ٣٧١
 الاجعود ١٩٧ ٢٠١ ٢٢٤ ٢٢٥
 اجياد قلعة ٧٠ ٧١
 احمد بن حسن (الامام المهدي) ١٤٤
 احمد بن حنبل (الامام) ١٥٩
 الاحمدية طريقة ٢١٠ ٢٧٥ ٢٧٨ ٢٨٣
 ٢٩٤ ٢٩٦ - ٢٩٨ ٢٨٧
 الاخرم (الشيخ محمد صالح) شيخ القطيب
 ٤٢٧ - ٤٢٤ ٤١٥
 الاخطل ٤٤
 الاخوان ٥٦ ٥٥
 الادارسة ٢٢٠ ٢٧٨ ٢٩٤ ٣٣٠ ٣٤٠ ٣٥١
 الادريسي (السيد حسن بن علي) ٣٠٢
 ٣٠٣
 الادريسي (السيد حسن بن محمد) ٣٠٢
 ٣٠٣
 الادريسي (السيد السنوسي) ٢٩٧ ٢١٩
 ٣٢٤ ٣٢٥
 الادريسي (السيد العابد السنوسي) ٣٠٢
 ٣١٥
 الادريسي (السيد عبدالرحيم) ٣٠٢ ٣٠٣
 الادريسي (السيد عبدالعزيز) ٣٠٢ ٣٠٣
 الادريسي (السيد عبدالمتعال بن محمد بن

١٣٤ ١٠٢ ٨٩ ٨٥ - ٨٣ ٤٦ ٣٣ ٣٠

٢٥٢ ٢٤٦ ١٧٥ ١٦٦ ١٤١ ١٣٦ -

- ٤٠٧ ٤٠٤ ٣٨١ ٣٢٢ - ٣٢٠ ٣١٥

٤١٥

الاندلس ١١ ١٤٨ ١٣٦

انس جبل ١١٩ ١٢١

الانصاب بلد ٣٧١ ٤٢٠

اقره ٣٨٦

انكلترا - الانكليز - انكليزي

٣٥ ٣٣ ٢٩ ٢٢ ٢١ ١٩ ١٥ ١١ ١٠

٧٠ ٦٩ - ٦٧ ٥٨ ٥٥ ٥٢ ٤٣ ٤٠ ٣٦

٩٢ - ٨٦ ٨٤ - ٨١ ٧٥ ٧٣ -

١٠٤ ١٠٣ ١٠١ ٩٨ - ٩٦ ٩٤

١٤٠ ١٣٥ ١٢٣ ١١٦ ١١٣ ١١٢ ١٠٦

- ١٦٣ ١٥٢ ١٥١ ١٤٨ ١٤٧ ١٤٣

٢٥٣ ٢٤٥ ٢٢١ ٢٠٨ - ١٩١ ١٦٨

- ٢٩٤ ٢٦٩ ٢٦٧ ٢٦٤ - ٢٥٧ ٢٥٤

٣٠٨ ٣٠٧ ٣٠٤ ٣٠٢ ٣٠٠ ٢٩٩ ٢٩٦

- ٣٢٢ ٣٢٠ - ٣٢٨ ٣١٤ - ٣١٥

٣٥٧ ٣٥٦ ٣٥١ ٣٤٩ ٣٤٥ ٣٤٣ ٣٣٦

٣٧٧ ٣٧٦ ٣٧٤ - ٣٧٢ ٣٦٧ ٣٦٦

- ٣٩٧ ٣٩٤ - ٣٨٤ ٣٨٢ - ٣٨٥

٤٢٦ - ٤١٧ ٤١٥ ٤١٢ ٤٠٥ ٤٠٣

انور باشا ٦٧

الاهدل (السيد عبدالرحمن بن سليمان) ٢٨٩

٢٨٧

الاهدل (السيد عبدالقادر) ٢٨٦

اهل البان قبيلة ٤١٢

اوروبا - اوروبي - اوروبيون ١٤ ٢١ ٢٢

١٣٠ ١٢٤ ٦٥ ٦١ ٥٩ ٥٦ ٥٤ ٤٩ ٣٠

٢٥٣ ١٩١ ١٨٤ ١٦٧ ١٦٤ ١٦١ ١٣٥

اسكتلندي ١٣ ٤٠٥

اسكندرونه ٧٣

الاسلام والمسلمين ٢٩ ٢٢ ٢٣ ٥٦ ٥٦ ٥٧

١٣٨ ١٣٤ - ١٣٠ ١٠٤ ٦٦ - ٦٤ ٦١

١٦١ ١٥٩ ١٥٨ ١٥٤ ١٥٠ ١٤٤ ١٤٣

٢١٠ ٢٠٣ ١٩٢ ١٩٠ ١٨٦ ١٨٤ ١٨٣

٢٧١ - ٢٦٨ ٢٥٣ ٢٤٧ ٢٣٩ ٢٢٢

٣٧٧ ٣٧١ ٣٤٤ ٣٣٠ - ٣٢٨ ٢٧٨

٤٢٦ ٤٢١ ٤٠١ ٣٩٧ ٣٩٣

اسماعيل - اسماعيليون ٣٧٧ ٣٧١ ٣٦٧

الاسماعيلية ٨٠ ٢٢٠ ٢٢٥ ٢٢٨ ٢٢٩

اسيا ٣٧٩

افاخان (امام الترابية) ٢٣٨

افرنج ١٠٤ ١١٥ ١٣٤ ٢٠٤ ٢٧٨ ٢٩٨

٤٠٧ - ٤٠٥ ٢٩٩

افريقيا - الافريقي ٢٨٥ ٢٨٠ ٢٣٠ ٢٥٨ ٢٧٨

٣٧٩ ٤٢٠

افغانستان ٢٠٤ ٢٠٣

الاصكوع (الشيخ علي) ٢٢٢ ٢٢٦ ٢٣٧

٢٤٣

اكراد - كردي ١٣٤

المان - الماني - المانيا ٦٨ ١٤٧ ١٥١ ١٥٥

١٦١ ٢٩٩ ٤٢٥

المع قبيلة ٢٢٠

آلبي (الجزال) ٢٥٩

امرسون (رلف ولدو) ١٠

امرق القيس الكندي ١٢ ٤٤

ام السد قرية ٣٨٣ ٤٠٥ ٤١٩

الامويون (بنو امية) ١٤٠ ١٤٨

اميركا - او الجمهورية الاميركية - اميركي

- اميركيون ١٠ ١٠ ١٦ ٢١ ٢٣ ٢٩

٣١٢ ٢٧٨ ٢٧٠	٢٧٦ ٢٧٤ ٢٧٢ ٢٢٥ ٢٢١ ٢٢٠ ٢٥٤
إيطاليا - ايطالي - ايطاليون ١٤٦ ٧١	٤٠٨ ٢٩٦ ٢٨٦ ٢٨٢ ٢٨١ ٢٧٩ -
٢٢٢ ٢٢٠ ٢٠٥ ٢٩٩ ٢٩٨ ٢٥٩ ٢٠٥	٤١٤
٣٩٥ ٣٨١ ٣٤٨	الاقويانوس الهندي ٢١
أيوب الصديق ٢٩٢	اويس القرني ٢٩٣
	إيران - ابراني - ايرانيون ٢٦٨ ٢٦٧

- حرف الباء -

بدر مدينة ٢٣٩	باب المنذب ٤١٩ ٣٩٩ ٣٧١
البدوي ١٨ ٢٩ ٤٦ ٤٩ ٥٣ ٥٥ ٥٨ ٥٩ ١٦٢	باجل ١٩١ ١٩٥ - ١٩٧ ٢٢٠ ٢٢٢ ٢٢٤
٢٩٤ ٣٠٠ ٣١٠ ٤١٩ ٤٢٢ -	٢٦٤ ٢٥٥ - ٢٥٢ ٢٤٧ ٢٤٦ ٢٣٦
بدر الرويس ٥٨ ٥٣	٣٠١ ٢٨٧
براع جبل ٢٢٠	بارت (الميجر) ٢٠٧
البرنقال - برنقالي - برنقاليون ٣٠٨	باديس ٥٩ ٦٥ ٢٢٧ ٢٤٦ ٣٥٥
برتن (رتسرد) ١٢	باسلامه (اسبايل) ١٠٥ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠
بركهارت (جان) ١٢	بالمستون (اللورد) ٣٨٨
بروتستاني - بروتستانيون ١٧٢ ٢٢٠	بان قبيلة ٤١٢
بريد ١٣	بها دور (محمد شريف خان) ٢٦٩ -
بريطانيا العظمى - الحكومة الانكليزية -	٣٠٨ ٢٧١
بريطاني - بريطانيون ٢٦ ٢٧ ٤٢ ٦٧	البحاح قرية ٢٥٠
- ٦٩ ٧١ ٧٢ ٧٥ ٧٦ ٨٤ ٨٧ ٨٩ ٩٣	البحر الابيض ٦٨
١٦٨ ١٩٢ ١٩٤ ١٩٦ ١٩٧ ٢٠٠ -	البحر الالنتيكي ٣٠٩
٢٠٢ ٢٢٢ ٢٥٧ ٢٦٧ ٣١٠ ٣٣٤ ٣٣١	البحر الاحمر ٢٨ ٢٣ ٧٠ ٨٠ ٢٠٥ ٢٠٦
٣٣٥ ٣٥٩ ٣٦٢ ٣٦٤ ٣٧٢ - ٣٧٤	٢٢٠ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥
٣٧٦ ٣٨٢ ٣٨٦ - ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٨	٣٥٤ ٣٧١ ٣٨٧
٤٠٠ - ٤٠٢ ٤١٧ ٤٢٠ ٤٢٢	البحر السافي ٨٠
البريني عشيرة ٤١٩	البحر العربي ٢١ ٣١٠ ٣٧١ ٣٧٦ ٣٨٧
البيستاني (سليمان) ٥٧ ٣١١	٣٩٣
البنسفور ٦١ ٦٦	بحر القزم ٦٨
البنسرة ١١ ٦٩ ١٤٦	البحرين ٢١ ٢٢ ٣٧٥

بنو مرّة ٢٣٩	بمدان جبل ١٠٥ ١٠٧ ١٢١
بنو مروان ٢٢٠	بنداد ١٦ ٣٧٥
بنو مطر جبل ٨٠	البقوم قبيلة ٥٨ ٥٣
بنو مطر قبيلة ١٢٠	بكيل قبيلة ٨٠ ١٢٣ ١٢٦ ١٢٧ ١٥٩
بنو ناصر ٢٨٣	١٩٤ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٩٨
بنو نفي ٣١	البلجيك ٤٠١ ٤٢٥
بنو هلال ٢٢٠	بلحاف ميناء ٣٧١ ٤٢١
البنيا او البنيان ٣٧٧ ٢٧٠	براك ٦٠
البحرة (فرقة من الاساعيلية) ٢٣٩	بلشني - بلشفيون ٢٥٨
بوذا - بوذي - بوذيون ٢٦٧ ٢٧٠ ٢٧١	بلغراف (وليم) ١٢
بورت سودان ٨٨٧٠	بباي ٥١
بوعان جبل ١١٩ ٢٢١ ٢٢٥ ٢٢٩ -	البنجاب مقاطعة ٢٦٧
٢٣٧ ٢٣٤	بنو اسلام ٨٠
بيت الفقيه مدينة ٨٠ ٢٣٩ ٢٥٧ ٢٦٥	بنو بشر ٨٠
٢٨٦	بنو حسن ٦٢
بير احمد مدينة ٤٢٤ ٤٢٥	بنو ثقيف ٢٨
بير العزب ١١٩ ١٢٢ ١٢٧ ١٥٢ ١٨٥	بنو سعد ٣٨ ٣٩ ٢٢٠
بيرنق مضيق ٣٢٢ ٣٢١	بنو سفيان ٢٨
بيروت ١٤ ٥٦ ٩١	بنو عيس ٢٢٠
بيكو (جورج) ٧٢	بنو غسان ٣٢٠
بيلاطس ٨٥	بنو لومي ٥٨

- حرف التاء -

١٥ ٢٦ ٤٢ ٦١ ٦٤ ٦٥ ٦٧ ٧٠ ٧٢	تاجورا وسلطانها ٣٥٤ - ٣٥٨ ٣٥٦
٨١ ٩٥ ١١٠ ١١١ ١١٣ ١١٧ ١٢٦	التازي (الشيخ عبدالوهاب) ٢٧٨ - ٢٨٥
١٣١ ١٣١ - ١٣٦ ١٤٠ ١٤٣ ١٤٥ -	٢٩٠
١٤٨ ١٥٣ ١٥٣ ١٦٠ ١٨٢ ١٨٦ ١٨٨	تسيح (بن ابي بكر) ١٥٩
١٩٠ - ١٩٤ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠١ ٢٠٦	تبوك ٢٢
٢٠٨ ٢٢٦ ٢٢٨ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٦ ٢٣٩	تربة قرية ٥٨ ٥٥ ٣٥٢ ٤٠٠
٢٤٤ ٢٤٦ ٢٤٨ ٢٥١ ٢٥٧ ٢٥٩ ٢٦١	الترك - تركي - اترك او الدولة التركية

٢٦٣ ٢٥٦ - ٢٥٤ ٢٥٢ ٢٥٠ - ٢٤٦
 ٢٨٦ ٢٨٣ ٢٧٨ ٢٧٤ ٢٦٨ ٢٦٦ ٢٦٥
 ٢١٦ ٢٠٤ ٢٩٩ ٢٩٦ - ٢٩٤ ٢٨٨ -
 ٢٤٧ ٢٤٥ ٢٢٠ ٢٢٧ ٢٢٦ ٢٢٤ ٢١٧
 ٢٨٨ ٢٨٧ ٢٦٢ ٢٦٠ ٢٥٦ ٢٥١

التوامي ٢٨٣ ٢٨٩
 توفيق باشا ٢٩٦ ١٤٥

- ٢٩٨ ٢٩٦ - ٢٩٤ ٢٨٧ ٢٦٣ -
 ٢٤٠ ٢٢٢ ٢٢٠ ٢٢٧ ٢٢٥ ٢١٨ ٢٠٠
 ٢٩٩ ٢٩٥ ٢٩٤ ٢٩٢ ٢٤٩ ٢٤٨ ٢٤٤
 ٤٠٣ -

نعم بلد ٢٨٦ ٢٠٨ ١١٠ ١٠٧ ١٠٢ ٨٠
 التمنية قرية ٢٤٩
 جامعة ٨٧ ١١١ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٧ ١٩١ ١٩٤
 ٢٤٤ ٢٤٢ ٢٤١ ٢٢٨ ٢١٣ ٢١٠ ٢٠٦

- حرف الجيم -

٣٧١
 الجفري (السيد علوي) ٤٠٤ - ٤٠٦
 جلاجل بلد ٤٠٤
 جمال باشا ٦٨ ٦٧
 جنيق ٣٣٥
 جورج الخامس (ملك الانكليز) ١٩٥
 ٣٧٤
 جورج (لويدي) ٣٧٣ ٣٧٢ ١٣٦
 جهينة قبيلة ٢٨
 الجوف ٣٧٢
 الجون (موسى) ٦٢
 جيبوتي مدينة ٣٨٢ ٣٨١ ٣٥٥ ٣٥٤ ٣٤٧
 جيزان ٢٠٦ ٢٠٠ ١٩٤ ١٦٨ ١٣٤ ٢١
 ٢٧٨ ٢٦٥ ٢٦٤ ٢٦٢ ٢٦١ ٢٢٠ ٢٠٧
 ٣٢٢ ٣١٧ - ٣١٥ ٣١٢ ٣٠٤ ٣٠٢
 ٣٦٢ ٣٥١ ٣٤٥ ٣٤٤ ٣٢١ ٣٢٥ ٣٢٣
 ٣٩٥ ٣٦٦ ٣٦٤ -

جاكوب مارلد (الكرنال) ١٩١ ١٤٧
 ١٩٣ - ١٩٧ ٢٠١ ٣٧٤ ٣٨١ ٣٩٩
 ٤٠٢
 الجامعة الاميركية ١٢٩
 جاوه ٣٥٣ ٣١٠
 الجاوي ٢٦٨ ٢٦٧
 جده ١٧ ٢٨ - ٣٢ ٣٤ ٣٧ ٤١ ٤٤
 ٥٠ - ٥٩ ٦٢ ٦٣ ٦٦ ٦٧ ٧٠ ٧٦ ٧١ ٧٦
 ٨٣ ١٢٤ ١٣١ ١٣٢ ١٣٤ ١٥٠ ١٥٦
 ٢٥٦ ٢٤٦ ٣٣٤ ٣٠٥ ٣٠٤ ٢٤١ ٢٠٠
 ٣٧٢
 جرجي النساوي ٣٠٠ ١٥٢ ٣٤ ١٣٠
 الجرجيري (البطريرك) ١٢
 الجزائر ٤٢٣ ٣٨٢
 الجزويت ٣٠٨
 جزيرة العرب ١٧ ١٥ ٣٩٥
 جعفر - جعفر يون ٣٤١ ٢٦٧ ٢٢٠ ٢٨

- حرف الحاء -

٢٧١ ٢٧٥ ٢٧٨ ٢٨٧ ٢٩٦ ٣٠٠ -	حاتم بجر (الولي) ٣٩١
٣٠٢ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣١٠ ٣١٢ ٣٢٨ ٣٣٠	حاتد قبيلة ٨٠ ١٢٣ ١٤٣ ١٤٦ ١٤٧
٣٤٣ ٣٤٥ ٣٤٨ ٣٥٠ ٣٥٢ ٣٥٤ ٣٥٧	١٥٩ ١٩٤ ١٩٩ - ٢٠١ ٢٩٨ ٣٤٥
٣٦٠ ٣٦٢ ٣٦٤ ٣٧٢ -	حافظ ابراهيم راجع ابراهيم (حافظ)
٣٧٢ ٣٧٤ ٣٧٦ ٣٨٠ ٣٨٢ ٣٨٤ ٣٨٦ ٣٨٨	حب جبل ١٠٧
٣٨٧ ٣٨٩ -	حبان مدينة ٣٧١ ٤٢١
٣٩٠ ٣٩٢ ٣٩٤ ٣٩٦ ٣٩٨ ٣٩٩ ٣٩٩	الحبشة - الحبشيات ٣٤٧ ٣٥٤ ٣٥٥
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	حبيل قرية ٣٤٨
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	الحجاز - حجازي - حجازيون ١٦ ١٧
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	١٩ ٢٠ ٢٨ ٢٩ ٣١ ٣٣ ٣٦ ٤٠ ٤٢
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٤٦ ٤٧ ٤٩ ٥٦ ٦١ ٦٢ ٦٤ ٦٥ ٦٧
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٦٨ ٧٠ ٧١ ٧٤ ٨١ ٨٣ ٨٦ ٩١ ٩٢
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	١٣٣ ١٤٤ ١٤٨ ١٥٠ ١٦٤ ١٦٦ -
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	١٦٩ ١٧١ ١٩٠ ١٩٢ ٢٠٩ ٢١٣
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٢٤٦ ٢٤٩ ٢٦٦ ٢٦٦ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٧
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٣٠٢ ٣١١ ٣١٤ ٣٣٧ ٣٤٦ ٣٤٩ ٣٥٤
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٣٥٦ ٣٦٠ ٣٦٢ ٣٦٤ ٣٦٧ ٣٩٥
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٤٠٥
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	حجّام وادي ٢٣٧
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	الحجيلة قرية ٢٢٢ ٢٢٢ ٢٢٢ ٢٢٢ ٢٣٥ ٢٤٢
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٢٤٤ ٢٥٠
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	حجر الحجور بلد ٤١٢ ٤١٢
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	حدا وادي ٤٤
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	حداد باشا ٤٢
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	الحديدة ٢١ ٨٠ ٨٧ ١٢٣ ١٤٥ ١٥٥ ١٦٥
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	١٦٦ ١٦٨ ١٩١ - ٢٠٥ ٢٠٩
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٢١٣ ٢٢٠ ٢٢٤ ٢٢٦ ٢٢٩ ٢٣٥
٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩ ٣٩٩	٢٣٩ ٢٤٦ ٢٤٩ ٢٥٧ - ٢٦٧

حنفي - حنفيون ٢٨ ٢٦٧ ٢٧١	٢٠٥ ٢٤٦ ٢٠٤ ٢١١ ٢١٢ ٢٤٠ ٢٤٢
حواء ٦٣	٢٤٧ ٢٥١ - ٢٥٢
الحوشب أو السلطنة الحوشبية ٩٢ ٩٤ -	حفاش جبل ٢٢٧
٩٩ ١٠١ ٢٧١ ٢٨٢ ٢٩٤ ٢٩٧ ٤٠١	حلب ٦٨ ٧٢ ٧٣
٤١٥ ٤١٧ ٤٢٣ ٤٢٤	حما ٧٢ ٧٣
الحوارثة قبيلة ٨٠	حندان قبيلة ٨٠ ٢٢١ ٢٩٢
الحورة مينا ٤٢٠	الحمر ١٥
الحوطة عاصمة الحج ١٢١ ١٢١ - ٢٩٦	حزبه (الشيخ) ٢٣٥ ٢٤٢ - ٢٤٨ ٢٤٤
٤٠٤ ٤٠٥ ٤٢٣	٢٥٠
الحويطات قبيلة ٢٨	حمص ٧٢ ٧٣
الحبيسة ١٢١ ٢٣٨	الحسوي (ياقوت) ٤٤
	حمير - حميرية ١٨٠ ١٨٦ ٢٢٦ ٤٢٠

- حرف الحاء -

الحدق قرية ٩٦	الحداد قرية ٤٠٤
الحدير قرية ١٤٦	الحرمة قرية ٥٨
الحدوبة قرية ٢٥٠	الحضر أبو عباس ٢٧٨ ٢٨١ ٢٨٣ ٢٨٥
الحدوخة قرية ٢٠٥	٢٩١
حولان بلاد ٨٠	الخطيب (فواد) ٢٩ ٤٤ ١٠٤ ٢٦٥
القيام (عمر) ٨٤	خلنج فارس ٦٨
	الخليل ابراهيم (راجع ابراهيم الخليل)

- حرف الدال -

دُين وادي ٩٤ - ٩٧ ٤٠٣ ٤٠٨ ٤٠٩	دار الامير قرية ٢٨٣ ٢٩١ ٤٠٤
الدثينة ناحية ٤٢٢	داود (النبي) ٢٢٣
دجلة نهر ٦٨	الداودية (فرقة من الاسعيلية) ٢٢٥
دروين ١٠٣	٢٣٨ ٢٣٩
الدكيم قرية ٩٤ ٢٩٩ ٤٠١	الدباغ (الشيخ عبدالعزير بن مسعود) ٢٧٨
دمشق ١٤ ٦٤ ٧٣	٢٨٠ - ٢٨٣ ٢٨٥ ٢٩٠

دققة - دقلي - دقليون ٣٠٢ ٣٤٢ ٣٤٦ | الدعنا ٣٧٢
دوطي (شارلس) ١٣

- حرف الذال -

الذبياتي ٤٤
ذرى وادي ٤٢٢
ذفار قبالة جبل ١١٩ ١٣٠ ١٥١
ذمار مدينة ٨٠ ١٠٥ ١١٠ - ١١٢ ١١٥
الذمب وادي ١٠٥ ١٠٧ ١١٠
ذو حسين قبيلة ٨٠ ٢٦٣
ذو محمد قبيلة ٨٠
ذو حسن قبيلة ٢٨ ٥٣ ٥٨

١١٩ ١٣٦ ١٨٥ ١٨٨ ٢٢٧

- حرف الراء -

رانب باشا ٦٤
رأس مهران ٤١٩
الرائمي (عبدالغني) ٤١٤
الربع الحالي ٤٠٤
ريعة فرع من بني عدنان ٢٠
الرمسي (السيد يحيى بن الحسين القاسم)
١٤٧ ١٤٤
الرشيد (الشيخ ابراهيم) ٢٧٨ ٢٨٧
الرشيدية طريقة ٢٧٨ ٢٨٧
رضا (الشيخ علي) ٤١٤
رضراض جبل ١٢١
رضوان (محمد طاهر) ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٤٦
٢٥٤ ٢٥٤
رقوع وادي ٤٢٢
روبرنس (ادمون) ٢١
رودس جزيرة ١٧٠
روزفلت (ثيودور) ١٥
الروس - روسيا ٢٥٨ ٢٢١ ٢٢٢
روما - روماني - رومانيون ٥٣ ٥٧ ٨٩
١٤٢
الرومي (جلال الدين) ٤٦ ٥٢ ٢٧٤
روثوف باشا ٣٩٥
الرويس ٣٤٩
رويس (الشيخ محسن بن) ٤٢٧
الرياض ١٢ ١٦ ١٧ ٢٢
الريحاني (امين) ٤٧ ٨٧ ٩١ ٩٣ ١٠٣
١٣٤ ١٣٨ ١٧١ ١٧٢ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٩
١٩٠ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢١
ريبي (المايجر) ٨٤ ٨٧ ٩١
ريجه جبل ٢٢٠ ٢٣٨

- حرف الزاي -

١١٥ ١٢١ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٧ ١٣٠ ١٣٧	١٢٤ ١٢٢ ١١٩ (السيد محمد علي)
١٣٩ - ١٤١ ١٤٦ - ١٤٨ ١٥٠ ١٥١	٢٢٤ ١٨٨ ١٧٧ ١٣٧
١٥٥ ١٥٨ ١٦٣ ١٦٤ ١٧٣ ١٧٤ ١٨٢	زيد مدينة ٨٠ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٨٦
١٨٣ ١٨٥ ١٨٧ ١٩١ ١٩٢ ١٩٦ ١٩٨	اثرانيق قبيلة ٢٥٢ ٢٥٧ ٢٦٠ ٢٦٣
٢٠٣ ٢٠٦ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٤٢	٣٠٠ ٢٦٥
٢٤٦ ٢٥١ ٢٥٥ ٢٦٠ ٢٦٣ ٢٦٦ ٢٦٧	زفلول (سعد باشا) ١٣٦
٢٩٤ - ٢٩٦ ٢٩٩ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠٢ ٣٣٠	زعمز بن ٤٠
٣٤٥ ٣٥١ ٣٥١ ٣٧١ ٣٧٦ ٣٨٤ ٣٩٢ ٤١٠	زيد بن علي (امام الزيدية الاول) ١٠٠
٤١٥ ٤٢٤ ٤٢٦	٢٣٨ ١٥٩ ١٤٣ ١٤٠
الزيدية ٨٠ ١٤٢ ١٤٤ ١٧٤ ١٨٤ ٣٥١	زيد بن حسين بن علي (الامير) ٥٣ ٣٠
٣٥١ ٣٩٥	٣٦٥ ٧١ ٧٠ ٦٧ ٦٢ ٦٥ ٥٨
الزيبية قرية ٢٩٧	زيد زيود ٢٨ ٩٤ ٩٨ ١٠٠ ١٠٣ ١٠٥

- حرف السين -

السقاف (الشيخ محمد علوي) ١٧١	سان فرنسيسكو ٣٢١
السكسون ٣١١ ٣٨٠	سايا ٢٢٦
سكوت (الجنرال) ٨٤ ٢٠٧	السيامي (محمد) ١١
سلام قبيلة ٤١٢	ستورس ٦٨
سليمان القانوني (سلطان تركيا) ١٤٥	سردود وادي ٢٥٤
السليمانية (فرقة من الاسمايلية) ١٤٤ ٢٢٩	سركيس (سليم) ١٥ ٤٧
سياه جبل ١٠٥ ١١٠ ١١٩	سريح جبل ٢٣٠
سمرقند ١٢	سريح عشيرة ١٢٣
سنجان جبل ١٢١	سعود بن سويد (سلطان مسقط) ٢١
النوسى (الشيخ محمد) ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٩٧	سعود الكبير (الامير) ٢٩٥
٢٩٨	سعيد (علي باشا الشركسي) ٩٥ ١٩٢
النوسية طريقة ٢٨٥	٤٠٣ ٤٠١ ٣٩٩
السنة - سني - سنيون ٢٨ ٨٠ ١٠٦ ١٠٩	السقاف (السيد احمد) ٥٩

٤١١	٣٧١ ٢٨٢ ٢٢٠ ١٩٥ ١٥١
سوق الحميس قرية ٢٣١	سهام وادي ٢٥٤
السويس ٦٨ ٣٧٦ ٣٩٩	السواكين (محمد المجذوبي) ٢٨٥
سويره ٢٣٠ ٢٣١ ٢٤٦	السودان - سوداني - سودانيون ٨٢ ٢٤٢
سيويه ١١	٢٥٠ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٧٥ ٢٨٥ ٢٨٨ ٢٩٤
سيبيا ٣٢١	٢٩٨ ٢٩٧ ٣٠٢ ٣٤٧ ٣٤٩
السيد بلاد ٢٢٠ ٢٤١ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٨	السود ١٤٨
٣٤٠	سوريا - سوري - سوريون ١٠ ٢٣ ٢٤ ٢٩
سيف (طاهر بن محمد) ٢٣٩	٢٣ ٥٢ ٥٦ ٥٩ - ٦١ ٦٤ ٦٥ ٦٧ ٦٨
سيكس بيكو معامدة ٧٢ ٧٥	٧٢ - ٧٤ ٧٦ ٨٢ ٨٨ ١٢١ ١٣٣ ١٣٤
سيكس (الكرزل) ٧٣	١٦٤ ٢٦١ ٢٦٧ ٣١١ ٣٨٦ ٣٨٧ ٤٠١

- حرف الشين -

شعوان جبل ١٢١	الشاذلية ، طريقه - الشاذليون ٢٨٣ ٢٨٥
الشعب ناحية ١٩٧ ٢٠١ ٢٢١ ٢٢٣	الشافعي - الشوافع ٢٨ ٨٠ ٩٨ ١٠٦ ١٠٩
الشقره ٣٧١	١١٣ ١٢٣ ١٢٤ ١٤٠ ١٤٣ ١٤٨ ١٤٩
شغير (نوم) ٨٢	١٥١ ١٨٣ ١٩٢ ١٩٥ ٢٠٣ ٢٠٦ ٢٢٠
شمر قبيلة ١٢	٢٤٦ ٢٥٤ ٢٦٠ ٢٦٦ ٢٦٧ ٣٠٠ ٣٧١
شنقيط - شنقيطي ٢٧٩ ٢٢٦ ٣٢٠ ٣٤٢	٣٨٤ ٣٩٢
شهادة جبل ١١٩ ١٢٦ ١٢٧ ١٤٠ ١٤٦	الشام ١٤ ٥٩ ٦٠ ٦٧ ٧٢ ٩٥ ١٢٢ ١٢٤
١٥٢ ١٩٢ ٢٣٥ ٢٢٧	١٣٣ ١٩٢ ١٩٤ ٢٦٣ ٢٦٥ ٢٢٠
شوقي (احمد) ٣١١	شباب جبل ١١٩ ١٢١ ٢٢٨ ٢٣٠
الشيخ سعيد جزيرة ٨٥ ٣٩٩ ٤٠٠	٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٩ ٢٤٩
الشيخ صلاح قرية ١٠٦	شرارة ميدان ١٨٥
الشيخ عثمان قرية ٣٨٠ ٣٨٦ ٣٩٠ ٣٩١	شرف الدين بن شمس الدين (الامام)
٤٠٤ - ٤٠٢ ٤٠٠ ٣٩٩	١٤٤ ١٤٧
الشيرازي (الملاح حسين) ٥٢	شرفي ٣٢٨ ٣٢٩
الشيعة - شيعة - شيعيون ٢٨ ٢٨ ٦٣ ٩٨ ٢٢٠	شرق الاردن ٢٨ ٣٧٢
٢٨٢ ٣٧١	شركة الهند الشرقية ٣٨٣ ٣٨٧ ٣٨٩

- حرف الصاد -

١١٩ - ١٢٤ ١٢٢ - ١٣٠ ١٣٣	صاحب الزمآن (الامام الثاني عشر) ١٣٤
١٣٩ ١٤٠ ١٤٥ - ١٤٧ ١٥٢ ١٥٥	١٤٠
١٥٦ ١٥٩ ١٦٢ - ١٦٤ ١٦٦ ١٧٠	صالح (الامير) ٤٠٩
١٧٢ ١٧٣ ١٧٥ ١٧٧ ١٧٨ ١٨٢	صالح بن عبدالله المولقي (سلطان الموالقي)
١٨٤ - ١٨٦ ١٩١ ١٩٢ ١٩٤ - ١٩٨	٤٢٧ ٤٣٠
٢٠٣ - ٢٠٨ ٢١٠ ٢١٤ - ٢١٦ ٢٢١	صبر قرية ٤٠٤
٢٢٢ ٢٢٣ - ٢٢٥ ٢٢٧ - ٢٢٩	صيا مدينة ٢٨٧ ٢٧٨ ٢٦٥ ٢٦٤ ٢٢٠
٢٢٣ ٢٢٦ ٢٢٧ - ٢٥٤ ٢٥٦ ٢٦١	٢٩٤ ٢٩٦ ٢٩٨ ٣٠٠ ٣٠٢ ٣٤٠ ٣٤٢
٢٦٥ ٢٦٦ - ٢٩٤ ٢٩٨ ٣٢٨ ٣٣١ ٣٤٦	٣٦٦ ٣٧٢ ٣٩٥
٣٥١ ٣٧٢ ٣٧٥ ٣٧٩ ٣٩٢ ٤٢٦ ٤٢٥	الصبيحنة ٣٩٩ ٣٩٧ ٣٨٣ ٣٧١ ٩٧ ٩٥
صوفي - الصوفية - الصوفيون ٢٧٣ ٢٧١	٤٣٥ - ٤٢٣ ٤١٩ ٤١٥ ٤٠١
٢٧٤ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٢ ٢٨٤ ٢٨٧ ٢٩٠	صده لواء ٢٩٩ ١٤٥ ١٤٤ ٨٠
٢٩٣ ٢٩٤ ٣٠١ ٣٠٦	صقان جبل ٢٤١ ٢٣٩ ٢٣٥ ٢٢٠
صومالي - صوماليات ٣٩١ ٣٤٩ ٢٦٨ ٢٦٧	الصليف مدينة ٣٠١ ٢٠٢ ٢٠١ ١٦٨
الصين - صيني - صينيون ٢٧٣ ٢٦٦	٣٥١ ٣٤٠
صيون مدينة ٣٥٣ ٣١١	صنعا - لواء ٩٠ ٨٩ ٨٧ - ٨٥ ٨٠ ٨٠ ٩٠
	٩٤ ٩٤ ٩٧ ١٠٧ ١١٠ ١١٥ ١١٦

- حرف الضاد -

الضالع ناحية ٩٧ ١٩١ ١٩٧ ٢٠١ ٤٢٥ ٤٢٣ ٤١٥

- حرف الطاء -

طرابلس الغرب ١١٣ ٣٨٢	طارق جبل ٣٧٦
الطليان ١١٣ ١١٤ ١٥٢ ٣٣٠	الطائف ٢٨ ٢٨ ٥٠ ٦٠ ٦٧ ٧٠ ٧١ ٢٦٣
الطنم ٢٥٥	٢٩٥
الطود بحجر ٤٢ ٤٣	طرابلس الشام ١٣٣

الطويل (الشيخ غارون) ٢٩٨ ٣٠٢
الطويلة جبل ٣٣٨

طه ١٣٣
الطويل (الشيخ محمد) ٥٢

- حرف الظاء -

ظفار جبل ١١٠ | ظهر القضب جبل ١١٠

- حرف العين -

٩١ ٣٦٩ ٣٧٥ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٨ ٣٩١	عائشة ٣٦١ ٤٠٤ ٤١٣
٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٩ ٤٠٢ ٤٠٤ ٤٠٦	العارض ١٢
٤٠٨ ٤١١ ٤١٢ ٤٢٧	المبادلة قبيلة ٣٨٩ ٣٧١ ٣٢٢ ٣٨٩ ٣٩١
عبدالمجيد (سلطان تركيا) ٣٨٨	٣٩٢ ٣٩٤ ٤١١ ٤١٢ ٤١٩ ٤٢٣ -
عبدية خان ٦٢	٤٢٥
المبرانية ١٨٦	عباس حامي (خديوي مصر) ٤٦ ٤٩
عشارة حصن ٢٣٨ ٢٣٨ ٢٣٩	عبال ١٩٥ ٢٤٢ - ٢٤٦ ٢٤٤ - ٢٥١ ٣٠١
عنبية قبيلة ٢٨	عبدالله بن حسين بن علي (امير شرقي
العنيزة الدوامة ٦٣ ٦٧ ٢٠٧ ٢١٢ ٢٥٨	الاردن) ٢٢ ٥٣ ٥٥ ٦٢ ٦٧ ٧١ ٧٠
٢٩٨ ٣٨٨ - ٣٨٨ ٣٦٩ ٤٠١ ٤٠٢	عبدالله بن الوزير ١١١
العجم - عجبية ٨٤ ١٣١ ١٩٠	عبدالله (الشريف) ٦٢
عدن ١٧ ٢٠ ٢١ ٢٣ ٨١ ٨٣ - ٨٦ ٨٨ -	عبدالحמיד (سلطان تركيا) ٤٦ ٥٠ ٦١
٩١ ٩٣ ٩٥ ١٠٠ ١٠٣ ١٠٤ ١١٠ ١١٣	٦٥
١٢٢ ١٢٣ ١٣٤ ١٣٩ - ١٤١ ١٤٣ -	عبدالعزیز آل فيصل آل سعود (سلطان نجد)
١٤٥ ١٤٧ ١٤٨ ١٥٠ ١٥٥ ١٦٣ ١٦٤	١٦ - ١٩ ٣١ ٥٨ ٧٥ ١١٢ ١٩٣ ٢٠٩
١٦٩ ١٩١ - ١٩٤ ١٩٦ ١٩٨ ١٩٩	٢٦٥ ٢٩٥ ٣٠٢ ٣٢٥ ٣٢٧ ٣٣٧
٢٠١ ٢٠٦ - ٢٠٨ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٧	٣٣٨ ٣٤٠ ٣٤٢ ٣٦٤ ٣٧٢
٢٢٩ ٢٣٩ ٢٤٦ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٦٠ ٢٦١	عبدالقادر العبدلي (السلطان) ٤٣٠
٢٦٩ ٢٧٥ ٢٨٥ ٢٨٧ ٢٩٥ ٢٩٩ ٣٠٤	عبدالقادر بن محسن الفضلي (سلطان شقره)
٣٠٨ ٣١١ ٣١٢ ٣١٧ ٣٢٣ ٣٥٤ -	٤١٩ ٤٢٠ ٤٢٧
٣٥٦ ٣٥٦ ٣٥٨ ٣٥٦ ٣٧١ - ٣٨٤ ٣٨٦ -	عبدالكريم فضل (سلطان لحج) ٨١ ٨٦ -

العوي (الشيخ عبدالنبي) ٤٢٧	٤١٥ ٤١١ ٤٠٦ - ٣٩٨ ٣٩٦ ٣٩٤
العوي عشائر ٤١٥ ٤٢٣ - ٤٢٥	٤١٨ - ٤٢٠ ٤٢٣ ٤٢٣ ٤٢٥
علي (الشيخ ابو بكر) ٤٢٧	عدنان ٢٠ ٢٢٦ ٣٢٠ ٣٧٥
علي بن ابي طالب (الامام) ٦٣ ١٤٤ ١٢٨ ٢٧٨	العراق او الحكومة العراقية - العراقيون
٢٩٤ ٢٩١	٦٧ ١١٢ ١٤٤ ١٦٤ ٢٤٦ ٢٥٣ ٣١٠
علي بن الحسين بن علي (امير مكة) ٦٢	٣٢٣ ٣٧٤ ٣٨٧
٧٠	العرائش بلدة ٢٧٨
علي بن مانع (سلطان الحواشب) ٩٤ ٩٦	العرب تخلت هذه الكلمة أكثر صفحات الكتاب
٩٩ -	
علي بن محسن (داعي المكارمة) ٢٣٩	المرشي (القاضي عبدالله) ٨٨ - ٩٠ ٩٢ -
علي بن محسن (سلطان الواحدي) ٤٢١	٩٤ ١٠٣ ١٠٧ ١٢٣ ١٢٤ ١٦٨ ١٩٨
علي بن محمد بن عبدالمنني بن عون (الشريف) ٦٢	٢٠٨
علي بن الوزير (امير جيش الامام) ٩٤	العرقه بلد ٤٢٠
١٠٢ ١٠٤ ١٠٨ ١٢٧	المريف قرية ٢٣٩
علي رضا (الحاج زينل) ٥٢ ٥١	عزت باشا ١٤٠ ١٤٦ ١٩٢ ٣٩٥
علي رضا (الحاج عبدالله) ٥٤	العزبي عشيرة ٤١٣ ٤١٥ ٤٢٤
عمان ١٩ ٢٢ ١٣٥ ١٤٤ ٢٠٥	عسير ١٨ ١٩ ٢٨ ٧٤ ٧٥ ٩٨ ١٠٥ ١١٧
عمر (الخليفة) ١٤٤	١٤٤ ١٤٧ ١٥٢ ١٦٨ ١٩٠ ١٩١ ٢٠٣
عمر (السلطان صالح بن) ٤٢٧	٢٠٥ - ٢٠٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٤٦
العسري (القاضي عبدالله) ١١٩ ١٢٣ ١٧٥	٢٥٥ ٢٥٨ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٨ ٢٨٣ ٢٨٨
١٧٧ ٢٢٣ -	٢٩٤ - ٢٩٨ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٣ ٣١٧
عنيزة بلد ١٣	٣٣٧ ٣٣٨ ٣٤٥ ٣٤٩ ٣٥١ ٣٥٤ ٣٥٥
العوازل عشيرة ٤١٥ ٤٢٢	٣٦٢ ٣٦٦ ٣٩٧ ٣٧٤ ٣٨٧
العوالق قبيلة ٢٠١ ٣٧١ ٣٩٧ ٤١٥ ٤١٩	عشار جبل ١١٩ ١٤٠
٤٢٢ -	عصر جبل ١٢١ ٢٢٥ ٢٢٦
العواتي (الشيخ محسن بن رويس) ٤٢٧	العطبي عشيرة ٤١٩
العواتي (الشيخ محسن بن فريد) ٤٢٧	العقارب عشيرة ٤١٥ ٤٢٤
عون (الشريف) ٤٠ ٦٢ ٦٣	العقبة ٢٢ ٢٨ ٢٢٠
عون (الشريف محمد بن) ٢٩٥	العقبة (في اليمن) ٣٤٥
	الملا ٥٤

- حرف الغين -

غليوم (امبراطور الالمان) ١٥٥	الغدِير ٣٨٣
نمدان قصر ١٢١ ١٥٠ ١٥٢ ١٧٧	غراي (السيرادوارد) ٧٣ ٧٢
النسيس (من بني قریش) ٣٨	الغزالي (الشاعر) ٢٧٤ ١٣١
غوا ٣٠٨ ٣٠٩	غليفة ميناء ٢٦٣

- حرف الفاء -

فضل بن محمد (سلطان اليراقع) ٤٢٣	الفارسي - الفرس ٥٢ ٢٢٠ ٢٦٦ - ٢٦٨
فضل (السلطان احمد بن) ٣٩٢ - ٣٩٥	٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢
٣٩٧ ٤٠٥ ٤٠٨ ٤١٠ ٤١١ ٤١٣ ٤١٤	الفارص (الشاعر) ١٣١
فضل (الامير) ٤١١	فاس مدينة ٢٧٨ ٢٧٩
فضل الدين (الدكتور محمد) ٢٢٢ -	الفاطمي (العز) ٢٣٨
٢٢٤ ٢٥٧ ٢٦٦ - ٢٦٩ ٢٧١ ٢٧٢	فتحي بك ١٢٩
٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢	الفخري (الفاضي عبدالله) ٢٢٨
٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩	الفرات نهر ٦٨
٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧	فرسان جزيرة ٢٩٩
٣٠٩	فرساي ٥٨ ٥٩
فضل (السلطان علي بن محمد بن) ٣٩٢	فرسا او الحكومة الافرنسية - افرنسي
٣٩٦ ٤٠٤ ٤٠٩	- افرنسيون ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠
٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤	٢٠٤ - ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠
٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠	٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥

- حرف القاف -

القطبي ناحية ١٩٧ ٢٠١ ٤١٥ ٤٢٣ ٤٢٤	قابل (الشيخ سليمان) ٥٢
قمطية ٨٠	قابل (عبدالقادر) ٥٢
القميطي (آل) ٤٢٧	قاسم (ابن الامام يحيى) ١٤٨
القميطي (حزب) ٣١٢	قاسم (الشيخ) ٥٧
القميطي (السلطان عوض بن عمر) ٣١٢	القاهرة ٤٢٢ ٣٩٥ ٤٠٧ ٤١٠
٤٢٧	القحراء ١٩١ ١٩٥ - ١٩٧ ٢٤٦ ٢٥٤
القفائي ٢٧٨ ٢٩١ ٢٩٢	٢٦٣ ٢٦٤
القرم (بحر) (راجع بحر القرم)	قحطان ٢٠ ١٥٩ ١٧٤ ٢٢٦ ٣٢٠ ٣٧٥
قران جزيرة ٤٠ ٤٢ ٤٣ ٣٠٤ ٣١٠	القدس ٦٨
٣٥٨	القرامة ١٤٠ ١٤٥
القفزة ميناء ٢٨ ٢٨ ٢٩٥ ٢٩٩	القرشي (محمد بن هبدان) ١٢
القهوجي ٢٦٩ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٢ - ٣١٤	قريش قبيلة ٢٨ ٣٥ ٣٨ ٢٢٦
٣١٧	القصب ناحية ١٢
القيروان ٢٩٧	قطر ناحية ٢٢
	القطيب ٤٢٤ ٤٢٥

- حرف الكاف -

الكساني ١١	الكاثوايكيون ١٧٣ ١٧٥ ٣٠٨ ٣٢٠
كسرى ٢٧١	كاهل قرية ٢٢٧
الكعبه ١٦ ١٨ ٣٥ ٣٧ ٤٥ ٦٢ ١١٢ ٣٧٢	الكبيسي (احمد بن يحيى) ١٦٣ ١٧٠ -
كفره بلد ٢٩٨	١٧٢ ١٧٦ ١٩٠ ١٩٩ ٢٢٤
كال (مصطفي) ١١٩ ١٢٩ ١٣٦	كثندر (اللورد) ٦٧
كسيون (سفير فرنسا) ٧٣	الكثيري (حزب) ٣١٢
الكوفة ١١ ٢٦٦	كرد علي (محمد) ١٤
كوكبان جبل ٢٣٠	كرزن (لورد) ١٣٦
الكويت ٣٧٢ ٣٧٥	كرايل (طامس) ١٠
	كروس (متصل اميركا) ٤٠٤ ٤٠٦ ٤٠٧

- حرف اللام -

اللاجبة ميناء ١٦٨ ١٩٢ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٢٠	لاروك ٢٧٢ ٢٧٥ - ٢٧٧
٢٣١ ٣٠١ ٣٤٠ ٣٤٧ - ٣٤٩	لاهور مدينة ٢٦٧
لقم جبل ١١٩ - ١٢١ ١٢٦	لبنان - لبناني - لبنانيون ٩ ٢٤ ١٠٤
لكسبور ٤٢٥	١٠٧ ١١٠ ١١٩ ١٢٢ ١٣٠ ١٣١ ١٣٤
اللكمة قرية ٢٣٩	٢٢١ ٢٢٩ - ٢٣١ ٢٥٤ ٢٦٧
لندن ٥٤ ٥٩ ٦٠ ٧٢ ٧٣ ٨٧ ١٩٦ ١٩٨	لمح او السلطنة اللاجبية - لمحجي - لمحجيون
٢٠٧ ٢٣٥ ٢٤٠ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٩٨	٨١ - ٨٣ ٨٦ ٨٧ ٨٩ - ٩٦ ٩٧ ٩٨
لورنس (الكرنل) ٤٢ ٦٨	١٠٣ ١٠٨ ١١٩ ١٤٠ ١٤٥ ١٤٧ ١٦٣
لوزان ٣٨٧ ٣٨٦	١٩١ ١٩٢ ٢٠١ ٢٠٨ ٢٤٦ ٢٤٧ ٣٠٢
الليث بلد ٥٨	٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٩ ٣٨٤ ٣٨٦ ٣٨٨
لينه وادي ٥٠	٣٩٣ - ٣٩٥ ٣٩٧ - ٤٠٥ ٤٠٧
	٤١٥ ٤١٧ ٤١٩ ٤٢٤ ٤٢٥

- حرف الميم -

٤٢٧ ٤٢٢	١٤٨ مارب
محسن بن علي بن مانع (سلطان المواسب)	ماروني - مرارة ١٠٣ ٢٦٧
٤٢٧ ٤٢٤	ماسينيون (لويس) ١٨٤
محسن (السلطان فضل بن علي بن) ٣٩٢	مالي - مالكيون ٢٦٧
٣٩٧ ٣٩٤	ماوية قرية ٨٠ ٨٩ ٩٠ ٩٣ - ٩٥ ١٠٨
محسن (الشيخ محمد علي) ٤٢٧	١١٠ ١١١ ١٣٠ ١٥١ ١٨٨ ٢٢٢ ٢٢٤
محمد بن ابو نجي ٦٢	٢٣٧ ٤٠٠ ٤٠١
محمد بن عبدالمعين بن هون (الشريف)	المتني ٤٤
٢٩٥ ٦٢	متنة قرية ٢٢١ ٢٢٨ ٢٣٣
محمد علي باشا ٣٨٦ - ٣٨٨	متوح حصن ٢٣٩
محمد (النبي) ١١ ١٢ ٣٨ ٥٦ ٦٤ ١٠٤	المجيدري ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٩٠ - ٢٩٢
١٤٤ ١٤٨ ١٨٦ ٢٢٣ ٢٢٨ ٢٧٥ ٢٨٣	محسن (الشريف) ٧٠
٢٨٥ - ٢٢٦ ٢٤٢ ٢٤٧ ٢٥١ ٢٥٦	محسن بن علي (سلطان الشوافع السفلى)

مضايه قرية ٣٤٤	٤٢١ ٤١٥ ٤١٣ ٣٦١
مضر قبيلة ٢٠	محدية طريقه ٢٨٥
المطحلة قرية ٢٥٢	المحا ميناء ١٤٤ ٨٠ ١٩٢ ٢٠٣ - ٢٠٥
المغرب بلاد ١٥٦ ٢٧٨ ٢٨٢ ٢٨٥ ٢٩٥	٢٩٦ ٢٩٥
٢٩٨ ٢٩٧ ٣٠٠ ٣١٧ ٣١٢ ٣٨٢	الدينه ١٢ ٢٨ ٢٢ ٥٥ ٦٤ ٦٧ ٦٨ ٧٠
مفتح وادي ٢٢١ ٢٢٩ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٧	٣٢٦
المطحي (الشيخ عبدالرحمن) ٤٢٧	مراكش ٣٤٥
مقيل (نقيب حسن بن) ٣٢٨	المراكشي (الحاج محمد) ٣٤٥ - ٣٤٣
المكارمة (فرقة من الاسماعيليه) ٨٠ ٢٣٦	٣٤٦
مكة ١٢ ١٦ ٢٨ ٢٩ ٣٤ ٣٥ ٣٩ - ٤١	مراوغة بلد ٢٨٧ ٣٤٣
٤٣ - ٤٦ ٤٩ ٥٤ ٥٥ ٥٧ ٦١ ٦٢ ٦٤	مرسين ٦٨ ٧٣
٦٦ ٦٧ ٧٠ ٧٢ ١١٢ ١٥٧	المرغفي (احمد) ٢٧٥
٢١٠ ٢١٤ ٢٦٦ ٢٧٨ ٢٨١ ٢٨٦	المرغنية طريقه ٢٧٥
٢٩٥ ٢٩٧ ٣٠٢ ٣٢٦ ٣٢٦ ٣٩٤ ٤٠٧	المرغد وادي ١٠٥ ١١٠
المكسيك ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٥٣ ٢٥٣	مروان وادي ٤٢٢
مكلا (في حضرموت) ٢١ ٤١٢ ٤٢٧	مسار جبل ٢٣٨
مكاهون (السر آرثور) ٦٧ ٦٩ ٧١ ٧٢	المسارحة قرية ٢٢٠
ملحان جبل ٢٣٧	مسقط ٢١ ٢٢
مناخه مدينة ٨٠ ١١٩ ١٩١ ٢٢٢ ٢٢٢	المسيح (السيد) المسيحيون ١٣٠ ١٣١
٢٢٨ - ٢٣٥ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٤٢ ٢٤٣	١٣٥ ١٥٨ ٢٦٩ - ٢٧١ ٢٩٣ ٣٢٣
٢٤٧ ٢٤٨	٣٧٧ ٤٠٥
المقل قرية ١١٠	السيدية قرية ٩٢ ٩٤ ٩٦ ٩٧ ٩٧ ١٠٠ ٣٧١
المنصور (الامام) ١٤٠ ١٤٥ ١٤٧ ١٤٨	٣٩٤ ٤٢٤
٣٩٤	مصر - مصري - مصريون ١٤ ٢٣ ٢٣ ٤٢
المنصون ٢١	٥٦ ٦٧ ٦٩ ٧١ ٧٦ ٨٢ ٨٦ ٨٨ ١٢٥
المنفلوطي (مصطفى) ٣١١	١٣٥ ١٦٤ ١٧٠ ٢٤٩ ٢٥٤ ٢٥٧ ٢٦١
مهدي بن علي (السلطان) ٤١١ ٤١٤	٢٦٢ ٢٦٧ ٢٨١ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٧ ٢٩٨
مواهب قرية ١٣٤ ١٣٤	٣٠٠ ٣٠٢ ٣٠٤ ٣١١ ٣١٧ ٣٨٧ ٣٩٢
مؤتمر لندن ٣٨٧	٣٩٥ ٤٠٧ ٤١١
مؤتمر لوزان ٣٨٦ ٣٨٧	مصوغ مدينة ٣٨١ ٣٨٢

الوكد ٣٤٩	مور نحر ١٢١
ميدي مينا ٨٠ ١٦٨ ٢٢٠ ٣٠١ ٣١٢	موسه وادي ٢٣٧
٣١٧ ٣٤٣ ٣٤٠ ٣٤٩ ٣٥٤ ٣٥٧ -	موسى (بن يحيى جبران) ١٤٤
٣٦٠	الموصل ٦٨ ٧٣

- حرف النون -

غلان وادي ١٠٥ ١٠٧ ١٢١	ناصر (الشريف) ١٧١ ٢٨٣
نديم (محمود بك) ١٣٤ ١٩٢ ١٩٦	ناصر (ابو بكر بن) (سلطان الموالق
القرابية (فرقة من الايعاميلية) ٢٣٨	السفلى) ٤٢١ ٤٢٧
النصارى ١٨٢ ١٨٣ ١٨٥ ٢٧٠ ٢٧١	ناصرية ٢٨٣
نصيف (الشيخ محمد) ٥١	النبي شبيب جبل ٢٢١ ٢٢٤ ٢٢٧ ٢٣٧
النماني (عارف) ٥٣ ٥٤	نجد ، البلاد النجدية ١٤ ١٧ - ٢٠ ٢٢ ٥٥
النفود ١٣ ١٤	٥٨ ٧٤ - ٧٦ ١٩٢ ١٩٢ ٢٠٩
النساوي ١٤٨ ١٥٤	٢٣٩ ٢٤٦ ٢٠٢ ٢٠٥ ٢٢٧ ٢٣٤ ٢٣٧
نوبة الهراني قرية ٤٠٤	٢٣٨ ٢٤٠ ٢٤٣ ٢٦٧ ٢٩٨
نيويورك ٩ ١٠ ١٢ - ٢٠ ٢٩ ٣٣ ٨١	نجد الاحمر (بقعة ارض) ١٠٧
٨٢ ٨٨ ٩١ ١٢٥ ٢٣٥ ٢٣٨ ٢٤٠ ٢٤٠ ٢٤٠	نجران ٨٠ ١٨٦ ٢٣٩
٣٢٢	النجف - النجفي ٦٣ ١٤١ ١٨٤

- حرف الهاء -

٢٦٦ - ٢٧١ ٢٩٨ ٣٠٨ - ٣١٥ ٣١٥	الهاشمي - الهاشمية ١٥ ٢٥ ٢٧ ٢٨ ٤٢ ٤٣
٣١٩ ٣٢٠ ٣٢٤ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٧ ٣٨١	٥٢ - ٥٥ ٥٨ ٥٩ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٧٢ ٧٥
٣٨٣ ٣٨٣ - ٣٨٦ ٣٨٩ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٥	٧٦ ١٣١ ١٣٢ ٢٠٤ ٢٦٧
٣٩٦ ٣٩٩ ٤٠١ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٧ -	هاي (الزيان) ٢٠٩ ٢١٣ ٢١٧
٤٠٩ ٤١٢ ٤١٨ ٤٢٣ ٤٢٧	الحجرة قرية ٢٣٨
الهندوس ٢٢٠ ٢٢٦ ٢٦٨ - ٢٧١ ٢٢٥	عمدان جبل ١٥٩ ٢٣٩
٢٧١	الهندالي (حسن بن احمد) ١٥٩
هوفارث (الكرنل) ٦٨	الهند او الحكومة الهندية - الهندوس ٢٠ ٢١
هينس (القائد) ٣٧٤ ٣٨٨	٢٣ ٤٠ ٤٢ ٨٤ ٩٤ ١١٣ ١٢٤ ٢٣٨ ٢٣٣
	٢٣٩ ٢٤٧ ٢٤٩ ٢٥٤ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٦١

- حرف الواو -

وسل جبل ٢٣٥ ٢٣٧ - ٢٣٩ ٢٤١ ٢٤٨	وادي الدين ٣٠١
وصاب بلد ٢٨٦	الواحدى عشيرة ٤٢٢ ٤٢١ ٤١٥
وعلان قرية ١١٩ ١٢١	واشنطون (جورج) ١٣٠ ١٣٦ ٣١٥ ٣٢٠
الولايات المتحدة ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٦	واشنطون العاصمة ٨٣ ٨٧
ونجت (رودجبلد) ٦٧ ٧١	وثني - وثنيون ٢٦٧
وماي - الوماية - ومايون ٥٨ ٢٨٢ ٢٩٤	وجنام وادي ٢٤١
٣٠٥ ٣٠٥ ٣٢٠ ٣٢٢ ٣٢٢	الوجه ميناء ٢٨ ٥٤
الوهط قرية ٤٠٠	وزوه جبل ٩٤ ٩٥

- حرف الياء -

اليمن - يفي ١٧ ١٩ ٣٠ ٤٠ ٤٧ ٧٤ ٨٠ -	اليابان ٣٢١ ٣٨٠
٨٨ ٨٦ - ٩٤ ٩٢ - ٩٨ ١٠٠ - ١٠٣ -	اليافع - البواقع قبيلة ٢٠١ ٣٧١ ٣٨٣ ٣٩٧
١٠٥ - ١٢٠ ١٢٠ - ١٢٤ ١٢٦ - ١٢٩ -	٤٢٥ ٤٢٣ ٤٢٢ ٤١٨ ٤١٧ ٤١٥ ٤٠١
١٣٥ ١٣٧ ١٤٠ ١٤٢ - ١٤٦ ١٤٧ -	يام قبيلة ٢٣٩
١٤٨ ١٥٠ ١٥١ ١٥٣ - ١٥٥ ١٥٨ -	يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله (امام
١٦٦ ١٦٧ ١٧٠ ١٧١ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٢ -	اليسن) ١٨ ١٩ ٧٨ ٧٩ ٨١ ٨٨ ٨٦
١٨٥ ١٨٨ - ١٩٢ ١٩٣ - ١٩٧ ٢٠٠ -	٨٩ ٩١ ١٠٦ ١١٢ ١١٤ ١٣١ ١٣٤
٢٠٢ ٢٠٨ ٢١٠ ٢١٣ ٢٢٠ ٢٢١ -	١٢٣ ١٤٥ - ١٤٨ ١٥١ ١٥٩ ١٦١
٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٨ - ٢٣٢ ٢٣٢ - ٢٣٤ ٢٤٢ -	١٧١ ١٧٦ ١٧٨ ١٩٢ ١٩٦ ١٩٧ ٢٠٠
٢٤٤ - ٢٤٦ ٢٤٨ ٢٥١ - ٢٥٥ ٢٥٨ -	٢٠١ ٢٠٤ ٢٠٦ ٢١٠ ٢١١ ٢١٥
٢٦٣ - ٢٦٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٩٥ ٢٩٦ -	- ٢٢٢ ٢٤٢ ٢٥٥ ٢٦٤ ٢٦٥ ٣٠٢ ٣٢٣
٣١٥ ٣٢٧ ٣٣١ - ٣٣٤ ٣٤٥ ٣٤٩ -	٣٢٥ ٣٢٧ ٣٣١ ٣٣٦ ٣٣٦
٣٥١ ٣٥٦ ٣٦٠ ٣٦٢ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٧٣ -	٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٧ ٣٧١ ٣٨٠ ٣٩٤ ٣٩٥
٣٧٥ ٣٧٦ ٣٨٤ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٩٤ ٣٩٤ -	٣٩٩ ٤٠١ ٤١٥ ٤٢٤ ٤٢٥
٣٩٨ ٤٠١ ٤٠٣ ٤٠٥ ٤١٢ ٤١٢ -	برج مدينة ١٠٥ ١١٠ ١١١ ١١٩ ١٢١
٤١٩ ٤٢١ ٤٢٥ ٤٢٦ -	١٥١ ٢٢٢ ٢٢٢
يشبع ميناء ٢٨ ٥٤ ٥٨	يشبوم بلد ٤٢٠ ٤٢١

٤٠٦	بني (قسطنتين) ١٥ ١٧ ٢٩ ٤٤ ٤٦ ٤٧
١٦٩ ١٥٤ ١٥١ ١٥٠ ٨٠ - يهود - يودي	١٠٦ - ١٠٤ ٩٩ ٩١ ٩٠ ٨٨ ٨٣ ٥٣
٢٣٩ ٢٢٠ ١٨٧ ١٨٦ ١٨٤ - ١٨٢	١٦٨ ١٦٦ ١٥٦ ١٣٨ ١٣٤ ١٣٣ ١١٢
٢٧٧ ٢٧٦ ٢٧١ ٢٧٠	٢١٥ ١٩٠ ١٨١ - ١٧٨ ١٧٣ - ١٧٠
٢٥٤ (بن يعقوب) يوسف	٢٦٥ ٢٦٣ ٢٠٤ ٢٤٠ ٢٣٣ ٢٢٩ ٢٢٤



BOBST LIBRARY
3 1142 02821 6565



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

